بسم الله الرحمن الرحيم
مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاةً وسلاماً على الرسول الكريم محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ومن سار على دربه والتزم بشرعه إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه دراسة عن البيئة من منظور إسلامي أقدمها لمجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورته التاسعة عشرة التي ستنعقد في الشارقة باستضافة كريمة من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة، حاكم الشارقة، حفظه الله تعالى ورعاه، في الفترة من ٢٦ إلى ٣٠ أبريل ٢٠٠٩.

وأصل هذه الدراسة كنت قد أعددتها عن الأُسس والتعاليم الإسلامية للتعامل مع موارد الأرض، وقدمتها إلى اللقاء الحواري الإسلامي المسيحي الذي عقد في روما بعنوان «الدين واستخدام موارد الأرض» في الفترة من ١٧ إلى ٢٠ أبريل ١٩٩٦، والذي عقد بالتعاون بين مؤسسة آل البيت في المملكة الأردنية الهاشمية والمجلس البابوي للحوار بين الأديان في الفاتيكان.

وقد استعرضت في تلك الدراسة الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بهذا الاستخدام، كما بينت أبرز الممارسات التاريخية الإسلامية في هذا المجال... وقد كان الهدف من اللقاء تقديم معالجات إسلامية متميزة في مجال التعامل مع موارد الأرض لتحقيق خير الإنسان ومصلحته في المجتمعات الإنسانية المعاصرة.

والواقع أن موضوع التعامل مع موارد الأرض شغل الإنسان منذ القديم، واهتم به أيما اهتمام... فقد كان التعامل معها قضيته الأولى،

فمن الأرض كان خلقه وعليها كان استخلافه، وفيها كان دفنه بعد موته، ومن أجل تنظيم حياته عليها وهدايته وتوجيهه وإدارة شؤونه وإصلاح أحواله تتابع الرُسل والأنبياء، وقام المصلحون والمفكرون، ونشأت الأديان والمذاهب والنُظم، وقد تعددت نواحي هذا الاهتمام الإنساني، وتنوعت أنواع هذا الانشغال البشري... وتجسد ذلك في عدة علوم عبر التاريخ الإنساني، وقد تعددت هذه العلوم بتعدد المجالات التي اهتمت بها: فإن كان دراسة مباشرة للظواهر الكونية والأرضية فنحن أمام علم الجغرافيا والعلوم الطبيعية على اختلاف أنواعها كالفيزياء والكيمياء والأحياء... وإن كانت دراسة للظواهر الكونية نجوماً وكواكب ومجرات (ومكان الأرض بينها واضح) فنحن أمام علم الفلك، وإن كان حديثاً عن المجتمع الإنساني على هذه الأرض فنحن أمام علم الاجتماع... وإن كانت دراسة لكيفية استخدام موارد الأرض في إشباع حاجات الإنسان، وحل مشكلاته في الندرة النسبية للسلع والخدمات بهدف التمكين من أن تقوم الموارد المحدودة من تلبية طلبه وحاجاته المتزايدة فنحن أمام علم الاقتصاد. وكان لكل علم من هذه العلوم فروع عديدة باختلاف درجات الاهتمام ونواحيه في هذه المجالات الرحبة.

وواضح أن كل هذه العلوم تهتم بالبيئة من ناحية أو أخرى، وهذا إذا قصدنا بالبيئة مجموع الظواهر الكونية والاجتماعية والبشرية المحيطة بالإنسان... فالبيئة ذلك المحيط الذي يعيشه الإنسان بكل أبعاده. ذلك أن البيئة لغة من الفعل بوأ وتبوَّأ منزلاً إذا نزله وبوأه له إذا هيأه له ومكّنه فيه[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2]، وقوله ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3]. فجزاء فعلته هذه أن تكون البيئة المعدة له بعد الموت هي مقعد في النار.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور: ٣٨/١، ٣٩.

(٢) الحشر: ٩.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

وقد تعددت الآيات الكريمة التي جاءت بهذا المعنى، ومنها قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾[2]. ومن هذا قوله جل من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾[3]. والبيئة كما تشمل البُعد المكاني والمادي تشمل البُعد المعنوي وغير المادي، قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[4].

ونحن في هذا البحث لا نعالج نظرة الإسلام في موضوع البيئة بهذا الشمول والتنوع، كما لا نريد أن نبحث في موضوع موارد الأرض من جميع جوانبه، إنما نريد أن نهتم بخمسة أمور في هذه المجالات المتعددة:

الأمر الأول: توضح النظرة الإسلامية الشمولية للكون والحياة والتي تحكم مواقفه من مختلف القضايا المطروحة في هذه المجالات.

الأمر الثاني: استعراض اهتمام الإسلام بمكونات الأرض ومواردها المتعددة، وحرصه على تنظيم جميع العلاقات التي تقوم بين الإنسان وهذه المكونات والموارد، أي مع البيئة التي تحيط به بمعناه الواسع.

الأمر الثالث: التركيز بإيجاز على بيان القواعد وأهم الأحكام التي تنظم علاقة الإنسان مع البيئة الطبيعية، بل والمجتمع الإنساني كله.

والأمر الرابع: بعض صور التطبيق التاريخي للأُسس والمبادئ والأحكام في التعامل الإنساني مع موارد الأرض.

والأمر الخامس: نستعرض فيه موضوع البيئة في التشريعات التي تصدرها الدول لتنظيم شؤونها، وكذلك نلم بموضوع: البيئة في

---

(١) الأعراف: ٧٤.
(٢) يوسف: ٥٦.
(٣) العنكبوت: ٥٨.
(٤) النحل: ٤١.

المؤتمرات والقرارات والاتفاقيات الدولية والإقليمية وبخاصة في قرارات منظمة المؤتمر الإسلامي والمؤسسات التي تعمل في إطارها، كل ذلك بهدف بيان حكم الإسلام في معالجة موضوع البيئة من الناحية العملية التطبيقية.

والواقع أن الاهتمام بموضوع البيئة اهتمام حديث نسبياً في المجتمعات البشرية، وذلك بعد استفحال مشكلات التلوث البيئي والاستخدام الجائر للموارد الطبيعية بعدما حدث من تقدم صناعي ونمو سكاني عشوائي أدى إلى اعتداء على هذه الموارد نتيجة الحرص على مصالح محددة ضيقة يحركها الجشع والاستغلال والإثراء على حساب الآخرين دون ملاحظة لأي اعتبارات إنسانية أو أخلاقية.

ومن الجدير بالذكر قبل دراسة هذه الأمور الخمسة الإشارة إلى أن بعض المهتمين بهذه الموضوعات قد يظنون أن الاهتمام بقضايا التعامل مع موارد الأرض ومكونات البيئة قضايا حادثة وهموم خاصة بالمجتمع الإنساني المعاصر، ولا مجال للحديث عن موقف إسلامي فيها، وأن محاولة معالجتها من وجهة نظر إسلامية قائمة على التكلف والوعظ الأخلاقي العام.

والواقع أن هذا البحث سيقدم في موضوعاته الرئيسة دليلاً قاطعاً على معالجة إسلامية متميزة لهذا الموضوع تنطلق من نظرة راسخة للكون والحياة والإنسان تقوم عليها هذه المعالجة ... بل إن التطبيق التاريخي قدم معالجات أصيلة لكثير مما يندرج تحت هذه الموضوعات، وإن كان الأمر يتعلق بحالات وصور قد تبدو بسيطة لأنها تنسجم مع واقع المجتمع الإنساني ونموه العمراني في تلك الأيام... ولكنها تؤكد عمق النظرة وأصالة المعالجة، وإننا نستطيع ورغم ما حدث من تقدم عمراني وتكنولوجي للمجتمع الإنساني أن نستهدي أولاً بالمبادئ الشمولية والأحكام المقررة في هذا المجال في الشريعة الإسلامية، ونقيس على الصور التطبيقية والمسائل الفقهية التفصيلية التي عرضها تاريخنا الحضاري المشرق عبر مسيرته الطويلة.

وفيما يلي معالجة للأمور السابقة تباعاً في سبعة مباحث: أخصص الأربعة الأولى للأمور الأربعة السابق استعراضها، وأخصص الثلاثة مباحث الأخرى للأمر الخامس لتعدد المحاور المتعلقة به كما يلي:

- **المبحث الأول**: نظرة الإسلام للكون والحياة والإنسان.
- **المبحث الثاني**: اهتمام الإسلام بمكونات الأرض ومواردها.
- **المبحث الثالث**: القواعد والأحكام الناظمة لعلاقة الإنسان مع موارد الأرض:

- المطلب الأول: القواعد والأحكام المتعلقة بالاستخدام الأمثل للبيئة وحمايتها من التلوث.
- المطلب الثاني: القواعد والأحكام المتعلقة بالتوازن البيئي ومنع الاستخدام الجائر للموارد.

- المبحث الرابع: التطبيق التاريخي للأسس والمبادئ والأحكام المتعلقة بتعامل الإنسان مع موارد الأرض ومكونات البيئة.
- **المبحث الخامس**: البيئة في المؤتمرات والقرارات والاتفاقيات الدولية والإقليمية.
- **المبحث السادس**: البيئة في التشريعات التي تصدرها الدول لتنظيم شؤونها.
- **المبحث السابع**: البيئة في قرارات منظمة المؤتمر الإسلامي والمؤسسات التي تعمل في إطارها.

❋ ❋ ❋

المبحث الأول
نظرة الإسلام للكون والحياة والإنسان

الناظر في الآيات الكريمة التي عنيت بعرض نماذج من مظاهر الكون المختلفة يستطيع أن يلمس بوضوح نظرة الإسلام العامة للوجود، وتصوره الكامل للحياة الإنسانية... تلك النظرة، وذلك التصور الذي يصح وصفهما بأنهما نظرة الإسلام وتصور الإسلام، لأن حقائقهما تقوم على الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة... ذلك أن أية فكرة لا تصح نسبتها إلى الإسلام إلا إذا كان لها من الأدلة الشرعية ما يبرر هذه النسبة... وإن من أهم ما يميز هذا الدين أن له نظرة شاملة للوجود والحياة والإنسان... كان لها أكبر الأثر في جميع اتجاهاته الخلقية وفي كل قواعده التشريعية... وهي نظرة كاملة تفسر كل ما يتعلق بالحياة الإنسانية، وتوضح حقائق الوجود المتعددة، وتجيب على جميع التساؤلات التي تخطر في ذهن الإنسان حول وجوده وأبعاد هذا الوجود، وهي نظرة تختلف عن كل ما عرفت البشرية من نظرات وتصورات لهذا الوجود في القديم والحديث، وهي في إطار هذا البحث ترسم معالم الموقف الإسلامي في نظرته إلى موارد الأرض ومكونات البيئة، وتنظيمه لمختلف صور العلاقة بها.

ويمكننا إيجاز هذه النظرة فيما يلي:

(١) إن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون بكل ما فيه، فهو مبدعه ومصوره وهو مالكه، وهو بالتالي الحاكم فيه بما يشاء، فله وحده السلطان القاهر على ما خلق إيجاداً وإعداماً، إنهاءً وإبقاءً، إحياءً وإماتةً، تنظيماً وتقييداً، تعذيباً وإثابةً... قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[1]. وعلى

(١) المائدة: ١٧.

ضوء هذا يجب على الإنسان الالتزام بالقواعد التي قررها سبحانه لضبط تعامله مع الكون بكل صوره وأبعاده.

(٢) واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يستخلف الناس في الأرض... وقد هيأ لهم بكرمه وفضله كل ما يضمن قيامهم بواجباتهم ليؤدوا فيها هذا الاستخلاف خير أداء، وذلك في إعمار الأرض وتحقيق العبودية الكاملة لله فيها. ويظهر جلياً من حديثنا عن نظرة الإسلام للوجود والحياة والإنسان، مركز الإنسان في الكون، ونوعية الصلات والعلاقات التي يجب أن تقوم بينه وبين الإنسان في أدائه لواجب الاستخلاف في إعمار الأرض، وتحقيق العبودية الكاملة لله العلي العظيم... فقد شاء الله سبحانه أن يستخلف الإنسان في الأرض، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وقال جل من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[3]، وقد هيأ الله سبحانه وتعالى هذه الأرض للإنسان ليمارس فيها واجب الاستخلاف، وجعل فيها من الموارد ما يمكّن الإنسان من إقامة حياته عليها خير إقامة، قال عز وجل: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[4].

وهذا الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض ليس استخلافاً مطلقاً... بل بيّنت الشريعة أصوله، وحددت قواعده فلم يترك أمر الناس على هذه الأرض دون تنظيم، فهو مقيّد بقيود حددت مداه وكيفيته، وأوضحت كل ما يتعلق بتعامل الإنسان مع الكون، وتعامل الناس بعضهم مع بعض... فالمستخلفون ليسوا أحراراً في التصرف فيما

---

(١) الأنعام: ٢٥.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) الحديد: ٧.
(٤) فصلت: ١٠.

استخلفوا فيه، كيف يشاؤون... فهم لم يخلقوا، ولم يستخلفوا في الأرض، إلا ليعبدوا الله سبحانه حق عبادته... فيلتزموا بكل ما أمر، وينتهوا عن كل ما نهى... وإلا فهم لم يحققوا شروط الاستخلاف، ولم يعودوا أهلاً له... فعليهم أن يحفظوا حدود الله فيما استخلفوا فيه... فلا يقصروا في انتهاج السنن التي وضعها مالك السماوات والأرض، ولا يتقاعسوا عن سلوك الطرق التي بينها وحددها لتحقيق معنى استخلافهم في الأرض، ولا يمتنعوا عن الالتزام بكل ما شرع، أداء لواجب عبادته وشكره سبحانه.

قال القرطبي عند تفسير هذه الآية إنها «دليل على أن أصل الملك لله سبحانه، وأن ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله، فيثيبه على ذلك بالجنة، فمن أنفق منها في حقوق الله، وهان عليه الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذ أذن له فيه، فإن له الثواب الجزيل، والأجر العظيم»، ثم قال: «وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النواب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم»[1].

وفي روح المعاني عند تفسير هذه الآية: «إنما جعلكم سبحانه خلفاء عنه عز وجل في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، وعبّر جل شأنه عما بأيديهم من الأموال بذلك تحقيقاً للحق، وترغيباً في الإنفاق... فإن من علم أنها من الله، وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفها إلى ما عيّنه الله من المصارف، هان عليه الإنفاق»[2].

وفي تفسير الكشاف: «يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما نولكم إياها، وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب»[3].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٣٨/١٧.

(٢) روح المعاني: ١٦٩/٢٧.

(٣) تفسير الطبري: ٣١٧/٢٧.

وفي تفسير ابن كثير: «مما جعلكم مستخلفين فيه: أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي الناس من قبلكم، ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفتم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه»[1].

وهكذا يظهر أن ما بأيدي الناس من أموال وموارد هو مال الله سبحانه استخلفهم فيه ومنحهموه وخولهم إياه، فهم ليسوا أُصلاء فيه ولا أصحاب حق طبيعي في تملكه، بل هو هبة ونعمة من الله سبحانه[2].

والدارس للأحكام المنظمة لعلاقة الإنسان مع الكون على أساس هذا المبدأ يلاحظ أن قدراً منها يتعلق بالمحافظة على البيئة والتعامل معها، والاستفادة من موارد الأرض بما يحقق له حياة كريمة هانئة مستقرة بعيداً عن الإسراف والتبذير والترف، وبمنأى عن التقتير والبُخل والعزوف عن الدنيا، كما سنرى تفصيلاً في هذا البحث. وهذا المبدأ يؤصل عقدياً في ذهن المسلم ووجدانه وسلوكه أن الالتزام بالقواعد الضابطة لتعامل الإنسان مع البيئة بمعناها الشامل داخلة في مفهوم الاستخلاف هذا وفي مفهوم العبادة بمعناها الشامل.

وهذا الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض ليس استخلافاً دائماً بل هو استخلاف موقوت بمدة حددها الله سبحانه عندما قدر آجال الناس على هذه الأرض في حياتهم الدنيا عليها، وجعل هذه الحياة حياة زائلة لا محالة، وهي محط اختبار الإنسان وابتلائه طريقاً لحياته الأخرى بعد موته، حيث سيقرر مصيره فيها على ضوء ما قدم في حياته الدنيا على هذه الأرض... قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[4]. ومن هنا يجب أن يستقر في كيان الإنسان أن ما يقوم به في التعامل مع البيئة

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣٠٥/٤.
(٢) انظر الملكية في الشريعة. الدكتور عبد السلام العبادي: ٤٠١/١.
(٣) مريم: ٤٠.
(٤) البقرة: ٣٦.

من ممارسات وسلوك سيحاسب عليه بين يدي الله سبحانه وتعالى تعميقاً وتأكيداً لضرورة الالتزام بالقواعد والضوابط المقررة لتعامله مع البيئة بكل أبعاده.

(٣) الإنسان مخلوق مكرم خلقه الله في أحسن تقويم، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾[3].

ولقد بيّنت الآيات القرآنية أن الله خلق الإنسان، وركبه هذا التركيب... ليؤهله لأداء ما أعده له من مسؤوليات، وكلفه به من واجبات على هذه الأرض، فتعددت جوانب الطبيعة الإنسانية وتنوعت، فمزج في تركيبه بين جانب الروح وجانب المادة ... قال جل جلاله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[5].

وقد أكرم الله هذا الإنسان بالعقل، وعلّمه ما لم يعلم وهيأ له من الوسائل ما يمكّنه من العلم والمعرفة ... قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[6]. وقد بيّن العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية أن المراد بها أنه علّمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها، قال سبحانه:

---

(١) الإسراء: ٧٠.
(٢) التين: ٤.
(٣) الانفطار: ٧، ٨.
(٤) السجدة: ٧ ـ ٩.
(٥) ص: ٧١، ٧٢.
(٦) البقرة: ٣١.

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1]، وقال جل من قائل: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾[2].

وذكرت الآيات الكريمة وسائل المعرفة التي أنعم الله بها على الإنسان والتي تستوجب منه الشكر لله سبحانه... قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾[3]. فالسمع والأبصار والأفئدة هي طُرق الإنسان في تلقي العلم والمعرفة، ووسائله في الانتقال من مرحلة الجهل التام بعد الولادة إلى مراحل الترقي في درجات العلم والمعرفة والاطلاع.

مما مر يتضح أن الإنسان في النظر الإسلامي جسم وعقل وروح، ولكل جانب من هذه الجوانب متطلباته وحاجاته التي لا بد أن تشبع وتلبى ليتمكن الإنسان من أداء واجبات الاستخلاف الإلهي على الأرض... ومن هنا قامت مختلف النُظم الإسلامية بتنظيم الحياة البشرية على أساس مراعاة هذه الفطرة الإنسانية المتعددة الجوانب المتناسقة النواحي، فعاش الإنسان في ظلالها بسعادة وطمأنينة وأمن: ذلك أن النُظم التي تكتب لها الحياة في تنظيم الواقع الإنساني، والتي تحقق السعادة والراحة والطمأنينة للإنسان هي النُظم التي تنظر إلى الإنسان نظرة تُلاحظ فيها فطرته... وهذا من جملة الأمور التي تتميز بها النُظم الإسلامية عن غيرها من النُظم القديمة والحديثة. وهذا يدفعه لنمط من التعامل مع البيئة دون إفراط أو تفريط، ومع حرص بالغ على الاستفادة من معرفة علمية متاحة أو يمكن الحصول عليها.

(٤) إن هذا الكون الواسع بمظاهره المختلفة، مجال رحب لتفكير الإنسان وتأمله وتدبره، وبحثه واستقصائه ودرسه... قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[4]. وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ

---

(١) العلق: ٣ ـ ٥.
(٢) الرحمٰن: ٣، ٤.
(٣) النحل: ٧٨.
(٤) الأعراف: ١٨٥.

﴿يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدعو الإنسان إلى التفكير والنظر والتدبر في مظاهر الكون المختلفة.

وهذه الآيات الكريمة دعوة صريحة واضحة ليقوم الإنسان ببذل غاية وسعه في البحوث والاكتشافات العلمية في جميع المجالات... والواقع أن هذه الآيات هي التي وضعت أُسس المنهج التجريبي الذي يقوم على الملاحظة والتجربة من أجل الوصول إلى الحقائق في مختلف العلوم الكونية... ومن المعلوم أن إثراء هذه العلوم التجريبية وتوسعها كان نتيجة لاعتماد هذا المنهج في البحث، وإليه يعود الفضل فيما تتمتع به البشرية من تقدم علمي زاهر... ولقد استفادت الحضارة الحديثة هذا المنهج من الحضارة الإسلامية كما بيّن كثير من العلماء الغربيين أنفسهم. يقول بريفولت في كتابه (بناء الإنسانية): «إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا لسميه ـ فرنسيس بيكون ـ الذي جاء بعده الحق في أن يُنسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي. فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رُسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية. وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلم العرب، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة. والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي، هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً، وانكب الناس في لهفة على تحصيله في ربوع أوروبا». والقسم الخامس من كتابه الذي خصصه للبحث في البصريات هو في الحقيقة عبارة عن نسخة من كتاب (المناظر) لأبي علي الحسن بن الهيثم العالم العربي المتوفى سنة ٤٣٠هـ (١٠٣٣م)[2].

---

(١) يونس: ١٠١.

(٢) تجديد الفكر الديني في الإسلام. إقبال: ص١٤٩؛ الإسلام ومشكلات الحضارة. سيد قطب: ص٣٣.

وقد أوضحت كثير من الآيات القرآنية أن التفكير في هذا الكون، وكشف القوانين التي تحكم ظواهره في جميع النواحي موصل إلى الإيمان بالله سبحانه، ومقدم للحجج الدامغة، والبراهين القاطعة على ذلك، فهو يدعو إلى الإيمان ويعمقه في النفس الإنسانية. ومن هنا كان العلم بظواهر الكون ومظاهره من أهم طُرق تعميق الإيمان بالله وتثبيته في النظر الإسلامي، لذا اعتبر القرآن التفكير في خلق الله، وتلمس مظاهر الإبداع فيه عبادة ينال الإنسان عليها أعظم الأجر والثواب.

والحقائق التي نعرضها مدعمة بالآيات الكريمة . . . تدفع ذلك الافتراء الذي يزعم أن الإسلام يعارض العلم فكيف يصح هذا والقرآن الكريم يدعو المسلمين من أربعة عشر قرناً إلى التفكير في هذا الكون واكتشاف ما عليه من دقة وإبداع، معتبراً ذلك الطريق الأصيل لتثبيت العقيدة، وزيادة الإيمان. . . قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]. وهكذا يؤطر النظر الإسلامي لمكونات الأرض فهماً لحقائقها واكتشافاً لما يحكمها من قوانين وسنن في إطار إيماني مشرق يوجه البحث العلمي فيها وجهة أخلاقية تحرص على خير الإنسان ومصالحه العليا بعيداً عن كل ما يسيء لانسجام الظواهر الكونية وتكاملها بعضها مع بعض، أو يؤدي إلى الإساءة إلى النسق المستقر الذي أراده الله سبحانه لهذه الظواهر. وهذا الفهم يقود بفاعلية وعلى أساس من العقلانية والعلمية الموضوعية تعامل الإنسان مع البيئة بمكوناتها المتعددة. وواضح أن كثيراً من مشكلات البيئة تحتاج إلى بحث واستقصاء ودراسة ليكون التعامل معها بحلول ناجعة عن علم ومعرفة.

(٥) إن هذا الكون مجال واسع، لانتفاع الإنسان واستثماره واستفادته. . . فالكون بكل ما فيه من خيرات ونِعَم خلقها الله سبحانه وتعالى، وسخرها للإنسان لينتفع بها بالكيفية التي شرعها الله، والتي بينتها النصوص الشرعية المتعددة، قال تعالى:

---

(١) فصلت: ٥٣.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]. وقد جاءت الآيات صريحة في تقرير أن الأرض بمواردها المتعددة مهيأة للناس ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾[2]، قال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[4]، وقال جل وعلا: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[7]. فليحرص الإنسان على التعامل الإيجابي مع مكونات هذه البيئة تعاملاً نافعاً له فرداً وجماعةً.

(٦) إن هذا الكون مجال فسيح لتمتع الإنسان بما فيه من زينة وإبداع وجمال... بالطريقة التي شرعها الله، والكيفية التي أرادها... قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[8]، وقال سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[9]، وقال جل من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾[10]، وقال

---

(١) لقمان: ٢٠.
(٢) البقرة: ٢٢.
(٣) الزخرف: ١٠.
(٤) الملك: ١٥.
(٥) الحجر: ١٩، ٢٠.
(٦) الأعراف: ١٠.
(٧) الأعراف: ٧٤.
(٨) الأعراف: ٣٢.
(٩) الأعراف: ٣١.
(١٠) قَ: ٦.

عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[1]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾[3]، وقال جل وعلا: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ﴾[4].

ومن هنا فلا حرج أن يجاوز تعامل هذا الإنسان مع مكونات البيئة الانتفاع إلى التمتع في إطار القواعد الضابطة في الشريعة، ذلك أن القرآن كما قرر أن التفكير في مظاهر الكون المختلفة يقود إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فقد قرر أن الانتفاع والتمتع بما خلق الله يستوجبان شكره سبحانه على ما أنعم به وتفضل، ويتطلبان عبادته حق العبادة . . . وذلك بالالتزام بما شرع من قواعد وأنظمة وقوانين لتنظيم مختلف مجالات الحياة الإنسانية . . . فالعبادة في الإسلام بمعناها الواسع تعني الالتزام بكل ما شرع الله سبحانه وتعالى لتنظيم جميع مجالات الحياة. قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[5].

وبذا يمزج نظام الإسلام بين المادة والروح، ويجمع بينهما وفق نظر خاص، يجعل من الإنسان وهو يقوم بكل ما تتطلبه حياته على هذه الأرض من انتفاع واستمتاع، إذا سار به وفق ما أراد الله وشرع. . . يجعل منه عابداً لله سبحانه ينال عليه الأجر والثواب، ويوفر له ما يجعل من حياته على الأرض طريقاً لخير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وأن هذه النظرة الإيمانية الأخلاقية لأنماط التعامل مع هذا الكون

---

(١) الصافات: ٧.
(٢) آل عمران: ١٤.
(٣) النحل: ٥، ٦.
(٤) الحديد: ٢٠.
(٥) البقرة: ١٧٢.

ومكوناته المتعددة تصون هذا التعامل من الإفراط والتفريط، وتحميه من أن يكون سبباً للإضرار بالآخرين والإخلال بالتوازن الطبيعي الذي يحقق خير الإنسان وتقدم حياته واستقرارها على هذه الأرض، مما يؤكد على أن يظل سلوكه صديقاً للبيئة، متناغماً معها، بعيداً عن الإضرار أو الإفساد.

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني
اهتمام الإسلام بمكونات الأرض ومواردها

والأرض تتكون من البر والبحر والجو (أو الهواء والريح) أو من يابسة ومياه وهواء... وإذا ذهبنا نستعرض الآيات القرآنية الكريمة التي تتعلق بذلك فإننا نلاحظ أننا أمام مجموعة كبيرة من الآيات الكريمة التي تتعلق بالأرض بصفة عامة، وبكل مكون من مكوناتها بصفة خاصة.

وقد تحدثت الآيات الكريمة بإفاضة عن موارد الأرض سواء أكانت موارد زراعية أو معدنية أو حيوانية، ففي مجال الموارد الزراعية، بيّنت الآيات الكريمة أن إنبات الأرض بالمطر إحياء لها، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[1]. وإن هذه الموارد لخير الإنسان ومنفعته، قال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾[3].

وجاء هذا في مجال الموارد الحيوانية ... قال تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن

---

(١) الحج: ٥.
(٢) يس: ٣٣ ـ ٣٦.
(٣) الأنعام: ١٤١.
(٤) الجاثية: ٤.

شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[1]، وقال جل جلاله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[3]، وقال جل من قائل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[4]، وقال جل جلاله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[6].

وفي النحل وما يخرج منه من عسل قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[7]، وقال سبحانه مبيّناً مجموعة من النعم المحببة للإنسان: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[8]. فهذه الآية تذكر موارد تعود للأنواع الثلاثة، كما ذكرت الآيات الكريمة أنواعاً من الدواب والطيور والحيوان بصفة عامة في معرض الابتلاء أو العقوبة أو الاعتبار أو الدعوة للتفكير، مما لسنا بصدد استكماله[9].

---

(١) الأنعام: ٣٨.
(٢) النحل: ٧٩.
(٣) النحل: ٨.
(٤) غافر: ٧٩.
(٥) النحل: ٥، ٦.
(٦) النحل: ٦٦.
(٧) النحل: ٦٨، ٦٩.
(٨) آل عمران: ١٤.
(٩) انظر المعجم المفهرس لمعاني القرآن. محمد بسام الزين: ١/٣٨٤ ـ ٣٨٧.

وفي مجال الموارد المعدنية قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[1]، وهناك آيات عديدة تتعلق بالنحاس وبعدد من الصناعات المعدنية، قال سبحانه: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾[3].

وأما بخصوص الآيات الكريمة المتعلقة بالبحر والأنهار والعيون فهي تحدثت عن أمور عديدة يقف في طليعتها أن المياه أساس الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[4]، وأن البحر خلقه الله سبحانه وسخره للإنسان وأودع فيه من الموارد ما فيه خير الإنسان ومصلحته، وهيأ فيه إمكانات عديدة يستطيع الإنسان أن يستفيد منها في إقامة حياته المستقرة على هذه الأرض... قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾[7]، وقال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[8]، وقال جل من قائل: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[9]، وقال جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾[10].

---

(١) الحديد: ٢٥.
(٢) سبأ: ١١.
(٣) سبأ: ١٣.
(٤) الأنبياء: ٣٠.
(٥) الفرقان: ٥٣.
(٦) الجاثية: ١٢.
(٧) المائدة: ٩٦.
(٨) إبراهيم: ٣٢.
(٩) البقرة: ١٩٤.
(١٠) النحل: ١٤.

وأما بخصوص ما ورد من آيات تتعلق بالبر، فقد تحدثت الآيات عن خلق الله البر وتهيئته للإنسان كما في تهيئة صيد البر، وتمكين الإنسان من السير في البر كما في البحر، وهدايته في هذا السير، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[3]، وقال جل من قائل: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[4].

وأما بخصوص الريح أو الهواء أو الغلاف الجوي... قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[6]، وقال جل من قائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[7]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾[8]، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[9]، وقال جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[10]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾[11].

---

(١) يونس: ٢٢.
(٢) النمل: ٦٣.
(٣) الإسراء: ٧٠.
(٤) المائدة: ٩٦.
(٥) البقرة: ١٦٤.
(٦) الروم: ٤٦.
(٧) الروم: ٤٨.
(٨) الأعراف: ٥٧.
(٩) الحجر: ٢٢.
(١٠) البقرة: ١٦٨.
(١١) الزمر: ٢١.

بل إن القرآن الكريم يهتم بما ترك الإنسان على الأرض من آثار وعمران، فقد دعا القرآن الكريم إلى الاعتبار من آثار الأمم السابقة التي عمرت هذه الأرض عبر العصور المتعددة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[1].

أما السُنة النبوية فقد اهتمت بمختلف مكونات الأرض ومواردها فتحدثت تفصيلاً عن ما يتعلق بملكية الأرض، والحث على زراعتها وإعمارها، وحثت على إحياء الأرض الموات، وبيّنت زكاة الزروع والثمار، وأحكام ما يستخرج منها من معادن وكنوز، مما سيرد طرف منه في هذا البحث.

❋ ❋ ❋

(١) الروم: ٩.

المبحث الثالث

القواعد والأحكام الناظمة لعلاقة الإنسان مع موارد الأرض

ظهر لنا من العرض السابق الأُسس التي تقوم عليها علاقة الإنسان مع موارد الأرض، وأن هذه الموارد سخرها الله سبحانه لخير الإنسان ومنفعته، ولإقامة حياة كريمة له عليها، وذلك إذا التزم بالقواعد والأحكام التي أرادها الله سبحانه لتنظيم العلاقة معها... وهذه القواعد والأحكام عديدة لا يهدف هذا البحث إلى استقصائها، إنما يقع في طليعتها عمارة الأرض ووجوب الاستفادة من هذه الموارد وبذل كل جهد يستطيعه الإنسان لاستخراج مكنونات الأرض والانتفاع بخيراتها واستغلالها بما يحقق خير الإنسان ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]. قال الجصاص: «يعني أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه دلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية»[2]. وقد دعت النصوص العديدة للزراعة وإحياء الأرض إلى أن يكون ذلك وفق الأحكام التي بيّنها الله سبحانه عن طريق رسوله لضبط الانتفاع والحصول على الموارد والأموال من حيث أسباب الملك والتعامل المالي بين الناس وانتقال الأموال من الأشخاص أثناء الحياة وبعد الممات، ومن حيث المحافظة على هذه الموارد وعدم تبديدها بما لا يفيد ولا ينفع، ومن حيث الابتعاد عن الإسراف والتبذير إلى غير ذلك من أحكام تغطي كل صور التعامل مع هذه الموارد.

ويهمني في هذا البحث أن أقف عند بعض هذه الأحكام الوثيقة الصلة بالبحوث المعاصرة في مجال المحافظة على البيئة ومنع التلوث والحرص على التوازن بين الموارد عند الاستخدام، حتى لا يكون هناك

---

(١) هود: ٦١.

(٢) أحكام القرآن. الجصاص: ٣/٢٠٣.

استخدام جائر يضر بمكونات البيئة الأخرى، وحتى لا يعتدي جيل على حقوق جيل آخر، وذلك عندما يكون الاستخدام جائراً يدمر ويخرب تحركه الأنانية والجشع، ويقوم على الاستغلال والاعتداء على حقوق الآخرين، أو يتم بطريقة غير واعية بحيث تترتب عليه أضرار كبيرة تهدد حياة الإنسان ووجوده بشكل أو آخر، والواقع أن الالتزام بمفاهيم المحافظة على البيئة في المجتمع الإسلامي أمر شرعي مخالفته تُوقع في المخالفة لأوامر الله وشرعه، فهو راسخ وجدانياً في كيان المؤمن، أساسه الحرص على نيل رضا الله وثوابه، والرغبة في الابتعاد عن غضبه وعقابه، عدا عما في الالتزام بذلك من تحقيق لمصالح العباد وتأمين للحياة الكريمة لهم.

وأبحث هذه القواعد والأحكام في مطلبين: الأول: القواعد والأحكام المتعلقة بالاستخدام الأمثل للبيئة وحمايتها من التلوث، والثاني: القواعد والأحكام المتعلقة بالتوازن البيئي ومنع الاستخدام الجائر للموارد.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
القواعد والأحكام المتعلقة بالاستخدام الأمثل للبيئة وحمايتها من التلوث

يؤكد الإسلام على ضرورة الامتناع عن كل ما يؤدي إلى الإضرار بالإنسان، وأن الأساس هو المحافظة على حياته وأمنه من أي أخطار تهدده، والنهي عن كل ما يضره ويؤذيه، ويؤدي به إلى التهلكة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[2]. فإن بعض الأخطار البيئية أشبه ما تكون بعمليات شروع بقتل جماعي فنذكر جميعاً كوارث بعض المصانع الكيماوية وبعض

(١) البقرة: ١٩٥.
(٢) النساء: ٢٩.

المفاعلات النووية، حيث أدى تسرب الغازات الكيماوية السامة وتسرب الإشعاعات النووية إلى كوارث قتل جماعي.

وقد دعا الإسلام إلى المحافظة على موارد الماء وطرق الناس، فقد نهى رسول الله ﷺ عن البول في الماء الراكد، ونهى عن قضاء الحاجة في موارد الماء وفي الطرقات[1].

وقد جاء الحث على نظافة البيئة واضحاً في بعض الأحاديث النبوية الشريفة، قال ﷺ: «نظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود، إن الله تعالى طيب يحب الطيب، ونظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جوّاد يحب الجود فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود»[2].

وقد عقد الإمام النووي في كتابه (رياض الصالحين) باباً بعنوان: (باب النهي عن التغوط في طريق الناس وظلهم وموارد الماء ونحوها) ثم استهل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾[3]. وذلك لأن الآية تشمل ما ذكر في عنوان الباب ثم ذكر ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللاعنين». قالوا: وما اللاعنان؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم» ثم عقد باباً بعنوان (باب النهي عن البول في الماء الراكد) ذكر فيه الحديث الذي أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد[4].

وأخرج أبو داود وابن ماجه عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[5].

---

(١) يراجع دليل الفالحين: ٥٩٢/٤.

(٢) أخرجه الترمذي وحسّنه منهاج الصالحين. عز الدين بليق: ص٦٥٧.

(٣) الأحزاب: ٥٨.

(٤) انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين. محمد بن علان الصديقي: ٥٩٢/٤، ٥٠٣.

(٥) المرجع نفسه: ٥٩٢/٤.

كما حث الإسلام على كل ما يصون صحة الإنسان ويحميها من التعرض للأذى وذلك في مجالات الحث على الحجر الصحي، كما حدث في طاعون عمواس والدعوة إلى نظافة الجسم والمكان... وقال ﷺ: «غطوا الإناء وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج»[1]. وواضح التهديد الذي تسببه النار لمظاهر البيئة المتعددة. فهذا الحديث وغيره يجعل المؤمن حذراً في تعامله مع النار، ورسول الله ﷺ يقول: «إن هذه النار عدو لكم فإذا نمتم فأطفئوها»[2].

وإن الحرص على جمال البيئة ونظافتها من كل ما يسيء لها أمر دعت إليه الشريعة بحيث تكون مهيأة للانتفاع والاستخدام المريح للإنسان والذي لا يسبب له أي ضرر... ويظهر هذا في مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة:

قال ﷺ: «من أخرج من طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم كتب الله له به حسنة، ومن كتب له حسنة أدخله بها الجنة»[3]، وقال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون ـ أو ـ بضع وستون شعبة فأفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[4]، وقال ﷺ: «وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة»[5]، وقال ﷺ: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأُدخل الجنة»[6]. وفي رواية أخرى قال ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له»[7]. وقال أبو

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط الكبير، مجمع الزوائد: ١٣٥/٣.
(٤) أخرجه مسلم. انظر مسلم بشرح النووي: ٦/٢.
(٥) أخرجه الترمذي.
(٦) أخرجه مسلم. صحيح مسلم: ١٧٠/١٦، ١٧١.
(٧) المرجع السابق.

برزة: قلت يا نبي الله علمني شيئاً أنتفع به؟ قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[1].

قال النووي معلقاً على هذه الأحاديث: «هذه الأحاديث المذكورة في الباب ظاهرة في فضل إزالة الأذى عن الطريق سواء كان الأذى شجرة تؤذي أو غصن شوك أو حجراً يعثر به أو قذراً أو جيفة وغير ذلك، وإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان... وفيه التنبيه على فضيلة كل ما نفع المسلمين وأزال عنهم ضرراً»[2].

ويتجلى هذا أيضاً في الحث على إحياء الأرض الميتة بالزراعة والبناء، قال ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[3]، وقال ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة فله بها أجر»[4]، وقال عليه صلوات الله وسلامه: «ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه بهيمة أو طائر أو إنسان إلا كان له به صدقة»[5].

وهذا الإعمار بالزراعة عدا عما فيه من منافع يُجمّل الأرض ويحقق معنى التمتع في ظواهر الكون ومظاهره الذي سبق توضيحه، فالبعد الجمالي في البيئة أمر حرص عليه الإسلام ودعا إليه، وقد يظن بعض الناس أن الجمال والحرص عليه ترف لا يقدر عليه إلا الأغنياء، والواقع أن الجمال لا يعني الكلفة، فقد يكون البيت كوخاً بسيطاً ولكنه جميل، والبيئة الجميلة تحفز السلوك الإنساني نحو مزيد من العطاء لما تسببه من راحة للنفس الإنسانية.

ويدخل في إطار المحافظة على مكونات البيئة الجميلة النهي عن قتل الطيور لغير الأكل والنهي عن جعل الطير هدفاً وغرضاً للقتل، لما

---

(١) المرجع السابق.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٧١/١٦.

(٣) أخرجه مالك والبخاري وأحمد وأبو داود.

(٤) أخرجه أحمد والنسائي وابن حبان.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

فيه من تدمير لمظاهر البيئة الجميلة ودون فائدة أو مردود[1].

وقد دعا الإسلام إلى التجمل ولبس الثياب الحسنة وإصلاح اللباس والرحال والعناية بالمظهر مما يؤكد على حرصه البالغ على جمال البيئة: فقد أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال: قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس»[2]. وأخرج الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[3].

وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي وغيرهم عن سهل بن الحنظلية قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»[4].

الفقه الإسلامي يترجم القواعد والأحكام إلى ممارسات عملية:

وقد ترجم الفقه الإسلامي هذه القواعد والأحكام إلى ممارسات عملية، فقد استقر في الفقه الإسلامي أن الاستخدام لموارد البيئة شرطه السلامة وعدم الإضرار بالآخرين.

فقد نصت المادة ٩٢٦ من مجلة الأحكام العدلية «لكل واحد حق المرور في الطريق العام، ولكن بشرط السلامة، يعني مروره مقيد بشرط أن لا يضر غيره بما يمكن التحرز عنه». وقد أوضح العلماء أن علة ذلك النظر العادل بين الحقوق العامة والخاصة، ففي شرح المجلة لسليم باز

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) مختصر مسلم للمنذري: ص٢٠؛ الترغيب والترهيب: ٦١١/٣.
(٣) سنن الترمذي: ٤٤٥/٨.
(٤) سنن أبي داود: ٣٧٣/٢؛ مختصر سنن أبي داود للمنذري: ٣٧/٦.

في تعليل ما ورد في هذه المادة «لأنه يتصرف في حقه من وجه، وفي حق غيره من وجه لكونه ـ أي الطريق ـ مشتركاً بين الناس، فقلنا بالإباحة بشرط السلامة ليعتدل النظر من الجانبين»[1]، وقد نص الفقهاء على الضمان لكل ضرر في حالة المجاوزة والإضرار بالآخرين، وقد جاء في المادة ٩٢٧ من المجلة «لا يجوز بدون إذن أولي الأمر الجلوس في الطريق العام لبيع وشراء، ووضع شيء وإحداثه بلا إذن ومن فعل ذلك كان ضامناً الضرر والخسارة الذي تولد من ذلك الفعل، كذلك لو صب واحد على الطريق العام شيئاً يزلق به، كالدهن وزلق به فإنه يضمن».

وقد بيّن العلماء أن المعيار في التمييز بين ما يوجب الضمان وما لا يوجبه من الأضرار هو ما يمكن التحرز منه من هذه الأضرار كما ورد في المادة ٩٢٦ من المجلة، فإن كان يمكن الابتعاد عن إيقاعه بالأضرار وجب الضمان وإلا فلا... وواضح أن إمكانية التحرز ترتبط بالأعراف المستقرة والإمكانيات المتاحة، وقد ذكر الفقهاء مثال إثارة الغبار من الدابة عند السير في الطريق فلا يمكن التحرز منه، كما ذكر المتأخرون منها إثارة الدخان من السيارة، ولكن إذا أوجد التقدم العلمي وسائل للإقلال من هذه الأضرار أو أن السيارة قد ساء وضعها الميكانيكي بحيث زاد الدخان الخارج منها عن المعتاد فمقتضى القواعد لزوم استخدام الوسائل الحديثة ووجوب إصلاحها حتى لا يخرج الدخان الضار وإلا فالأمر موجب للمسؤولية والضمان.

قال في تحفة الفقهاء: «ولو حفر بئراً في طريق المسلمين أو أخرج جناحاً أو نصب فيه ميزاباً أو بنى دكاناً أو وضع حجراً أو خشبة أو متاعاً أو صب ماء في الطريق أو قعد ليستريح أو لمرض أصابه فعثر بشيء عابر فوقع فمات أو وقع على غيره فقتله أو مال على إنسان فهلك... فهو ضامن لأنه متعدٍ لأن الطريق مأذون فيه للسير لا غير فما تولد فيه يكون مضموناً»[2].

---

(١) شرح مجلة الأحكام العدلية. سليم رستم الباز: ٥١٨/١.

(٢) تحفة الفقهاء: ١٦٣/٣.

وقد علل السمرقندي عدم القول بالمسؤولية عندما يكون الضرر لا يمكن التحرز منه «وما لا يمكن الاحتراز عنه فليس بمضمون إذ لو جعلناه مضموناً لصار ممنوعاً عن السير وهو مأذون»[1].

وتقف القاعدة الشرعية الذهبية التي وردت في الحديث النبوي «لا ضرر ولا ضرار»[2] ضابطاً واضحاً في هذا المجال.

والواقع أن القيود التي تهدف إلى حماية البيئة يقصد بها المصلحة العامة، وهو أمر قررته الشريعة ودعت إليه، فهي أولاً حرمت قصد الإضرار بالآخرين أو تسبيب الضرر بهم، يقول الغزالي: «وإنما العدل أن لا يضر بأخيه المسلم... والضابط الكلي فيه أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه، فكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به»[3].

وبيّن في نهاية المحتاج أن من جعل داره بين الناس معمل نشادر وشمه أطفال فماتوا بسبب ذلك يضمن لمخالفته العادة[4].

فإذا استقرت الأعراف أو ألزمت الأنظمة بتخصيص أماكن للسكن وأخرى للصناعة فلا يجوز مخالفة ذلك، وإذا ترتب على ذلك إضرار يمنع ويتحمل المسبب له المسؤولية والضمان، وقد بيّنت كتب الحسبة أن من صلاحيات المحتسب تخصيص أماكن للحرف المتعددة في الأسواق.

وقال في تبيين الحقائق للزيلعي: «ولو أراد بناء تنور في داره للخبز الدائم كما يكون في الدكاكين أو رحى للطحن أو مدقات

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١٦٠/٣.

(٢) ورد الحديث النبوي بألفاظ متقاربة وأشهرها ما أخرجه الحاكم والدارقطني والبيهقي. قال ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار، من ضار ضره الله ومن شاق شق الله عليه»، وهو عند مالك وأبو داود وابن ماجه بألفاظ متقاربة. انظر بالتفصيل: الملكية في الشريعة الإسلامية. د. عبد السلام العبادي: ١٦١/٢، ١٦٢.

(٣) إحياء علوم الدين: ٩٥/٢.

(٤) نهاية المحتاج: ٣٣٧/٥.

للقصارين لم يجز... لأن ذلك يضر بالجيران ضرراً ظاهراً فاحشاً لا يمكن التحرز عنه والقياس أنه يجوز لأنه تصرف في ملكه وترك ذلك استحساناً لأجل المصلحة»[1].

وقد بيّنت في بحثي الموسع عن الملكية: القيود المقررة على حق المالك في استعماله لملكه، وأن هذا مشروط بعدم الإضرار بالآخرين فرداً أو جماعة ضمن تفصيل أوضحته هناك... والأساس فيه أن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد وأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وأنه يختار أهون الشرين، يقول عز الدين بن عبد السلام: «إذا اجتمعت مصالح ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى فيهما لقوله سبحانه ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وإن تعذر الدرس والتحصيل فإذا كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة[2].

والواقع أن الإسلام قد حرص على إقامة مجتمعه على دعائم من التكافل والتعاون والتحاب والإحسان والرحمة والعدل ومنع الظلم وكل صور الاعتداء على الآخرين والإضرار بهم... وقد تعددت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي ترسم الصورة التي يجب أن يكون عليها المجتمع يقول سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[4]، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[5].

ولم يقتصر الحرص على هذه المعاني على المسلمين فحسب بل

---

(١) تبيين الحقائق: ١٩٦/٤.
(٢) انظر الملكية: ١٢٩/٢ وما بعدها.
(٣) التوبة: ٧١.
(٤) الأنبياء: ١٠٧.
(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

شمل كل إنسان، فالرسول ﷺ يقول: «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»[1] بل إن معاني الرحمة شملت كل ذي روح، فالرسول ﷺ يقول: «في كل ذات كبد حرى أجر»[2]. «ودخلت النار امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[3]، «ودخل الجنة رجل بسبب كلب بلغ منه العطش مبلغه فسقاه وأنقذه»[4].

وعلى ضوء هذه التعاليم يرفض الإسلام أن يقصد أحد أفراد المجتمع الإضرار به بحجة أنه يمارس حقه في استعمال ملكه وإدارة أمواله ولا يقبل أن يكون ذلك سبباً في إصابة المجتمع بالضرر، وذلك لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة... والحقوق ما شرعت لتكون وسائل لإلحاق الضرر بالجماعة، مما يتعارض مع روح الشريعة وحرصها على مصالح الجماعة المتعددة... لذا تقرر في هذه الشريعة أن يحتمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام... وبذلك أقامت الشريعة توازناً عادلاً بين مصالح الأفراد ومصلحة المجتمع.

وصور الحديث التالي الحدود التي تحد من حرية الأفراد في التصرف والسلوك بما يحمي مصلحة المجتمع ويصونه من كل أنواع الضرر... يقول الرسول ﷺ فيما أخرجه البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». فهذا الحديث يبين وجوب تحرك المجتمع لوقف أي ممارسة في التعامل مع موارد الأرض إلى الإضرار بمجموع الأمة.

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبزار والطبراني.
(٢) أخرجه البخاري وغيره.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

وواضح أن التصرف المضر بالمجتمع لا يشترط فيه أن يكون صاحبه قاصداً الإضرار بالمجتمع كما في الاحتكار، بل يجب أن يمنع وأن كان قاصداً منفعة نفسه ولكن ترتب عليه ضرر بالمجتمع[1].

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
التوازن البيئي وأهمية منع الاستخدام الجائر للموارد

أوضحت الآيات الكريمة أن هذا الكون قائم على التقدير الدقيق، وأن كل شيء فيه موزون وبقدر وقائم على الترابط والتكامل، وأنه محكوم بقوانين ثابتة مستقرة لا مجال فيه للعشوائية والفوضى، وذلك شامل لكل شيء قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[4]، وقال جل من قائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[5]، وهذا شامل لكل أقوات الأرض، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[6]، وهذا واضح أيضاً في الماء الذي هو أساس الحياة قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾[7] وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[8]، وهذا شامل للرزق بكل صوره وأساس ذلك منع الظلم والبغي والتجبر والتعالى في الأرض قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ

---

(١) انظر تفصيل ذلك (الملكية في الشريعة الإسلامية/ الدكتور عبد السلام العبادي) ج ٢ ص ٦٥ ـ ١٥١.

(٢) الفرقان: ٢.

(٣) القمر: ٤٩.

(٤) الرعد: ٨.

(٥) الحجر: ٢١.

(٦) فصلت: ١٠.

(٧) المؤمنون: ١٨.

(٨) الرعد: ١٧.

لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾[1]، وأساس كل هذا التقدير الهداية والإبداع والتسوية في أحسن صورة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[2].

وهذا البناء الكوني القائم على التقدير الدقيق والترابط المحكم يقتضي ملاحظة العلاقة التكاملية بين الظواهر والمظاهر الكونية وعدم الإخلال بها قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾[4].

وقد خلق الله الأرض وأبدعها في أحسن صورة وترابطت في خلقها الظواهر والمظاهر بتوازن عجيب، وشمل ذلك كل ما فيها... إن كان ذلك من حيث دورانها حول نفسها وحول الشمس وحركتها في المجموعة الشمسية أو ميلها عن محورها وارتفاع غلافها الجوي وتركيبه المتوازن أو توزيع اليابسة والجبال فيها وعلاقة ذلك كله بالحياة واستقرارها عليها بحيث تكون مهيأة لذلك قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾[5].

وتأتي خطورة الاستخدام الجائر للمواد المتاحة في هذا الكون لأنه إخلال بمبدأ التوازن البيئي، لذا تبرز أهمية منع الإسراف والدعوة إلى الاعتدال في استخدام الموارد.

---

(١) الشورى: ٢٧.
(٢) الأعلى: ٢، ٣.
(٣) يس: ٣٨ ـ ٤٠.
(٤) فصلت: ١٢.
(٥) الرحمٰن: ١٠.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾[1]، ليؤكد مبدأ النهي على الطغيان أياً كانت صوره في التعامل مع ما خلق الله من طيبات في هذا الكون.

والواقع أن النهي عن الطغيان في التعامل مع الكون يشمل النهي عن الانتفاع بدون مردود حقيقي، كما يشمل الاستنزاف للموارد بدون موجب وحرمان الأجيال القادمة منها، كما يشمل التلويث والإساءة للبيئة بل يشمل كل مجاوزة للحد في التعامل مع ما خلقه الله.

فهذه الآية الكريمة ترسخ منهجاً يقوم على الاعتدال في التعامل مع ما خلق الله من ظواهر ومظاهر.

ومن هنا جاء تحذير الإسلام من الإسراف والتبذير ونهيه عن الترف ودعوته إلى الاعتدال وعدم مجاوزة الحد المعقول في استعمال الأشياء واستهلاكها قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾[3]، وقد مر رسول الله ﷺ على سعد ابن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال له: «لا تسرف في الماء» فقال سعد: وهل في الماء من إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»[4]. وقد جاء النهي في القرآن الكريم واضحاً عن الفساد في الأرض وهو يشمل كل صور الإفساد بما فيها الإفساد البيئي، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5]، وقال سبحانه في وصف المفسد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[6].

---

(١) طه: ٨١.
(٢) الأعراف: ٣١.
(٣) الإسراء: ٢٦، ٢٧.
(٤) زاد المعاد: ٤٨/١،
(٥) الأعراف: ٨٥.
(٦) البقرة: ٢٠٥.

وملاحظة حقوق الأجيال القادمة وعدم الاعتداء على عناصر البيئة بما يحمي الاستخدام المستقبلي لها من الإساءة والضرر أمر اهتم به الفقه الإسلامي من منطلق منعه الإساءة والإضرار أيا كانت صوره، بل تجلت ملاحظته والاهتمام به في كثير من الممارسات عبر التاريخ الإسلامي، وكان من أوضحها ما فعله عمر بن الخطاب في أرض السواد باعتبارها أرضاً مفتوحة عنوة، فقد كان من حججه الرئيسة في وجه من طالب بتقسيمها: فكيف بمن يأتي من المسلمين، فيجد الأرض بعلوجها قد اقتسمت؟ وورثت عن الآباء وحيزت؟ وكان الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ في سورة الحشر حاسماً في ترجيح ما ذهب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ضرورة وقفها وعدم تقسيمها بين الفاتحين وفرض الخراج عليها يكون مادة لحماية الثغور وتحقيق المصالح العامة لأجيال الأمة الحاضرة والقادمة[1].

❋ ❋ ❋

(١) انظر بالتفصيل: الملكية في الشريعة الإسلامية، د. عبد السلام العبادي: ٣٤١/١ وما بعدها.

المبحث الرابع
التطبيق التاريخي للأسس والمبادئ والأحكام المتعلقة بتعامل الإنسان مع موارد الأرض ومكونات البيئة

استعرضت فيما سبق مجموعة من النصوص الفقهية كما أشرت إلى عدد من مواد مجلة الأحكام العدلية التي كانت بمثابة القانون المدني والذي أخذ من الفقه الحنفي في الدولة العثمانية والواقع أن هذه النصوص هي الأحكام الواجبة التطبيق في واقع الناس ونشاطاتهم المتعددة.

كما أن الاهتمام بالمحافظة على البيئة ومنع التلوث والإضرار بالآخرين كان من جملة الاهتمامات الأساسية لجهاز الحسبة في الدولة الإسلامية الذي كان يتولى الإشراف على أسواق الناس وفعالياتهم المتعددة للتأكد من التزامهم بما هو مقرر شرعاً من أحكام وقيود وضوابط أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ومنعاً لكل ما فيه مخالفة لأحكام الشريعة.

والصلاحيات المعطاة لهذا الجهاز واسعة، وله سلطة التنفيذ الفوري، وقد قدم هذا الجهاز عبر التاريخ الإسلامي صوراً وصيغاً متقدمة في هذا المجال تدل على وعي عميق لما يتطلبه الأمر من إجراءات وممارسات عملية، وبخاصة في الترخيص للحرف ومراقبة العاملين فيها وحماية الأسواق والأحياء ومصادر المياه، ومختلف الموارد من كل ما يسيء إليها ويهدد الصحة العامة ونظافة البيئة ويعرض حياة الناس للخطر.

ونذكر فيما يلي بعض الأمثلة على ذلك والتي تؤكد الحرص البالغ على صحة الإنسان وسلامة حياته ونظافة بيئته وحمايته من كل مظاهر التلوث والأضرار وأنواع العلل والأوبئة والأمراض، فقد جاء في كتاب

معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الأخوة محمد بن محمد القرشي المتوفى سنة ٧٢٩هـ في المحافظة على نظافة الطرق وحمايتها من النفايات والأوحال ومياه المزاريب: وكذا طرح الكناسة على جوار الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى من التزلق والسقوط، وكذا إرسال الماء من المزاريب المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة، فإن ذلك ينجس الثياب، ويضيق الطرق، وكذا ترك مياه المطر والأوحال في الطرق من غير كسح فذلك كله منكر، وليس يختص به شخص معين، فعلى المحتسب أن يكلف الناس القيام بها[١].

وقال أيضاً: ويأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ المتجمعة وغير ذلك مما يضر الناس لأن النبي ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار»[٢].

وقال في بيان ما يجب على المحتسب تجاه أصحاب الحرف: «وأما القصابون فيمنعهم المحتسب من الذبح على أبواب دكاكينهم، فإنهم يلوثون الطرق بالدم والروث، وهذا منكر يجب المنع عنه، فإن في ذلك تضييقاً للطريق وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة بل حقه أن يذبح في المذبح، ويمنعهم من إخراج توالي اللحم من حد مصاطب حوانيتهم، بل يأمن تمكنه في الدخول عن حد المصطبة، لئلا تلاصقها ثياب الناس فيضرون بها»[٣].

ويهتم في بيان الأسس والقواعد المنظمة لمهنة السقاية فيقول: «أما سقاة الماء في الكيزان فيؤمروا بنظافة أزيارهم وتغطيتها وافتقادها بالغسل بعد كل قليل من الوسخ المجتمع فيها، ويغسلوا الكيزان ويجلوها بشقفها وبالأشنان في كل يوم ويبخروها، فإنها تتغير من أفمام الناس ونكهتهم، ولا يملؤوا الكوز إلى فوق شباكه، ولا يخلطوا مع ماء البحر غيره من المياه المالحة، فإن ذلك غش، وليكن الكوز متوسطاً بين

(١) معالم القربة: ص ٧٩.
(٢) معالم القربة: ص ٧٩.
(٣) معالم القربة: ص ٩٩.

الكبير والصغير وشباكه متوسطاً بين الضيق والاتساع، ولتكن الكيزان عنده معلقة ليضربها الهواء فتبرد، ويسقى كل أناس من كيزان تليق بهم، وإن وقف عنده رجل رئيس أو كبير ناوله كوزاً جديداً لم يشرب فيه أحد قبله، وينبغي أن يتخذ للأزيار أغطية من خوص مصلبة بجريد، ولا يسق أحداً من كوز الزير، ولا يدخل يده في الزير وهي زفرة، ويجتهد في نظافة حانوته وبدنه وثيابه، ويتفقد المحتسب حوانيتهم على غفلة منهم ليلاً ونهاراً، فمن وجد عنده زيراً مكشوفاً، وكيزاناً وسخة، أو وجده يخلط ماء البحر مع ماء البئر أدبه، وبدد ما عنده وغلق حانوته حتى يرتدع به غيره»[1].

وفيما يتعلق بالطباخين يقول: «يؤمرون بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار والأشنان»[2].

وبين ما هو مطلوب من الفرانين والخبازين: «ينبغي أن يأمرهم المحتسب برفع سقائف أفرانهم، ويجعل سقوفها منافس واسعة للدخان... ويأمرهم بكنس بيت النار في كل تعميرة، وغسل المعاجن ونظافتها... ولا يعجن العجان إلا وعليه ملعبة لطيفة الأكمام، ويكون ملثماً أيضاً، لأنه ربما عطس، أو تكلم فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين، ويشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق، فيقطر منه شيء في العجين، وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان على يده مذبة يطرد عنه الذباب»[3].

وفيما يتعلق بالعطارين يبين ما يجب على المحتسب من إجراءات لصيانة الصحة العامة والمحافظة على البيئة: «وينبغي أن تكون بضائعهم مصونة في البراني والقطارميز لئلا يصل إليها شيء من الذباب وهوام الأرض، أو يقع عليها شيء من التراب والغبار وبول الفأر ونحو ذلك، ويأمرهم ألا يستعملوا مسح أوعيتهم إلا بالخرق الطاهرة النظيفة،

(١) معالم القربة: ص ٢٣٩.
(٢) معالم القربة: ص ١٧٣.
(٣) معالم القربة: ص ١٥٤.

ويأمرهم أن تكون المذبة في أيديهم يذب بها على البضاعة طوال النهار ويأمرهم بغسل أثوابهم وغسل أيديهم وآنيتهم ومسح موازينهم ومكاييلهم»[1].

وقد تعرض ابن خلدون في مقدمته لمشكلة تلوث الهواء في معرض مقارنته بين الحضر من حيث حاجته لصناعة الطب، وبين البادية في هذا المجال فقال: «إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات» وعن أهل البدو قال: «وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا أهلين أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواعن»[2].

وقد التزمت الجيوش الإسلامية بالحرص على مظاهر البيئة المختلفة فلم تلجأ إلى التدمير والتخريب والاعتداء على مظاهر الحياة المتعددة في البلاد المفتوحة . . . فعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدة»[3].

وفي روايات أخرى ورد النهي عن قتل النساء، وطلب الرسول ﷺ من المقاتلين الإصلاح والإحسان[4].

وعن يحيى بن سعيد: «أن أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشام فخرج

---

(١) المرجع نفسه: ص ١٩٩.

(٢) انظر: ابن خلدون. المقدمة: ص٣٨٩؛ وانظر في مزيد من التفصيل حول هذا الموضوع: الإسلام والبيئة، د. عبد الرحمٰن جبرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، سنة ٢٠٠٠م: ص١٨، ١٩.

(٣) أخرجه أحمد ومسلم وابن ماجه والترمذي.

(٤) أخرجه أحمد، انظر بحث الحقوق في الإسلام للدكتور عبد السلام العبادي المقدم لندوة الحقوق في الإسلام التي نظمها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية عمان. ١٩٩٢: ص ٤٩، ٥٠.

يمشي مع يزيد ابن أبي سفيان، وكان يزيد أمير ربع من تلك الأرباع، فقال: إني موصيك بعشر خلال: لا تقتل امرأةً، ولا صبياً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخرب عامراً، ولا تعقرن شاةً ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تعقرن نخلاً ولا تحرقه، ولا تغلل ولا تخبن»[1].

وإن ممارسة الجيوش الإسلامية لهذه المبادئ التي قررها الإسلام وأمثالها هي التي دفعت غوستاف لوبون مثلاً إلى القول: «ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب»[2].

ودفعت فشر في معرض تقريره لأثر الدين على الحروب الإسلامية إلى القول: (مما جعل للجيوش الإسلامية ميزة على سائر الجيوش في طول التاريخ وعرضه)[3].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه مالك. انظر نيل الأوطار. الشوكاني: ٢٤٣/٧.
(٢) آثار الحرب في الفقه الإسلامي. الدكتور وهبة الزحيلي: ص ١٢٨.
(٣) فشر. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١١.

المبحث الخامس

البيئة في المؤتمرات والقرارات والاتفاقيات الدولية والإقليمية

بعد استفحال مشكلات التلوث البيئي، وتنوع مظاهر الاعتداء على التوازن البيئي، مما أدى إلى إخلال واسع بالنظام البيئي وإضرار شديد به، وبخاصة أمام نمو عمليات استخراج المعادن، وتوسع عمليات التصنيع دون ضوابط حقيقية لحماية البيئة، وقيام الكثير من الحروب الكبرى التي دمرت كثيراً من مظاهر الإعمار الإنساني على الأرض، بدأ المجتمع الإنساني يتأمل في كل هذا، ويتخذ العديد من الإجراءات عبر مؤسساته المحلية والدولية وغيرها للحد من ظواهر التلوث البيئي والإخلال بقواعد التوازن البيئي[1].

وقد تجلى ذلك في عقد المؤتمرات الدولية للبحث في ذلك، والتوجه إلى عقد الاتفاقيات الدولية التي تهدف إلى الوقوف في وجهه من خلال ما بينته من إجراءات وممارسات، وأدى ذلك إلى إصدار التشريعات في الدول المتعددة، وإنشاء الوزارات والهيئات والمؤسسات التي تسهر على معالجة مشكلات التلوث وتعمل على المحافظة على البيئة. وهذا أمر يطول استعراضه، ولكن يكفي أن نشير هنا إلى الأضرار بطبقة الأوزون التي تحمي الحياة الإنسانية على الأرض من الأشعة الكونية الضارة بها، بالإضافة إلى توسع مشكلة التصحر وتناقص الرقعة الزراعية العالمية بسبب اضطراب المناخ الناشئ عن ثقب الأوزون والقطع الجائر للغابات، وغير ذلك من ممارسات خاطئة.

---

(١) انظر في مشكلات الإخلال بالتوازن البيئي: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني. د. عبد الحكم الصعيدي، الدار المصرية اللبنانية، سنة ١٩٩٦: ص٤٩ وما بعدها.

وكان من الأحداث الدولية البارزة في مواجهة ذلك عقد قمة استوكهولم في السويد سنة ١٩٧٢، والذي صدر عنه الإعلان العالمي للبيئة والذي يعرف بإعلان استوكهولم لعام ١٩٧٢، والذي يعتبر خطوة بارزة في صرح القانون الدولي للبيئة.

والواقع أن الاهتمام بموضوع البيئة قد سبق هذا المؤتمر الحاشد وتبعه، فقد تعددت الاتفاقيات الدولية التي رعتها منظمة الأمم المتحدة، مما يصلح محطاً لبحث مستقل، ويكفي أن نشير إلى عدد منها فيما يلي:

(١) الاتفاقية الدولية لحماية الطيور، باريس، ١٩٥٠م.

(٢) اتفاقية إنشاء منظمة حماية النباتات في أوروبا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط المعدل، باريس، ١٩٥١م.

(٣) الاتفاقية الدولية لحماية النباتات، روما، ١٩٥١م.

(٤) اتفاقية لندن عام ١٩٥٤م، والخاصة بمنع تلوث البحار بالنفط وقد أوردت هذه الاتفاقية والتعديلات التي أدخلت عليها بعد ذلك أحكاماً عديدة بشأن مكافحة التلوث البحري الناشئ عن عمليات التفريغ العمدي للنفط من السفن في بعض المناطق.

(٥) اتفاقية باريس عام ١٩٦٠م، والتي كملتها اتفاقية بروكسل عام ١٩٦٣م بشأن المسؤولية المدنية في مجال الطاقة النووية، وقد تركزت الأحكام التي أوردتها هذه الاتفاقية والاتفاقية الثانية المكملة لها على بيان قواعد التعويض، جبراً للضرر الناشئ عن مخاطر استخدام الطاقة النووية وطريقة ذلك. كما عالجت الموضوع ذاته اتفاقية فيينا لعام ١٩٦٣م والخاصة بالمسؤولية الدولية عند الأضرار النووية.

(٦) معاهدة موسكو عام ١٩٦٣م بشأن وقف التجارب الذرية، وكذلك عام ١٩٦٧م بشأن المبادئ التي تحكم نشاط الدول في استكشافات واستخدام الفضاء الخارجي.

(٧) اتفاقية بروكسل عام ١٩٦٩م بشأن التدخل في أعالي البحار في حالات الكوارث الناجمة عن التلوث بالنفط، وقد عالجت هذه الاتفاقية القواعد المنظمة للإجراءات الضرورية لحماية الشواطئ في حالات وقوع كوارث نفطية في أعالي البحار.

(٨) اتفاقية بروكسل عام ١٩٦٩م بشأن المسؤولية المدنية عن الأضرار الناشئة عن التلوث بالنفط، وقد تضمنت هذه الاتفاقية عدداً من الأحكام ذات الصلة بالتعويضات التي يمكن المطالبة بها في حالة وقوع أضرار ناشئة عن تسرب النفط أو صرفه من السفن، وكذلك الاتفاقية الدولية الخاصة بالمسؤولية المدنية عن الضرر المنجر عن التلوث بالنفط المعدلة، بروكسل، ١٩٦٩م، ثم اتفاقية بروكسل عام ١٩٧١م والخاصة بإنشاء صندوق دولي للتعويض عن الضرر الحادث عن التلوث بالنفط.

(٩) اتفاقية بروكسل عام ١٩٧٠م بشأن صيد وحماية الطيور.

(١٠) اتفاقية باريس عام ١٩٧٢م والمبرمة في إطار منظمة اليونسكو بشأن حماية التراث الطبيعي والثقافي.

(١١) اتفاقية أوسلو عام ١٩٧٢م بشأن منع التلوث البحري من خلال إلقاء النفايات من الطائرات والسفن.

(١٢) اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار عام ١٩٧٢م.

(١٣) اتفاقية واشنطن عام ١٩٧٣م بشأن منع الاتجار الدولي في الأجناس «الحيوانية» المهددة بالانقراض.

(١٤) اتفاقية عام ١٩٧٧م والمبرمة في إطار منظمة العمل الدولية بشأن حماية العمال من الأخطار المهنية الناجمة في بيئة العمل عن تلوث الهواء وعن الضوضاء والاهتزازات.

(١٥) اتفاقية عام ١٩٧٧م والمبرمة بشأن خطر إجراء أية تغيرات في البيئة لأغراض عسكرية أو أية أغراض عدائية أخرى.

(١٦) اتفاقية برن عام ١٩٧٩م بشأن حفظ الأحياء البرية والبيئات الطبيعية.

(١٧) اتفاقية ڤيينا عام ١٩٨٥م بشأن حماية طبقة الأوزون.

(١٨) الاتفاقية الدولية المبرمة عام ١٩٨٦م بشأن المساعدة المتبادلة في حال وقوع حادث نووي.

(١٩) بروتوكول مونتريال بشأن المواد المستنفذة لطبقة الأوزون، مونتريال، ١٩٨٧م.

ومما يشار إليه هنا الإعلان الصادر عن قمة ريو دي جانيرو (قمة الأرض) في يونيو عام ١٩٩٢م، والذي ناقش عدة قضايا منها:

* حماية الغلاف الجوي.
* حماية موارد الأرض.
* حفظ التنوع البيولوجي.
* حماية موارد المياه العذبة.
* تحسين نوعية الحياة وصحة البشر.
* منع الاتجار غير المشروع بالنفايات السامة.
* الإدارة السليمة بيئياً للتكنولوجيا الحيوية والنفايات الخطرة.
* حماية المحيطات والبحار والمناطق الساحلية وترشيد استخدام مواردها الحية.
* تحسين ظروف العيش والعمل عن طريق استئصال الفقر ووقف التدهور البيئي.

ويلاحظ أن الاتفاقيات الدولية اعترفت بحق الدول في مجال استغلال مواردها الطبيعية وممارسة سلطاتها واختصاصاتها، بيد أن ذلك ليس مطلقاً وإنما مقيداً بالحدود المرسومة للحق ولا يجوز لها أن تتجاوزه، فإن هي خالفت ذلك خرجت عن دائرة الحق وتحملت تبعات

ذلك من حيث المسؤولية الدولية عن الأضرار التي تلحق بالأشخاص والممتلكات جرّاء التعدي الضار على البيئة.

وقد تم تأكيد ذلك في مؤتمر الأمم المتحدة الثاني حول البيئة والتنمية الذي عقد في البرازيل سنة ١٩٩٢، حيث نص المبدأ الثاني منه على أن «تملك الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي الحق السيادي في استغلال مواردها وفقاً لسياساتها البيئية والإنمائية وهي مسؤولة عن ضمان ألا تسبب الأنشطة التي تدخل في نطاق ولايتها أو سيطرتها أضراراً لبيئة دولة أخرى أو لمناطق واقعة خارج حدود ولايتها الوطنية».

وما تم تقريره في المبدأ (٢١) من مجموعة مبادئ مؤتمر ستوكهولم لسنة ١٩٧٢ الذي نص على أن «على الدولة مسؤولية ضمان الأنشطة التي تتم داخل حدود ولايتها أو تحت إشرافها لا تسبب ضرراً لبيئة الدول الأخرى أو للمناطق فيما وراء حدود ولايتها الوطنية».

وقد تقرر على ضوء ذلك أن قيام أي شخص طبيعي أو اعتباري خاص أم عام بتلويث الماء أو الهواء أو التربة أو امتناعه عن اتخاذ الإجراءات اللازمة أصولاً لمنع حدوث التلوث من النشاط الذي يقوم به يعرضه لتحمل المسؤولية والتعويض عن الأضرار التي تقع.

هذا على المستوى الدولي، أما على المستوى الإقليمي فنشير هنا إلى ما تم على المستوى العربي بعامة، وعلى مستوى دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية بخاصة.

أما على المستوى العربي فإن مجلس الوزراء العرب المسؤولين عن شؤون البيئة هو الآلية العربية الإقليمية المعتمدة من الدول العربية للتنسيق والتعاون في جميع مجالات البيئة. وتأتي بدايات إنشاء المجلس الوزاري خلال «المؤتمر الوزاري العربي الأول حول الاعتبارات البيئية في التنمية»، الذي عقد في تونس عام ١٩٨٦، وأعدت له الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالمشاركة مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة.

ويعتبر هذا المؤتمر أول مؤتمر عربي وزاري يناقش الترابط والتداخل بين قضايا البيئة والتنمية وتأثير كل منهما وانعكاساته على الآخر.

وقد خلص المؤتمر إلى إقرار الإعلان العربي عن البيئة والتنمية، الذي يتضمن المبادئ والتوجهات الأساسية للعمل القطري والتعاون العربي والدولي في مجال حماية البيئة وتحسينها، وتم تصنيف هذه المبادئ والتوجهات في خمس مجموعات هي البيئة والإنسان، التنمية والبيئة، الوعي البيئي ودور الفرد ودور مؤسسات العلم والتعليم، الهياكل الحكومية لإدارة البيئة وحمايتها، التعاون العربي والدولي. واعتمد المؤتمر يوم صدور قراراته في ١٤ أكتوبر، يوماً عربياً للبيئة، تحتفل به الدول العربية كل عام بصورة تحقق مزيداً من الوعي بقضايا البيئة وارتباطها الوثيق ببرامج التنمية. كما كان من أهم النتائج الإيجابية للمؤتمر الدعوة إلى إنشاء مجلس الوزراء العرب المسؤولين عن شؤون البيئة ومكتب تنفيذي له.

وقد أنشئ مجلس الوزراء العرب المسؤولين عن شؤون البيئة بموجب قرار مجلس جامعة الدول العربية رقم ٤٧٣٨ بتاريخ ١٩٨٧/٩/٢٢. ويهدف المجلس إلى تنمية التعاون العربي في كافة مجالات شؤون البيئة، وتحديد المشكلات البيئية الرئيسية في الوطن العربي وأولويات العمل اللازمة لمواجهتها، فضلا عن الاهتمام بالعلاقات المتشابكة بين البيئة والتنمية خاصة التي يتطلب تناولها بعداً إقليمياً، ولا تندرج بشكل مباشر ضمن مهام واختصاصات المنظمات العربية المتخصصة. وتقوم الأمانة العامة للجامعة (الإدارة العامة للشؤون الاقتصادية، إدارة القطاعات الإنتاجية والبيئة) بمهام الأمانة الفنية للمجلس ومكتبه التنفيذي وما ينبثق عنهما من لجان وفرق عمل.

وقد اعتمد المجلس في اجتماعه التأسيسي عام ١٩٨٧، عدداً من البرامج لترجمة الإعلان العربي عن البيئة والتنمية إلى مجالات تعاون مشتركة بين الدول العربية، ووضع أولويات لتنفيذها. وركز نشاطه في ثلاثة برامج أعطاها الأولوية، وهي برنامج مكافحة التصحر وزيادة الرقعة

الخضراء في الوطن العربي، برنامج مكافحة التلوث الصناعي في الوطن العربي، برنامج التربية والتوعية والإعلام البيئي في الوطن العربي. وتتناول هذه البرامج الثلاثة أكثر القضايا البيئية الملحة في المنطقة العربية، حيث يعتبر التصحر وتدهور التربة مشكلة الوطن العربي الأولي، وأهم أسبابها الانجراف الريحي والمائي للتربة، والرعي الجائر، والرعي المبكر، والتوسع الزراعي في الأراضي الهامشية، وتدمير الغابات، وتملح الأراضي، والاستخدام غير الرشيد للمياه وتدهور نوعيتها، وما يتطلبه ذلك من تضافر الجهود لاستعادة إنتاجية الأرض إلى ما كانت عليه.

كما يتسبب ما تفرزه الصناعة من انبعاثات ومخلفات في قدر مهول من التلوث في الهواء والماء والتربة، نتج عنه أن الصناعة أصبحت أكثر الأنشطة الاقتصادية المسببة للتلوث، وما يقتضيه الأمر، بطبيعة الحال، من مواجهة هذه المخاطر والعمل على الحد منها قبل أن تتجاوز النسب المقبولة لصحة الإنسان وسلامة البيئة. كذلك يعد رسم وتنفيذ سياسة إعلامية وتربوية بيئية وإيجاد الوسائل الكفيلة لإبراز القضايا البيئية التي تواجه الوطن العربي، من الأمور الحيوية التي تستحق عناية خاصة، حتى يتحقق الاهتمام المناسب بها على كافة المستويات، وتشارك فئات المجتمع كلها بشكل أو بآخر في حل هذه القضايا.

كما يقوم المجلس من منطلق التزام الدول العربية بالقيام بمسؤولياتها في الحفاظ على البيئة، في إطار المسؤولية المشتركة والمختلفة للدول المتقدمة والنامية في تعزيز التنمية المستدامة، بمتابعة تنفيذ الاتفاقيات الدولية المعنية بالبيئة وبخاصة: الاتفاقية الدولية لمكافحة التصحر، الاتفاقية الدولية للتنوع البيولوجي، الاتفاقية الإطارية بشأن تغير المناخ، اتفاقية بازل بشأن التحكم في نقل النفايات الخطرة والتخلص منها عبر الحدود، وبروتوكول مونتريال بشأن المواد المستنفذة لطبقة الأوزون. وأوجد المجلس الآليات الكفيلة بتحقيق التنسيق والتعاون اللازم في هذه المجالات وغيرها.

ويتولى المجلس مباشرة متابعة تنفيذ بعض الاتفاقيات مثل: اتفاقية تغير المناخ واتفاقية بازل وبروتوكول مونتريال، وأوكل متابعة تنفيذ البعض الآخر لبعض المنظمات العربية والإقليمية ذات الصلة. مثل: قيام المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والأراضي القاحلة بمتابعة كل من الاتفاقية الدولية لمكافحة التصحر والاتفاقية الدولية للتنوع البيولوجي، وقيام مركز البيئة والتنمية للإقليم العربي وأوروبا بمتابعة الاتفاقية الدولية بشأن الاتجار في الأنواع المهددة من النباتات والحيوانات البرية. كما يحرص المجلس دائماً ومن خلال آلياته على تأكيد حق الدول العربية وسيادتها على مواردها الطبيعية لصالح الأجيال الحالية والقادمة. ويتصدى لمحاولات بعض الدول، استغلال الاتفاقيات الدولية المعنية بالبيئة لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية. كذلك يولي المجلس أهمية خاصة لموضوع التجارة والبيئة وتطوير كفاءة المنتج العربي طبقاً للمواصفات العالمية، كما يتابع التنسيق بين الدول العربية ومع الدول الصديقة لتظل منظمة التجارة العالمية منظمة تسعى لتحرير التجارة وفتح الأسواق أمام صادرات الدول النامية[1] وحماية مصالحها.

أما على مستوى مجلس التعاون الخليجي، فقد أوضح موقع الأمانة العامة لدول مجلس التعاون على الإنترنت ذلك بقوله:

إدراكاً لأهمية التنمية والبيئة، وحرصاً على إيجاد حلول بعيدة المدى لعدد من المشكلات البيئية التي نشأت نتيجة التطورات التي شهدتها دول مجلس التعاون وزاد من حدتها ضعف التكامل بين خطط التنمية والبيئة، وانطلاقاً من التشابه الكبير في الظروف التنموية والبيئية لدول المجلس، اعتمد المجلس الأعلى لمجلس التعاون في دورته السادسة في قمة مسقط ١٩٨٥ وثيقة «للسياسات والمبادئ العامة لحماية البيئة» لتكون المنطلق الأساس في وضع استراتيجيات العمل البيئي في المستقبل لدول المجلس. وقد تضمنت تلك السياسات عدداً من المرتكزات لعل أبرزها:

---

(١) انظر: http://www. arableagueonline. org/las/arabic/print - page. jsp?art - id=205

(١) اعتماد المفهوم الشامل للبيئة بحيث تشمل ما يحيط بالإنسان من ماء وهواء ويابسة وكل ما تحتويه هذه الأوساط من جماد ونبات وحيوان ونظم وعمليات طبيعية وأنشطة بشرية، ووضع نظام ضمن هذا المفهوم لحماية البيئة.

(٢) إنشاء واستكمال الأجهزة التشريعية والتنسيقية ودعم الأجهزة التنفيذية المناط بها تنفيذ أنظمة ومقاييس وقواعد حماية البيئة وتوفير ما تحتاجه من إمكانيات للرصد والمراقبة.

(٣) مراعاة الاعتبارات البيئية وجعل التخطيط البيئي جزءاً لا يتجزأ من التخطيط الشامل في جميع المجالات الصناعية والزراعية والعمرانية، واعتماد مبدأ التقويم البيئي للمشاريع وربط تراخيصها بموافقة الجهة المسؤولة عن حماية البيئة.

(٤) تطوير القواعد والتشريعات والمقاييس اللازمة لحماية البيئة والعمل على توحيدها وترشيد استخدام الموارد الطبيعية والمحافظة على الأحياء الفطرية.

(٥) تنسيق الجهود التي تبذلها الدول الأعضاء بما يمنع من التأثيرات السلبية لمشروعات التنمية والتصنيع التي تقوم بها إحدى الدول على البيئة في الدول المجاورة.

(٦) مراعاة المردود البيئي للمشاريع المرتبطة بالمساعدات الخارجية المقدمة من دول مجلس التعاون لدول أخرى.

(٧) رفع مستوى الوعي المجتمعي بقضايا البيئة وغرس الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية تجاه المحافظة على البيئة.

(٨) العمل على توفير القوى البشرية المسؤولة عن شؤون البيئة، ودعم خطط الإعداد والتدريب.

(٩) الاهتمام بحصر وجمع وتبادل المعلومات البيئية الإقليمية والدولية واستخدامها في عملية التخطيط.

(١٠) تشجيع البحث العلمي للتعرف على المشكلات البيئية، وإعداد دليل بالخبرات المتوفرة في مجالات حماية البيئة.

وقد اهتم المجلس استكمالاً للسياسات والمبادئ العامة لحماية البيئة والتي أقرها المجلس الأعلى، ودعماً للجهود التي تقوم به دول مجلس التعاون في مجال سن القوانين والأنظمة والتشريعات البيئية في إطار العمل البيئي المشترك بإصدار عدة أنظمة استرشادية، لعل من أبرزها:

(١) **النظام العام لحماية البيئة:** وهو إطار شامل يتضمن القواعد الأساسية للمحافظة على البيئة وحمايتها، وقد اعتمد من قبل المجلس الأعلى في مسقط سنة ١٩٩٥م.

(٢) **النظام الموحد للتقويم البيئي للمشاريع:** ويهدف إلى مراعاة المردود البيئي للمشاريع المختلفة بحيث لا تؤثر على البيئة والموارد الحيوية ولا تخل بعجلة التنمية، وقد اعتمد هذا النظام من قبل المجلس الأعلى في مسقط سنة ١٩٩٥م.

(٣) **النظام الموحد لحماية الحياة الفطرية وإنمائها:** ويهدف إلى وضع التشريعات اللازمة لحماية الحياة الفطرية بشقيها الحيواني والنباتي والعمل على إنمائها في مواطنها الأصلية، وتأهيل المناطق المتضررة بيئياً، وقد اعتمد من قبل المجلس الأعلى في الكويت سنة ١٩٩٧م.

(٤) **النظام الموحد للتعامل مع المواد المشعة:** ويهدف إلى وقاية صحة الإنسان وحماية البيئة من أخطار الأشعة والمواد المشعة التي يتعرض لها من المصادر المختلفة وإقرار الحدود المقبولة للتلوث الإشعاعي في المواد الغذائية والأعلاف الحيوانية، وقد اعتمد من قبل المجلس الأعلى في الكويت سنة ١٩٩٧م.

(٥) **النظام الموحد لإدارة النفايات:** ويهدف إلى حماية صحة الإنسان والمحافظة على مقومات البيئة المختلفة من مخاطر المخلفات الصلبة والنفايات السامة التي تتكدس في البيئة وذلك بإدارتها الإدارة السليمة، وقد اعتمد من قبل المجلس الأعلى في الكويت سنة ١٩٩٧م.

(٦) **النظام الموحد لإدارة الكيميائيات الخطرة**: ويهدف إلى ضبط الممارسات في إدارة المواد الكيميائية الخطرة في دول المجلس، وقد اعتمد من قبل المجلس الأعلى في مسقط سنة ٢٠٠١م.

(٧) **النظام الموحد لإدارة نفايات الرعاية الصحية**: ويهدف إلى وضع أسلوب مناسب للمراقبة والتحكم في عمليات إنتاج نفايات الرعاية الصحية الخطرة ومعالجتها وفرزها وتخزينها ونقلها والتخلص منها بطرق آمنة في دول المجلس، وقد اعتمد من قبل المجلس الأعلى في مسقط سنة ٢٠٠١م.

(٨) **المعايير والمواصفات البيئية لجودة الهواء والمياه والتحكم بالضوضاء واللوائح الخاصة بها**، والتي تهدف إلى تحديد مستويات الملوثات في البيئة الداخلية والخارجية في دول المجلس. وقد اعتمدت من المجلس الأعلى في الدورة الخامسة والعشرين في المنامة سنة ٢٠٠٤م.

(٩) **النظام الاسترشادي الموحد للتحكم في المواد المستنفدة لطبقة الأوزون**: يهدف إلى التخلص التام من استخدام المواد المستنفذة لطبقة الأوزون وإحلال البدائل الآمنة وفقاً لأحكام بروتوكول مونتريال وتعديلاته، وقد اعتمد من قبل المجلس الأعلى في أبو ظبي سنة ٢٠٠٥م.

إلى جانب ذلك، تعكف الأمانة العامة بالتعاون مع الدول الأعضاء على إعداد «الاستراتيجية الإقليمية لحماية البيئة ومواردها الطبيعية» والتي سوف تتضمن عدداً من التوجهات الرئيسية وبرامج وخطط ومشاريع عمل تنفيذية وفق برمجة زمنية معينة. وسيتم دمج الاستراتيجيات الوطنية التي تعمل الدول على تطويرها ضمن الاستراتيجية الإقليمية، وبهذا تكون دول المجلس قدمت نموذجاً رائداً ومتكاملاً لتحقيق التوافق والتكامل بين التنمية الشاملة والحفاظ على البيئة[١].

---

(١) انظر موقع الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربي.www. gcc - sg. org .

المبحث السادس

البيئة في التشريعات التي تصدرها الدول لتنظيم شؤونها

وقد اهتمت القوانين في الدول المختلفة بقضايا البيئة وكيفية حمايتها والحد من مشكلات التلوث ومنها الإخلال بالتوازن الطبيعي، والحد من تداول المواد الضارة والخطرة على البيئة، والإشراف على المؤسسات والجهات العامة والخاصة لمنعها من الإساءة إلى البيئة، ووضع القواعد للتعامل مع النفايات الخطرة، وأي تلوث للبيئة، بالإضافة لنشر الوعي البيئي والحرص على المحافظة على البيئة، والنص على المؤيدات والعقوبات التي تضمن الالتزام بما نصت عليه القوانين من أُسس وقواعد لحماية البيئة، وترشيد التعامل معها، والاستعمال لمكوناتها على أساس من قواعد السلامة العامة، وما يصون العناصر البيئية من أي أضرار وأخطار، وبخاصة الماء والهواء والتربة.

وقد نصت هذه القوانين على احترام الاتفاقيات الدولية للمحافظة على البيئة . . . وعلى سبيل المثال: عرف قانون حماية البيئة الأردني الصادر ٢٠٠٧ ـ وهو من أحدث القوانين العربية في مجال البيئة ـ في مادته الثانية البيئة بالمحيط الذي يشمل الكائنات الحية وغير الحية وما يحتويه من مواد وما يحيط به من هواء وماء وتربة وتفاعلات أي منها، وما يقيمه الإنسان من منشآت فيه.

وبيّن أن عناصر البيئة هي الماء والهواء والأرض وما تشتمل عليه بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى الإضرار بالبيئة أو يؤثر سلباً على عناصرها، أو يؤثر على ممارسة الإنسان لحياته الطبيعية أو ما يخل بالتوازن الطبيعي.

وعرّف التدهور بالتأثير على البيئة مما يقلل من قيمتها أو يشوه من طبيعتها أو يستنزف مواردها أو يضر بالكائنات الحية أو الآثار.

وبيّن أن المقصود بحماية البيئة: المحافظة على مكونات البيئة وعناصرها والارتقاء بها ومنع تدهورها أو تلوثها أو الإقلال منها ضمن الحدود الآمنة من حدوث التلوث وتشمل هذه المكونات الهواء والمياه والتربة والأحياء الطبيعية والإنسان ومواردهم.

وعرّف التنمية المستدامة في هذا المجال بالتنمية التي تستخدم الموارد الطبيعية بطريقة تصونها للأجيال القادمة، وتحافظ على التكامل البيئي، ولا تتسبب في تدهور عناصر ومكونات الأنظمة البيئية، ولا تخل بالتوازن بينها.

وقد نص القانون على تأسيس وزارة للبيئة تتولى حماية البيئة، واعتبرها المرجع المختص على المستوى الوطني أو الإقليمي والدولي بجميع القضايا والشؤون البيئية.

ونص في مادته الرابعة على تولي الوزارة تحقيقاً لأهداف حماية البيئة، وتحسين عناصرها المختلفة، وبالتعاون والتنسيق مع الجهات ذات العلاقة المهام التالية:

(أ) وضع السياسة العامة لحماية البيئة وإعداد الخطط والبرامج والمشاريع اللازمة لتحقيق التنمية المستدامة.

(ب) إعداد المواصفات والمعايير القياسية لعناصر البيئة ومكوناتها.

(ج) مراقبة وقياس عناصر البيئة ومكوناتها ومتابعتها من خلال المراكز العلمية التي تعتمدها الوزارة وفقاً للمعايير المعتمدة.

(د) إصدار التعليمات البيئية اللازمة لحماية البيئة وعناصرها وشروط إقامة المشاريع الزراعية والتنموية والتجارية والصناعية والإسكانية والتعدينية وغيرها، وما يتعلق بها من خدمات، للتقيد بها، واعتمادها ضمن الشروط المسبقة لترخيص أي منها أو تجديد ترخيصها، وفق الأصول والقواعد الفنية المعتمدة.

(هـ) المراقبة والإشراف على المؤسسات والجهات العامة والخاصة بما في ذلك الشركات والمشاريع لضمان تقيدها بالمواصفات البيئية القياسية والمعايير والقواعد الفنية المعتمدة.

(و) إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بشؤون البيئة وحمايتها.

(ز) وضع أُسس تداول المواد الضارة والخطرة على البيئة وجمعها وتصنيفها وتخزينها ونقلها وإتلافها والتخلص منها وفقاً لنظام يصدر لهذه الغاية.

(ح) تنسيق الجهود الوطنية الهادفة لحماية البيئة بما في ذلك وضع استراتيجية وطنية للوعي والتعليم والاتصال البيئي، ونقل واستخدام وتوفير المعلومات البيئية واتخاذ الإجراءات اللازمة لهذه الغاية.

(ط) الموافقة على إنشاء المحميات الطبيعية والمنتزهات الوطنية وإدارتها ومراقبتها والإشراف عليها.

(ي) إعداد خطط الطوارئ البيئية.

(ك) إصدار المطبوعات المتعلقة بالبيئة. وتعتبر الوزارة الجهة المختصة بإصدار تقارير عن حالة البيئة في المملكة.

(ل) تعزيز العلاقات بين المملكة والدول والهيئات والمنظمات العربية والإقليمية والدولية في الشؤون المتعلقة بالمحافظة على البيئة والتوصية بالانضمام إليها ومتابعة تنفيذها[1].

وفي المملكة العربية السعودية صدر النظام العام للبيئة ولائحته التنفيذية لسنة ١٤٢٢هـ، ومن أهم أهدافه تحقيق التوازن بين احتياجات البيئة ومتطلبات التنمية، ذلك أن حماية البيئة والحفاظ عليها بل وتطويرها ينبغي ألا يشكل بالمقابل عائقاً رئيسياً لبرامج التنمية الاقتصادية

---

(١) انظر موقع ديوان التشريع والرأي الأردني على الإنترنت: htt://www.lob.govv.jo/vi/laws/print/jop?no=52&year=2006&requertlevwl=1

في المملكة، فالتخطيط البيئي يُعد جزءاً لا يتجزأ من التخطيط الشامل للتنمية في جميع المجالات الصناعية والزراعية والعمرانية وغيرها، حيث ألزمت معظم مواد النظام العام للبيئة ولائحته التنفيذية الجهات المسؤولة عن التخطيط والتنمية الاقتصادية مراعاة التوازن بين اعتبارات البيئة وضرورات التخطيط والتنمية، فقد نصت المادة (١٠) من النظام على أنه «يجب مراعاة الجوانب البيئية في عملية التخطيط على مستوى المشروعات والبرامج والخطط التنموية للقطاعات المختلفة والخطة العامة للتنمية» ونصت المادة (١/٤) من اللائحة على أنه «على كل جهة عامة اتخاذ الإجراءات التي تكفل تطبيق القواعد الواردة في هذا النظام على مشروعاتها التي تخضع لإشرافها، . . .».

وفيما يخص الجزاءات المدنية والجنائية يلاحظ أن المواد (١٧، ١٨) من النظام العام للبيئة ولائحته التنفيذية تُجرّم أعمال التعدي على البيئة، بحيث قررت عقوبات تتراوح بين الغرامة والحبس مع الحكم بالتعويض المناسب وإلزام المخالف بإزالة المخالفة، وقد تصل العقوبة إلى الحبس أكثر من خمس سنوات والغرامة أكثر من خمسمائة ألف ريال أو بكليهما في حالة عودة المخالف لتكرار ما قام به من تعدٍ على البيئة. وقد أعطت المادة (٢٠) من النظام العام للبيئة الاختصاص في النظر بقضايا البيئة لديوان المظالم، حيث ورد فيها أنه «يختص ديوان المظالم بتوقيع العقوبات المنصوص عليها في الفقرة (١) من المادة الثامنة عشرة بحق المخالفين لأحكام المادة الرابعة عشرة من هذا النظام».

ويتبين باستقراء قواعد النظام العام للبيئة ولائحته التنفيذية أنها ذات طابع فني في صياغتها تقوم على المزاوجة بين القواعد القانونية والحقائق العلمية البحتة المتعلقة بالبيئة، هذا إضافة إلى طابعها الدولي، ذلك أن أغلب الممارسات الضارة بالبيئة تمتد آثارها عبر حدود الدول وتتجاوزها بسبب أن من يمارس النشاط قد يكون هو الدولة في بعض الأحيان.

ويقول الأستاذ خالد النويصر معلقاً على المعالجات القانونية في المملكة العربية السعودية: «ويمكن القول إن النصوص القانونية المتعلقة بالبيئة في المملكة على درجة عالية من الإحكام والإتقان في الصياغة،

إلا أنها ما زالت قليلة بسبب حداثة المشكلات البيئية المثارة وتشعب الأضرار الخاصة بالبيئة، لذلك يُقترح عمل مراجعة مستمرة لجميع القواعد القانونية المتعلقة بحماية البيئة بحيث تكون مواكبة لما تواجهه البيئة بصورة مستمرة من أخطار التلوث البيئي. كما يُقترح إدخال التربية البيئية في المناهج التعليمية لجميع المراحل الدراسية والاعتراف في الوقت ذاته بأحقية كل شخص في المملكة برفع الدعوى لدى الجهات المختصة بأي مشكلة بيئية، وتسمى هذه الدعوى في الفقه الإسلامي كما هو معلوم بدعوى الحسبة، حتى ولو لم يكن متضرراً بصورة شخصية منها، وهو ما يُعرف بالدعوى الشعبية التي من شأنها في الحقيقة أن تحمل كل شخص في الدولة سواء أكان مواطناً أم مقيماً مسؤولية الدفاع عن البيئة وحمايتها من الاعتداء عليها بمختلف الطرق والوسائل القانونية[1].

❋ ❋ ❋

(١) انظر موقع صحيفة الاقتصادية الالكترونية على الإنترنت:
http://www. aleqt. com/2007/05/31/article. print.

المبحث السابع
البيئة في قرارات منظمة المؤتمر الإسلامي
والمؤسسات التي تعمل في إطارها

وقد أصدر المؤتمر الإسلامي الأول لوزراء البيئة المنعقد في جدة في الفترة من ١٠ إلى ١٢ يونيو ٢٠٠٢ ما أسماه (الإعلان العالمي الإسلامي للتنمية المستدامة) عالج فيه موضوعات البيئة، وبخاصة حماية البيئة ومواجهة التلوث.

وبعد استعراض واسع للقرارات السابقة التي صدرت عن مؤتمرات القمة ووزراء خارجية الدول الإسلامية وعدد من الإعلانات العالمية في موضوع البيئة قال:

- انطلاقاً من المنظور الإسلامي الداعي إلى تعزيز كرامة الإنسان، وتحقيق عمارة الأرض بالعمل الصالح الذي هو أساس التنمية المستدامة، وترسيخ التكافل الاجتماعي بالحض على إطعام المسكين، ورعاية اليتيم، والحث على إعمار الكون وإصلاحه وتنميته دون إفساد أو تبذير، والتأكيد على العلاقة المتينة بين الأرض والإنسان في النشأة والتنمية.

- ومؤازرةً للجهود الإقليمية والدولية التي تسعى إلى الرفع من مستوى حياة الجنس البشري بواسطة التنمية المستدامة لجوانب الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والبيئية، والصحية، والثقافية، وصولاً إلى حياة إنسانية كريمة تزدهر في بيئة صالحة لتلك الحياة.

- واستلهاماً من التوجهات العامة المضمنة في الدراسة الشاملة التي أعدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة حول البيئة والصحة والتنمية المستدامة بهدف المساهمة بشكل فعال في

مؤتمر القمة العالمي للتنمية المستدامة الذي سيعقد في مدينة جوهانسبرج في الفترة من ٢٩ أغسطس إلى ٤ سبتمبر ٢٠٠٢م، يعلن ما يلي:

المادة الأولى: تكريم الإنسان:

إن الإنسان خليفة الله في الأرض، مكلف بإعمارها، ومسؤول عن إصلاحها، ومحاسب عن إفساد بنيتها والعبث بمقدراتها. والمسلم ملتزم بالحفاظ على البيئة بمفهومها الشامل، عامل على تحقيق التنمية المستدامة لجوانب الخير فيها بإمكاناته المتوفرة وبقدراته الذاتية وبجهوده.

المادة الثانية: مسؤولية الإنسان:

إن أحب الناس إلى الله أتقاهم وأنفعهم للناس، وأبغضهم إليه المفسدون في الأرض، وإن النفع المستهدف يشمل كل عمل صالح ينفع الناس، ويمكث في الأرض، ويشمل تعزيز التكافل الاجتماعي بين البشر، والجنوح إلى السلم، والمساهمة في استتباب الأمن والسلام، والقضاء على الفقر، والبطالة، وتحقيق العدل والإحسان، وهو ما يعني مشاركة الأفراد في تطوير العمل التنموي وتمويله بدوافع دينية ونوازع ثقافية وحوافز إنسانية.

المادة الثالثة: البيئة من منظور إسلامي:

البيئة هبة الله، خلقها سبحانه لتلبية حاجات الإنسان الحياتية، وعلى الأفراد والمجتمعات والدول حمايتها وتنمية مواردها الطبيعية، بما في ذلك الهواء، والمناخ، والماء، والبحر، والحياة النباتية والحيوانية، ولا يجوز في أي حال من الأحول إحداث أي تلوث أو تغيير في عناصر نظام البيئة يخل بتوازنها.

المادة الرابعة: حق الإنسان في بيئته:

من حق الإنسان التعليم والعمل ليسهم في تنمية بيئته، وليوفر لنفسه ولأسرته الحياة الحرة الكريمة، ومن حقه العيش في بيئة نظيفة من المفاسد والأوبئة، لتكون حياته صحية ولائقة، وعلى المجتمع والدولة

أن يوفرا له، وفق الأنظمة المتبعة، هذه الحقوق ليتمتع بإنسانيته الكاملة في ظروف مادية ومعنوية مقبولة، وليتمكن بدوره من الإسهام في التنمية المستدامة لمجتمعه، وللمرأة حقها باعتبارها شريكاً كاملاً في مسيرة التنمية المستدامة.

المادة الخامسة: المعوقات الرئيسة للتنمية المستدامة:

على الرغم من التقدم الكبير الذي حصل خلال الفترة التي أعقبت إعلان ريو في مجال العمل البيئي ومسيرة التنمية المستدامة في الدول الإسلامية، إلا أن هناك بعض المعوقات التي واجهت العديد من هذه الدول في تبني خطط وبرامج التنمية المستدامة، كان من أهمها ما يلي:

أ) الفقر الذي هو أساس لكثير من المعضلات الصحية والاجتماعية والأزمات النفسية والأخلاقية، وعلى المجتمعات المحلية والوطنية والدولية أن تضع من السياسات التنموية وخطط الإصلاح الاقتصادي، ما يقضي على هذه المشاكل بإيجاد فرص العمل، والتنمية الطبيعية والبشرية والاقتصادية والتعليمية للمناطق الأكثر فقراً، والأشد تخلفاً، والعمل على مكافحة الأُمية.

ب) الديون التي تمثل، إضافة إلى الكوارث الطبيعية بما فيها مشكلات الجفاف والتصحر والتخلف الاجتماعي الناجم عن الجهل والمرض والفقر، أهم المعوّقات التي تحول دون نجاح خطط التنمية المستدامة، وتؤثر سلباً في المجتمعات الفقيرة بخاصة والأسرة الدولية بعامة، ومن واجب الجميع التضامن للتغلب على هذه الصعوبات، حماية للإنسانية من مخاطرها وتأثيراتها السلبية على المجتمع.

ج) الحروب والمنازعات المسلحة والاحتلال الأجنبي التي تؤثر بشكل مضر على البيئة وسلامتها، وضرورة تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الداعية إلى إنهاء الاحتلال الأجنبي ووضع تشريعات والتزامات تُحرّم وتُجرّم تلويث البيئة أو قطع أشجارها أو إبادة حيواناتها، ومراعاة الكرامة في معاملة الأسرى طبقاً للقوانين

الدولية، وعدم التمثيل بالموتى، ومنع تخريب المنازل والمنشآت المدنية، ومصادر المياه.

د) التضخم السكاني غير الرشيد، وخاصة في مدن الدول النامية، وتدهور الأحوال المعيشية في المناطق العشوائية وتزايد الطلب على الموارد والخدمات الصحية والاجتماعية.

هـ) تدهور قاعدة الموارد الطبيعية واستمرار استنزافها لدعم أنماط الإنتاج والاستهلاك الحالية مما يزيد في نضوب قاعدة الموارد الطبيعية، وإعاقة تحقيق التنمية المستدامة في الدول النامية.

و) عدم توفر التقنيات الحديثة والخبرات الفنية اللازمة لتنفيذ برامج التنمية المستدامة وخططها.

ز) نقص الخبرات اللازمة لدى الدول الإسلامية لتتمكن من الإيفاء بالالتزامات حيال قضايا البيئة العالمية، ومشاركة المجتمع الدولي في الجهود الرامية لوضع حلول لهذه القضايا.

المادة السادسة: تحديات القرن ٢١:

أ) إيجاد مصادر التمويل اللازم لتحقيق التنمية المستدامة في الدول النامية، والتزام الدول الصناعية بزيادة الدعم المقدم منها للدول النامية ليصبح (١,٥٪ من الناتج الوطني).

ب) إعداد البرامج التنموية والصحية والتعليمية للشعوب الأقل نمواً، فالدولة والمجتمعات المحلية والإقليمية والوطنية والمنظمات ذات الاختصاص، تشترك في المسؤولية ـ على تفاوت بينها ـ وهي مطالبة بالمساهمة في رعاية الطفولة والأمومة، وتأسيس البُنى التحتية والمرافق، وذلك بتمويل برامج التنمية المستدامة، ووضع الخطط والسياسات الفاعلة في هذا المجال، وتقاس أهلية هذه الأطراف جميعاً وكفاءتها، بمقدار ما تقدمه من خدمات في هذه المجالات الحيوية، وبمقدار عنايتها بتطوير برامج العمل التنموي على المستويين الحكومي والشعبي ومؤسساته.

ج) تحقيق التكامل وتشجيع الاستثمار الداخلي والأجنبي من خلال إيجاد شراكة حقيقية بين الدول الصناعية والدول النامية، وتحقيق فرص أفضل لمنتجاتها للمنافسة في الأسواق المحلية والعالمية من خلال منظمة التجارة العالمية.

د) إيجاد وسائل تمويل جديدة لدعم جهود التنمية للدول النامية.

هـ) نقل وتطويع التقنيات الحديثة الملائمة للبيئة وتشجيع الباحثين، وتوفير إمكانات العمل العلمي لهم باعتباره من أسباب تطوير العمل التنموي واستمراره، ويرتبط بذلك نشر الوعي بأهمية التفكير العلمي والبحث في مجالات التنمية المستدامة، وتطوير وسائل العمل في هذا المجال، ونقل المجتمع بذلك إلى مراحل متقدمة من الرقي والتنمية في وقت أسرع وبتكلفة أقل.

و) حماية التراث الحضاري: للتراث الحضاري دور أساس في عنصر التنمية المستدامة لكونه يُسهم في تأكيد الذاتية الثقافية، ويحافظ على خصوصياتها، ويحمي هويتها من الذوبان، ويساعد على بناء الشخصية المستقلة للأفراد والجماعات، ويمنح العمل التنموي دفعة ذاتية أقوى في الدفاع عن الشخصية الوطنية والدينية، وصيانة المستقبل المشترك، ولذا فإن التأكيد على الأبعاد الروحية والأخلاقية التي تدعو إليها الأديان السماوية يؤثر إيجابياً في الدفع بالتنمية نحو الخير والعمل الصالح والتكافل الاجتماعي.

ز) التضرر من الإجراءات التي يتخذها المجتمع الدولي لمجابهة قضايا البيئة العالمية ومسؤولية المجتمع الدولي في مساعدة الدول الإسلامية المتضررة.

ح) تأمين مشاركة كاملة وفعالة للدول النامية داخل مراكز اتخاذ القرار والمؤسسات الاقتصادية الدولية وتعزيز الجهود التي تهدف إلى جعل دواليب الاقتصاد العالمي أكثر شفافية وإنصافاً واحتراماً للقوانين المعمول بها على نحو يمكّن الدول النامية من رفع التحديات التي تواجهها بسبب العولمة.

المادة السابعة: المنظور الإسلامي للتنمية المستدامة:

التسيير الإداري والقانوني:

أ) تحقيق العدل الذي دعا إليه الإسلام بين الشعوب وبين فئات المجتمع من خلال إيجاد نظام عالمي عادل تُطبق فيه القرارات الدولية من غير تمييز ويضمن إنهاء الاحتلال الأجنبي وتعزز فيه المؤسسات الإقليمية والدولية وتمكّن من القيام بمسؤولياتها في إنهاء الاحتلال الأجنبي وحفظ الأمن والسلم الدوليين.

ب) إيجاد نظام عالمي للتسيير الإداري والقانوني تبني عليه الدول أنظمتها الوطنية بما يحقق مشاركة فعالة لجميع قطاعات المجتمع في عمليات التخطيط والبناء نحو التنمية المستدامة.

ج) تعزيز دور مؤسسات الأمم المتحدة، وإيجاد المناخ الملائم لتكوين شراكة حقيقية بين الدول من خلال نظام عادل للتجارة العالمية يحل محل نظام الديون الذي بات يستنزف خيرات شعوب الدول النامية.

د) ضرورة قيام المجتمع الدولي بردع التصرفات والسياسات والممارسات المؤثرة على البيئة والإنسان والمعرقلة لمسيرة التنمية للأفراد والجماعات، والتي تشمل قتل البشر، وهدم المنازل، وتهديد الموارد الطبيعية، وتلويث البيئة بالأسلحة الفتاكة، ونزف مصادر المياه، والمخالفة المعتمدة للقوانين الدولية والأعراف الإنسانية واستخدام قاعدة الموارد الطبيعية بإسراف وتبذير دعماً لأنماط الاستهلاك غير الرشيدة.

هـ) تطبيق قرارات مؤتمر مراكش للأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة الإطار للتغيير المناخي تطبيقاً كاملاً، بما في ذلك تقديم تقرير المتابعة إلى القمة العالمية للتنمية المستدامة.

و) إعداد النشء الصالح المدرك لمسؤولياته تجاه البيئة، والحفاظ على القيم الأخلاقية والدينية التي تكفل الحفاظ على الأسرة والمجتمع بعيداً عن التطرف والتمييز بين الأجناس والأديان والثقافات[1].

❋ ❋ ❋

(١) انظر موقع الإيسيسكو (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة) على الإنترنت. المجلة الاقتصادية الالكترونية: http://www. aleqt/com/2007/05/31/article - 8966. print.

خلاصة وتعليق

وواضح أن هذا الإعلان صياغة متقدمة وعرض متميز لأهم مبادئ الإسلام في مجال التعامل مع قضايا البيئة، وتحقيق التنمية المستدامة، في إطار تحقيق طموحات العالم الإسلامي وحماية مصالحه، وضبط العلاقات الدولية في هذا المجال وغيره مما يتفق مع المحافظة على الهوية الإسلامية لمجتمعاتنا، ويصون مسيرة البشرية في التعامل مع هذه القضايا من التعرض لمصالح الدول الأضعف، والإساءة لمبادئ العدل والتوازن في التعاون معها في هذه المجالات.

وإن ما قدمه هذا البحث في مباحثه الأربعة الأولى تأصيل فقهي عميق لكثير مما ورد فيه من مبادئ وتصورات وأفكار، وهذا يتطلب مزيداً من الدراسات والبحوث والعمل العلمي التفصيلي لإثراء هذه المسيرة على المستوى الدولي والإسلامي والإقليمي والمحلي... وأقول هنا بشكل أكثر تحديداً أن الناظر في نصوص الاتفاقيات والقوانين التي استعرضناها سابقاً يلاحظ أنها تهدف إلى منع التلوث البيئي والحد من الإخلال بالتوازن البيئي نتيجة الممارسات الخاطئة في التعامل مع البيئة ومكوناتها المتعددة، وذلك نظراً لما يسببه هذا التلوث وهذا الإخلال بالتوازن من إضرار بالحياة الإنسانية.

وهذا أمر يجعل من هذه الإجراءات أمراً مطلوباً شرعاً، وبقدر استفحال هذا التلوث وهذا الإخلال وزيادتهما يزداد طلب منعه شرعاً، لكثرة النصوص الشرعية التي دعت إلى الاهتمام بمصالح الناس ونهت عن الإضرار بهم. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ

(١) الأنبياء: ١٠٧.

وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وقال ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[3].

وعلى ضوء هذه النصوص وأمثالها استخلص العلماء مقاصد الشريعة في درجاتها الثلاث: الضروريات والحاجيات والتحسينيات. أما الضروريات فقد بينوا أن المراد بها حفظ الكليات الخمس: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، والحاجيات وهي الأمور التي لا بد منها لتكون الحياة الإنسانية وتستمر دون حرج أو مشقة، والتحسينيات والكماليات هي الأمور التي بها تكمل الحياة الإنسانية وتُحسن... فكل أمر يقع في الحياة الإنسانية يكون طلبه أو النهي عنه بقدر تعلقه بالأمور السابقة في درجاتها الثلاث تأثيراً إيجابياً أو سلبياً[4].

وأما التعاون في تحقيقها على مستوى المجتمع والدول فهو مطلوب بقدر ما يؤدي التعاون فيها إلى التأثير في إيجادها. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[5].

ويأتي فعل الرسول ﷺ في حلف الفضول ليدل على حكم التعاون في تنفيذ هذه الاتفاقيات الدولية بصفة إجمالية. فالرسول عليه أفضل الصلاة والسلام يقول بخصوص هذا الحلف الذي تحالفت فيه بعض القبائل العربية قبل الإسلام وتعاونت على نصرة المظلوم وإغاثة الملهوف ومساعدة المحتاج: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»[6].

ولذلك لا يوجد أي حرج شرعي من العمل والتعاون والتنسيق مع

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) سبق تخريجه. انظر: ص ١٩ من هذا البحث.

(٣) أخرجه مسلم. انظر مسلم بشرح النووي: ٦/٢.

(٤) انظر بحثي بعنوان: المصالح المرسلة. تأصيلها وتطبيقاتها في ميادين الحياة الإنسانية، المقدم للدورة الخامسة عشرة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي: ١٣٨/٤ - ٢١٠.

(٥) المائدة: ٢.

(٦) سيرة ابن هشام. القسم الأول: ص ١٣٣.

المؤسسات البيئية الدولية، وتنفيذ الاتفاقيات الدولية على أساس من الحماية لمصالح البشر على هذه الأرض دون حيف أو ظلم أو إخلال بالتوازن بالنسبة لحقوق الشعوب الإنسانية ومصالحها، بالإضافة إلى تقديم المعالجات الإسلامية لمشكلات البيئة وقضايا التنمية المستدامة، وهذا ما يمكن ضمانه من خلال المشاركات الفاعلة لمندوبي الدول الإسلامية في الهيئات والمؤتمرات الدولية، وهذه المشاركات فرصة طيبة مباركة لعرض الشمول في النظرة الإسلامية في التعامل مع قضايا البيئة والتنمية المستدامة والسبق فيها، وهذا يتطلب أن يكون من المشاركين في هذه الوفود بعض المطلعين على الإنجاز الإسلامي بهذا الخصوص وبخاصة أن الأمر لم يقتصر على التأصيل العلمي والتأكيد على المبادئ والأفكار إنما انتقل إلى التطبيق والممارسة في صورة لم تعرفها المجتمعات الإنسانية في مسيرتها الطويلة وهو ما يسجل بكل إشادة واعتزاز للحضارة الإسلامية كما أوضحت المباحث الأربعة الأولى من هذا البحث إن كان ذلك على مستوى النظرة الإسلامية الشاملة للموضوع أو على مستوى التقعيد الفقهي التشريعي في إدارة أحوال الأمة وواقع مجتمعاتها، وعلى مستوى التطبيق والممارسة في صور مشرقة اهتمت بالتأصيل العقدي في الفكر والوجدان والسلوك والشمول في النظرة من ناحية، والتفصيل والسبق في التنظير والتطبيق من ناحية أخرى، مما يتطلب جهوداً تعريفية واسعة على مستوى الإعلام المعاصر، وباللغة التي تفهمها المجتمعات المعاصرة ليعرفوا ما قدمته هذه الحضارة العظيمة من إنجازات سابقة وإبداعات رائعة ... وهو من خير الأساليب في الدعوة إلى دين الله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

والله الموفق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي

إعداد
الأستاذ الدكتور عبد العزيز عزت الخياط
وزير الأوقاف بالمملكة الأردنية الهاشمية سابقاً
بحث مقدّم إلى مجمع الفقه الإسلامي الدولي
في دورته التاسعة عشرة المنعقدة في إمارة الشارقة

بسم الله الرحمن الرحيم

البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد فهذا بحث عن البيئة من منظور إسلامي مقدم إلى مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورته التاسعة عشرة، في إمارة الشارقة، ضمن الموضوعات المقررة.

راجياً من الله التوفيق.

ا. د. عبد العزيز عزت الخياط

عميد كلية الشريعة بالجامعة الأردنية سابقاً

ووزير الأوقاف الأردني سابقاً

١٨ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ،

٢٢ حزيران ٢٠٠٨م

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم
الإسلام والبيئة

البيئة:

البيئة هي «كل ما يحيط بالإنسان أو الحيوان أو النبات ويؤثر في تكوينه أو على نموّه أو سلوكه»، أو «مجموعة الظروف الخارجية التي تؤثر على الكائن الحي». وتختلف البيئات فمن بيئة طبيعية إلى بيئة اجتماعية إلى بيئة ثقافية إلى بيئة صناعية إلى بيئة اقتصادية إلى بيئة جمالية، وسوف أتناول البيئة الطبيعية والصناعية وأثرهما على الإنسان وجمال الحياة. متحدثاً عن عناية الإسلام بالبيئة واستخداماتها وتنمية ثرواتها، وحمايتها من أي تلوث يصيبها، والأرض بتربتها وجغرافيتها وتكوينها، وحرارةً واتجاهَ أعاصير، وما تسوقه من أمطار، والهواء وتنقيته وحمايته من التلوث. ومتناولاً كذلك البيئة الصناعية وما تُحدثه من تلوثات، والمياه وما يعتريها من تلوث وضرورة حمايتها منه، وما ينتج عن استعمالاتها من آثار سلبية على البيئة، وحرصاً على سلامة الإنسان. والإسلام معني به، وقد نزلت تعاليمه لجعل حياة الإنسان سعيدة هانئة نقية نظيفة، وتوفير السعادة والطمأنينة والصحة والأمن له.

فالبيئة الطبيعية تتناول الأرض وتربتها وجغرافيتها وتكوينها الجيولوجي ويشمل تكويناتها الصخرية والرواسب السطحية، والتراكيب الجيولوجية كالصدوع والشقوق والجُدَد البيض والحمر والغرابيب السود (أي الطرق والجبال) وما يحدث فيها من تصدعات وفيضانات وانزلاقات، والمناخ باتجاهات الرياح والطاقات الحرارية والأمطار والأعاصير، كما يشمل الغطاء النباتي كالغابات والمناظر الجميلة والخضرة الماتعة والحيوانات التي تطير والحيوانات التي تدب على الأرض أو تعيش في المياه.

والبيئة الصناعية التي تكون في استعمالات الأراضي أو في بنية تحتية تشتمل على تمديدات المياه وإدارة النفايات، وتصريف مياه الأمطار والمجاري، ومصادر الطاقة المختلفة، ومصادر التلوث الصناعي، وحجم التلوث في الأرض والهواء والمياه الجوفية، وما ينتج عن المصانع والمركبات والاحتراقات والغاز واستعمال المبيدات والأسمدة. كما تشمل المياه العادمة المنزلية والصناعية والزراعية ومياه الأمطار والسيول التي تحمل معها الزبد الرابي والأتربة المجروفة. وتشمل ما يحدث من ضجيج تسببه الطائرات والمركبات والميكروفونات والمكبرات والإذاعات وضجيج صالات الأفراح.

والبيئة الاجتماعية تكون في المدارس ومواقعها، والمنتزهات العامة، والخدمات الترفيهية كالملاهي وعلب الليل وصالات الفنادق، أو الترويحية كالملاعب والمدن الترويحية، أو مناطق العمل وأسواق التجارة.

والبيئة الاقتصادية تكون في الطبقات الاقتصادية والأغنياء المترفين، والفقراء الكادحين والفقراء المسحوقين، مما يسبب مستويات مختلفة من الدخل.

والقرآن كتاب الإسلام المنزَّل، فصل الله فيه أحكاماً كثيرة تتعلق بذاته، في أمور ثابتة لا تتغير كأصول العبادات والزواج والميراث والأخلاق وقواعد العلاقات البشرية والمعاملات، وفي أمور متغيرة تخضع لظروف الحياة وتقلبات العادات وتعدد البيئات واختلاف البلاد وجغرافيتها وطبيعتها، ولهذا لا نستغرب أن نستعرض أحكاماً للإسلام في البيئة وما يتعلق بها فليس الإسلام ديناً كهنوتياً منفصلاً عن الحياة.

ويتناول الحديث الموضوعات التالية:

أولاً: النصوص القرآنية والنبوية المتعلقة بما يجري في هذا الكون من حولنا، وما خلق الله من عجائب المخلوقات حيوانية أو نباتية أو جامدة.

ثانياً: بيان معنى البيئة وتلوثاتها، وكيف يمكن حمايتها من هذا

التلوث ورفع الضرر عن الإنسان منها.

ثالثاً: ضرورة استخدام ما هيأه الله للإنسان في الكون لمنفعته، واستخدام هذه الموجودات بما يحقق له رفاهه وصلاحه، وما ورد في ذلك من النصوص الشرعية المتعلقة ببيئة الإنسان.

النصوص التي تناولت البيئة:

أورد الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آيات كثيرة توضح ما خلق الله للإنسان في هذا الكون من نعم وفيرة، ومخلوقات عديدة، تُكوّن البيئة التي يعيش فيها. يتأمل الإنسان للإيمان بالخالق عز وجل، ويستفيد منها ليحيا الحياة النقية النظيفة المثلى قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

بيئة الفضاء:

قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾[2]، وقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾[3]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾[4]، وقال ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾[5]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾[6]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾[7].

---

(١) الأنفال: ٤٢.
(٢) الأنعام: ٩٦ ـ ٩٧.
(٣) الرحمٰن: ٥.
(٤) الحجر: ١٦.
(٥) الأنبياء: ٣٢.
(٦) النحل: ١٢.
(٧) ق: ٦.

يشعرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة بنوع من أنواع البيئة التي نحيا فيها، وهي نعم السماء والنجوم والفضاء والشمس والقمر وما يمكن أن يراه الإنسان ويلمسه من الزينة والجمال في هذه البيئة الواسعة البهيجة. وجعلها تحت تصرفه حسب ما يترتب على البشر من المنافع والمصالح، يتمتعون بتعاقب الليل والنهار، وحرارة الشمس ودفئها وطاقتها، وتأثير القمر على الأرض بنوره ومدِّه وجزره في البحر، قال الألوسي المفسر «على أن التسخير مجاز لنفعكم حال كونها مسخرات لما خُلِقت له مما هو طريق لنفعكم»[1].

وقال الطبري المفسر: سخر لكم الليل والنهار يتعاقبان عليكم، هذا لتصرفكم في معاشكم، وهذا لسكنكم فيه، والشمس والقمر لمعرفة أزمانكم وشهوركم وسنينكم وصلاح معاشكم، والنجوم مسخرات لكم بأمر الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر»[2].

ضياء الشمس ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وما في الشمس من طاقة هائلة متجددة تحفظ حياة الإنسان بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص فيهلكه، وتمد الحياة بالغذاء، وتعطي من عناصرها ما يبقي على عناصر الحياة الإنسانية جميعها، والليل للسكن والنهار للعمل، والبيئة الليلية النهارية لمعرفة الزمن وفائدة النبات، وتحولات الأرض. والشمس والقمر لحساب السنين ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[3].

والبيئة الجمالية في النجوم والسماء وما تعكسه على الأرض من زينة وبهاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾[4].

وقال سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[5]، والسماء كل ما

---

(١) الألوسي، روح المعاني ٣٤٩/٤.
(٢) الطبري، جامع البيان عن تفسير القرآن ٥٠٦/٤.
(٣) البقرة: ١٨٩.
(٤) الحجر: ١٦.
(٥) الأنبياء: ٣٢.

علانا، وقد اكتشف علماء الفلك بيئة فلكية من حلقة من الكويكبات تضرب نطاقاً حول المجموعة الشمسية بأسرها، وعندما يضطرب مسار أي كويكب تهوي نحو الشمس وتصبح مذنباً قادماً من الفضاء، ولكنه يصطدم بالغلاف الخارجي الذي يحيط بالأرض، فإذا دخل فيه ابيض من شدة الحرارة الناجمة عن الاحتكاك بالهواء، فالله جعل الهواء طبقة تحفظ الأرض وبيئتها، وهي السقف المحفوظ ولولاه لامتلأت الأرض بالحجارة والشهب في ثوان، أو لاشتعل فيها كل شيءٍ قابل للاحتراق، يضاف إلى ذلك طبقة الأوزون التي تحفظ سكان الأرض من تذبذب المناخ واضطرابه.

بيئة الأرض:

وردت النصوص في بيئة الأرض وما فيها من نعم وخيرات ليحيا الإنسان حياة طيبة ويستثمر خيراتها، ويسعد بها ولا يشقى.

ونتناول بعض هذه النصوص ـ فهي كثيرة ـ فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[2].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا

---

(١) يس: ٣٣ ـ ٣٥.

(٢) يس: ٧١ ـ ٧٣.

(٣) الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩.

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[2].

وقوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[3].

وقوله في آية جامعة: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[4].

تشير هذه الآيات إلى البيئة التي خلقها الله للإنسان والنِّعم التي أنعمها عليه، فكل ما في الأرض من خيرات؛ من تمهيد الأرض للسكنى والعيش، ومن كثرة الموارد المائية المالحة والعذبة، وما يخرج منها من مأكل ومشرب وملبس وزينة، ومن البحار التي تمخر فيها السفن، وفيها ما لا يحصى من مخلوقات وخيرات، وفي الأرض جبال رواسي، ومن ثروات معدنية، وحجارة للأبنية، ومن أشجار وحدائق ذات بهجة وجنائن معلقة وغير معلقة، وجنات معروشات وغير معروشات، وثمار مختلفة الطعوم والألوان والروائح والفوائد، كلها مهيئة لصالح الإنسان وبقائه وتحسين صحته وبيئته ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا

---

(١) طه: ٥٣ ـ ٥٤.
(٢) فاطر: ١٢.
(٣) النمل ٦١.
(٤) الحجر: ١٩ ـ ٢٢.

﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[1] .﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2].

الاستفادة من البيئة:

خلق الله هذه الخيرات، وأوجد لنا بيئة طبيعية نقية، متكاملة متوازنة، مناخاً طيباً وهواءً نقياً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[3]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[4]. وتربةً في كل تكويناتها وتراكيبها ومياهها وعناصرها ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾[5] .﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[6] .﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[7] .﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[8]. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[9].

وحيواناً وأنعاماً ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[10] .﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

---

(١) عبس: ٢٤ ـ ٣٢.
(٢) إبراهيم: ٣٤.
(٣) الأعراف: ٥٧.
(٤) الروم: ٤٨.
(٥) الرعد: ١٧.
(٦) النازعات: ٣٠ ـ ٣٣.
(٧) النحل: ١٣.
(٨) النحل: ١٥.
(٩) الحديد: ٢٥
(١٠) المؤمنون: ٢١ ـ ٢٢.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

وطاقاتٍ حرارية، وموارِدَ مائية، وتربةً صالحة، وغاباتٍ وأشجاراً وحيواناً، وهواءً نقياً، يحمل لكم طائراتكم وصواريخكم ومركباتكم في الهواء كما يحمل سفنكم في البحر ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، كل ذلك من أجل أن ينعم الإنسان بهذه البيئة، وتبقى خلقته سوية سليمة صالحة نافعة ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[3] ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[4].

وعلى الإنسان أن يستفيد من هذه البيئة، وأن يحافظ عليها، ولا يؤذيها ولا يفسدها، ولا يشوه جمالها، ولا يذهب بنقائها، ولا يتلف منافعها، ولا يُضَيِّع ثرواتها، ولا يهلك حيوانها، بل يحميها من التلف والعدوان والإسراف والتبديد والإفساد والعوارض والآفات قال عليه الصلاة والسلام «أصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم»[5] وقال: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسب يده»[6]، وقال: «ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له صدقة»[7]، وقال: «مَن أحيا أرضاً ميّتة فهي له»[8]، وفي رواية «فله فيها أجر»[9]، وصدق الله سبحانه ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[10].

---

(١) إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.
(٢) النحل: ٨.
(٣) القيامة: ٣٨.
(٤) غافر: ٦٤.
(٥) كنز العمال: ٤٢١١١.
(٦) رواه النسائي وابن حنبل والبيهقي.
(٧) رواه الترمذي وابن حنبل والبيهقي.
(٨) رواه أبو داود والترمذي وابن حنبل.
(٩) رواها النسائي وابن حبان.
(١٠) يس: ٣٥.

التحذير من إفساد البيئة

جاءت النصوص الكثيرة محذرةً من إفساد البيئة ومخاطر هذا الإفساد وأسبابه، والنصوص القرآنية لا تحريف فيها ولا تبديل ولا تغيير، وهي المعتمدة في الاستشهاد، والإنسان المسلم ملزم بالأخذ بها، لأنه ليس نصاً دينياً فحسب، بل لأنه نص ثابت منهجي معجز، من لدن خالق حكيم مدبر عالم الغيب قدير، وما دام معجزاً فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1].

حذر الإسلام قرآناً وسنة من فساد البيئة وإفسادها، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾[2]، والمراد بالبرّ ـ كما يقول المفسرون ـ الفيافي، وبالبحر القرى والأمصار، وهما كلمتان أعم فالبر: اليابسة المعروفة، والبحر: المعروف بمحيطاته ومياهه وأنهاره وأجوافه، وقال عطاء (أحد كبار التابعين) «المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى وبالبحر جزائره»[3]. وظهور الفساد بانقطاع المطر والثمار ونقص الأموال والقحط[4]، وكثرة السيول الجارفة والصواعق الحارقة المهلكة، والأمراض التي لم تكن معروفة من قبل كالإيدز والسرطان والنيل المتصدع.

وذلك بسبب كسب الإنسان وفعله السيئ، بهذه الملوثات التي أوجدها ونشرها نتيجة الصناعات والمصانع والمخترعات، وبالنفايات الضارة المليئة بالجراثيم أو النفايات الذرية التي أودعها باطن الأرض أو رماها في البحر، أو بالمعاصي والمنكرات والمظالم التي أفسد بها حياته، وأضاع أمنه وطمأنينته، ولوث بيئته، مما أدى إلى ظهور الأمراض والآفات الاجتماعية التي لم تكن من قبل، قال العلماء: «من

---

(١) الحجر: ٩.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤٣٥/٣.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤٣٥/٣.

عصى الله في الأرض فقد أفسد الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة» ولهذا جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: يا معشر المهاجرين: خمس خصال إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا (الأمراض الوبائية المؤلمة المزعجة الحاصدة للأرواح) ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أُخذوا بالسنين (المجاعة والقحط وشدة الجدب وذهاب البركة من الزروع والأزمات الخانقة) وشدة المؤونة (الأثقال والهموم والأحزان) وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاّ سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم (كالبترول والتجارة والصناعة والأسواق الحرة والموانئ الحرة ومناجم الذهب) وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى ويتخيروا فيما أنزل الله إلاّ جعل الله بأسهم بينهم»[1].

والظلم من أعظم المفاسد التي تستدعي فساد البيئة، والعدل إذا أقيم كثر الخير ونشط الناس للعمل، ومطروا بالمطر الصيِّب، ورزقوا بالأقوات من كل مكان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]، ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾. وهو مصداق قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[3]، وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ

---

(١) رواه ابن ماجه واللفظ له ورواه البزار والبيهقي ورواه الحاكم بنحوه من حديث بريدة وقال: صحيح على شرط مسلم. الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ٥٦٩/٢.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) النحل: ١١٢.

ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾[1]، والكفران بأنعم الله هو جحودها بعدم العمل بها، وبعدم عمران الأرض وبإهمالها، وعدم طاعة الله، فأصابها الجوع، لأنها أهملت الأرض، والإسلام يدعو إلى الاستفادة من البيئة قال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، وقال ﷺ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»[3]، والجوع نقص الثمر بقلة المطر، وكثرة الأوبئة لكثرة الملذات والإسراف، وإصابة الخوف والضعف والهوان وتسلط الغير، بسبب الكفران بأنعم الله فلم تستعدَّ، وإهمالها فلم تجاهد، وكسلها فلم تعمل ولم تتق الله.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[4]، قال المفسرون ـ وأيدهم التاريخ ـ «كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروا بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ثم أعرضوا عن أمره واتباع رسله فعوقبوا بإرسال السيل عليهم والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر»[5]، والمعاقبة تحدث للأمة التي تهمل طاعة الله وعبادته، وكل عمل مفيد عند الله عبادة، فإصلاح الأرض وبناء السدود والزراعة والإنبات والحرث من الأمور المادية مثل اتباع الأخلاق العالية والإحسان إلى الناس، والعدل وتجنب الظلم، والأمانة والبعد عن الخيانة، والجهاد وعدم القعود عنه... كل ذلك عبادة، فإذا لم تُفعل وتُؤدَّ كانت النتيجة أن ترتبط

---

(١) آل عمران: ١١٧.

(٢) الجمعة: ١٠.

(٣) كنز العمال: ٣٠٣٩.

(٤) سبأ: ١٥ ـ ١٧.

(٥) حاشية الجمل على الجلالين ٤٦٧/٣. تفسير ابن كثير ٥٣٠/٣.

الأسباب بالمسببات، فإذا قلنا إن القحط الذي يصيبنا، والركود الاقتصادي الذي يقع علينا، وكثرة الأمراض التي تنتابنا، وتسلط اليهود علينا، وسيطرة الغربيين وأمريكا علينا وانتهابهم لخيرات بلادنا، إذا قلنا إن ذلك ناشئ عن معصيتنا فهذا صحيح ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ فالباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾ سببية أي بسبب كفرهم، والكفر هنا نكران النعمة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ[1] كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ[2] ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾[3] فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾[4] فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾[5] فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾[6] وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ[7] قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ[8] ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ[9] ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾[10] قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[11].

فهؤلاء قوم أحسنوا في أرضهم وزراعتهم، فحسنت بذلك بيئتهم بنبات الزرع وحسن الإنتاج، فنووا أن يمنعوا حق الله وحق المجتمع حق

---

(١) بلوناهم: اختبرناهم.

(٢) ليصرمنها مصبحين: ليقطعون ثمرها في الصباح.

(٣) أي لا يفرزون منها حق الزكاة ليؤدوه إلى الفقراء.

(٤) أي كالأرض المقطوع شجرها.

(٥) أي قاطفين للثمر من صرم بمعنى قطع وقطف.

(٦) أي لا تعطوا الفقراء حق الله منها، فكان تخافتهم حتى لا يحس بهم الفقراء فيدخلوا بستانهم فيطلبوا منهم. وقد كان أبوهم يعطي الفقراء منها.

(٧) حرد: منع للفقراء.

(٨) أي لما رأوها سوداء محترقة قالوا لقد تهنا عن بستاننا.

(٩) أي استدركوا أمرهم فعلموا أنه بستانهم فقالوا إنا لمحرومون من ثمرها.

(١٠) قال خيرهم: لولا تسبحون الله تائبين.

(١١) القلم: ١٧ ـ ٣٣.

إخوانهم المساكين، وهذا إفساد للبيئة الاجتماعية، فأذهب الله عنهم حسن البيئة الطبيعية لذلك، واعترفوا بذنبهم فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي عاصين حتى أصابنا ما أصابنا، وأمّلوا من الله أن يبدلهم خيراً من جنتهم التي بادت، ولكن هيهات فقد فات الأوان ولات حين مندم، فحق عليهم العذاب ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾. وصدق الله ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾[1] فلا تستغربوا بعد ذلك أن فسدت عليكم بيئتكم.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾[2] وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾[3] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا[4] فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾[5][6].

وما أكثر الأعاصير والزلازل والطوفان والقحط والأمراض التي تنشأ عن المعاصي كالإيدز من الشذوذ، والسيلان من الزنا، والنيل المتصدع والبلهارسيا والملاريا وغيرها من فساد البيئة، وقد قال ﷺ مصداقاً للحديث الذي سبق أن ذكرناه «لا تزال أمتي بخير ما لم يفشُ فيهم الزنا فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب»[7]، وفي رواية ابن ماجه عن عبد الله بن عمر من حديث، أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة» أي عمَّ الفقر واشتدت الأزمات وانتشر الذل والضعف[8].

---

(١) القلم: ٤٤ ـ ٤٥.
(٢) الطاغية: الرجفة وهي الزلزلة الشديدة.
(٣) صرصر: شديدة الصوت عاتية أي مهلكة
(٤) حسوماً: متتابعات.
(٥) قرى لوط.
(٦) أي زائدة في الشدة. من سورة الحاقة: ١٠.
(٧) رواه أحمد بن حنبل.
(٨) الترغيب والترهيب ١٦٩/٣.

حماية البيئة:

قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1].

الأمانة هي الفرائض والحدود، والأمانة أبت أن تحملها السموات بكل ما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب وفضاء، وبكل ما يحدث من سحب وأمطار ورياح وأعاصير، وقد عرض عليها الله أن تحملها، وأبت الأرض كذلك بنباتها ووديانها وأنهارها ومياهها وبحارها وخيراتها، وأبت الجبال أيضاً أن تحمل الأمانة وهي الجبال الراسيات، لا عدم طاعة لله عز وجل وهو خالقها، وما كان لها أن تعصيه، ولكن إشفاقاً من حملها وخوفاً من عدم القيام بأعباء حملها، فأدَّين الأمانة ولم يَخُنَّ فيها.

وحملها الإنسان، فأعطاه الله خيرات السموات والأرض والجبال كلها، وجعلها بين يديه، ووصفه الله بالظالم لنفسه الجهول بعاقبة هذا الذي حمله، وتلك حكمة الله فيه، فلم يرعها حق رعايتها، ولم يقم بطاعة الله فيها، فأفسدها، أفسد بيئتها بكيماوياته ومخترعاته ونفاثاته وزيوته ومبيداته ونفاياته، فلوَّث المياه؛ بحاراً وأنهاراً وبحيراتٍ ومياهاً جوفية وينابيع. ولوث الهواء والتراب، وأساء لصحة الإنسان فأفسد جسمه بالترهل والأمراض والعاهات والإصابات، ولوَّث الأخلاق بالمعاصي والاستهلاك المُترَف المسرِف، والأوساخ وانتشار البغاء والشذوذ الجنسي والمسكرات والخمور والحشيش والمخدِّرات والظلم، وعاث في الأرض بأنواع الفساد، وبهذا خان الأمانة، وضيَّع المسؤولية ولم يعمل على تلافي الموبقات وآثار المفسدات، فكانت العاقبة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾[2].

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) طه: ١٢٤ ـ ١٢٧.

وما العمل لنحمي بيئتنا من هذه الملوِّثات؟:

أولاً: أن نشكر الله عز وجلَّ على نعمه بالطاعة والاستغفار، والإقلاع عن المعاصي ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[2].

ثانياً: العمل في البيئة بإحسان، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[3]، وقال ﷺ: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن مجَّد الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكةً أو عظماً، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة فإنه يمسي يومئذٍ وقد زحزح عن النار»[4]، فهذا الحديث دعوة إلى العمل الدائب طيلة النهار، وإنماء للخير، واتصال بالله بالذكر، وتنظيف للبيئة بإزالة المفسدات للطريق، وإصلاح وتعليم وإرشاد للمجتمع، وإبعاد للأذى والمنكر فهو تعامل مع البيئة بإحسان. وقال أيضاً «ما من مسلم يغرس غرساً إلاّ كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له به صدقة»[5]، وقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام عامل أهل خيبر» أي زرَّاعهم «بشطر ما يخرج منها من زرع أو ثمر، وكان يعطي أزواجه مائة وسق، ثمانون من تمر وعشرون من شعير[6]. وقسم عمر

---

(١) نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٢) آل عمران: ١٩٠ ١٩١.

(٣) البقرة: ١٤٨.

(٤) رواه مسلم، كنز العمال ١٦٣٨.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه البخاري.

رضي الله عنه خيبر، خيَّر أزواج النبي ﷺ أن يقطع لهنَّ من الماء والأرض أو يُمضي لهن، فمنهن من اختارت الأرض ومنهن من اختارت الوسق، وكانت عائشة وحفصة ممن اختار الأرض، يقول محمد بن عبد الرحمٰن الصابي الحبيشي مؤلف كتاب «البركة في فضل السعي والحركة» في هذا الحديث فوائد منها اختيار عائشة وحفصة أفضل أزواج النبي ﷺ الأرض ليَزْرَعنها[1]، وقد قال أبو جعفر: «ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلاّ ويزارعون على الثلث والربع»[2]، وقال عليه السلام: «من أحيا أرضاً ميتة ثقة بالله واحتساباً كان حقاً على الله أن يعينه وأن يبارك له»[3]، وقال: «سبع يؤجر فيها الرجل ما عمل بهنَّ من بعده: مَن بنى مسجداً له أجره ما دام يصلى فيه (وهذا إعمار للبيئة الاجتماعية)، ومَن أجرى نهراً فما دام يجري فيه ماء يشرب منه الناس كان له أجره، ومَن كتب مصحفاً فإن له أجره ما دام يقرأ فيه أحد (وهذا أيضاً نشر للعلم والهدى لإعمار البيئة الاجتماعية، ومنه طباعة المصحف والكتب المفيدة)، ومن استخرج عيناً ينتفع بمائها كان له أجرها ما بقيت (أي استخراج الآبار الارتوازية والكشف عن الينابيع)، ومن غرس غرساً كان له أجره فيما أكل الناس منه والطير، ومن علَّم علماً كذلك، ومن ترك ولداً يستغفر له ويدعو له»[4]، وواضح في هذا الحديث الدعوة إلى إعمار البيئة الاجتماعية، والبيئة الثقافية وهداية الناس ونشر العلم وحماية البيئة من الجفاف والقحط والضمور والتلوث بالزرع والغرس واستخراج الينابيع والآبار الارتوازية وكثرة النسل الصالح المعمِّر للحياة.

وقال عليه الصلاة والسلام: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»[5]، وقال: «خير المال سكة مأبورة وفرس مأمورة»[6]، وعن جابر ابن

---

(١) كتاب البركة: ١٤.
(٢) البركة/٥١.
(٣) رواه الترمذي وأبو داود.
(٤) رواه البزار.
(٥) كنز العمال: ٣٠٣٩.
(٦) مجمع الزوائد ٨٥٢/٥، والسكة: السطر المصطف من الشجر والنخيل، والمأبورة: الملقحة.

عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أغلقوا الأبواب، وأوكئوا السِّقاء، وأكفئوا الإناء، وخمِّروا الإناء، وأطفئوا المصباح، فإن الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يحل وِكاءً ولا يكشف إناءً، وإن الفُوَيسقة[1] تُضرِم على الناس بيوتهم»[2]، وقال: «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون»[3]، فهذه الأحاديث دعوة صريحة إلى حماية البيئة ومنع تعرضها لما يفسدها.

وقال الغزالي: «القيام بحق العيال بكسب الحلال أفضل من العبادات البدنية»، وكان ﷺ يتخذ الحمى للرعي وللعناية بالمواشي (وهي المسماة بالمحميات اليوم).

وكان الصحابة والتابعون والأفراد الصالحون يعملون في حماية البيئة وصلاحها، فنبينا عليه الصلاة والسلام كان يعمل بيده، وعلي رضي الله عنه كان يطحن الرحى، وأبو هريرة كان يحمل حزمة الحطب وهو أمير لمروان بن الحكم.

وقد قال ﷺ: «البركة في التجارة» كما قال: «الغنم بركة والإبل عزٌّ لأهلها» وقال: «خير المال الغنم، وخير المرعى الأراك والسَّلَم» ففيه العناية بالبيئة والمراعي، وقال: «اتخاذ النخل بركة» وقال: «أكرموا النخلة»[4] وكان يدعو إلى اتخاذ العسل ففيه شفاء وغذاء، وصدق الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[5].

وقد لام عليه الصلاة والسلام مَن روَّع أمَّ الطير بأخذ فراخها وبيضها، وحمى كلبة كانت ترضع أهراءها من أن يدوسها جيشه الزاحف

---

(١) الفأرة.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) عبد الرحمن بن علي الوصابي، اليركة في فضل السعي والحركة/ ٢٠١ ـ ٢٠٤.

(٥) النحل: ٦٨ ـ ٦٩.

لفتح مكة المكرمة، ومنع من إيذاء الدواب ودعا إلى الإحسان إليها وعدم تحميلها ما لا تطيق.

وبهذه النصوص من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية وغيرها المليئة بالدعوة إلى تحسين البيئة وتجميلها وتزيينها والعناية بها والحفاظ على الحيوانات الآهلة والبريَّة يظهر روعة ما يدعو إليه الإسلام للحفاظ على البيئة نقية سليمة.

تجنب تلويث البيئة:

١ ـ عُني الإسلام بالنظافة، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله طيب يُحب الطيب، نظيف يُحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكباد[١] في بيوتهم»[٢]، وقال: «غسل الإناء وطهارة الفِناء[٣] يورث الغنى»[٤]، وقال: «بني الدين على النظافة»[٥]، وقال: «لبس الثوب النظيف ينفي الهم»[٦]، وقال: «تخللوا فإنه نظافة والنظافة تدعو للإيمان»[٧]، وهكذا دعا الإسلام إلى نظافة الإنسان والمكان والثياب والبيئة.

٢ ـ وعني بالاهتمام بجمال البيئة فقد روى أبو داود في سننه عن النبي ﷺ قوله: «إن الله جميل يحب الجمال» وكان عليه السلام يستبشر بالمطر أول نزوله وأول الزرع ويقول: «إنه حديث عهد بربه» والله سبحانه وتعالى يقرر للبيئة قيمة الجمال فيقول: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ

---

(١) الأكباد: الكُناسات.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) ساحة الدار.

(٤) أورده الديلمي عن أنس مرفوعاً، كما ورد في كشف الخفاء للشيخ إسماعيل الجراحي ٢/٧٩.

(٥) إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٢/٣٠٣، الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ٥٩.

(٦) ابن عراق، تنزيه الشريعة عن الأحاديث الموضوعة ٢/٢٧٧.

(٧) مجمع الزوائد للهيثمي ١/٢٣٦.

بَهۡجَةٍ﴾[1]، ويقول: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾[2]، ويقول: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[3]، وقد نهى النبي ﷺ عن سبِّ الريح فهي مبشرة بالرحمة والنعمة، ووصف الله تبارك وتعالى جمال الصبح فقال ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾[4].

عدم تلويث البيئة:

لا يجوز تلويث البيئة بأي نوع من أنواع التلويث، سواءً أكان معروفاً في القدم أم لم يكن معروفاً، أو استُحدث في أيامنا هذه. وتلويث البيئة بقطع الشجر لغير حاجة، والاعتداء على المزروعات وإفسادها، والاعتداء على الحيوانات وقتلها بغير مبرر، وقد ورد النهي في كل وصايا النبي وأصحابه من بعده، فقد جاء في إحدى وصاياه إلى أحد قواده: «لا تحرقنَّ نخلاً، ولا تعقرن بهيمة، ولا تقطعن شجرة ثمر»[5].

وقد منع الإسلام تلويث المياه والأرض بما يخرج من الإنسان، قال ﷺ: «اتقوا اللاعنين»، قالوا: وما اللاعنان؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم»[6]، وعن جابر أيضاً قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يبال في الماء الراكد»[7]، وقال عليه السلام: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل»[8].

ونهى الإسلام عن تلويث الطعام أو تعريضه لذلك، فقد نهى عن الحدف، وهو أكل ما لم يُغَطَّ من الطعام، قال عليه السلام: «خمِّروا

---

(١) النمل: ٦٠.
(٢) النحل: ٦.
(٣) الملك: ٥.
(٤) التكوير: ١٨.
(٥) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٩٥/١.
(٦) رواه مسلم.
(٧) مصنف ابن أبي شيبة ١٤١/١.
(٨) رواه أبود اود وابن حنبل.

آنيتكم»[1] أي غطوها، وقال: «خمِّروا الطعام والشراب»[2].

ونهى الإسلام الإنسان عن تلويث فراشه وتوسيخه قال عليه السلام: «من نام وفي يده غمر (أي رائحة اللحم وزنخه) ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومنَّ إلاّ نفسه»[3]. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[4].

وورد النهي عن تلويث الهواء بالنَّفَس المريض، وبين النبي عليه الصلاة والسلام أن النَّفَس المريض ربما يأتي بالمرض، فكيف بهذه الملوثات التي تخرج من المركبات والنفاثات ودخان المصانع ونفايات المفاعل الذرية السامة التي تلقى في قيعان البحار، والمياه العادمة الصناعية الملوثة بالزئبق، ونفايات المعادن والكيماويات، والمياه الزراعية الملوثة بالمبيدات والسموم، بل يدخل في ذلك تلويث الجو بالأشعة لأنها خطر على الكائنات الحية كما هي خطر على البيئة، وكثير من الدول تحتار في التخلص من النفايات، وبعضها من الدول المتقدمة تحاول أن تلقيها في بحار البلدان النامية أو في صحاراها غير مبالية بما يسبب ذلك من إضرار وأضرار، وقد قال النبي ﷺ: «مَن غسل سخيمته على طريق من طرق المسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[5]، وفي رأيي أن الضجيج المؤذي كضجيج الطائرات والسيارات وسفلة الناس يلوث البيئة لأن له تأثيراً على صحة الإنسان وسمعه بخاصة. ويزيد في التلوث الحرائق التي يسببها إهمال الإنسان أو الكوارث الطبيعية، وكل ذلك يدخل في النهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨﴾[6]، ويدخل في قوله ﷺ: «الايمان بضعة وسبعون

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أبو داود وابن حنبل والبيهقي.
(٤) المدثر/٤.
(٥) رواه الطبراني في الأوسط، ورواة الحديث ثقات. والسخيمة الوسخ.
(٦) الأحزاب: ٥٨.

شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» فأي إماطة للأذى حماية للبيئة وحفاظ عليها.

والله سبحانه وتعالى أعلم وهو الهادي إلى سواء السبيل.

ا. د عبد العزيز عزت الخياط
عميد كلية الشريعة ومؤسسها سابقاً
بالجامعة الأردنية بعمان بالأردن
ووزير الأوقاف بالأردن سابقاً
١٨ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ،
٢٢ حزيران ٢٠٠٨م

❋ ❋ ❋

البيئة والحفاظ عليها
من
منظور إسلامي

إعداد
الأستاذ الدكتور عبد القادر محمد أبو العلا
أستاذ أصول الفقه وعميد كلية الشريعة
والقانون بأسيوط
جمهورية مصر العربية

مقدّمة

أصبحت قضية البيئة بمشكلاتها المتعددة بدءاً من تلوثها، واستنزاف مواردها، وصولاً إلى الإخلال بتوازنها، حديث العالم كله.

ولقد اهتم الدين الإسلامي بالبيئة بمفهومها الواسع ومواردها المختلفة، الحية وغير الحية، وأظهر أسس التعامل معها بحيث يمكن حمايتها والحفاظ عليها. ونهى الإسلام عن الإسراف بكل أشكاله السلبية سواء أكان في المأكل أم في المشرب، وغير ذلك من الموارد الطبيعية الأخرى، وهذا ما تؤكده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، قال الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾[1]، وقال ـ تعالى ـ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾[2].

إن الواقع البيئي في كرتنا الأرضية يتعرض لخطر شديد جرّاء سلوك الإنسان الجائر تجاه موارد البيئة التي سخرها الله لنا، فالمشكلات البيئية تتفاقم بسرعة كتلوث الماء والهواء والتربة، وتدهور الغابات واستنزاف الطاقة، وتهديد التنوع الحيوي الحيواني والنباتي، ونتيجة لتلوث الهواء أصبحت ظاهرة الاحتباس الحراري وتآكل طبقة الأوزون تهدد الحياة على كرتنا الأرضية.

لقد مدّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأرض بتنوع هائل وعجيب من المخلوقات الحية النباتية والحيوانية، الدقيقة منها والكبيرة، ومع تقدم الإنسان العلمي الواسع ما زال يجهل الكثير عن هذه المخلوقات لبني البشر واستخلفهم على هذه البيئة ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن

---

(١) الآية «٣١» من سورة الأعراف.

(٢) الآية «٢٩» من سورة الإسراء.

كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾[1]، والله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق كل شيء لسبب وغاية وبقدر موزون ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[2]، وإذا كانت الأشياء تبدو لنا ليست بذات أهمية فهذا لا يمكن أن يكون سبباً مبرراً لكي نقضي على تلك الأشياء من الموارد المختلفة، ولا يجوز لنا أن نخلَّ بذلك التوازن الإلهي الذي حبا الله به الطبيعة، وذلك حفاظاً على حياتنا وحياة الأجيال القادمة.

❋ ❋ ❋

(١) الآية «٣٩» من سورة فاطر.

(٢) الآية «٤٩» من سورة القمر.

المبحث الأول
في تعريف البيئة وأقسامها وعناصرها

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف البيئة في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: أقسام البيئة وعناصرها.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
تعريف البيئة في اللغة والاصطلاح

أولاً: تعريف البيئة في اللغة:

يعود الأصل اللغوي لكلمة البيئة إلى الفعل «بوأ»، ومنه «تبوأ»، والاسم منه: «البيئة»، ونظرة عُجلى في معاجم اللغة العربية تبين أن الفعل قد استخدم في أكثر من معنى، ومن هذه المعاني:

١ ـ الاعتراف بالذنب والإقرار به، فيقال: باء له بذنبه، أي: اعترف له بذنبه، وباء بدم فلان، أي: أقرّ به[1].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣٦/١ طبعة: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، مختار الصحاح للرازي ٢٨/١ تحقيق: محمود خاطر، الناشر: مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م، المُغرب في ترتيب المُعرب ـ أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرزي ٨٩/١ تحقيق: محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، طبعة مكتبة أسامة بن زيد، حلب الطبعة الأولي ١٩٧٩م، كتاب العين، لأبى عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد الفراهيدي ٤١٣/٨ تحقيق الدكتور: مهدي المخزومي، د/إبراهيم السامرائي، الناشر/دار ومكتبة الهلال ١٤٠٢هـ.

٢ ـ السواء والندية: فيقال: باء فلان بفلان، أي: كان ندًّا له في مكانته ومنزلته، والبواء هو السواء[١].

٣ ـ كما وردت بمعنى التصويب والتسديد، ومنها بوأ الرمح نحوه، أي: صوّبه وسدده[٢].

٤ ـ أما أشهر المعاني التي ورد بها الفعل (باء) فهي النزول والإقامة، يقال: تبوأ منزلاً: نزله، وأبأت بالمكان أقمت به، وتبوأ المكان: حلّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[٣]، والمباءة: معطن الإبل، حيث تناخ في الموارد، ومباءة الغنم: منزلها الذي تأوي إليه، والمباءة من الرحم: المكان الذي يكون فيه الجنين[٤].

إن العرض السابق يُظهر أن المعنى اللغوي لكلمة بيئة يكاد ينصرف إلى المكان، أو المنزل، أو الوسط الذي يعيش فيه الكائن الحي بوجه عام، كما ينصرف إلى الحال أو الظروف التي تكتنف ذلك المكان أياً كانت طبيعتها، ظروف طبيعية، أو اجتماعية، أو بيولوجية التي تؤثر في حياة ذلك الكائن ونموه وتكاثره[٥].

ثانياً: تعريف البيئة في الاصطلاح المعاصر:

البيئة مصطلح معاصر، لم يظهر إلا مع ظهور الفكر البيئي الذي

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣٧/١، التوقيف على مهمات التعاريف: لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي ص ١٠٩ ت/محمد رضوان الداية، طبعة دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣٨/١، العين ٤١٣/٨.

(٣) من الآية «٩» من سورة الحشر.

(٤) لسان العرب ٣٦/١، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: للعلامة/أحمد بن محمد بن علي، المقري، الفيومي ٦٧/١ ت/محمد علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

(٥) قانون حماية البيئة الإسلامي مقارناً بالقوانين الوضعية د/أحمد عبد الكريم سلامة ص ٢٣ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

هو وليد العصر الحديث، ويبدو أن لفظ البيئة يقترب من لفظ «ecology» اللاتيني، الذي يعني: «الدراسة العلمية لعلاقات الكائنات الحية بوسطها الطبيعي»، فهذه الكلمة مشتقة من اللفظ الإغريقي أويكوس «oikos»، ومعناه: منزل، ومنها: لوغوس «logos»، ومعناه: علم، ولا يُستبعد أن يكون العلماء الذين وقع اختيارهم على مصطلح «البيئة» للتعبير عن هذا العلم الجديد في اللغة العربية قد استوحوه من المعنى الذي يحمله تركيب اللفظ اللاتيني[١].

وقد عرّف علمُ البيئة بأنه: «الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من ظواهر طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها»[٢].

وقد أوجز إعلان مؤتمر البيئة البشرية في استوكهولم عام ١٩٧٢م مفهوم البيئة بأنها: «كل شيء يحيط بالإنسان»[٣].

وعُرفت أيضاً: بأنها «الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر»[٤].

ولعل صعوبة تعريف البيئة، والاستقرار في شأنها هو ما أدى إلى خلاف واضح بين الشمال والجنوب، والذي بدأ في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية، والذي انعقد في مدينة: «ريو دى جانيرو» في المدة من ٣: ٤ يونيه ١٩٩٢م، والذي أطلق عليه: «مؤتمر قمة الأرض»، وكان الخلاف واضحاً في شأن تحمل أعباء مقاومة التلوث، وخاصة أعباء الاستخدامات الصناعية للدول الكبرى، وهو ما نجم عنه

---

(١) منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث د/عدنان أحمد الصمادي، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بالكويت، العدد الحادي والخمسون شوال ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م ص ٣٠٠.

(٢) البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، م/محمد عبد القادر الفقي ص ١٤ طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٩٩م.

(٣) المرجع السابق.

(٤) البيئة والمناهج الدراسية، أحمد إبراهيم شلبي ص ١٦ الرياض، مؤسسة الخليج العربي ١٩٨٤م.

من مساس بطبقة الأوزون[1].

وفي الإطار التشريعي فإن القانون المصري رقم ٤ لسنة ١٩٩٤م الخاص بإصدار قانون في شأن البيئة قد بادر إلى وضع تعريف للبيئة، حيث نصت المادة (١) على أن يقصد بلفظ البيئة «المحيط الحيوي الذي يشمل الكائنات الحية وما يحتويه من مواد، وما يحيط بها من ماء وهواء وتربة وما يقيمه الإنسان من منشآت»[2].

وتعتبر هذه المبادرة التشريعية من جانب واضع القانون المصري رغم ما قد يوجه إليها من بعض أوجه النقد محاولة جريئة لوضع أحكام القانون موضع يسر في التطبيق[3].

أما عن المفهوم الإسلامي للبيئة: فإن مفهوم البيئة في الإسلام هو مفهوم شامل، فهي تعني الأرض والسماء والجبال وما فيها من مخلوقات، بما فيها الإنسان وما يحيط به من دوافع وعواطف وغرائز.

ويتميز مفهوم البيئة في الإسلام بشموليته فهو يضم كل مخلوقات الله من إنس وجان والبحار والأنهار والجبال والنبات والحيوانات والحشرات، وإن هذه المخلوقات سخّرها الله سبحانه وتعالى للإنسان.

ويتمتع الإسلام بنظرة أعمق وأوسع للبيئة، حيث طالب الإنسان أن يتعامل مع البيئة من منطلق أنها ملكية عامة يجب المحافظة عليها حتى يستمر الوجود، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4].

---

(١) يراجع في ذلك: تقرير المجالس القومية المتخصصة في شأن: مصر واتفاقيات قمة الأرض ١٩٩٢م.

(٢) راجع الجريدة الرسمية، العدد رقم (٥) في ١٩٩٤/٢/٣م.

(٣) الإسلام والبيئة د/إبراهيم علي حسن ص ٢٠، ٢١ ضمن سلسلة الدراسات الإسلامية التي يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف بمصر، العدد (١٥) القاهرة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

(٤) الآية «٨٥» من سورة الأعراف.

ولم تقتصر نظرة الإسلام للبيئة على البعد المكاني لها، بل شملت البعد الزماني، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾(١).

وقد دعا الإسلام المسلم إلى النظر في مكونات البيئة، والتأمل في مخلوقات الله، وجعل ذلك دليلاً على الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾(٢).

ويحفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تؤكد على أن الله هو وحده خالق البيئة ومنظمها، وهو الذي وضع النواميس التي تكفل حفظ التوازن البيئي، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۙ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾(٤) وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾(٥).

وقد استخدم علماء المسلمين كلمة «البيئة» استخداماً اصطلاحياً منذ القرن الثالث الهجري، وربما كان ابن عبد ربه ـ صاحب العقد

---

(١) الآية «٢٠» من سورة العنكبوت.
(٢) الآية «١٠١» من سورة يونس.
(٣) الآية «٢٢» من سورة البقرة.
(٤) الآيات «٦ ـ ١١» من سورة ق.
(٥) الآية «١٠» من سورة لقمان.

الفريد - هو أقدم من نجد عنده المعنى الاصطلاحي للكلمة في كتاب «الجمانة»، أي للإشارة إلى الوسط الطبيعي (الجغرافي والمكاني والإحيائي) الذي يعيش فيه الكائن الحي، بما في ذلك الإنسان، وللإشارة إلى المناخ الاجتماعي (السياسي والأخلاقي والفكري) المحيط بالإنسان.

وقد يراد بالبيئة مجازياً أولئك البشر الذي يسكنون فيها أو يقيمون، وأيضاً يمكن أن تعني البيئة مجازياً كافة المخلوقات والموجودات التي تحل معنا وتستوطن المواضع التي نعيش فيها كالحيوانات والأشجار والمياه والهواء والصخور[1].

فالبيئة تشمل كل ما يحيط بالإنسان من ماء وهواء وأرض فهو يؤثر فيها ويتأثر بها.

ويتفق العلماء في الوقت الحاضر على أن مفهوم البيئة يشمل جميع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية وتؤثر في العمليات التي تقوم بها، فالبيئة بالنسبة للإنسان الإطار الذي يعيش فيه والذي يحتوي على التربة والماء والهواء وما يتضمنه كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة من مكونات جمادية، وكائنات تنبض بالحياة، وما يسود هذا الإطار من مظاهر شتى من طقس ومناخ ورياح وأمطار وجاذبية ومغناطيسية... إلخ، ومن علاقات متبادلة بين هذه العناصر.

* * *

(١) البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، م/محمد عبد القادر الفقي ص ١٣، قضايا البيئة من منظور إسلامي د/أحمد عبد الرحيم السايح، د/أحمد عبده عوض ص ١٧ طبعة مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

المطلب الثاني
أقسام البيئة وعناصرها

أولاً: أقسام البيئة:

لقد قسم بعض الباحثين[1] البيئة إلى قسمين رئيسين هما:

١ ـ البيئة الطبيعية:

وهي عبارة عن المظاهر التي لا دخل للإنسان في وجودها أو استخدامها ومن مظاهرها: الصحراء، البحار، المناخ، التضاريس، والماء السطحي، والجوفي والحياة النباتية والحيوانية. والبيئة الطبيعية ذات تأثير مباشر أو غير مباشر في حياة أية جماعة حية Population من نبات أو حيوان أو إنسان.

٢ ـ البيئة المشيدة أو البشرية:

وتتكون من البنية الأساسية المادية التي شيدها الإنسان، ومن النظم الاجتماعية والمؤسسات التي أقامها، ومن ثم يمكن النظر إلى البيئة المشيدة من خلال الطريقة التي نظمت بها المجتمعات حياتها، والتي غيرت البيئة الطبيعية لخدمة الحاجات البشرية، وتشمل البيئة المشيدة استعمالات الأراضي للزراعة، والمناطق السكنية، والتنقيب فيها عن الثروات الطبيعية، وكذلك المناطق الصناعية، والمراكز التجارية، والمدارس، والمعاهد والطرق... إلخ.

والبيئة بشقيها الطبيعي والمشيد هي كل متكامل يشمل إطارها الكرة

---

(١) هو الدكتور بركات محمد مراد الإسلام والبيئة في مؤلفه «رؤية إسلامية حضارية» ص ١٣ طبعة دار القاهرة ٢٠٠٣م، د/إبراهيم علي حسن في مؤلفه «الإسلام والبيئة» ص ١٩، ٢٠، د. ماجد راغب الحلو في مؤلفه «قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة» ص ٣١ الناشر: دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية عام ١٩٩٥ م، د/محمد محمد عبده إمام في مؤلفه «الحق في سلامة الغذاء من التلوث في تشريعات البيئة» ص ٣٣ الناشر/دار الجامعة الجديدة للنشر الإسكندرية عام ٢٠٠٤م.

الأرضية، أو لنقل كوكب الحياة، وما يؤثر فيها من مكونات الكون الأخرى ومحتويات هذا الإطار ليست جامدة بل أنها دائمة التفاعل مؤثرة ومتأثرة والإنسان نفسه واحد من مكونات البيئة يتفاعل مع مكوناتها بما في ذلك أقرانه من البشر، وقد ورد هذا الفهم الشامل على لسان السيد «يوثانت» الأمين العام للأمم المتحدة حيث قال: «إننا شئنا أم أبينا نسافر سوية على ظهر كوكب مشترك... وليس لنا بديل معقول سوى أن نعمل جميعاً لنجعل منه بيئة نستطيع نحن وأطفالنا أن نعيش فيها حياة كاملة آمنة». وهذا يتطلب من الإنسان وهو العاقل الوحيد بين صور الحياة أن يتعامل مع البيئة بالرفق والحنان، يستثمرها دون إتلاف أو تدمير... ولعل فهم الطبيعة ومكونات البيئة والعلاقات المتبادلة فيما بينها يمكن الإنسان أن يوجد ويطور موقعاً أفضل لحياته وحياة أجياله من بعده[1].

ثانياً: عناصر البيئة:

يمكن تقسيم البيئة وفق توصيات مؤتمر استوكهولم[2] إلى ثلاثة عناصر هي:

١ ـ البيئة الطبيعية:

وتتكون من أربعة نظم مترابطة ترابطاً وثيقاً هي: الغلاف الجوي،

---

(١) الإسلام والبيئة، رؤية إسلامية حضارية للدكتور: بركات محمد مراد ص ١٣، الإسلام والبيئة د/إبراهيم علي حسن ص ١٩، ٢٠، الشريعة الإسلامية وحماية البيئة، د. عبد العزيز خليفة القصار، د/وليد خالد الشايجي، بحث منشور بمجلة كلية الشريعة والقانون بالقاهرة، العدد الواحد والعشرون ١٩٩٨م ـ ١٩٩٩م ص ٢٦٠.

(٢) هو مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية، ويسمى بمؤتمر استوكهولم لأنه عقد في مدينة استوكهولم بالسويد عام ١٩٧٣م، وحضره ممثلون عن «١١٣» دولة، وممثلون من جميع المنظمات الدولية، والحكومية وغير الحكومية، واختيرت مصر ضمن «٢٧» دولة لعضوية لجنته التحضيرية. انظر: أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني ص ٥٦، قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة، د/ماجد راغب الحلو ص ١٨.

والغلاف المائي، واليابسة، والمحيط الجوي، بما تشمله هذه الأنظمة من ماء وهواء وتربة ومعادن، ومصادر للطاقة بالإضافة إلى النباتات والحيوانات، وهذه جميعها تمثل الموارد التي أتاحها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان كي يحصل منها على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى.

٢ ـ البيئة البيولوجية:

وتشمل الإنسان «الفرد» وأسرته ومجتمعه، وكذلك الكائنات الحية في المحيط الجوي، وتعد البيئة البيولوجية جزءاً من البيئة الطبيعية.

٣ ـ البيئة الاجتماعية:

ويقصد بالبيئة الاجتماعية ذلك الإطار من العلاقات الذي يحدد ماهية علاقة حياة الإنسان مع غيره، ذلك الإطار من العلاقات الذي هو الأساس في تنظيم أي جماعة من الجماعات سواء بين أفرادها بعضهم ببعض في بيئة ما، أو بين جماعات متباينة أو متشابهة معاً وحضارة في بيئات متباعدة، وتؤلف أنماط تلك العلاقات ما يعرف بالنظم الاجتماعية، واستحدث الإنسان خلال رحلة حياته الطويلة بيئة حضارية لكي تساعده في حياته فعمّر الأرض واخترق الأجواء لغزو الفضاء.

وعناصر البيئة الحضارية للإنسان تتحدد في جانبين رئيسين هما:

أولاً: الجانب المادي:

كل ما استطاع الإنسان أن يصنعه كالمسكن والملبس ووسائل النقل والأدوات والأجهزة التي يستخدمها في حياته اليومية.

ثانياً: الجانب غير المادي:

فيشمل عقائد الإنسان وعاداته وتقاليده، وأفكاره، وثقافته، وكل ما تنطوي عليه نفس الإنسان من قيم وآداب وعلوم تلقائية كانت أم مكتسبة.

وإذا كانت البيئة هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من

بني البشر، فإن أول ما يجب على الإنسان تحقيقه حفاظاً على هذه الحياة أن يفهم البيئة فهماً صحيحاً بكل عناصرها ومقوماتها وتفاعلاتها المتبادلة، ثم أن يقوم بعمل جماعي جاد لحمايتها وتحسينها وأن يسعى للحصول على رزقه وأن يمارس علاقاته دون إتلاف أو إفساد[1].

❋ ❋ ❋

(١) موسوعة حماية البيئة في القانون الجنائي الداخلي والقانون الدولي الجنائي والفقه الإسلامي، د/محمود صالح العادلي ١٩/١: ٢٥ الناشر/دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، الإنسان وتلوث البيئة/محمد السيد أرناؤوط ص ٢٠ طبعة الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٩م.

المبحث الثاني
في نظرة الإسلام إلى البيئة، واهتمامه بها «أفراداً ومؤسسات»

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: نظرة الإسلام إلى البيئة.

المطلب الثاني: اهتمام الإسلام بالبيئة «أفراداً ومؤسسات».

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
نظرة الإسلام إلى البيئة

إن نظرة الإسلام إلى البيئة نابعة من المعرفة بالله، والتصور الشامل للإنسان، والكون، والحياة، وإن أي خلل في التصور ينعكس فساداً في السلوك، فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه سيد الموقف، فهو سيد هذا الكون، وكل ما في الكون مخلوق من أجله مسخر له باعتباره الخليفة المؤتمن، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[2].

إن موقع الإنسان في هذا الكون يحدد له الدور الذي ينبغي عليه القيام به لتحقيق المهمة التي نيطت به، فالإنسان خليفة مؤتمن، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

---

(١) الآية «٣٠» من سورة البقرة.

(٢) الآيتان «٧٠، ٧١» من سورة ص.

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1]، فالخلافة عن الخالق في الخلق، تلزم الإنسان الخليفة بالمحافظة على الكون ـ المستخلَف فيه ـ حتى يؤدي الأمانة التي حملها فلا يظلم نفسه، فهو سيد هذا الكون، ولتحقيق هذه السيادة سخر له كل شيء حتى يتمكن من أداء الأمانة.

ولقد أبان القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[6].

إن مجموع هذه الآيات تشير إلى أحقيَّة الإنسان فيما سخر له؛ للاستفادة منه، والتمتع به في حدود الأمانة التي حملها؛ لأن لكلمة «لكم» في الآيات السابقة دلالة يجب أن لا تغيب عنا، وكونها الأصل في مفهوم المحافظة على الكون بما فيه من موارد وخيرات، فهي ليست

---

(١) الآية «٧٢» من سورة الأحزاب.
(٢) الآية «٢٩» من سورة البقرة.
(٣) الآية «٢٠» من سورة لقمان.
(٤) الآيتان «٣٢، ٣٣» من سورة إبراهيم.
(٥) الآيتان «١٢، ١٣» من سورة الجاثية.
(٦) الآية «١٥» من سورة الملك.

ملكاً لجماعة دون أخرى، أو لشعب دون آخر، أو لجيل دون جيل، فحق الإنسان عبر الزمان والمكان قائم فيها، فإذا قام الإنسان بأداء الأمانة وفق المنهج المرسوم، تسلمت الأجيال المتعاقبة ما سخره لها ـ الكون ـ صالحاً كما استلمته من قبل صالحاً، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2]، والفساد نقيض الإصلاح، وهو خلل يصيب الشيء فيخرج به عن وظيفته الأصلية فهو ضرب من ضروب التغيير والتبديل، قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾[3]، فكل تغيير وتبديل يقع من الإنسان، ويخرج بالشيء عن وظيفته التي خلق من أجلها، يُعتبر فساداً، لأنه يُفوت المصلحة المبتغاة من ذلك الشيء، ويفضي إلى انعدام التوازن: بيئياً، أو نفسياً، أو اجتماعياً، أو اقتصادياً، بحسب نوع الفساد أو التغيير[4].

نخلص مما سبق إلى أن نظرة الإسلام إلي البيئة تتمثل في بعض الحقائق الهامة، ومنها:

---

(١) الآية «٦١» من سورة هود.

(٢) الآية « ٥٦» من سورة الأعراف.

(٣) الآية «٢١١» من سورة البقرة.

(٤) الإسلام والبيئة/ محمد مرسي محمد مرسي ص ٤٣ وما بعدها، مطبوعات أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني ص ٤٣، ٤٤ طبعة دار ابن الجوزي، الإسلام والبيئة د/عبد الرحمن جيرة ص ٤٢ طبعة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، قضايا البيئة من منظور إسلامي د/أحمد عبد الرحيم السايح، د/أحمد عبده عوض ص ٣٩ وما بعدها، الإسلام والبيئة، رؤية إسلامية حضارية للدكتور/بركات محمد مراد ص ٢٤، ٢٥.

١ ـ أن الشريعة الإسلامية وضعت تصوراً شاملاً للبيئة شمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد والماء والهواء، وجعلت الإنسان مكرماً على سائر المخلوقات وسخرتها له، انطلاقاً من قاعدة الاستخلاف.

٢ ـ لقد نظر الدين الإسلامي إلى البيئة من خلال استخلاف الإنسان في عمارة البيئة والكون؛ لأنه اعتراف بحق الإنسان في البيئة ومواردها.

٣ ـ لقد أرست الشريعة الإسلامية مبدأ سد الذرائع إلى الفساد أياً كان نوعه تقييداً للتعامل مع البيئة بما يدرأ عنها المفسدة إبان التصرف السيئ في المباحات أو الحقوق، فضلاً عن المجاوزة والعدوان، وهو مبدأ عظيم الأثر في توثيق مصالح الأمة مادياً ومعنوياً بما يشمل موارد البيئة الطبيعية، فيندرج تحت مضمون هذا المفهوم الحفاظ على البيئة.

٤ ـ إن الفقه الإسلامي تناول بالتنظيم والتأصيل، عقوداً مهمة، تتصل باستثمار الأرض مثل: عقد السلم والمزارعة والمساقاة وإحياء الأرض الموات... مما يعتبر دليلاً بيناً على أن الإسلام قد أولى عناية لهذه الموارد الطبيعية ليجعل من الأرض جنة الدنيا زراعةً وغرساً وعمارة.

٥ ـ إن مفهوم الحماية في الشريعة الإسلامية واسع جداً، يشمل: الإقامة والإيجاد للموارد، إن لم يكن قائماً، وتثبيت قواعده، أو استثماره بأنجح السبل ليؤتي منافعه، كما يشمل التنمية، والتي من مفهومها التطوير إلى الأفضل، فضلاً عن شمولها للحفظ الذي يعني الإمداد بما يضمن استمرار القيام، ويدرأ أسباب النقص في الإنتاج، نتيجة لفساد الموارد.

٦ ـ الالتزام بنظافة البيئة من الأمور الأساسية التي حرص عليها الرسول ﷺ وأوصى بها إذ نص أكثر من حديث على أن النظافة من الإيمان.

٧ ـ أكدت الشريعة الإسلامية في حديثها عن البيئة حقيقة الترابط القوي والفعال بين مكوناتها، فالهواء يحمل الماء، والماء ينزل على الأرض فيخرج النبات الذي يتغذى عليه الإنسان والحيوان.

٨ ـ حماية البيئة في الشريعة الإسلامية أمانة ومسؤولية يتطلبها الإيمان، وتقتضيها عقيدة الاستخلاف في الأرض، وإذا كان من ثمرات الإيمان الصادق وآثاره الإخبات لله تعالى وإخلاص العبادة إليه فإن من ثمراتها أيضاً القيام بالتكاليف الشرعية كما أمر الله تعالى ورعاية البيئة والمحافظة عليها كما خلقها الله رحمة بالمخلوقات[1].

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
اهتمام الإسلام بالبيئة «أفراداً ومؤسسات»

أولاً: اهتمام الإسلام بالبيئة عن طريق الأفراد:

ويتمثل ذلك في التأليف في بعض مجالات البيئة وعلومها، كذلك أسهم كثير من علماء المسلمين القدامى بتناول ودراسة أنواع البيئة سواء كانت ثقافية، أو مناخية، أو بحرية، وذلك على النحو التالي:

أ ـ عن طريق التأليف في بعض مجالات البيئة وعلومها:

إن من مظاهر الاهتمام بالبيئة في الإسلام عناية علماء الإسلام في التأليف في بعض مجالات البيئة وعلومها، ومن ذلك علي سبيل المثال:

١ ـ المؤلفات في الظواهر الجوية:

وذلك كالكتب المؤلفة في ما يصلح الجو من الأبخرة وما يفسده، وكالكتب المؤلفة في الغيوم، أو في المد والجزر أو غيرها.

---

(١) الإسلام والبيئة/محمد مرسي محمد مرسي ص ٦٤، ٦٥.

ومنها على سبيل المثال: رسالة في الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء لأبي يوسف يعقوب إسحاق الكندي، ورسالة في المد والجزر للكندي، ورسالة في آلات لمقاييس ارتفاع الغيوم والأبخرة للتبريزي، والإبانة عن الطريقة المعترفة لإبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة، وكتاب مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء لمحمد تميمي.

٢ ـ المؤلفات في علم الحيوان:

وهذه المؤلفات علي قسمين:

الأول: كتب مؤلفة في حيوانات خاصة، كالمؤلفات في الخيل أو الإبل، أو الشاة والغنم أو النحل أو الجراد أو غيرها.

الثاني: كتب عامة في مجموعة من الحيوانات كالكتب المؤلفة في الوحوش أو الحشرات أو الطير أو غيرها[١]، هذا فضلاً عن كتب موسوعات الحيوان، التي تجمع أجناساً وأشكالاً كثيرة من الحيوانات[٢].

وقد حاول العلماء في تلك المؤلفات تصنيف المملكات الحيوانية، وتناول وصف سلوكها، وصفاتها التشريحية، وتدوين ما قاموا به من تجارب على بعض أفراد الحيوانات، وما يطرأ على الحيوان من أمراض، وذكر الأدوية الناتجة من المصادر الحيوانية، وغير ذلك من المجالات التطبيقية لعلم الحيوان[٣].

---

(١) ذكر ابن النديم أربعة وعشرين كتاباً بعنوان كتاب الخيل، وأما الإبل فذكر منها خمسة عشر كتاباً، وهناك كتاب الطير لكل من النضر بن شميل، أحمد بن حاتم، وأبي حاتم السجستاني، وكتاب الشاة والغنم لكل من الأصمعي، والأخفش، والنضر بن شميل، وكتاب النحل للمدائني، ولأبي حاتم السجستاني، كتاب الجراد لأحمد بن حاتم. (العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية، د. سيد رضوان علي ص ٩٣ طبعة دار المريخ للنشر، الرياض).

(٢) وذلك مثل كتاب الحيوان للجاحظ، وحياة الحيوان الكبرى للدميري. (العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية، د/سيد رضوان علي ص ٩٣).

(٣) أثر التراث الإسلامي في تقدم علم الزراعة والبيطرة د. علي المجذوب، بحث منشور في مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، تصدر عن كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، العدد السادس ص٢١٢.

٣ ـ المؤلفات في علم النبات:

فقد ألف جماعة من علماء المسلمين في علم النبات، والزراعة والفلاحة والبساتين وغيرها وقد وضعوا في تلك المؤلفات أسس تصنيف النبات، وذكروا الخواص العلاجية والاستخدامات الطبية لها كما وضعوا الأسس العلمية لحفظ وتخزين النباتات، كما سبقوا في اكتشاف بعض النظريات العلمية، كالنظرية التي تبين تأثير الضوء على خواص النباتات، كما كان لهم دور في معرفة خواص التربة والمياه المستخدمة في الري، وكذا الأسمدة والمخصبات وطرق التطعيم وغيرها.

ومن الكتب المؤلفة في ذلك: كتاب «النبات» لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ)، فقد صنف النباتات في كتابه «النبات» وشرح علاقاتها ببيئتها، وكتاب «البلاد والزرع»، للمفضل بن سلمة، و«الجامع لصفات أشتات النبات»، للإدريسي، وكتاب «البستان» لمحمد بن عبد ربه، وكتاب «البستان» ـ أيضاً ـ لجابر بن حيان، و«المنية في الزراعة»، لأبي عمرو بن حجاج الإشبيلي، و«الفلاحة» لأبي الخير الإشبيلي، وكتاب «الفلاحة الأندلسية» لمحمد بن يحيى العلوم[١].

ب ـ عن طريق دراسة أنواع البيئة:

أسهم كثير من علماء المسلمين القدامى بتناول ودراسة أنواع البيئة سواء كانت ثقافية أو مناخية أو بحرية، ومن ذلك ما يأتي:

فقد تكلم صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ ـ ١٠٧٠م) في كتابه «طبقات الأمم» عن تأثير البيئة الطبيعية في الأمم وفي قدرة سكانها على تحصيل المعرفة واكتساب العلم، ويرد صاعد الأندلسي سبب التفوق العلمي والتقدم الفكري إلى عوامل بيئية، كما يرجع سبب عدم اهتمام

---

(١) أثر التراث الإسلامي في تقدم علم الزراعة والبيطرة د/علي المجذوب ص ٢٠٩ ـ ٢١٢، د/سيد رضوان علي ص ٩٣.

الأمم الموجودة في بلاد الشام - كالروس - بالعلوم في عصره إلى تأثيرات بيئية أيضاً[1].

يقول صاعد في كتابه: «وأما سائر هذه الطبقة التي لم تُعنَ بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس؛ لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشام ما بين آخر الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة في الشام، فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برَّد هواءهم وكثّف جوّهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة، وأخلاقهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الأفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العي والغباوة[2].

وقد درس العلامة ابن خلدون العلاقة بين العوامل المناخية وبين تفكك التربة، فذكر أن شدة الحرارة تؤدي إلى تحول التربة إلى رمال يسهل على الرياح جرفها، وأوضح العلاقة بين ذلك وبين أنماط الاستيطان البشري، يقول ابن خلدون أثناء حديثه عن جزر البحرين: «مفرطة الحر منهالة الكثبان، يغلب الرمل عليهم في منازلهم»[3].

وقد تكلم زكريا بن محمد القزويني (ت ٦٨٢هـ) في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» عن أوصاف ممتعة للعواصف الحلزونية التي تهب في المحيطات، وهو يسميها «التنين»، ويقول: «إنها تحدث من تلاقي ريحين يهبان من جهتين متضادتين»، وهو تعليل مقبول[4].

---

(١) البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، م/محمد عبد القادر الفقي ص ١٦، ١٧، قضايا البيئة من منظور إسلامي د/أحمد عبد الرحيم السايح، د/أحمد عبده عوض ص ٢٥.

(٢) البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، م/محمد عبد القادر الفقي ص ١٧.

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ١٩٧/٤ بيروت ١٩٤١م.

(٤) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد القزويني ص ١٧٩ طبعة دار العلم، بيروت، بدون تاريخ.

وقد تكلم شمس الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي الصوفي (ت ٧٢٧هـ) في كتابه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» عن بعض الظواهر التي تحدث في البيئة البحرية، ومن الظواهر التي تكلم عنها هذا العلامة: ظاهرة المد والجزر[١].

وقد تكلم أبو حامد الغرناطي في كتابه «تحفة الألباب» عن ظاهرة تلون ماء البحر فقال: «وكذلك في بحر الهند خليج أحمر كالدم، وخليج أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن، وخليج أزرق كالنيل، والله يعلم من أي شيء تغير هذه الألوان في هذه المواضع»[٢].

ويعتبر المسعودي من أعظم علماء المسلمين الذين درسوا العلاقة بين البيئة البحرية والبيئة المناخية في كتابه: «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، ومن بين المباحث التي تناولها في كتابه: أثر المناخ في حركة المد والجزر والأمواج والتيارات البحرية في الخليج العربي[٣].

ومن آرائه في ذلك: المد والجزر في بحر فارس يكونان على مطالع الفجر، والأغلب من الأوقات أن المد والجزر لا يكونان في معظم البحر إلا مرتين في السنة، مرة يمد في شهور الصيف شرقاً بالشمال ستة أشهر، فإذا كان ذلك طغا الماء في مشارق الأرض وبالصين وما وراء ذلك الصقع وانحسر بالصين من مغارب البحر، ومرة يمد في شهور الشتاء غرباً بالجنوب ستة أشهر، فإذا كان الصيف طغا الماء في مغارب البحر وانحسر بالصين، وقد يتحرك البحر بتحرك الرياح، وإن الشمس إذا كانت في الجهة الشمالية تحرك الهواء إلى الجهة الجنوبية لعلل ذكروها فيسيل ماء البحر بحركة الهواء إلى الجهة

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي الصوفي ص ٢١٥ طبعة دار النهضة، مصر، بدون تاريخ.

(٢) تحفة الألباب لأبي حامد الغرناطي ص ١١٢ مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، بدون تاريخ.

(٣) البيئة ومشاكلها للفقي ص ٢٠، قضايا البيئة من منظور إسلامي د/أحمد عبد الرحيم السايح، د/أحمد عبده عوض ص ٢٧.

الجنوبية، فكذلك تكون البحار في جهة الجنوب في الصيف لهبوب الشمال طامية عالية، وتقلُّ المياه في جهة البحار الشمالية، وكذلك إذا كانت الشمس في الجنوب وسال الهواء من الجنوب إلى جهة الشمال سال معه ماء البحر من الجهة الجنوبية إلى الجهة الشمالية، فقلَّتِ المياه في الجهة الجنوبية منه، وينتقل ماء البحر في هذين الميلين ـ أعني في جهتي الشمال والجنوب ـ فيسمى جزراً ومدًّا، وذلك أن مَدّ الجنوب جَزرُ الشمال ومد الشمال جزر الجنوب، فإن وافق القمر بعض الكواكب السيارة في أحد الميلين تزايد الفعلان وقوي الحمي واشتد لذلك سيلان الهواء فاشتد لذلك انقلاب ماء البحر إلى الجهة المخالفة للجهة التي ليس فيها الشمس...[1].

ويعتبر مسلمة بن أحمد المجريطي (ت ٣٩٨ هـ) أول من استعمل كلمة البيئة بالمعنى الاصطلاحي وأثبت تأثيرها في الأحياء في كتابه: «في الطبيعيات وتأثير النشأة والبيئة على الكائنات الحية».

وقد درس عبد الله بن أحمد بن البيطار (ت ٦٤٦هـ) في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» النباتات في مختلف البلاد ووصفها بما يهيئ لتصنيفها بدقة.

وقد أثبت الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في كتابه «الحيوان» التأقلم الحيواني بالبيئة، وأشار إلى نظرية المكافحة الحيوية باستعمال بعض الحيوانات في القضاء على بعض.

وقد لاحظ زكريا بن محمد القزويني (ت ٦٨٢هـ) في كتابيه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» و«آثار البلاد وأخبار العباد» تأثير البيئة على الحيوان ودرس العلاقات بين الحيوانات، وأثبت فكرة المشاركة والتكافل بينها[2].

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ص ٤٥ طبعة دار المعارف، القاهرة.

(٢) اقتصاد البيئة في الإسلام للأستاذ/مسدور فارس ص ٦ طبعة جامعة سعد دحلب البليدة.

ناهيك عن اهتمام الفقهاء بالتلوث البيئي والأبنية الفوضوية، والأدخنة والفضلات، والمياه القذرة. . .

كما أسهم كثير من علماء المسلمين في هذا العصر بتناول ودراسة قضايا البيئة المعاصرة، سواء في ذلك تلك الدراسات التي تأخذ طابع الشمولية في دراسة قضايا البيئة أو تلك التي تتناول جوانب من القضايا البيئية المعاصرة الكثيرة ويظهر هذا الجهد من علماء هذا العصر جلياً من خلال مطالعة المكتبة الخاصة بالبيئة حيث يجد المطالع عشرات الكتب التي اهتمت بدراسة مسائل البيئة ومشكلاتها في العصر الحاضر على أن أكثر الكتابات لم تكن تعتمد الفقه الإسلامي عند دراستها، بل تعتمد الدراسات التجريبية والمعطيات العلمية الوضعية، وتعالج قضايا البيئة ومشكلاتها من هذا المنظور[1].

ثانياً: اهتمام الإسلام بالبيئة عن طريق المؤسسات:

كان للمؤسسات العامة في الحضارة الإسلامية نصيبها في رعاية البيئة والمحافظة عليها، ومن هذه المؤسسات[2]:

١ ـ مؤسسة الخلافة:

فقد كان الخلفاء يعنون بأمر البيئة، بأنفسهم وبولاتهم وأعوانهم، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحث أحد الصحابة على غرس الشجر في أرضه ويشاركه بيده في الغرس، وكان يوصي بالرفق بالحيوان، وينكر على من قسا عليه، ويرى أنه ـ وهو بالحجاز ـ مسؤول عن هلاك جدي بشط الفرات بالعراق.

وكان يشجع على إحياء الموات، ومن أقطع أرضاً، ولم يحيها انتزعها منه وأعطاها لغيره.

---

(١) أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله ابن عمر بن محمد السحيباني ص ٥٣، ٥٤.

(٢) رعاية البيئة في شريعة الإسلام للدكتور/يوسف القرضاوي ص ٢٤٢ طبعة الشروق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١ م.

وكان عمر بن عبد العزيز يفعل مثل ذلك، وينهى الحمالين الذين يحملون على الإبل ألا يزيدوا في حمولتها عن مقدار معين.

والأمثلة كثيرة على تدخل الخلفاء والأمراء فيما يتعلق بالبيئة إيجابا أو سلباً، أمراً أو نهياً[1].

٢ ـ مؤسسة القضاء:

فيستطيع القاضي أن يحكم بالتعزير على كل من أساء إلى البيئة، إذا اشتكى بعض الناس إليه احتساباً، أو رأى أحدهم من يؤذي الناس في طريقهم العام أو يلوث مياههم، أو رأى من يهمل بهائمه وأنعامه، ولا يطعمها أو يسقيها، قسوة عليها، وقد نقلنا كلام أبي علي الرحال المغربي في ذلك، وهو كلام قوي تؤيده الأدلة الشرعية. ومن حق القضاء أن يصدر أحكامه بالتأديب والعقاب[2].

٣ ـ مؤسسة الوقف الخيري.

وهي مؤسسة انتشرت في العالم الإسلامي منذ عهد النبوة والصحابة، وتقوم على أساس الصدقة الجارية «الدائمة» بأن يحبس الإنسان الأصل المالي ويسبل ثمرته، وأن يجعلها موقوفة على الخيرات، وسد الثغرات في حياة الناس..

ولقد كان للأوقاف ـ أو الحبوس الإسلامية ـ دور غير منكور في الحضارة الإسلامية، وتناولت أدق جوانب الحياة، وسدت ثغرات كثيرة، ولبت حاجات شتى في الحياة، مثل بناء «المارستانات»، أي المستشفيات التي تعالج المرضى مجاناً وتطعمهم مجاناً، ومثل الوقف على المدارس، والاستراحات في طرق الأسفار، و«السبل» التي يشرب منها الناس.

بل هي لم تقتصر علي حاجات البشر وحدهم، بل شملت حاجات بعض الحيوانات، حتى رأينا من خيار المسلمين من ينشئ وقفاً

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٣.

للكلاب الضالة التي ليس لها مالك..[1].

٤ ـ مؤسسة الزكاة:

وهي الشعيرة التعبدية والفريضة المالية، والدعامة الثالثة من دعائم الإسلام بعد الشهادتين وإقام الصلاة ... وقد قرنها الله في القرآن بالصلاة في ثمانية وعشرين موضعاً. وجعلها نظاماً تشرف عليه الدولة تحصيلاً وتوزيعاً بوساطة جهاز العاملين عليها الذين يحجبونها من أغنياء كل إقليم ليردوها على فقرائه.

ولقد قامت الزكاة بدورها في معالجة مشكلة الفقراء والمساكين والغارمين وأبناء السبيل من أصحاب الحاجات، وكانت أول نظام للمساعدات الحكومية في التاريخ، بل كانت الدولة الإسلامية أول دولة في العالم تحارب وتجيش الجيوش من أجل حقوق الفقراء في أموال الأغنياء.

ومن المعلوم أن مشكلة الأعداء الثلاثة: الفقر والمرض والجهل، تعد من أعوص المشاكل التي تعتري رعاية البيئة والإحسان بها، وللزكاة دور أساسي في معالجتها..[2].

٥ ـ مؤسسة الفتوى والإرشاد الديني:

والذي يقوم به علماء الدين في المساجد والزوايا، في خطبهم ودروسهم ومواعظهم، وفتاواهم لمن يسألهم عن أحكام الشرع في القضايا المختلفة، ومنها ما يتصل بالبيئة[3].

إذا نظرنا إلي الواقع التاريخي في حضارتنا الإسلامية، نرى أن العناية بالبيئة ونظافتها وحمايتها، والفكر البيئي، كل ذلك كان قائماً وبيناً في الحياة الإسلامية.

ومن أبرز ما يدل على تلك الظاهرة «نظام الحسبة» الذي اشتهر

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤.
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤.
(٣) رعاية البيئة في شريعة الإسلام للدكتور/يوسف القرضاوي ص ٢٤٥.

بين المسلمين، وبدأ منذ عهد النبوة، ثم في عهد الخلفاء الراشدين، ولا سيما عمر، ثم نما واتسع في العهود التالية، وخصوصاً عهد العباسيين، وهو نظام يجمع بين الإرشاد والرقابة والقضاء والتنفيذ. وقد وزعت اختصاصاته في عصرنا على عدة دوائر أو وزارات ومؤسسات. ولكن المحتسب كانت له منزلة خاصة، وهيبة خاصة، وسلطة خاصة، حتى إنه كان يحتسب على المعلمين والقضاء والأئمة والوعاظ والأمراء أنفسهم..[1].

٦ ـ مؤسسة الحسبة:

ولها دور كبير في الإشراف والإرشاد والرقابة والتأديب، وقد كانت تتدخل في كثير من أمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وسنتحدث عنها بتفصيل أكثر[2].

قال القرضاوي: ومن قرأ بعض كتب الحسبة يتبين له هذه الحقيقة جلية كالشمس، كما نرى في (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيزري، ومثله لابن بسام (المحتسب)، وفي (معالم القربة في آداب الحسبة) للقرشي، وفي (نصاب الاحتساب) للسنامي.

إن مؤسسة (الحسبة) نكاد لا نجد لها نظيراً في الحضارات الأخرى، فهي تختص في شطر كبير منها بالعمل على التطبيق العلمي للفتاوى والأحكام المتعلقة بالحفاظ على البيئة كالمنع من التلوث، سواء كان تلوثاً مباشراً بمختلف الملوثات الغازية والسائلة واليابسة، أم كان تلوثاً غير مباشر بالإخلال بالتوازن الكمي والكيفي للمكونات البيئية.

وقد سجلت لنا المدونات الكثيرة في الحسبة كيف كانت هذه المؤسسة تسهر عملياً بأجهزتها وأعوانها على المراقبة الدورية الدائبة في مختلف المدن والأرياف الإسلامية، لأحوال المصانع والمتاجر والأسواق وحظائر الحيوانات ومزارع الخضر والفواكه، لتمنع كل ما من شأنه أن

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤.

يلوث البيئة من أدخنة وعفونات وسموم، ومن إتلاف لأشجار وحيوانات، وذلك للحفاظ عليها من الخلل المضر بالحياة في صوره المختلفة. وحينما ينضم هذا الإجراء العلمي التطبيقي الذي دأبت عليه الحضارة الإسلامية للصيانة من التلوث إلى تلك الفتاوى والأحكام النظرية المواكبة للتطور الحضاري في هذا الشأن، فإنه يتبين مدى ما كانت عليه الحضارة الإسلامية من رفق بالبيئة بالحفاظ عليها من التلوث، ومدى ما أنجزت في ذلك نظرياً وعملياً.

وإذا نظرنا نظرة مقارنة في هذا الشأن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، فإننا نجد أن الحضارة الغربية لم تكن تصحبها في نشأتها ولا في لاحق أطوارها ثقافة توجه إلى صيانة البيئة من التلوث؛ ولذلك فقد كان التلوث يصاحبها ويتطور بتطورها، حتى وصل إلى ما وصل إليه من وضع خطير، حينما بلغت هي أوجهاً من التطور، وحينئذ أصبحت مشكلة تؤرق أهل هذه الحضارة الذين غدوا لا يهتدون إلى حل ناجح لها لما بلغت من مدى بعيد في التراكم والتفاقم[1] وذلك بخلاف الحضارة الإسلامية فهي كما سبق صاحبها منذ نشأتها ما يؤدي إلى صيانة البيئة والمحافظة عليها.

❋ ❋ ❋

(١) المرجع السابق ص ٢٤٦، ٢٤٧.

المبحث الثالث
الركائز التي يقوم عليها المنهج الإسلامي في المحافظة على البيئة

يرى بعض الباحثين[١] أن منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة يتلخص في الركائز التالية[٢]:

الركيزة الأولى: التقدير:

أي أن البيئة خلقت بدقة، وتبرز هذه الصورة وتتجلى في خلق المواد والعناصر بمقادير محدودة، ونسب دقيقة، وخلق كل شيء بقدر وحساب، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[٣]، أي أن الله خلق كل شيء بقدر محدود، وقال أيضاً: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[٥] وقال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[٦].

إن النظام البيئي الذي خلقه الله وقدره وحدة بيئية متكاملة، تتكون من كائنات حية ومكونات غير حية في مكان معين، يتفاعل بعضها مع بعض وفق نظام دقيق ومتوازن في ديناميكية ذاتية، لتستمر في أداء دورها في إعالة الحياة.

---

(١) هو الدكتور/عدنان أحمد الصمادي في بحثه «منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث».

(٢) منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث د/عدنان أحمد الصمادي ص ٣١٤.

(٣) من الآية « ٤٩» من سورة القمر.

(٤) من الآية «٢» من سورة الفرقان.

(٥) من الآية «٨» من سورة الرعد.

(٦) الآية «٢١» من سورة الحجر.

ولذلك يطلق على النظام البيئي ـ من هذا المنطق ـ نظام إعالة الحياة[1] ويتكون أيّ نظام بيئي من أربع مجموعات من العناصر أو المكونات، وهي: عناصر الإنتاج، وعناصر الاستهلاك، وعناصر التحلل، والعناصر الطبيعية غير الحية[2].

وهذه العناصر تجسد حالة التوازن الواضح بين مكونات كل منها، وكل نظام منها يمثل بيئة منفصلة ومتوازنة: كالبحار والغابات والبحيرات، وإذا حدث تغير في الظروف المحيطة بنظام بيئي فقد يتغير في الشكل، إلا أن البيئة التي تحتوي على تنوع من النباتات والحيوانات، تقاوم هذه التغيرات وتحاول الحفاظ على توازنها، ألا يدل ذلك على دقة الخلق وحكمة الخالق وقدرته سبحانه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[3].

الركيزة الثانية: البيئة خلقت متوازنة:

إن هذه البيئة خلقت على نظام بديع متوازن متكامل العناصر، لا يطغى فيها عنصر على عنصر، ولكل عنصر وظيفته يؤديها دون أن يظلم منها شيئاً، وهذه القاعدة مقررة في كثير من الآيات نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[4].

ومن صور التوازن التي خلق الله سبحانه وتعالى البيئة عليها: ثبات

---

(١) البيئة ومشاكلها للفقي ص ٢٦، البيئة من منظور إسلامي د/زين الدين عبد المقصود ص ٢١ طبعة شركة المطبعة العصرية ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

(٢) التلوث مشكلة العصر د/أحمد مدحت إسلام، العدد (١٠٢) من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، أغسطس ١٩٩٩م، ص ٩، ١٠.

(٣) من الآية «٢» من سورة الفرقان.

(٤) الآيات «١٩ ـ ٢٢» من سورة الحجر.

كمية الماء على سطح الأرض، حيث تشكل هذه الكمية ٧١,١٪ من سطح الأرض، ثم تعود إليه مرة ثانية، ومعلوم أن بخار الماء المتصاعد من البحار والمحيطات تحمله الرياح فيتكاثف، ويلقح بواسطتها بإحداث تفريغ كهربائي فيبدأ هطول المطر لتفيض الأنهار والأودية، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[1]، وقد يستقر ويصبح مكنزاً تحت الأرض، مكوناً مياه جوفية، فإذا نزل الغيث شرب منه كل كائن حي على الأرض، كما تشرب منه الأرض نفسها، ولا يمكن التحكم بالأمطار؛ لأنه بعد ذلك يترسب من الأحياء، والأرض إلى البحر مرة أخرى، فتبدأ الدورة ثانية، وهكذا.

ومن هنا يتبين لنا معنى الآية ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[2] إذ أننا لا نستطيع منعه من النزول ولا الصعود إلا على هيئة بخار ماء، وأن كل ما تفقده الأرض من ماء على هيئة بخار سرعان ما ترده إليها السماء كاملاً ثانية في صورة أمطار، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4]، ويتجلى التوازن البيئي بأجمل صوره في نظام الدورات للعناصر والمواد التي سبق ذكرها[5].

الركيزة الثالثة: الحماية:

أي أن البيئة خلقت محفوظة، بأن جعل لها أنظمة تحميها، إلا أنه لا بد لكل ناموس ونظام من أنظمة البيئة من نظام حماية؛ ليضمن

---

(١) من الآية «١٧» من سورة الرعد.

(٢) من الآية «٢٢» من سورة الحجر.

(٣) الآية «١٨» من سورة المؤمنون.

(٤) من الآية «٢١» من سورة الزمر.

(٥) منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث د/عدنان أحمد الصمادي ص ٣١٦.

استمرار هذا النظام، ويحافظ عليه من التدخلات الخارجية التي تخل بهذا النظام.

فأي مادة أو نظام لا بد لها من إجراءات وقاية، وإجراءات دفاع تحفظها من الخلل والنقص والتلف والانهيار وتطفل الأعداء وتضمن لها القيام بدورها وواجبها في هذا الكون بكل دقة واقتدار، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[1].

ومن الأمثلة على أنظمة الحفظ والحماية المختلفة في هذا الكون الواسع: «الذرة» حيث يوجد في نواتها قوة عجيبة تحفظ مكوناتها من الاندثار والتفتت، وإن أي تفتيت لهذه النواة يطلق تلك الطاقة العجيبة التي يطلق عليها «الطاقة»[2].

كما أن الأرض والسماوات محفوظة بحفظ الله قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ﴾[4]، فالله حفظ النجوم والكواكب بمواقعها، حتى لا يرتطم بعضها ببعض، فقد حفظ الأرض بأنظمة حماية عجيبة، وأول هذه الأنظمة هي اتزانها وثباتها في مدارها بواسطة قوة جذب الشمس وقوة الطرد المركزي الناتج عن الدوران، وقوى الجاذبية الأخرى، وجميع هذه القوى تضمن ثبات الأرض في مدارها بحيث لا تنفلت أو تتيه في الفضاء، قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[5].

ومن أنظمة الحفظ والحماية: الغلاف الجوي للأرض، وهو عبارة عن عدة طبقات من الغازات المختلفة، والتي تؤدي أدواراً مختلفة تكون

---

(١) من الآية «٢١» من سورة سبأ.

(٢) منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث د/عدنان أحمد الصمادي ص ٣١٧.

(٣) الآية «٣٢» من سورة الأنبياء.

(٤) من الآية «٢١» من سورة الزمر.

(٥) من الآية «٦٤» من سورة يوسف.

في مجموعها نظام الحماية للكرة الأرضية، حيث تحمي الغيوم والبخار والأكسجين وتقي الغازات من التشتت، كما تصفي أشعة الشمس من الأشعة الضارة بواسطة طبقة الأزون، وكذلك تفتت الأجرام السماوية والنيازك قبل ارتطامها بالأرض، بالإضافة إلى حفظ حرارة الأرض، وعكس الإشارات والأمواج الكهربائية والصوتية وحفظها[1].

الركيزة الرابعة: إن البيئة خلقت للإنسان، فهي مسخرة له، وهو مستخلف فيها:

فالإنسان خليفة الله في أرضه، فلا عجب أن الله يكرمه في هذه الأرض بما فيها من طاقات وخيرات سخرها له في البر والبحر؛ لكي ينعم بخيراتها، ويبتهج بجمالها[2]، وقد هيأ الله تعالى الأرض ومهدها وبسطها؛ ليحقق مفهوم الاستخلاف هذا، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[4]، وقال عز وجل: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[5].

ومظاهر التسخير كثيرة ذكرها القرآن الكريم في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ

---

(١) منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث د/عدنان أحمد الصمادي ص ٣١٨

(٢) الإسلام وحماية البيئة د/آمنة نصير، ضمن سلسلة القضايا الإسلامية الصادرة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، مصر، العدد (٧٦) ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م ص ٨.

(٣) الآية «١٩» من سورة نوح.

(٤) الآية «٤٨» من سورة الذاريات.

(٥) الآية «٦١» من سورة النمل.

لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

فهذه الآيات عرض للمكونات البيئية الهائلة، ويكثر فيها فعل التسخير أربع مرات، دلالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه، ودعوة للإنسان ليشكر النعم الآتية من هذا التسخير، وهو الخليفة في الأرض التي ذللت له، ولا يتمكن الإنسان من ممارسة خلافته في الأرض على الوجه المطلوب إلا لحماية هذه المكونات البيئية المسخرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4]، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي ربطت مفهوم الاستخلاف بالتسخير والتمهيد والبسط... إلخ.

غير أن الإنسان أبى إلا أن يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[7]، وهذا هو التلوث المقترن بالفساد والإفساد، والإفساد في الأرض يشمل الإفساد المادي بتخريب العامر وإماتة الأحياء وتلويث الطاهرات وتبديد الطاقات واستنزاف الموارد

---

(١) الآيات «٣٢ ـ ٣٤» من سورة إبراهيم.
(٢) من الآية «٣٠» من سورة البقرة.
(٣) الآية «١٦٥» من سورة الأنعام.
(٤) من الآية «٣٩» من سورة فاطر.
(٥) الآية «١٠» من سورة الأعراف.
(٦) الآية «٦٥» من سورة الحج.
(٧) الآية «٢٠٥» من سورة البقرة.

في غير حاجة أو مصلحة وتعطيل المنافع وأدواتها، كما يشمل الإفساد المعنوي كمعصية الله تعالى ومخالفة أمره والكفر بنعمته والتمرد على شريعته والاعتداء على حرماته وإشاعة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وترويج الرذائل ومحاربة الفضائل، وتقديم الأشرار وتأخير الأخيار.

والجدير بالذكر أن الله سبحانه وتعالى نفّر من الإفساد في الأرض بربطه باللعنة وعدم العلم والفهم والتعلم، قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾[1].

الركيزة الخامسة: البيئة:

ومنها: الأرض ملك لله، والإنسان مستخلف فيها، فهو ينتفع بها، وهي أمانة استودعها الله إياه، قال تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾[4].

والله تعالى استخلف الإنسان في ملكه، وجعله أميناً على مقدراته، وأوجب عليه أن يتصرف تجاهه تصرف الأمين، فلا يلوث هواءه ولا يدنس ماءه ولا يفسد زرعه... إلخ[5].

❋ ❋ ❋

(١) الآيتان «٢٢، ٢٣» من سورة محمد.

(٢) من الآية «٤٩» من سورة الشورى.

(٣) الآية «٢» من سورة الحديد.

(٤) الآية «١» من سورة الملك.

(٥) منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث د/عدنان أحمد الصمادي ص ٣٢٠.

المبحث الرابع
حرص الإسلام على التوازن البيئي
في استخدام الموارد المتاحة

يقصد بالتوازن البيئي: «بقاء عناصر أو مكونات البيئة الطبيعية على حالها كما خلقها الله ـ تعالى ـ دون تغيير جوهري يُذكَر»[(١)].

إن التوازن البيئي هو أهم ما يُميّز البيئة والنظام البيئي، وهو محور التثبت لأجزاء النظام البيئي، وعنصر الترابط والاستدامة والصلاحية فيه[(٢)].

وقد أكد القرآن الكريم حقيقة التوازن البيئي في مواضع مختلفة، ونبّه العباد إلى الحكمة السامية وراء التناسق والنظام في خلق هذا الكون، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[(٦)].

فالآيات السابقة تدل على أن عناصر الكون قد خلقت بنسب

---

(١) الإسلام والبيئة، رؤية إسلامية حضارية للدكتور/بركات محمد مراد ص ١٥ طبعة دار القاهرة ٢٠٠٣م، البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، م/محمد عبد القادر الفقي ص ٣٠، الطفل والبيئة د/أيمن أبو الروس ص ٨٨ طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٩٩م.

(٢) منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث د/عدنان أحمد الصمادي ص ٣١٤.

(٣) من الآية «٤٩» من سورة القمر.

(٤) من الآية «٢١» من سورة الحجر.

(٥) من الآية «٢» من سورة الرعد.

(٦) من الآية «٢» من سورة الفرقان.

محددة، وبقدر وكيف معلوم، وذلك كله حتى تكون الأرض وما عليها مسخرة للإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾[1] فقد أرسى الله ـ تعالى ـ فيها الجبال أوتاداً ثوابت تحفظ لها توازنها وتحمي مناخها الطبيعي ليستمر صالحاً للحياة بما أنشأ الله سبحانه وتعالى فيها من نبات وغابات وحدائق تضخ الأكسجين اللازم للتنفس، وتمتص ثاني أكسيد الكربون المدمر للحياة[2].

ونلاحظ ورود لفظ «قدر» في الآيات السابقة وهي تعبر عن المقدار الدقيق والذي تستخدمه الرياضيات البحتة الآن في التعبير عنه في علوم الفيزياء الحديثة، ويُدرك العلماء وحدهم الآن مدى الدقة البالغة في إحكام الكون وقوانينه، والذي لا يمكن التعبير عنه إلا بلغة الرياضيات، ومما له دلالة بالغة أن يُحصي المفسرون في القرآن الكريم أكثر من سبعمائة وخمسين آية تتعلق بالكون، بينما آيات الفقه لا تتعدى المائة والخمسين آية، وكثير من هذه الآيات تحدثنا عن سنن الله الكونية، وهي قوانين ثابتة لا تتغير، وما قد يطرأ عليها من تغير أو انحراف هو نتيجة إفساد الإنسان، وإسرافه في التعامل مع ظواهر الكون وأسبابه[3].

وقد أوضح الله ـ عز وجل ـ أن النبات قد خلق بأسلوب موزون، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[4]، ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾[5].

---

(١) الآيتان «١٩، ٢٠» من سورة الحجر.

(٢) البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، م/محمد عبد القادر الفقي، مرجع سابق ص ٣٠، حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة د/جعفر عبد السلام ص ٢٠ طبعة رابطة الجامعات الإسلامية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م، الطفل والبيئة د/أيمن أبو الروس، مرجع سابق ص ٨٨.

(٣) الإسلام والبيئة، رؤية إسلامية حضارية د/بركات محمد مراد ص ٩٢، ٩٣ طبعة دار القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

(٤) الآية « ١٩» من سورة الحجر.

(٥) الآيتان «٦، ٧» من سورة ق.

وتدل هذه الآية على أن كل نبات قد وزنت عناصره، وقدرت تقديراً، وهو ما يبدو من تقدير العناصر الغذائية المختلفة في الحبوب والفواكه المتنوعة، وهذا من آيات الله في إقرار مبادئ التوازن في البيئة فهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[1].

وهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن الخالق سبحانه وتعالى تفرّد بالخلق، وإحسانه ذلك وإتقانه، وتسويته وتقديره، ففي الآية الأولى أطلق الخلق؛ ليعم كل مخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[2]، والتسوية في هذه الآية معناها: التقويم والتعديل، وقد خلق الله كل مخلوق مستوٍ على أحسن ما يتناسب لخلقته، وما خلق له، فلم يأتِ متفاوتاً، بل متناسباً على إحكام وإتقان، دلالة على أنه صادر عن عالم حكيم، وذلك مما يستوجب حقاً له سبحانه أن يسبح اسمه في ذاته، وجميع صفاته، حيث جمع بين الخلق والتسوية، فله كمال القدرة، والتنزيه عن كل نقص[3]. وفي الآية الثانية أطلق التقدير؛ ليعم كل مقدور، وهو عائد على كل مخلوق؛ لأن من لوازم الخلق التقدير، وقد قال بعض المفسرين: إن العالم كله داخل تحت منطوق هذه الآية[4].

ولعله من عظمة التوازن، ودقة التقدير ما أظهرته العلوم الحديثة من أن حجم الأرض، وكتلتها، وموقعها من الشمس والقمر وانتظام دورتها حول نفسها، وحول الشمس، وتداول الليل والنهار، وتداول الفصول الأربعة، وتوازن الحرارة والبرودة فيها، وتوزيع الأقوات والأرزاق بها، كل ذلك موزون ومحسوب[5].

---

(١) الآيتان «٢، ٣» من سورة الأعلى.

(٢) من الآية «٧» من سورة السجدة.

(٣) البحر المحيط ٤٥٨/٨، أضواء البيان ٥٠١/٨.

(٤) أضواء البيان ٥٠١/٨، ٥٠٢.

(٥) قانون حماية البيئة الإسلامي مقارناً بالقوانين الوضعية د/أحمد عبد الكريم سلامة ص ٣٣ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م مشار إليه في: واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية د/محمود السيد حسن داود ص ٨١ هامش (١) طبعة رابطة الجامعات الإسلامية ٢٠٠٥م.

والجدير بالذكر أن توازن البيئة علم ناشئ لا يتجاوز عمره ربع قرن، ظهر كنتيجة للتلوث الذي ظهرت آثاره المدمرة تدريجياً في الحيوان والنبات والإنسان والأرض والغلاف الجوي منذ بدء العصر الصناعي في القرن التاسع عشر إلى أن بلغ ذروته في منتصف القرن العشرين، وعندها تداعت الجمعيات العلمية المعنية بشئون الأحياء والطبيعة إلى بيان الخطر، فسنت القوانين التي تحمي البيئة من خطر التلوث، إلا أن الإنسان أخطر مفسد وأكبر قاتل في الأرض لا يزال حتى الساعة يدمر الحرث والنسل كلما دعته قدرته على ذلك، فقلّما تنفع القوانين الوضعية عندما ينعدم الوازع الديني المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[2][3].

كما أن الله تعالى أمر الإنسان بالاستفادة من الموارد البيئية المتاحة في بيئته على قدر حاجته ودون الاسراف والاستنزاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[4]؛ ولضمان استمرار الحياة على سطح الأرض، فإن الله ـ تعالى ـ قد ضمن للإنسان استمرار حصوله على المصادر المائية بمختلف الطرق لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾[6].

❋ ❋ ❋

(١) الآيتان «٧، ٨» من سورة الرحمٰن.

(٢) من الآية «٨٥» من سورة الأعراف.

(٣) قضايا البيئة من منظور إسلامي د/أحمد عبد الرحيم السايح، د/أحمد عبده عوض ص ٥٩.

(٤) من الآية «٣١» من سورة الأعراف.

(٥) من الآية «١٧» من سورة الرعد.

(٦) الآية «١٢» من سورة فاطر.

المبحث الخامس
في المحافظة على البيئة في القرآن الكريم والسنة النبوية والتدابير اللازمة لذلك ونماذج من عناية الإسلام بها

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المحافظة على البيئة في القرآن الكريم والسنة النبوية.

المطلب الثاني: التدابير الإسلامية اللازمة للحفاظ على البيئة.

المطلب الثالث: نماذج من عناية الإسلام بسلامة البيئة.

* * *

المطلب الأول
المحافظة على البيئة في القرآن الكريم والسنة النبوية

أولاً في القرآن الكريم:

إن بيئتنا التي أنعم الله علينا بها ومنحنا إياها، يتعين علينا أن نسعى لحمايتها والمحافظة عليها لتؤدي دورها كما أراد الله ـ تعالى ـ، وقد حذر ـ جل شأنه ـ كل من يسئ إليها أو يفسد فيها أو يبدلها... بالعقاب الشديد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ

(١) من الآية «١١٢» من سورة البقرة.

(٢) من الآية «٦٠» من سورة البقرة.

إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[2].

فعبارة (ظهر الفساد) تتضمن كل المعاني المادية والمعنوية التي تنتج عن سلوك الإنسان التخريبي في الطبيعة والمجتمع، والتلوث بمعناه الواسع أقرب إلى مفهوم الفساد، وقد تقدم لفظ البر على البحر تأكيداً لحقيقة موضوعية وهي: أن نشاط الإنسان بدأ في البر أولاً ثم امتدَّ إلى البحر.

(بما كسبت أيدي الناس) أي بالذي جمعته أيدي الناس وعملته نتيجة سعيها للكسب الجشع، فالمصانع والمعامل ومحطات الطاقة الذرية ووسائط النقل الجوية والبرية والبحرية، وطرائق استثمار الخيرات في البر والبحر كالزراعة والصيد والتعدين والإنشاء والتعمير كلها وسائل وسبل للكسب، وهذه السبل أصبحت مصدراً لتلوث البيئة من الماء والهواء والتراب.

(ليذيقهم بعض الذي عملوا) أفضل كلمة تعبر عن هذه المعاني المختلفة هي ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ عمل الإنسان الأسمدة والمبيدات الكيميائية وذاق التسمم من بعضها، وعمل الأشعة ليستخدمها لصالحه فدفع ثمن ذلك جزءاً من صحته، وعمل وسائط النقل لتريحه في الانتقال، ولكن تشهد الطرقات مئات الكوارث والمجازر من حوادث السير، ولولا هذا الذي يذوقه الإنسان من بعض ما عملته يداه، لما تنبه إلى خطورة ما يقدم عليه من تخريب للأنظمة البيئية، فبدأ يدق ناقوس الخطر لحماية البيئة[3].

فالإسلام خاتم الرسالات الربانية إلى البشر تضمن قواعد وضوابط

---

(١) من الآية «٥٦» من سورة الأعراف.

(٢) من الآية « ٤١» من سورة الروم.

(٣) تلوث البيئة فساد في البر والبحر، محمد فيض الله الحامدي، بحث منشور في مجلة نهج الإسلام، العدد (٦٣) رمضان ١٤١٦هـ ١٩٩٦ م ص ١٦٠.

لسلوكيات البشر تجاه بيئتهم التي يعيشون فيها كي تتحقق العلاقة المتوازنة والسوية بين الإنسان وبيئته لتستمر الحياة كما قدر الله، وحتى يرث الله الأرض وما عليها، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

فالإنسان مستخلف وليس مالكاً حتى يتصرف فيها على هواه دون ضوابط، فالإنسان وصي على هذه الموارد البيئية لا مالك لها، مثلما هو مستخلف على نفسه وليس مالكاً لها فالإنسان ملك لخالقه.

وكون الإنسان مستخلفاً على إدارة واستثمار محيطه الذي يعيش فيه، فعليه صيانته والحفاظ عليه من أي تدمير أو تخريب، فأي شكل من أشكال الضرر سواء للبشر أو لغيرهم من المخلوقات قد نهى عنه الإسلام.

فالبيئة بمواردها الطبيعية لا تعتبر ملكاً خالصاً لجيل من الأجيال يتصرف بها كيفما يريد، إنما هي ملك وميراث دائم للبشرية لا يستطيع أي جيل أن يدعي لنفسه ملك هذا الحق قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2]، وفكرة العمل على ضمان وصيانة وبقاء استمرار البيئة بالعطاء على مدى الزمن قد طرحت حديثاً من خلال مفهوم «التنمية القابلة للاستمرار أو التنمية المستديمة»، ومفهوم «تقييم الأثر البيئي للمشاريع» الذي يعني: ضرورة إجراء تقييم لما قد تحدثه المشاريع للبيئة المحيطة بمنطقة المشروع بما في ذلك الإنسان ذاته، فإذا تبين أن لهذا المشروع ضرراً لعناصر البيئة المحيطة بمنطقة المشروع بما في ذلك الإنسان ذاته يتم تعديله لتجنب إحداث الضرر، وحتى إلغاء المشروع إن لم تتمكن الدراسات والتقنية المتوفرة حتى وقت إعداد المشروع من تجنب ومنع إحداث أضرار للبيئة، على اعتبار أن الحفاظ على موارد البيئة مقدم على المنفعة الاقتصادية، التي كثيراً ما قد تكون غير قابلة للاستمرار لإهمالها الاعتبارات البيئية، فالمشاريع التنموية غير القابلة

---

(١) من الآية «٣٦» من سورة البقرة.

(٢) من الآية «٣٦» من سورة البقرة.

للاستمرار تكون ذات آثار بيئية سلبية والأضرار التي ستحدثها سيكون كلفة إصلاحها مرتفعة، وقد تكون أضراراً غير قابلة للإصلاح، وبالتالي تكون خطط التنمية فاشلة وذات أثر اقتصادي سلبي على المواطنين المستهدفين بخطط التنمية وعلى اقتصاد الدولة ومواردها[1]، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وقد اتضح أن القرآن الكريم يسلك طريقين في الحفاظ على البيئة:

١ - تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ النوع والسلالة لجميع المخلوقات، وقد بدأ حفظ النوع والسلالة مع الطوفان في عهد سيدنا نوح - عليه السلام -، ويستمر هذا الحفظ إلى أن يرث الأرض ومن عليها بإذن الله.

٢ - الضوابط العديدة التي وضعها القرآن الكريم للإنسان في التصرف في مكونات البيئة، فنهاه عن الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، ونهاه عن الإسراف، ودعاه إلى التوسط والاعتدال في كل أموره فلا إفراط ولا تفريط.

ثانياً: السنة النبوية المطهرة:

لقد اهتمت السنة النبوية المطهرة بالبيئة وعناصرها، فقد أوردت الكثير من الأحاديث النبوية التي تلفت نظر المسلم إلى الاهتمام بأمر البيئة كغرس الأشجار والزرع وحمايتها، وعدم قطعها لغير مصلحة عامة، وقد ربط الغرس والزرع بالأجر من الله والصدقة الجارية.

وقد وردت في هذا الصدد أحاديث كثيرة منها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير، أو إنسان، أو

---

(١) الإسلام والبيئة/ محمد مرسي محمد مرسي ص ٥٩.

(٢) من الآية «١٩٥» من سورة البقرة.

بهيمة إلا كان له به صدقة»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عز وجل عنها يوم القيامة»، قيل: يا رسول وما حقها؟ قال: «حقها أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها فيرمي به»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله عز وجل يوم القيامة يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[4].

فقد حث النبي الكريم على أن يظل الإنسان المسلم يغرس غرسه لتجميل البيئة وتحسينها ونشر الظل حتى لو قامت الساعة.

وقال رسول الله ﷺ: «الناس شركاء في ثلاثة: الماء والكلأ

---

(١) رواه البخاري، واللفظ له في كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه برقم «٢١٥٢»، ومسلم في كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع برقم «٢٩٠١»، والترمذي في كتاب الأحكام عن رسول الله، باب ما جاء في فضل الغرس برقم «١٣٠٣»، وأحمد في مسند أنس بن مالك برقم «١٢٠٣٨»، والدارمي في كتاب البيوع، باب في فضل الغرس برقم «٢٤٩٦».

(٢) أخرجه الإمام عبد الرزاق في مصنفه ٤/٤٥٠، رقم: (٨٤١٤)، البيهقي في السنن الكبرى ٣/١٦٣، باب إباحة أكل العصافير، الحديث رقم ٤٨٦٠، والحاكم في المستدرك ٤/٢٦١، كتاب الذبائح، الحديث رقم: (٧٥٧٤)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٣) أخرجه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ٣/٧٣، من قتل عصفوراً بغير حقها، الحديث رقم: (٤٥٣٥)، وابن حبان في صحيحه ١٣/٢١٤، ذكر الزجر عن ذبح المرء شيئاً من الطيور عبثاً دون القصد في الانتفاع به، الحديث رقم: (٥٨٩٤)، الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/٢٤٥، رقم: (٦٣٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٣٠: «رواه الطبراني في المعجم الكبير، وفيه جماعة لم أعرفهم».

(٤) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد ١/١٦٨، رقم: (٤٧٩)، والإمام أحمد في مسنده ٣/١٨٣، رقم: (١٢٩٢٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/٦٣: «رواه البزار ورجاله أثبات ثقات».

والنار»[1]، وقد حرص الإسلام على النظافة، وجعل المحافظة عليها من الإيمان.

عن أَبِي مالك الأَشعَرِيِّ قال: قال: رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطرُ الإيمانِ»[2] فنظافة الثوب والبدن والمكان من علامات الإيمان.

ونهى كذلك أن يبال في الماء الراكد، فقد روى البخاري عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يَبُولَنَّ أَحَدُكُم في الماءِ الدَّائم الذي لا يجرِي ثُمَّ يَغتَسِلُ فيه»[3].

وجعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة، فقد أخرج الطبراني في الكبير، والبخاري في الأدب المفرد، عن المستنير بن الأخضر بن معاوية بن مرة عن جده قال: كنت مع معقل بن يسار في بعض الطرقات، فمررنا بأذى فأماطه عن الطريق، فرأيت مثله فنحيته، فأخذ بيدي وقال يا ابن أخي ما حملك على ما صنعت؟ قلت: يا عم، رأيتك صنعت شيئاً فصنعت مثله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أماط أذى من طريق المسلمين كتب الله له حسنة ومن تقبلت منه حسنة دخل الجنة»[4].

---

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه ٢٧٨/٣، كتاب الإجارة، باب في منع الماء، الحديث رقم: (٣٤٧٧)، وابن ماجه في سننه ٨٢٦/٢، كتاب الرهون، باب: المسلمون شركاء في ثلاث، الحديث رقم: (٢٤٧٢)، البيهقي في السنن الكبرى ١٥٠/٦، كتاب المزارعة، باب ما لا يجوز إقطاعه من المعادن الظاهرة، الحديث رقم: (١١٦١٢)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٨٠/٣: «إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٠/١، باب فضل الوضوء، الحديث رقم: (٥٥٦).

(٣) (متفق عليه)، صحيح البخاري ٩٤/١، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، الحديث رقم: (٢٣٦)، وصحيح مسلم ٢٣٥/١، باب فضل الوضوء، باب النهي عن البول في الماء الراكد، الحديث رقم: (٢٨٢).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢١٦/٢٠، رقم: (٥٠٢)، عن المستنير ابن الأخضر بن معاوية عن أبيه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٦/٣: «قال المزي: صوابه عن المستنير بن أخضر بن معاوية بن قرة عن جده، كما رواه البخاري في كتاب الأدب، فإن كان كما قال المزي فإسناده حسن ـ إن شاء الله ـ وإن كان فيه: عن أبيه أخضر فلم أجد من ذكر أخضر».

وعن أَبي هريرةَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «بينما رَجُلٌ يَمشِي بِطَرِيقٍ وجد غُصنَ شَوكٍ علَى الطَرِيقِ فَأَخَّرَهُ فشكر اللَّهُ لَهُ فَغفَرَ لَهُ»[1].

وهكذا نرى أن الإسلام بتعاليمه وأحكامه حرص على وقاية البيئة من التلوث، وأوجب على الإنسان المحافظة على الكون وعمارته، لتتحقق له السعادة المنشودة، فإذا أدرك الإنسان السر، وأدى الأمانة التي تحملها، كانت له الحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[2].

وإذا أعرض الإنسان ونأى بجانبه، ولم يؤد الأمانة على الوجه المطلوب، كانت حياته ضيقة قاسية، إذ الأمراض والأوبئة والتلوث ضرب من ضروب الضيق، وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[3].

يقول الإمام الشاطبي في الموافقات: «وقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وليس يخفى أن ثلاثاً على الأقل من هذه الضروريات الخمس وهي: النفس، والنسل، والعقل، لا تكتمل المحافظة عليها إلا بحفظ الصحة»[4].

وعن هذه الضروريات يقول الإمام الشاطبي: «والحفظ لها يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها، ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

---

(١) جزء من حديث متفق عليه. (صحيح البخاري ٢٣٣/١، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل التهجير إلى الظهر، الحديث رقم: (٦٢٤)، وصحيح مسلم ١٥٢١/٣، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، الحديث رقم: (١٩١٤).

(٢) الآية « ٩٧» من سورة النحل.

(٣) الآية «١٢٤» من سورة طه.

(٤) الموافقات للشاطبي ٣٨/١.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم[1].

وهذا التصنيف البديع الذي وضعه الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ ينطبق أفضل انطباق على الهدي الإسلامي في ضمان صحة البيئة الصحية التي لا بد منها لحفظ هذه الضروريات.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
التدابير الإسلامية اللازمة للحفاظ على البيئة

التدابير الإسلامية للحفاظ على البيئة نوعان:

١ ـ تدابير وقائية تدرأ عن البيئة الاختلال الواقع أو المتوقع فيها.

٢ ـ وتدابير تعزيزية تقيم أركان البيئة وتثبت قواعدها.

أولاً: التدابير الوقائية:

وهذه التدابير الوقائية تنقسم إلى قسمين: عدم تلويث البيئة من جهة، وعدم استنفاذ العناصر الضرورية للحفاظ على سلامتها من جهة أخرى.

التدبير الوقائي الأول: عدم تلويث البيئة بما يؤذي الناس:

وذلك ابتداءً من البيئة الصغيرة بيئة المنزل وما شابهه من أماكن محصورة يمكث فيها عدد محدود من الناس، فلا يجوز بل يحرم تلويثها مثلاً بدخان السجائر الذي أصبح ضرره اليوم عين اليقين، ومروراً ببيئة الجوار حيث يحرم على صاحب المصنع أن يسكب نفايات مصنعه في المياه المشتركة بين الناس، أو يطلق أدخنة مصنعه دون تصفية أو

(١) الموافقات للشاطبي ٨/٢.

ترشيح، فيلوث جو المدينة وهواءها الذي يتنفسه الناس، بل يحرم التلويث الضوضائي بالأصوات العالية التي تزعج الناس، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[1] ويقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾[2].

وانتهاء بالبيئة العالمية الواسعة التي تضر بها على سبيل المثال المواد الفلوركاروبونية التي تستخدم في البخاخات وأجهزة التبريد، والأكاسيد الآزوطية التي تصدرها عوادم السيارات، وكلها من المواد التي تستنضب الأوزون من الطبقات الجوية العليا من جهة، فتعرض سكان العالم إلى الآثار المضرة للأشعة فوق البنفسجية، ولكنها من جهة أخرى تساعد في الوقت نفسه على توليد الأوزون في الطبقات الجوية الدنيا، فتزيد من هجمات الربو، وتهيج الحنجرة والجهاز التنفسي، وتخرب النبات، وتؤخر نموه.

أما التدبير الوقائي الثاني: فهو عدم استنفاذ العناصر الضرورية للحفاظ على سلامة البيئة، فقد نهى النبي ﷺ ـ مثلاً ـ عن الإسراف في استعمال الماء، حتى في التنظيف والتطهير، وضرب بنفسه المثل لذلك، فقد كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد[3] والمد أقل من نصف لتر، والصاع أقل من لترين اثنين، بل روى الإمام عبيد في كتاب الطهور عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه مر بنهر فنزل وأخذ قعباً ـ وعاء معه ـ فملأه من الماء ثم تنحى عنه أن يقطع من شجر المدينة شئ[4]، وقال

---

(١) من الآية «١٩» من سورة لقمان.

(٢) من الآية «٢٠٥» من سورة الأعراف.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٨٤/١، كتاب الوضوء، باب الوضوء بالمد، الحديث رقم: (١٩٨).

(٤) أخرجه الإمام الطبراني في مسند الشاميين ٣٤٦/٢، الحديث رقم (١٤٦٩)، وجاء في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري ٣٢٤/٩ تحقيق: بكري حياني ـ صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، الحديث رقم (٢٦٢٤٣).

عن واد بالطائف: «إن صيد وج - هذا اسم الوادي - وعِضَاهَه حرام محرم»، والعضاه: كل شجر عظيم له شوك[1].

وقال الإمام أبو يوسف في كتابه الخراج: حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه عن النبي ﷺ أنه حرم عضاه المدينة وما حولها اثني عشر ميلاً، وحرم الصيد فيها وأربعة أميال حولها، قال أبو يوسف: وقد قال بعض العلماء: إن تفسير هذا إنما هو لاستبقاء العضاه أي المحافظة على الشجر[2].

وقد تغلغلت هذه المعاني في أفهام المسلمين أيما تغلغل، فالإمام أبي محمد بن حزم يقول في المحلى: «والإحسان إلى الحيوان بر وتقوى، فمن لم يعن على إصلاحه فقد أعان على الإثم والعدوان، وعصى الله تعالى، بل يجبر على سقي النخل إن كان في ترك سقيه هلاك النخل، وكذلك في الزرع، برهان ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾»[3].

قال أبو محمد: فمنع الحيوان ما لا معاش له إلا به من علف أو رعي، وترك سقي شجر الثمر والزرع حتى يهلك، هو بنص كلام الله تعالى فساد في الأرض، وإهلاك للحرث والنسل، والله - تعالى - لا يحب هذا العمل[4].

أما التدابير التعزيزية فتنقسم كذلك إلى قسمين اثنين: تنظيف البيئة

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢١٥/٢، كتاب المناسك، باب في مال الكعبة، الحديث رقم: (٢٠٣٢)، وهو مما سكت عنه أبو داود، وقال المقدسي في الأحاديث المختارة ٥٧/٣: «إسناده حسن».

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ٦٦ طبعة المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ.

(٣) الآية «٢٠٥» من سورة البقرة.

(٤) المحلى لابن حزم ١٠٠/١٠ طبعة دار الآفاق الجديدة، المحلى بالآثار لابن حزم ٢٦٥/٩ الناشر دار الفكر.

من جهة، أو زيادة رصيدها من العناصر التي تحافظ على سلامتها من جهة أخرى.

أما عن تنظيف البيئة فقد كان النبي ﷺ يحض على تنظيف البيئة، فيقول: «عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق»[1] ويقول: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[2] ويقول: «نظفوا أفنيتكم»[3].

أما عن زيادة رصيدها من العناصر التي تحافظ على سلامتها: فقد حرص النبي ﷺ على تشجيع الزراعة بما يزيد الثروة النباتية، ويضيف إلى البيئة الصالحة، فقال: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[4].

❋ ❋ ❋

المطلب الثالث
نماذج من عناية الإسلام بسلامة البيئة

لقد اهتمت كتب الحسبة كلها بسلامة البيئة ونظافتها، وخصوصا كل ما يتعلق بالإنسان في غذائه وسقائه وطهارته، وذكرت في ذلك أمور في غاية الدقة، تدل على مدى اليقظة والاهتمام بشؤون الإنسان وبيئته،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٣٩٠/١ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، الحديث رقم: (٥٥٣).

(٢) جزء من حديث متفق عليه، صحيح البخاري ١٠٩٠/٣، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، الحديث رقم: (٢٨٢٧)، وصحيح مسلم ٦٩٩/٢، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، الحديث رقم: (١٠٠٩).

(٣) أخرجه الإمام الترمذى في سننه ١١١/٥، كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في النظافة.

(٤) سبق تخريجه.

وحمايتها من كل تلوث يضر ويؤذي[1].

١ ـ في الحسبة على الخبازين:

قال الشيزري ـ رحمه الله ـ في الحسبة على الخبازين: «ينبغي أن ترفع سقائف حوانيتهم وتفتح أبوابها ويجعل في سقوف الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان، لئلا يتضرر بذلك الناس. وإذا فرغ الخباز من إحمائه مسح داخل التنور بخرقه نظيفة ثم شرع في الخبز.

ويكتب المحتسب في دفتره أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم، فإن الحاجة تدعوه إلى معرفتهم؛ ويأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسل المعاجن ونظافتها، وما يغطي به الخبز، وما يحمل عليه.

ولا يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه، لأن في ذلك مهانة للطعام، وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه وبدنه، فلا يعجن إلا وعليه ملعبة (ثوب من غير كم) أو بشت مقطوع الأكمام؛ ويكون ملثماً أيضاً، لأنه ربما عطس أو تكلم، فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين؛ ويشد على جبينه عصابة بيضاء، لئلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين؛ وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان في يده مذبة يطرد عنه الذباب»[2].

٢ ـ في الحسبة علي الفرانين:

قال الشيزري ـ رحمه الله ـ في الحسبة على الفرانين: يفرقهم المحتسب على الدروب والمحال وأطراف البلد، لما فيهم من المرافق، وعظم حاجة الناس إليهم. ويأمرهم بإصلاح المداخن، وتنظيف بلاط الفرن في كل ساعة، من اللباب المحترق، والشرر المتطاير، والرماد المتناثر، لئلا يلصق في أسفل الخبز منه شيء. ويجعل الفران بين يديه إجانة نظيفة للماء، فإذا فرغ من الخبز أراق ما بقي فيها، لأنه إذا بقي فيها تغيرت رائحته؛ ثم يغسلها من الغد. وينبغي أن يكون له مخبزان،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) نهاية الرتبة في الحسبة للشيزري ص ٢٢.

أحدهما للخبز والآخر للسمك، ويجعل السمك بمعزل عن الخبز، لئلا يسيل شيء من دهنه على الخبز»[1].

٣ ـ الحسبة على الرواسين وقلائي السمك والطباخين:

قال الشيزري ـ رحمه الله ـ في الحسبة على الرواسين، أي بائعي رؤوس المواشي: «يأمرهم بنظافة سمط الروس والأكارع بالماء الشديد الحرارة، وجودة تنقية الشعر والصوف منها، ثم تغسل بعد ذلك بالماء البارد غير الذي سمطت فيه. ويجب على الرواس أن يضم إصبعه في الخياشيم، ويغسل داخلها، بعد أن يدق مقدمها، وينزل ما فيه من القذا والوسخ والدود المتولد، إن كان هناك منه شيء»[2].

وقال في الحسبة على قلائي السمك: «يؤمرون كل يوم بغسل قفافهم وأطباقهم التي يحملون فيها السمك، وينثرون فوقها الملح المسحوق، كل ليلة بعد الغسيل؛ وكذلك يفعلون بموازينهم الخوص، لأنهم إذا غفلوا عن غسلها فح نتنها وكثر وسخها، فإذا وضع فيها السمك الطري تغير ريحه وفسد طعمه، ويبالغون في غسل السمك بعد شقه وتنظيفه وتنقيته من جلده وفلوسه ثم ينثرون عليه الملح والدقيق... إلخ[3].

وقال في الحسبة على الطباخين: «يؤمرون بتغطية أوانيهم، وحفظها من الذباب وهوام الأرض، بعد غسلها بالماء الحار والأشنان»[4].

٤ ـ الحسبة على السمانين:

قال الشيزري ـ رحمه الله ـ في الحسبة على السمانين، أي بائعي السمن: «ويعتبر المحتسب عليهم المخلل على اختلاف أجناسه ـ إذا

---

(١) نهاية الرتبة ص ٢٢.
(٢) نهاية الرتبة ص ٣٢.
(٣) نهاية الرتبة في الحسبة للشيزري ص ٣٣.
(٤) نهاية الرتبة في الحسبة للشيزري ص ٣٤.

طرح عليه الكرج[1]، وكلما كان مجسه يابساً قوياً أعيد إلى الخل الثقيف[2]، وكلما لان مجسه رمي به، فإنه قد فسد. ومتى حمضت عندهم الكوامخ يأمر المحتسب بإراقتها خارج البلد، فإنها لا تصلح بعد حمضها، وكلما تغير عندهم ـ فلا يجوز لهم بيعه لما فيه من الضرر بالناس؛ وكذلك الكبر[3] إذا دود في خوابيه، وينبغي أن تكون بضائعهم مصونة في البراني والقطارميز[4]، لئلا يصل إليها شيء من الذباب وهوام الأرض، أو يقع عليها شيء من التراب والغبار ونحو ذلك؛ وإن وضعوها في قفاف الخوص فلا بأس بها إذا كانت مغطاة بالميازر[5]، وتكون المذبة في يده، يذب عن البضاعة بها الذباب، ويأمرهم المحتسب بنظافة أثوابهم، ويأمرهم بغسل مغارفهم وآنيتهم وأيديهم، ومسح موازينهم ومكاييلهم على ما ذكرناه. ويتفقد المحتسب أصحاب الحوانيت المنفردة في الحارات والدروب الخارجة عن الأسواق، ويعتبر عليهم بضائعهم وموازينهم في كل أسبوع، على حين غفلة منهم، فإن أكثرهم يدلس بما ذكرنا».

❋ ❋ ❋

(١) الكرج: في الفارسية القطعة من البطيخ، وفي العربية توصف الأشياء التي تفسد وتعلوها خضرة بأنها مكرجة لسان العرب ٣٥٢/٢؛ وربما كان المقصود هنا بالكرج: ما فسد من قشر البطيخ المخلل. (رعاية البيئة في شريعة الإسلام للدكتور/يوسف القرضاوي ص ٢٥٠).

(٢) المقصود بذلك الخل الشديد الحموضة (رعاية البيئة في شريعة الإسلام للدكتور/يوسف القرضاوي ص ٢٥٠).

(٣) الكبر: نبات شوكي نهاية الأرب للنويري ١٥٧/١٢.

(٤) القطارميز: مفردها قطرميز، وعاء من الفخار قصير العنق، طويل الفوهة. (رعاية البيئة في شريعة الإسلام للدكتور/يوسف القرضاوي ص ٢٥٠).

(٥) الميازر: مفردها مئزر وهو رداء قصير يستر الجسم من السرة إلى أسفل، والمقصود بالمئزر هنا الغطاء. (رعاية البيئة في شريعة الإسلام للدكتور/يوسف القرضاوي ص ٢٥٠).

المبحث السادس
في التلوث البيئي من منظور إسلامي، ومصادره في العصر الحديث

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: في تعريف التلوث ومفهومه في القرآن الكريم، وحكمه.

المطلب الثاني: في أقسام التلوث.

المطلب الأول
تعريف التلوث، ومفهومه في القرآن الكريم، وحكمه

ترتفع في الوقت الحالي أصوات في الشرق والغرب تندد بالاعتداء على البيئة، وتحذر من مغبة التمادي في إهمال الموارد الطبيعية، أو التفريط فيها كالذي حدث ويحدث في اقتلاع الغابات وإطلاق الغازات السامة.

وفي هذا المطلب سوف أتناول تعريف التلوث في اللغة والاصطلاح، ومفهومه في القرآن الكريم، وحكمه.

أولاً: تعريف التلوث في اللغة والاصطلاح:

أ ـ في اللغة العربية:

جاء في معجم لسان العرب، تحت كلمة «لوث» أن التلوث يعني التلطخ، يقال: تلوث الطين بالتبن، والجص بالرمل، ولوَّث ثيابه بالطين، أي لطخها، ولوث الماء: كدَّره[1].

---

(١) لسان العرب ١٨٧/٢ مادة (لوث).

وتشير المعاجم اللغوية العربية الأخرى إلى أن التلوث، يعني خلط الشيء بما هو خارج عنه، فنقول: لوث الشيء بالشيء: خلطه به ومرسه، ولوث الماء: كدره، وتلوث الماء أو الهواء ونحوه: خالطته مواد غريبة ضارة[1].

وجاء في مختار الصحاح للإمام الرازي: «لوث» ثيابه بالطين، تلويثاً لطخها، و«لوث» الماء أيضاً: كدره[2].

وجاء في المصباح المنير: «لوث ثوبه بالطين: لطخه، وتلوث الثوب بذلك»[3].

وهكذا نلحظ أن معنى كلمة «تلوث الهواء»، أي عيبه وجعله معيباً، ويلوث عكس ينقي أو يصفي، والتلوث كتعبير شائع يعني تدهور الحال أو الوسط بإدخال مادة ملوثة أو مكدرة.

ب ـ تعريف التلوث اصطلاحاً:

في المعاجم المتخصصة في الاصطلاحات البيئية يعرف التلوث بأنه: «عبارة عن الحالة القائمة في البيئة الناتجة عن التغيرات المستحدثة فيها، والتي تسبب للإنسان الإزعاج أو الأضرار أو الأمراض أو الوفاة بطريقة مباشرة أو عن طريق الإخلال بالأنظمة البيئية»[4].

كما يعرف بأنه: «هو إدخال الإنسان مباشرة أو بطريق غير مباشر لمواد أو لطاقة في البيئة والذي يستتبع نتائج ضارة، على نحو يعرض الصحة الإنسانية للخطر ويضر بالمواد الحيوية وبالنظم البيئية وينال من قيم التمتع بالبيئة، أو يعوق الاستخدامات الأخرى المشروعة للوسط»[5].

---

(١) المعجم الوسيط ٨٤٤/٢.

(٢) مختار الصحاح للرازي ٢٥٣/١.

(٣) المصباح المنير، أحمد بن محمد المقري، ٥٦٠/٢

(٤) محمد السيد أرناؤوط، الإنسان وتلوث البيئة ص ٣٠.

(٥) قانون حماية البيئة الإسلامي مقارناً بالقوانين الوضعية د/أحمد عبد الكريم سلامة ص ٢٨.

كما يعرف بأنه: «كل إفساد مباشر للخصائص العضوية أو الحرارية أو البيولوجية أو الإشعاعية، لأي جزء من البيئة، وذلك بتفريغ أو إطلاق أو إيداع نفايات أو مواد من شأنها التأثير على الاستعمال المفيد، أو بمعنى آخر، تسبب وضعاً يكون ضاراً أو يحتمل الإضرار بالصحة العامة، أو بسلامة الحيوانات والطيور والحشرات والسمك والمواد الحية والنباتات»[1].

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم قد استخدم لفظاً أقوى دلالة وأوضح بياناً للتلوث وهو «الفساد» والدليل علي ذلك قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[2].

وجه الدلالة في الآية السابقة نجد أنها جمعت عناصر التلوث الثلاثة وهي:

العنصر الأول:

حدوث تغيير بالبيئة المائية أو البرية ونشوء خلل في التوازن الفطري الذي خلقت عليه من لدن العزيز الحكيم، فقد عبرت عنه الآية الكريمة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي ظهر التلوث والخلل بالموارد والنعم التي بثها الله تعالى لعباده في البر والبحر، فخبثت التربة ولم تعد قادرة على الإنبات، وتعرض للخطر نباتها وثمارها فدب القحط والجدب وتغير الماء، وصار فاسداً آسناً تغيرت خواصه وأضحت الكائنات البحرية في خطر أكيد.

وفعل ﴿ظَهَرَ﴾ فعل ماض يدل على التغيير والعدوان على البيئة الذي وقع بالفعل، غير أنه يومئ إلى ديمومة واستمرار ذلك التغير والإفساد الذي لحق وما زال يلحق بالموارد البيئية التي خلقها الله تعالى.

---

(١) البيئة والإنسان، د/زين الدين عبد المقصود ص ١١١.

(٢) الآية « ٤١» من سورة الروم.

العنصر الثاني:

انتساب ذلك التغيير إلى الإنسان وأفعاله فقد عبرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ أي أن أعمال الإنسان هي المسؤولة عن الفساد والتدمير والاضطراب الذي أصاب ثروات وموارد البيئية، وحرف الباء يفيد لزوم السبب والصلة بين ما اقترفته أيدي الإنسان وما لحق بما بث الله في الطبيعة من موارد ونعم.

ويؤكد الفقه الإسلامي على أن الكون ذاته، وهو البيئة العامة للإنسان وقد أوجده الله تعالى قبل خلق الإنسان ومجيئه إليه، فالإنسان وجد ووجد الكون وقد اكتملت عناصر استبقاء الحياة وبقاء النوع، فالإنسان قد طرأ على الكون أو على البيئة، بعد أن تكفل الله تعالى بتزويده بضرورات الحياة ومقوماتها، وهنا يظهر العنصر الثاني الذي ترشد إليه الآية الكريمة «فما كان موجوداً قبل وجود إنسان، لا يطرأ منه فساد أبداً وإنما طرأ الفساد مما أوجده الإنسان... لا نجد فيما لا دخل للإنسان فيه فساداً أبداً... كل الفساد جاء من الذي تدخل فيه الإنسان، دخل فيه بغير منهج خالق الكون الذي أعد له كوناً لا يأتي منه فساد».

فكل فساد في الكون ليس من الكون الذي طرأ عليه الإنسان، ولكن من الأشياء التي جاء بها الإنسان بعد دخوله هذا الكون وعملها ليحقق خيراً عاجلاً سطحياً ولا يدري ماذا يأتي بعد ذلك من شر.

العنصر الثالث:

وهو إلحاق أو احتمال لحوق الضرر بالموارد البيئية بفسادها وتدهور حالتها وصيرورتها غير صالحة أو غير ميسرة لما خلقت له وباتت مخلوقات الله من إنسان وحيوان وجماد في خطر ويتهددها التدهور والفناء فقد جاء في قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟﴾ والمراد لحوق المعاناة وذوق الضرر والأذى الذي نتج وينتج عن عمل الإنسان بجعله يذوقه أو يتجرعه. فكأن الإنسان يتحمل نتائج إفساده في الأرض، وتلويثه لما خلق الله فيها، فيلحقه الضرر والعذاب، بمخالفته أمر الله وخروجه عن سننه في تعامله مع ما أنعم عليه.

تلك هي معجزة القرآن الكريم في شأن الإدراك المبكر لمشكلات البيئة، وهو إدراك وتبصر كسر حاجز الزمن، ونبه إلى العواقب الوخيمة للسلوك الإنساني غير القويم في التعامل مع موارد وخيرات ذلك الكون الذي خلقه الله وسخره لمخلوقاته، وعلى رأسها الإنسان[1].

ثانياً: مفهوم التلوث في القرآن الكريم:

لم ترد ـ على حد علمنا ـ في القرآن الكريم كلمة «تلوث» بلفظها، ولكن بمفهومها اللغوي الذي عرضناه، وهو أن كتاب الله الحكيم قد عبَّر عن مضمون لفظة «التلوث» بلفظة «الفساد».

وقد وردت تلك اللفظة في العديد من الآيات الكريمة نكتفي بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[3]. وتدبّر كلمة «فساد» يقود إلى القول باطمئنان أنها أوسع وفي الوقت ذاته، أدق من كلمة «تلوث»، فمعاجم اللغة توضح أن الفساد نقيض الصلاح، فسد تفسد ويفسد وفساداً وفسوداً، فهو فاسد، والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد خلاف الاستصلاح[4].

وعرف الراغب الأصفهاني الفساد بأنه: «خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة»[5]. وإذا كان معنى «الفساد» على هذا النحو، والاضطراب والخلل الذي يدخل على

---

(١) البيئة للفقي ص ٣١.

(٢) من الآية «٢٥١» من سورة البقرة.

(٣) من الآية «٢٠٥» من سورة البقرة.

(٤) لسان العرب ٣٣٥/٣، المعجم الوسيط ٦٨٨/٢، العين ٢٣١/٧.

(٥) معجم ألفاظ القرآن للأصفهاني ص ٣٩٣ تحقيق/نديم مرعشلي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

الشيء بفعل أو بإدخال شيء غريب أو أجنبي عنه على نحو يفسده، أي يضيره ويجعله غير صالح لأداء وظيفته التي خلق لها، فإن استخدام القرآن الكريم لتلك اللفظة يبدو أكثر دقة وإحكاماً ودلالة على المقصود من لفظة «التلوث»، وإذا كان هذا هو مفهوم الفساد فإنه مفهوم يتسع لكل الأعمال الضارة بالبيئة، أو مصادر تهديدها، أو كل ما يؤدي إلي إحداث الخلل والاضطراب فيها، بحيث يعني الفساد تلويث البيئة، وكذلك استنزاف مواردها، والتبذير في استخدمها على نحو يهدد دوامها لصالح الأجيال المقبلة.

أما لفظة «التلوث» التي تستخدمها العلوم البشرية المعاصرة، فهي ذات معنى غير منضبط حيث إنها كما تدل على خلط الشيء بما ليس من جنسه ونوعه فيكدره، ويغير خواصه ويضره، فإنها تدل على غير ذلك وتعني أموراً أخرى بعيدة عن المعنى السابق، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور، فضلاً عما أوردنا آنفاً أن كلمة «تلوث» تعني التهذيب، واللوث: الشر، واللوث: الجراحات والمطالبات، واللوثة: من الجنون، واللوثة: الحمق والاسترخاء، وناقة ذات لوثة أي: قوة، أو ذات لحم وشحم، واللوث بالفتح: القوة[1].

فسبحان من كل شيء عنده بمقدار حتى الحروف والألفاظ إنه بحق تنزيل من حكيم حميد، إن استخدام لفظة «الفساد» بالمفهوم السابق دون كلمة «تلوث» يقدم وجهاً آخر من وجوه الإعجاز اللغوي لكتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فضلاً عن إعجازه العلمي، فهو الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه فألفاظه وآياته تفسر في كل عصر، بما يلائم علومه وثقافته.

ومع ذلك فنحن في غفلة عن كلمات وألفاظ القرآن الكريم، ولا زلنا نستخدم كلمة «التلوث» في الاصطلاحات العلمية على الرغم مما يكتنفها من مثالب!!

---

(١) لسان العرب ١٨٧/٢ مادة (لوث).

ثالثاً: حكم التلوث في الشريعة الإسلامية:

مما لا شك فيه أن التلوث بكافة صوره سواء أكان تلوثاً للماء، أو الهواء، أو الأرض، أو الضوضائي يعد ضرباً من ضروب الفساد فيحرم، ويؤيد ذلك ما يأتي:

١ ـ قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1] ولا شك أن تبديل وتغيير الخصائص التي أنعم الله ـ تعالى ـ بها على جميع مخلوقاته يستوجب العقاب الشديد، وما ذلك إلا لتحريمه.

٢ ـ أنه يؤدي في حالات كثيرة إلى إزهاق الأرواح الذي هو حرام بالقطع، كما في قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2] أي من قتل نفساً ـ بسبب فساده ـ فكأنما قتل الناس جميعاً.

٣ ـ نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن التسبب في وقوع الضرر بالنفس أو إلحاقه بالآخرين، فقال ـ ﷺ ـ: «لا ضرر ولا ضرار»[3] ولا شك أن التلوث بكافة صوره ضرر يصيب كل الكائنات الحية، والنهي للتحريم فأدى إلى تحريم الإضرار بالنفس وبالغير.

٤ ـ التلوث يؤدي إلى المفاسد والمضار المحرمة، وما يؤدي إلى الحرام يكون حراماً عملاً بالقاعدة التي تقول: «ما أدى إلى الحرام فهو حرام»، وإذا كان جلبه حراماً، فيكون درؤه واجباً.

---

(١) من الآية «٢١١» من سورة البقرة.

(٢) من الآية «٣٢» من سورة المائدة.

(٣) أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه ٢/٧٨٤، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، الحديث رقم: (٢٣٤٠)، والدارقطني في سننه ٣/٧٧، رقم: (٢٨٨)، والحاكم في المستدرك ٢/٦٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٣/٤٨: «هذا إسناد رجاله ثقات، إلا أنه منقطع».

٥ ـ كما أن منع الضرر قبل حدوثه أولى من معالجته بعد حدوثه، عملاً بالقاعدة الفقهية التي تقول: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»[١].

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
في أقسام التلوث

ينقسم التلوث عموماً إلى قسمين رئيسين:

الأول: التلوث المادي:

ويشمل تلوث كل من الماء والهواء والتربة الصالحة للزراعة.

الثاني: التلوث غير المادي:

كالضوضاء التي تنتج من محركات السيارات والآلات والماكينات، وما تسببه من ضجيج يؤثر على أعصاب الإنسان[٢].

وبناءً على ذلك سوف أتناول أهمّ أقسام التلوث الخاص بالماء، والهواء، والأرض، والضوضاء. مع بيان تحريم ذلك في الشريعة الإسلامية، وذلك على النحو التالي:

القسم الأول: تلوث المياه:

لقد بين القرآن الكريم في عشرات الآيات تكوين الماء وأهميته في

---

(١) موقف الإسلام من قضايا التلوث البيئي المعاصرة» التلوث الغذائي د/محمد حسين قنديل، بحث منشور في مجلة البحوث الفقهية والقانونية، التي تصدرها كلية الشريعة والقانون بدمنهور، العدد السادس عشر ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، الجزء الأول ص ١٧١، البيئة مشاكلها وقضاياها للفقي ص ٦٩، الإسلام والبيئة، رؤية إسلامية حضارية للدكتور/بركات محمد مراد ص ٧٢.

(٢) طعام الإنسان وشرابه بين الطب والقرآن والسنة للمهندس/محمد السيد أرناؤوط ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤ طبعة المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، ولنفس المؤلف/التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان ص ١٢، ١٣.

إحياء الأرض وإنباتها وجعل منه كل شيء حي، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[4]، ويقول تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[5]، ويقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾[6].

ويعدّ تلوث الماء من أوائل الموضوعات التي اهتم بها العلماء والمتخصصون في مجال حماية البيئة، كما أنه من أخطر المشكلات البيئية التي تواجهها اليوم، ويتلوث الماء بكل ما يفسد خصائصه، أو يغير من طبيعته.

ويعرف تلوث الماء بأنه: «إحداث تلف أو إفساد لنوعية الماء، مما يؤدي إلى حدوث خلل في نظامها الإيكولوجي بصورة أو أخرى، بما يقلل من قدرتها على أداء دورها الطبيعي»، أو بعبارة أخرى: «تدنيس مجاري الماء من أنهار، وبحار، ومحيطات، إضافة إلى مياه الأمطار والآبار والمياه الجوفية، مما يجعل من هذه المياه غير صالحة

---

(١) من الآية «٣٠» من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية «١٤» من سورة النحل.
(٣) من الآية «١٤» من سورة النبأ.
(٤) من الآية «١٨» من سورة المؤمنون.
(٥) من الآية «٢٢» من سورة الحجر.
(٦) من الآية «٣٢» من سورة إبراهيم.

للإنسان أو الحيوان أو النبات أو الأحياء التي تعيش في المسطحات المائية»[1].

والجدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية الغراء حافلة بكثير من النصوص التي تحث على حماية الماء من التلوث، ومن هذه النصوص:

١ - قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2].

فالإنسان وفقاً لهذه الآية مطالب بعدم الإفساد في الأرض؛ لأن ذلك يؤثر في رزقه من المأكل والمشرب.

٢ - قوله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه»[3].

وجه الاستدلال من الحديث:

أن النبي - ﷺ - نهى أن يبال في الماء الراكد لما فيه من تلويث المياه، ولا تخفى الأمراض الناتجة عن الاستحمام في الماء الراكد الذي سبق التبول فيه، ومن بينها الكوليرا والبلهارسيا، ولا شك أن النهي للتحريم ما لم تكن هناك قرينة صارفة، ولا قرينة، فدلّ ذلك على تحريم البول في الماء الراكد.

٣ - قوله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الماء، وفي الظل، وفي طريق الناس»[4].

---

(١) البيئة للفقي ص ٥٨، حماية البيئة والموارد الطبيعية للحمودي ص ٩٣.

(٢) من الآية « ٦٠» من سورة البقرة.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الإمام أبو داود في سننه ٧/١، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، الحديث رقم: (٢٦)، والحاكم في المستدرك ٢٧٣/١، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، البيهقي في السنن الكبرى ٩٧/١، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في طريق الناس وظللهم، الحديث رقم: (٤٧٣).

وجه الاستدلال من الحديث:

أن النبي ﷺ نهى عن الملاعن الثلاث، ومنها: التبرّز في الماء، والنهي للتحريم، كما أن اللعن لا يكون إلا على فعل محرم، ومن هنا يجب البعد عن التبول في الماء، حيث لا يؤدي ذلك إلى تلوث المياه بالطفيليات والروائح الكريهة فحسب، بل يتسبب ذلك في استهلاك الأكسجين الذائب في المياه مما تؤثر في حياة الكائنات التي تعيش فيه[1].

ولما كان التلوث المائي يتسبب في حالات كثيرة في إزهاق الأرواح، وفي قتل الأحياء فإن درء هذا التلوث واجب، استناداً إلى القاعدة الأصولية التي تقول: «ما أدى إلى الحرام فهو حرام».

كما أن منع الضرر قبل حدوثه أولى من معالجته بعد حدوثه، عملاً بالقاعدة الفقهية التي تقول: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، وغير ذلك الكثير من النصوص التي تحث على حماية المياه من التلوث[2].

وثمة مسألة متعلقة بهذه الصورة وهي متى يتنجس ماء البحر الذي تلوث ماؤه؟

لا شك أن التلوث الذي يحدث في البحار ليس على درجة واحدة أو مستوى واحد، بل هو يختلف قلة وكثرة، وطهارة ونجاسة، وذلك تبعاً لاختلاف المواد الملوثة، ومصادر التلوث، ولهذا لا بد من عرض أنواع تلوث البحر في الحالات الآتية:

الحالة الأولى:

أن لا تتغير مياه البحر بسبب المواد الملوثة التي تصب فيه ولا يتأثر البحر بذلك، وحكم ماء البحر في هذه الحالة هو الطهارة، سواء

---

(١) البيئة للفقي ص ٦٨، ٦٩، الإسلام والبيئة د/بركات مراد ص ٧١، ٧٢.

(٢) البيئة للفقي ص ٥٨، الإسلام والبيئة، د/بركات مراد ص ٧٢.

كانت تلك المواد طاهرة أم نجسة، ويكون حكم البحر حينئذ كحكمه قبل أن تقع فيه تلك المواد.

وقد دل على ذلك النص والإجماع:

أ ـ أما النص:

فحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بما البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[1].

وجه الدلالة:

قد حكم النبي ﷺ بطهارة ماء البحر مع أنه لا يخلو من النجاسات كبول بني آدم، أو عذرتهم، فهو لا يتنجس بوقوع النجاسات؛ لكثرته وعدم تغيره، ولهذا فالحديث أصل في طهارة المياه الغالبة على النجاسة المستهلكة لها[2].

ومعنى قول النبي ﷺ: «هو الطهور ماؤه» أي المطهر؛ لأنهم سألوه عن تطهير مائه والوضوء به، لا عن طهارته، ولم يقل ﷺ في جوابه «نعم» مع حصول الغرض به؛ ليقرن الحكم بعلته، وهي الطهورية المتناهية في بابها[3].

ب ـ وأما الإجماع:

فقد أجمع العلماء على أن الماء الكثير كالبحر لا يتنجس بشيء من النجاسات الواقعة فيه ما لم يتغير، قال ابن المنذر: «وأجمعوا على أن الماء الكثير من النيل والبحر، ونحو ذلك إذا وقعت فيه نجاسة، فلم

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٤٩/٤، كتاب الطهارة، باب المياه، رقم: (١٢٤٣)، والحاكم في المستدرك ٢٣٧/١ وما بعدها، كتاب الطهارة، رقم (٤٩١: ٥٠٠).

(٢) الاستذكار لابن عبد البر ٢٠٢/١، بذل المجهود ٢١٣/١.

(٣) شرح الزرقاني على الموطأ ٥٢/١، تحفة الأحوذي ٢٢٥/١.

تغير له لوناً ولا طعماً ولا ريحاً، أنه بحاله ويتطهر منه»[1].

وقال ابن رشد الحفيد: «واتفقوا على أن الماء الكثير المستبحر لا تضره النجاسة التي لم تغير أحد أوصافه، وأنه طاهر»[2]. وكذا حكى الإجماع ابن حزم وابن قدامة وابن تيمية وآخرون[3].

الحالة الثانية: تلوث البحر بالنجاسات وغيرها من الملوثات:

إذا تغير ماء البحر بنجاسة وقعت فيه فهو نجس، كسائر المياه التي تتغير بالنجاسة، وهذا باتفاق العلماء، قال ابن رشد الجد: «ولو علم أنه تغير (يعني البحر) من المراحيض التي تصب فيه، لم يحل الوضوء منه، وكان نجساً بإجماع»[4].

وقد ذكر الفقهاء أنه لا يمكن تصور تغير جميع البحر بالنجاسة[5].

لكن يمكن أن يتغير جزء من البحر بالنجاسة الواقعة فيه، وذلك لكثرة النجاسات التي تصب فيه، ولعدم سرعة جريان أو تجدد مياه البحر خاصة في المناطق شبه المغلقة من البحار، فإن المياه أحياناً تكون راكدة لا تتحرك، فتتغير بسبب ذلك المياه التي تقع فيها النجاسة، وربما كان التغير في جميع صفات الماء من اللون والطعم والرائحة وربما كان في بعضها وأياً كان، فالماء المتغير بالنجاسة نجس بلا خلاف.

ومثل هذا ما يحصل في هذا العصر من تلوث للبحار بمخلفات الصرف الصحي النجسة، فإنها إذا كثرت في البحر والبحر راكد، غيرت

---

(١) الإجماع لابن المنذر ص ٤.

(٢) بداية المجتهد ٢٣/١.

(٣) المبسوط ٧٠/١، المنتقى ٥٦/١، مراتب الإجماع ص ١٧، المغني ٥٦/١، مجموع الفتاوى ٢٦/٢١.

(٤) البيان والتحصيل لابن رشد ١٣٤/١

(٥) البيان شرح المهذب للعمراني ٢٦/١، ٢٧.

المياه التي تصب فيها، وصيرتها مياهاً نجسة[1].

وقد سئل الإمام مالك عن مسألة تلوث جزء من البحر بالنجاسة، فقيل له: إن خليج الإسكندرية تجري فيه السفن، فإذا جرى النيل كان أبيض صافياً، وإذا ذهب النيل ركد فتغير لونه ورائحته طيبة، والسفن تجري فيه على حالها، والماء كثير فيه، والمراحيض تصب فيه فهو يُغسَّل فيه الثياب، ويوضأ منه للصلاة؟ فقال: إذا كانت تصب فيه هذه المراحيض، وقد تغير لونه فما أحب ذلك[2].

وهذا القول المروي عن مالك محمول على التحريم بلا شك، خاصة إذا كان متغيراً بالنجاسة، فإن الإجماع منعقد على نجاسة الماء المتغير بالنجاسة ـ كما سبق ـ، وقد يفهم من هذا القول الإرشاد إلى الاحتياط بترك ذلك الماء، والوضوء من غيره؛ لعدم اليقين من تغيره بالنجاسة، ولوجود الاحتمال من تغير لونه بغيرها.

أما بقية ماء البحر الذي لم يتغير فلا يحكم بنجاسته، وإن كانت مياه البحر متصلاً بعضها ببعض؛ لأنه يلزم من ذلك أن يحكم بنجاسة جميع البحر، وهذا لا يمكن أن يقول به أحد[3].

الحالة الثالثة: تلوث البحر بالطاهرات:

يتلوث البحر ببعض المواد الطاهرة، كالمواد الكيميائية المتخلفة عن الصناعات، مثل بعض الأصباغ أو الأدوية، وبعض النفايات والمخلفات المنزلية، أو المواد النفطية أو غيرها من المواد التي ليست بنجسة العين، فإذا تلوثت المياه بهذه المواد الطاهرة فما الحكم؟

الجواب: أن الحكم يختلف باختلاف قوة التلوث وغلبته على أجزاء الماء، وباختلاف الشيء الملوث أحياناً، ولذلك عدة صور منها:

---

(١) أحكام البيئة في الفقه الإسلامي ص ٨٦.

(٢) البيان والتحصيل لابن رشد ١٣٤/١، مواهب الجليل ٥٣/١، ٥٤.

(٣) المجموع للنووي ١٦١/١، المغني ٤٦/١، ٤٧، شرح العمدة ٧٠/١، البيان شرح المهذب للعمراني ٢٦/١، ٢٧.

الصورة الأولى:

إذا تلوث البحر أو جزء منه بشيء طاهر، وغلب على أجزاء الماء حتى أفقده اسم الماء، فصار يسمى نفطاً مثلاً، فإنه لا تجوز الطهارة به في قول عامة الفقهاء[1].

والدليل على ذلك: قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[2].

وجه الدلالة من الآية:

أن الله ـ تعالى ـ نقلنا عند عدم الماء إلى التيمم بالتراب، ولما كان اسم الماء لا يقع على ما غلب عليه غير الماء، حتى تزول عنه جميع صفات الماء التي منها يؤخذ حده، صح أنه ليس بماء، ولا يجوز الوضوء به؛ لأنه لا يجوز الوضوء بغير الماء[3].

الصورة الثانية:

أن يتلوث البحر بشيء طاهر، لا يمكن حفظ البحر منه، وذلك كالنباتات التي تنبت في البحر أو الطحالب، وكذلك ما تغير من ماء البحر بالسمك وغيره من دواب البحر، فقد اتفق الفقهاء على أن الماء في هذه الصورة طاهر مطهر، وأن ما حدث من التغير معفو عنه، وذلك لأن اسم الماء باقٍ فيه، واختلاط هذه الأشياء في المياه لا يمكن الاحتراز منه أو الانفكاك عنه، فعُفي عنه للحرج، ولأن هذا التغيّر من فعل الله ابتداءً فأشبه التغيّر الذي خلق الله عليه الماء[4].

---

(١) فتح القدير ٧٧/١، بدائع الصنائع ١٥/١، الكافي في فقه أهل المدينة ص ١٥٥، المنتقى ٥٩/١، مواهب الجليل ٦٠/١، المجموع ١٥٠/١، مغني المحتاج ١١٧/١، المغني ٢٠/١، شرح الزركشي ١١٩/١، شرح العمدة ٧١/١، المحلى ٢٠٣/١.

(٢) من الآية «٤٣» من سورة النساء، «٦» من سورة المائدة.

(٣) المحلى لابن حزم ٢٠٣/١.

(٤) فتح القدير ٧٧/١، بدائع الصنائع ١٥/١، الذخيرة ١٦٩/١، ١٧٠، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٤/١٣، بداية المجتهد ٢٣/١، المجموع ١٥٠/١، شرح الزركشي ١٢٠/١، المغني ٢٣/١.

وقد زاد جماعة من فقهاء الحنفية في ذلك شرطاً وهو أن يكون الماء باقياً على رقَّته، أما إذا غلب عليه غيره وصار ثخيناً، فإنه لا تجوز الطهارة به[1].

الصورة الثالثة:

أن يتلوث ماء البحر وتتغير صفاته أو بعضها بما يوافق الماء في صفة الطهارة والتطهير وهو التراب، وحكم الماء في هذه الصورة البقاء على طهوريته، ولا اعتبار لهذا التغيّر؛ لأن التراب طاهر مطهّر كالماء[2].

القسم الثاني: تلوث الهواء:

إن حماية الهواء من الملوثات ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ يعد فرض عين على كل مسلم ومسلمة؛ لما فيه من المحافظة على مقاصد الشريعة الإسلامية وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل.

وأول ملوثات البيئة الهوائية التقليدية هي الحرائق، وذلك لما تحدثه من أضرار مادية وصحية على الإنسان، إذ تنطلق من النار في أثناء اشتعالها غازات وأكاسيد النيتروجين السامة[3].

لهذا فإن تلويث الهواء بأي نوع من الملوثات الضارة بالبيئة والإنسان محرم شرعاً لما يأتي:

١ ـ لأنه خروج عن سنن الله الكونية، وإفساد في الأرض بعد إصلاحها، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[4]، ويقول: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[5]. ويلزم الجهة التي قامت بالتلويث تعويض ذلك

---

(١) فتح القدير ١/٧٧، مجمع الأنهر ١/٢٧.

(٢) بدائع الصنائع ١/١٥، مجمع الأنهر ١/٢٧، الذخيرة ١/١٧٠، مواهب الجليل ١/٥٧، المجموع ١/١٥١، المغني ١/٢٣، الإنصاف ١/٢٤.

(٣) الإسلام والبيئة د/ابراهيم علي حسن ص ١١٩.

(٤) الآية «٥٦، ٨٥» من سورة الأعراف.

(٥) الآية «٧٧» من سورة القصص.

الضرر، وضمان المتلفات من الأنفس والأموال التي كان ذلك التلوث سبباً في إتلافها، وعلى الحاكم تطبيق العقوبات الرادعة على محدثي التلوث[1].

وقد ذكر فقهاء الشافعية أن إزالة الضرر عن هواء شوارع المسلمين مفوض للحاكم، قالوا: «لأن الهواء لكافة المسلمين؛ فوجب تفويض أمره إلى نائبهم، وهو الحاكم لإزالة الضرر عنهم»[2].

٢ ـ قوله ﷺ: «خمّروا الآنية، وأوكئوا الأسقية، وأحيفوا الأبواب، واكفئوا صبيانكم عند المساء، فإن للجن انتشاراً وخطفة، وأطفئوا المصابيح عند الرقاد، فإن الفويسقة ربما اجترّت الفتيلة، فأحرقت البيت»[3].

وجه الاستدلال من الحديث:

أن قوله ﷺ: «وأوكئوا الأسقية» فيه دلالة على التحذير من التلوث الموجود في الهواء؛ لأن معناه: شدّوا رؤوسها بالوكاء لئلا يدخلها حيوان، أو يسقط فيها شيء[4]، وذلك لحماية الماء من الملوثات التي قد تنتقل إليه من الهواء أو من الحشرات الناقلة للجراثيم والطفيليات كالصراصير والفئران والنمل والبعوض.

وكان ﷺ يعتني بهذا الأمر ويخشى كذلك من انتقال الملوثات والجراثيم مفسدة هذا الهواء النقي، حتى قرر مبدأ الحجر الصحي، وهو يعتبر من أهم وسائل مقاومة انتشار الأمراض الوبائية. وقد وضع النبي ﷺ علاجاً وقائياً يبين لنا كيفية مواجهة التلوث من خلال معالجته

---

(١) أحكام البيئة في الفقه الإسلامي ص ٢٩٥.

(٢) تحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر الهيتمي ١٩٩/٥ طبعة دار إحياء التراث العربي.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١٢٠٥/٣، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، الحديث رقم: (٣١٣٨).

(٤) النهاية في غريب الحديث ١٩٣/٥ «وكا»، معجم مقاييس اللغة ١٣٧/٦ «وكا».

لنوع من أنواع التلوث الوبائي[1].

فقد أورد الحافظ ابن حجر في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون» أحاديث كثيرة بروايات وألفاظ متعددة، من جملتها الحديث عن كيفية مواجهة هذا الوباء[2] فقال: أخرج مالك والشيخان أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، فلما جاء سرغاً، بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمٰن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، فرجع عمر من سرغ[3][4].

وجه الاستدلال من الحديث:

يظهر بجلاء أن الأحاديث النبوية قد حددت مبادئ الحجر الصحي كأوضح ما يكون التحديد، فهي تمنع الناس من الدخول إلى البلدة المصابة بالطاعون مثلاً، كما أنها تمنع أهل تلك البلدة من الخروج منها[5].

وقد وقف فقهاء المسلمين القدامى من موضوع تلوث الهواء موقفاً طيباً يدل على وعي كبير بأهمية المحافظة على الهواء من الملوثات المختلفة التي تؤثر في صحة الإنسان، وتتسبب في هلاك الزرع والنسل.

وسوف نكتفي هنا بعرض موقف الفقهاء من قضية تلوث الهواء بالأدخنة والروائح للتدليل على صحة رأينا الخاص بوعيهم البيئي.

---

(١) حماية البيئة والموارد، د/الحمودي ص ٧٧.

(٢) بذل الماعون في فضل الطاعون لابن حجر ص ٢٤٧.

(٣) سرغ: أول الحجاز وآخر الشام، بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام، بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة معجم البلدان لياقوت الحموي ٢٣٩/٣.

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري ٢٥٥٧/٦، كتاب الحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون، الحديث رقم: (٦٥٧٢)، وصحيح مسلم ١٧٤٢/٤، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة، والكهانة ونحوها، الحديث رقم: (٢٢١٩).

(٥) العدوي بين الطب وحديث المصطفى د/محمد علي البار، ص ١٠٠ طبعة الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ.

أ ـ موقف الفقهاء من التلوث بالدخان:

اعتبر فقهاء المسلمين الدخان بكل أنواعه مضراً، فقد جاء في وصفه في القرآن الكريم بأنه (عذاب أليم)، وذلك في قول الحق عز وجل: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1] ويخضع الحكم على مدى الضرر الناتج من التلوث بالدخان إلى مصدره، والفقهاء من أتباع الإمام مالك يصنفون الضرر إلى صنفين: ضرر قائم، وضرر مستجد[2].

أما الضرر القائم فينقسم إلى:

١ـ أضرار ناتجة من أنشطة استقرت في منطقة ما قبل غيرها من الإشغالات، ويجمع الفقهاء على إبقاء مصادر هذه الأضرار لأحقيتها على غيرها، لأنها ضرر دُخل عليه.

٢ـ أضرار ناتجة من أنشطة بدأت في منطقة سكنية، أي بعد استقرار الجيرة المحيطة بها، ومضى عليها وقت طويل قبل أن يشكو منها سكان المنطقة[3].

وتحكم هذه الحالة قاعدتان:

الأولى: وقف الأنشطة المسببة للتلوث إذا كان ما ينتج عنها يؤدي إلى حدوث إتلاف وضرر شديد.

---

(١) الآيتان «١٠، ١١» من سورة الدخان.

(٢) القوانين الفقهية لابن جزي ٢٢٤/١ وجاء فيه «من أحدث ضرراً أمر بقطعه ولا ضرر ولا ضرار، وينقسم الضرر المحدث قسمين أحدهما متفق عليه والآخر مختلف فيه فالمتفق عليه أنواع فمنه فتح كوة أو طاق يكشف منها على جاره فيؤمر بسدها أو سترها ومنه أن يبني في داره فرنا أو حماما أو كير حداد أو صائغ مما يضر بجاره دخانه فيمنع منه إلا إن احتال في إزالة الدخان ومنه أن يصرف ماءه على دار جاره أو على سقفه أو يجري في داره ماء فيضر بحيطان جاره وأما المختلف فيه فمثل أن يعلي بنيانا يمنع جاره الضوء والشمس فالمشهور أنه لا يمنع منه، وقيل: يمنع..».

(٣) المدونة ٣١٤/٤، التاج والإكليل ١٦٤/٥، القوانين الفقهية لابن جزي ٢٢٤/١، البيئة مشاكلها وقضاياها للفقي ص ٤٨.

ومن أمثلة الأدخنة التي ذكرها الفقهاء في هذا المقام: دخان نار الحمامات والأفران.

الثانية: الإبقاء على الأنشطة المسببة للتلوث إن كان الضرر الناتج عنها ضئيلاً، ويمكن التكيف معه، مثل دخان المخابز والدخان الناتج عن مطابخ البيوت.

وتوضح الأمثلة التالية هذه الأحكام:

١ ـ سئل ابن القاسم عن أحقية جيران أحد الأفراد، أراد أن يبني حماماً وفرناً وطاحوناً فوق أرض فضاء، أن يمنعوا إقامتها، فأفاد القاضي بحقهم في ذلك، أي في منعه، ما دام سيسبّب لهم هذا العمل ضرراً بليغاً، طبقاً لأحكام الإمام مالك الذي أوصى بمنع الأذى عن الجيران.

٢ ـ سئل ابن القاسم أيضاً عن حداد أراد أن يبني كوراً وفرناً لصهر الذهب والفضة، أو يحفر بئراً أو مرحاضاً، أو يبني طاحوناً قرب حائط الجيران فأفتى أن من حق الجيران منعه لما يسببه لهم من ضرر.

٣ ـ ذهب ابن القاسم إلى أن الأدخنة المنبعثة من المخابز تعتبر ضرراً بسيطاً يمكن التكيف معه[١].

أما فيما يخص الأضرار التي تنتج من مصادر مستجدة، فيفيد القاضي ابن عبد الرفيع (المتوفى ٧٣٣هـ) بضرورة إيقافها أو على الأقل درء ضررها سواء أكان قديماً أو حديثاً؛ لأن الضرر لا يمكن تبريره لقدمه أو لاستمراره[٢].

والمتأمل لهذه الحالات التي ذكرناها يتضح له مدى الوعي البيئي

---

(١) المدونة ٣١٤/٤، التاج والإكليل ١٦٤/٥، القوانين الفقهية لابن جزي ٢٢٤/١.

(٢) شرح ميارة الفاسي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المالكي ٤١١/٢ ـ ٤١٣ تحقيق/عبد اللطيف حسن عبد الرحمٰن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، البيئة مشاكلها وقضاياها للفقي ص ٤٩.

عند فقهاء المسلمين، ومدى حرصهم على حماية سكان المدن من أضرار التلوث بالدخان.

وكانت توكل إلى المحتسب مهمة مراقبة التلوث بالأدخنة ومنع حدوثها.

يذكر الشيرزي في كتابه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» أن المحتسب كان يهتم بأن ترفع أسقف حوانيت الخبازين وأن تفتح أبوابها ويجعل في سقوف الأفران منافذ واسعة يخرج منها الدخان لئلا يتضرر بذلك السكان كما كان المحتسب يمنع الصباغين من وضع أفرانهم في الشوارع لما تبعثه من أدخنة تضايق المارة والسكان»[1].

ب: موقف الفقهاء من تلوث الهواء بالروائح الكريهة:

اهتم فقهاء المسلمين بحماية البيئة من التلوث بالروائح الكريهة، ومن ذلك ما رواه جابر ـ رضي الله عنه ـ عن الرسول ـ ﷺ ـ: «من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا»[2].

فإذا كان على آكل الثوم أو البصل أن يبتعد عن المسجد كي لا يضيق إخوانه من المسلمين برائحة فمه، فإنه يكون من الأولى عدم السماح للروائح الكريهة من الانتشار في أجواء المدن وسكانها، كالروائح الناتجة عن حرق البلاستك والأقمشة والروائح الناجمة عن العرق، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من عرض عليه ريحان فلا يرده فإنه خفيف الحمل طيب الريح»[3].

---

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيخ عبد الرحمٰن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري ص ٢٢ تحقيق/السيد البار العريني، طبعة دار الثقافة، بيروت.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري ٢٩٢/١ كتاب صفة الصلاة، باب ما جاء في الثوم النيئ والبصل والكراث، الحديث رقم: (٨١٧)، وصحيح مسلم ٣٩٤/١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهى من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، الحديث رقم: (٥٦٤).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ١٧٦٦/٤، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب استعمال المسك وأنه أطيب الطيب، وكراهة رد الريحان والطيب، الحديث رقم: (٢٢٥٣).

ومن ذلك روائح البول وتحلل مياه المجاري وفساد الأطعمة، وروائح بعض الغازات والأبخرة مثل ثاني أكسيد الكبريت، كبريتيد الهيدرجين، والمنتجات البترولية.

وتحفل كتب الفقه الإسلامي بأمثلة كثيرة تدل على عناية فقهاء المسلمين بحماية الهواء من التلوث بالروائح الكريهة.

فلقد سئل مطرف، وابن الماجشون، وأصبغ - رحمهم الله - عن حكم شخص أقام مدبغة في بيته، تنبعث منه الروائح الكريهة، فتؤذي جيرانه وتسبب لهم الضرر، فأجمع كل من الفقهاء الثلاثة على حق جيرانه في إيقافه، وحكموا بإغلاق مدبغته، ويتساوى في هذا الحكم حفر مرحاض أو مصرف غير مغطي، وكل ما ينبعث منه روائح كريهة، فقد أفاد ابن عتاب، وابن عبد الغفور بضرورة وقف هذه الأنشطة أو تغطيتها لمنع رائحتها التي تزكم الأنوف من مضايقة الجيران[1].

وكانت توكل إلى المحتسب مهمة مراقبة تلوث بيئة المدينة والأسواق من التلوث بالروائح[2].

وتؤكد كتب الحسبة على أن بيع الأسماك يجب أن يتم بعيداً عن سوق المدينة[3].

وعلى المحتسب أن يتابع تنفيذ ذلك، كما كان عليه أن يمنع كل من تسول له نفسه أن يطرح النفايات والجيف في الأسواق والطرقات، ويمنع الخضارين وغيرهم من طرح أزبالهم في الطرق، حتى لا تنتج

---

(١) بلغة السالك ٣٠/٣ وجاء فيه: «(قوله بمنع دخان كحمام) أي بمنع إحداث ذي دخان تتضرر الجيران بسببه، وقوله (وبمنع رائحة) أي وقضي بمنع إحداث ذي رائحة كريهة»، التاج والإكليل ١٦٤/٥.

(٢) البيئة للفقي ص ٤٧: ٥١، الإسلام والبيئة د/بركات محمد مراد ص ٦٤ - ٦٧.

(٣) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، للشيخ عبد الرحمٰن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري ص ٣٣.

عنها روائح كريهة، وحتى لا تكون مرتعا للحشرات ومصدراً من مصادر التلوث[1].

القسم الثالث: تلوث الأرض:

أ ـ مكانة الأرض في القرآن الكريم:

يؤكد القرآن الكريم على مكانة الأرض وقيمتها، وأنها آية من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[2]، ويقول تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[3].

ويذكر الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأنه هو وحده الرازق، فيقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾[4].

ويحفل القرآن الكريم بعشرات الآيات التي توضح مكانة الأرض وما تحتوي، ويجب على الإنسان أن يراعيها، ويصون نعمة الخالق الذي خلقها له بضمير وعناية لحاضره، ولمن يأتي من بعده من ذريته.

ولكن تزايد أعداد البشر والتطور التكنولوجي انعكس على البيئة، وظهرت أنانية الإنسان في الرغبة في الكسب السريع في النمو في المشاريع الكبيرة التي جاءت على حساب الأرض الخضراء، ثم اتضحت بعد ذلك السلبيات الجانبية الكثيرة لهذه المشاريع في إفساد البيئة وعدم

---

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، للشيخ عبد الرحمٰن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري ص ٣٤.

(٢) الآية «٣٩» من سورة فصلت.

(٣) الآية «٢» من سورة سبأ.

(٤) الآية «٣» من سورة فاطر.

صلاحيتها في مد الإنسان بالحياة الرغدة التي أرادها له الخالق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

ولكن الإنسان أخلَّ بهذا الوزن والتوازن في البيئة التي خلقها الله عليها.

إن تلويث الأرض بالفضلات المعدنية والكيماوية والإشعاعية المتزايدة باستمرار مع تراكمها صارت تؤثر في تركيب التربة الكيميائي ذات الخلق الموزون، وقد أثبتت الأبحاث في مجالات علم النبات أن بعض النباتات تختزن في خلاياها وأنسجتها كميات من المواد الكيماوية السامة التي تمتصها من التربة الملوثة وهذه تنتقل بدورها إلى الحيوان والإنسان وتتجمع في أجسامها مسببة سلسلة من الأغراض المرضية التي انتقلت إلى الإنسان عبر أكله للحوم الحيوان والطيور.

ولولا رحمة ربك لأصابت البشرية فزع كبير مما نحن فيه، فقد أودع في الإنسان جهاز المناعة لمقاومة هذه السموم الجارفة والزاحفة على الإنسان من استهتار لبيئته، والعبث بمقدرات صحته وطعامه وشرابه، وهو لا يدري أنه يدمر نفسه وأجياله القادمة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[2].

فجهل الإنسان وعدم التعامل مع البيئة من منطلق عقيدي، وتصور نفسه السيد الأوحد الذي لا يسأل عما يفعل فيما أنعم الله عليه بهذه الأرض جعله يتصرف معها بغطرسة، وعدم مراعاة للقيم الإيمانية في علاقته بهذه الأرض المستخلف عليها، يقول الحق سبحانه وتعالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾[3].

---

(١) الآيتان «١٩، ٢٠» من سورة الحجر.

(٢) الآيتان «٣٨، ٣٩» من سورة الدخان.

(٣) الآية «٣» من سورة فاطر.

ب ـ النهي عن تلوث الأرض:

يقصد بتلوث الأرض ـ كما ذكر علماء البيئة ـ: «أي تغيير فيزيائي أو كيميائي في الأرض، يكون سبباً في تغير استغلالها، وجعلها غير قادرة على الاستغلال المفيد دون معالجة»[1].

ولقد تضافرت النصوص التي تنهى عن تلويث الأرض والإفساد فيها، حيث إنها موطن الإنسان وغيره من الكائنات الحية، ومن ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2].

وإن من بين صور الفساد الذي تنص عليه الآية الكريمة السابقة قطع الأشجار وتغوير الأنهار[3].

٢ ـ كما نهى رسول الله ﷺ عن التسبب في وقوع الضرر وإلحاقه بالآخرين، فقال ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»، ولا شك أن تلوث التربة ضرر يحيق بالبيئة الزراعية، وينتقل أثره إلى كل الكائنات الحية التي تعتمد في غذائها على النبات بما في ذلك الإنسان نفسه[4].

٣ ـ وتحض السنة النبوية علي التعامل مع البيئة بصورة نظيفة وتمنعه من إلقاء الفضلات أو الأذى الذي يؤثر في نظافتها ونقائها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا

---

(١) الإنسان والبيئة والتلوث البيئي ص ١٧٥، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي ص ٤٦٣.

(٢) من الآية «٣٢» من سورة المائدة.

(٣) البيئة للفقي ص ٧٦.

(٤) الإسلام والبيئة د/بركات مراد بركات ص ٧٥، البيئة للفقي ص ٧٧.

اللاعنين» قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: «الذي يخلي في طريق الناس أو ظلهم»[1].

٤ ـ كذلك حذر ﷺ من قضاء الحاجة في مصادر المياه وتلويثها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه»[2].

٥ ـ وكما نهى ﷺ عن تلويث مصادر المياه أو قضاء الحاجة في طريق المارة، شدد على من يقطع أو يحارب الخضرة، فعن عبد الله بن حبشي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار»[3].

وجه الدلالة من الحديث:

سئل أبو داود عن معنى الحديث فقال هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار[4].

٦ ـ كذلك حض ﷺ على تشجيع الثروة النباتية بما يؤدي إليه ذلك من إصلاح في البيئة وحياة الكائنات، فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس أو

---

(١) أخرجه الإمام أبو داود في سننه ٧/١، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ـ ﷺ ـ عن البول فيها، الحديث رقم: (٢٥)، والنسائي في السنن الصغرى ٦٣/١، والحاكم في المستدرك ٢٩٦/١، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه عن قتيبة، وله شاهد عن محمد بن سيرين بإسناد صحيح، هذا ولم يخرجه».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الإمام أبو داود في سننه ٣٦١/٤، كتاب الأدب، باب في قطع السدر، الحديث رقم: (٥٢٣٩)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٨٢/٥، كتاب السير، تأويل قول الله جل ثناؤه: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، الحديث رقم: (٨٦١١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٨٤/٣، ٦٩/٤، ١١٥/٨: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات».

(٤) سنن أبي داود ٤٠٤/٥.

يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[1] وقال ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[2].

وقد حثنا رسول الله ﷺ على زراعة الأرض وتشجيرها، فعنه أنه ﷺ قال: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[3].

وهذا ما يعني أن غرس الأشجار وزرع النبات أمر واجب دينياً على المسلم حتى في آخر رمق من حياته، وحتى إذا تهدده خطر الموت وتأكد حلول الفناء له وللأرض، وذلك لأن غرس الأشجار هو من أعمال الخير التي يلزم أن يأتيه الإنسان لتكون في ميزان حسناته[4].

كذلك الأمر في إماطة الأذى عن الطريق ولو برفع حجر فله أجر ففي الحديث الصحيح «بكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ويميط الأذى عن الطريق صدقة»[5][6].

القسم الرابع: التلوث الضوضائي أو الصوتي:

أ ـ آيات الله في السكينة والهدوء:

من آيات الله الكونية اختلاف الليل والنهار وجعلهما متعاقبين يخلف أحدهما الآخر، وقد جعل الله الليل للنوم والخلود والراحة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٦١٤/١١ كتاب إحياء الموات،

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الإسلام والبيئة د/إبراهيم علي حسن ص ١٤٠، ١٤١، الإسلام وحماية البيئة د/آمنة نصير ص ٤٠، ٤١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٩٠/٣ باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم (٢٨٢٧)، ومسلم في صحيحه ٨٣/٣ باب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩)

(٦) الإسلام والبيئة د/إبراهيم علي حسن ص ١٤٠، ١٤١، الإسلام وحماية البيئة د/آمنة نصير ص ٤٠ : ٤١.

والسكون، والنهار للسعي وطلب الرزق يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾[1].

وقد حضت السنة المشرفة على التزام السكينة والهدوء في كل شيء حتى في العبادة، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون، وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالابضاع»[3].

فإذا كان الخالق العظيم قد هيأ الليل للسكينة والهدوء لتستعيد الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان، نشاطها وحيويتها، وتستمر في عطائها وتعمر الكون كما أراد الله، فهل حافظ الإنسان على تلك السكينة وذلك الهدوء؟ لا، بل إنه أتى من السلوك والأفعال ما يكسر صفاء ذلك السكون والهدوء، من خلال استخدام الآلات التي تنبعث عنها الأصوات العالية التي قلبت الليل إلى نهار فاختل نظام حياة الناس، وانعكست على أوضاعهم الصحية.

قد أضحت تلك النعمة في خطر بسبب تزايد معدلات الصوت والضجيج والضوضاء العالية، وهو خطر لا يهدد فقط بزوالها وإصابة

---

(١) الآيات «٩ ـ ١١» من سورة النبأ.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٤٢٠/١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهى عن إتيانها سعياً، الحديث رقم: (٦٠٢).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٦٠١/٢، كتاب الحج، باب أمر النبي ﷺ بالسكينة ثم الإفاضة وإشارته إليهم بالسوط، الحديث رقم: (١٥٨٧)، صحيح سنن أبي داود ٣٦٢/٢، حديث رقم ١٦٨٩.

الشخص بالصمم، بل كذلك بالتأثير في الجوانب الصحية الأخرى العصبية والقلبية[1].

ب ـ النهي عن رفع الصوت وإحداث الضوضاء:

١ ـ نهى الله تعالى عن رفع الصوت، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾[2].

وجه الدلالة:

في الآية أمر جازم عام بغض وخفض الصوت، والأمر بخفض الصوت يدل هنا على الندب المؤكد لا مجرد الإرشاد، لوجود القرينة التي تستقبح رفع الصوت، وهي تشبيه الصوت المرتفع بصوت الحمير الذي تألفه الأذن السليمة، ومن هنا نستخلص أنه من آداب الإسلام ومندوباته غض الصوت وعدم رفعه أو الجهر به لغير حاجة.

٢ ـ وقد ورد في الأثر أيضاً عن السائب بن يزيد قال: كنت قائماً في المسجد فوجدت رجلين، فنظرت، فإذا عمر بن الخطاب يقول: «اذهب فأتني بهذين»، فجئته بهما قال: «من أنتما ـ أو ـ من أين أنتما؟» قالا: من أهل الطائف، قال: «لو كنتما من أهل بدر لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ»[3].

وجه الدلالة:

يدل الحديث على كراهة رفع الصوت عموماً واستقباح فعله، لما في ذلك من ذهاب بالسكون والهدوء وإضرار بحاسة السمع التي تفضل حاسة البصر، كما ترشد بذلك الآيات التي أوردناها. حيث تذكر السمع

---

(١) قانون حماية البيئة الإسلامي مقارناً بالقوانين الوضعية د/أحمد عبد الكريم سلامة ص ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) من الآية «١٩» من سورة لقمان.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١٧٩/١، أبواب المساجد، باب رفع الصوت في المساجد، الحديث رقم: (٤٥٨).

قبل البصر، بما يدل على أهميتها وضرورتها وشدة الحاجة إليها، بما ليس في شأن البصر[1].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[2].

وجه الدلالة:

هذا توجيه وإن كان يخص الصلاة إلا أن مبتغاه وعلته تجعلانه ينصرف إلى كل أحوال الكلام والحديث الذي يجب أن يكون بقدر واعتدال بين الجهر والخفت[3].

وذات التفسير يصلح بخصوص حديث رسول الله ﷺ الذي جاء حوله أنه صلوات الله وسلامه عليه مر ليلة بأبي بكر وهو يصلي، يخفض صوته، ومر بعمر وهو يصلي رافعاً صوته، فلما اجتمعنا عنده قال: «يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلي تخفض صوتك؟» فقال: يا رسول الله قد أسمعت من ناجيت، وقال لعمر: «مررت بك وأنت تصلي رافعاً صوتك»، فقال: يا رسول الله أوقظ الوسنان واطرد الشيطان، فقال ﷺ: «يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئاً، ويا عمر اخفض من صوتك شيئاً»[4].

❋ ❋ ❋

---

(١) قانون حماية البيئة الإسلامي مقارناً بالقوانين الوضعية د/أحمد عبد الكريم سلامة ص ٣٣٩ ـ ٣٤١.

(٢) من الآية « ١١٠» من سورة الإسراء.

(٣) البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، م/محمد عبد القادر الفقي ص ٣٠.

(٤) أخرجه الإمام أبو داود في سننه ٣٧/٢، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، الحديث رقم: (١٣٢٩)، والترمذي في سننه ٣٠٩/٢، كتاب أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في قراءة الليل، وقال: «هذا حديث غريب»، والحاكم في المستدرك ٤٥٤/١، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وابن حبان في صحيحه ٧/٣، باب قراءة القرآن، الحديث رقم: (٧٣٣).

المبحث السابع

الاتفاقيات الدولية من قضايا البيئة وأهم القضايا المتعلقة بالبيئة

أولاً: الاتفاقيات الدولية من قضايا البيئة:

تمثل مشكلة البيئة التي فرضها الاتجاه نحو التصنيع والتكنولوجيا الحديثة إحدى المشكلات الرئيسية في هذا العصر، حيث تشير الأرقام والإحصائيات إلى حجم وخطورة هذه المشكلة مما يهدد مستقبل الحياة على كوكب الأرض[1].

ولهذا زاد الاهتمام العالمي في هذه الأيام بقضايا البيئة سواء عن طريق كثرة المؤسسات الدولية ذات العناية بالبيئة، والمؤتمرات، والاتفاقيات والمعاهدات المتعلقة بالبيئة.

ويمكن الإشارة إلى بعض مظاهر الاهتمام العالمي بقضايا البيئة فيما يأتي:

أ ـ كثرة المؤسسات الدولية ذات العناية بالبيئة:

نتج عن الاهتمام العالمي بالبيئة، وعن المؤتمرات المتعددة، والاتفاقيات الدولية إنشاء المنظمات المتخصصة في شئون البيئة، وهذه المنظمات تهتم بتنفيذ التوصيات الصادرة عن الاتفاقيات المبرمة أو المؤتمرات، وتشرف عليها، ومن أهم تلك المنظمات العالمية في مجال البيئة ما يلي:

١ ـ الاتحاد العالمي للوقاية (iucn): أنشئ عام ١٩٤٨م، في مدينة غلاند، سويسرا، وأسس لغرض تشجيع وقاية الطبيعة والثروات الطبيعية، ولا سيما النوع الإحيائي.

---

(١) الإسلام والبيئة/د/عبد الرحمٰن جيرة ص ١٩.

٢ ـ الصندوق الدولي للطبيعة (wwf): ومقره في السويد، ويركز على حفظ الطبيعة، وسير البيئة، وتعزيز وسائل تخفيف التلوث، وسوء استغلال الثروة.

٣ ـ برنامج الأغذية العالمي (wep): ومقره روما، إيطاليا.

٤ ـ برنامج الأمم المتحدة للبيئة (umep): أسس عام ١٩٧٢م في نيروبي، كينيا، بناءً على توصيات الأمم المتحدة للبيئة البشرية، وذلك لغرض تشجيع التعاون الدولي فيما يتعلق بالبيئة.

٥ ـ برنامج الأمم المتحدة للتنمية (undp): أنشئ عام ١٩٦٥م لغرض مساعدة الدول النامية في صدد رفع قدرتها في إنتاج ثروتها الطبيعية والبشرية.

٦ ـ صندوق الإغاثة للأطفال الدولي (unicef): مقره في نيويورك، الولايات المتحدة.

٧ ـ صندوق الأمم المتحدة للسكان (unfpa): مقره في نيويورك، الولايات المتحدة، وأسس لتقديم المساعدات المالية للدول النامية وجمع المعلومات.

٨ ـ مركز الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية: نيروبي، كينيا.

٩ ـ مركز التنسيق للبيئة والتنمية الدائمة (ager).

١٠ ـ منظمة الأمم المتحدة لتطوير الصناعة (unido): مقرها في فينا، النمسا، وتركز على تنمية الصناعات، وتقديم المساعدات للدول النامية، وإدارة الطاقة والبيئة.

١١ ـ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (fao): مقرها في روما، إيطاليا، ويوجد بها أقسام تركز على شئون البيئة[1].

---

(١) حماية البيئة والموارد الطبيعية في السنة النبوية د/فهد بن عبد الرحمٰن الحمودي ص ٢٠، ٢١ طبعة دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، السعودية، الرياض ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني ص ٥٣، ٥٤.

ويؤخذ على هذه المنظمات تأثرها بالشركات الكبرى، واهتمامها بمشكلات الدول الغنية أكثر من الفقيرة، وعدم إلزامية توصيات أو اتفاقيات هذه المنظمات[1].

ب ـ الاتفاقيات والمعاهدات المتعلقة بالبيئة:

- الاتفاقية الدولية لمنع تلوث البحار.
- اتفاقية بشأن التحكم في نقل النفايات الخطرة، والتخلص منها عبر الحدود.
- اتفاقية حظر استحداث وإنتاج وتخزين الأسلحة البيولوجية.
- الاتفاقية المتعلقة بحماية التراث الثقافي والطبيعي للعالم.
- اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار.
- معاهدة المبادئ المنظمة لاستكشاف واستخدام الفضاء الخارجي.
- معاهدة حظر الأسلحة النووية على قاع البحار وفي باطن الأرض[2].

ج ـ المؤتمرات العالمية المتعلقة بالبيئة:

عقدت عدة مؤتمرات عالمية على مستويات مختلفة، ومن أشهر وأهم تلك المؤتمرات ما يلي:

١ ـ مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية، وقد عقد في استوكهولم عام ١٩٧٣م، وحضره ممثلون عن ١١٣ دولة، وممثلون من جميع المنظمات الدولية، والحكومية وغير الحكومية.

٢ ـ مؤتمر الأمم المتحدة الخاص بالبيئة والتنمية، وقد عقد في مدينة

---

(١) أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني، مرجع سابق ص ٥٤.

(٢) حماية البيئة والموارد الطبيعية في السنة النبوية د/فهد بن عبد الرحمٰن الحمودي ص ٢٢، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني ص ٥٦.

ريو دي جانيرو في البرازيل عام ١٩٩٢م، ويُعد هذا المؤتمر أكبر تجمّع دولي خاص بتدارس وضع الأرض والأخطار التي تهدد مستقبل ساكنيها، وقد توصل المؤتمر إلى عدة قرارات وتوصيات وخطط تفصيلية، وهي وإن لم تكن ملزمة لأي دولة، إلا أنها تعد خطوة أولى حول التعاون الدولي، والاتفاق المبدئي بين جميع دول العالم حول ضرورة إيجاد حلول للمشكلات البيئية.

٣ ـ مؤتمر قمة الأرض ريو + ٥، وقد عقد بعد خمس سنوات من انعقاد قمة الأرض السابق أي في عام ١٩٩٧م، في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، وحضره أكثر من ستين رئيساً، وأكثر من ٣٠٠٠ شخص يمثلون ١٧٣ دولة، وكان الهدف الرئيسي تدارس ما تم تطبيقه في المؤتمر السابق.

٤ ـ المنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي، وعقد في جدة في الفترة من ١٦ـ ١٨ رجب ١٤٢١هـ، وحضره مجموعة من الفقهاء في الشريعة الإسلامية، والمهتمين في مجال البيئة، وكان هدف المنتدى: «تأصيل وتوضيح المفهوم الإسلامي للبيئة، والتأكيد على أن قواعد وأحكام الدين الإسلامي تسعى لإسعاد الإنسان، والمحافظة على صحته، وحماية بيئته، وتحقيق التوازن فيها، وتتسع مجالات تطبيقها لتشمل كل ما يواجه الإنسان والبيئة من قضايا ومشكلات في حاضره ومستقبله»[١].

من خلال ما سبق يتضح تزايد الاهتمام العالمي بالبيئة، وإدراك عقلاء العالم ما يحيط بالبيئة اليوم من مشكلات وأخطار، وقد نتج عن تلك الاتفاقيات والمنظمات والمؤتمرات توصيات كثيرة، وخطط تفصيلية متعلقة بعلاج المشكلات البيئية، إلا أن هذه الاتفاقيات والقرارات لا تتسم بصفة الإلزامية، الأمر الذي يفسر سوء الوضع البيئي العالمي.

---

(١) أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحياني ص ٥٧، ٥٨.

ثانياً: أهم القضايا المتعلقة بالبيئة:

أ ـ الاحتباس الحراري:

يقول العلماء إن مناخ العالم قد تسخن، أي ازداد دفئاً بدرجة مثيرة خلال القرن الحالي، والزيادة في درجة الحرارة ليست ناجمة عن تغييرات طبيعية بل هي نتيجة للنشاط الإنساني، وبالتحديد النشاط الصناعي الذي زاد وازدهر خلال فترة المائة عام الأخيرة، تلك الفترة التي نفثت فيها مداخن المصانع الأوروبية والأمريكية بأطنان من المخلفات الغازية الصناعية التي أهمها من حيث الحجم غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يشكل مصيدة جوية لحرارة الشمس التي تنفذ إلى سطح الأرض وتبقى محتجزة في الغلاف الجوي بدلاً من عودتها إلى الفضاء الخارجي، وهو ما يعرف باسم ظاهرة البيت الزجاجي «المتبعة في زراعة البساتين»، نظراً لأن الزجاج يسمح بدخول أشعة الشمس إلى النباتات داخل البيت الزجاجي، ويحتجز قدراً كبيراً منها في الداخل، وهكذا تكون الحرارة داخل البيت أعلى كثيراً منها خارجه[1].

والتفسير العلمي لهذه الظاهرة هو وجود كميات كبيرة من غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو ناجمة عن حرق كميات كبيرة من الوقود الأحفوري (النفط، الفحم، الغاز) التي تستخدمها المصانع والآلات في الحياة اليومية، ويؤدي حبس حرارة الشمس وتسخين مجمل الكرة الأرضية إلى ذوبان الجليد في القطب واختلاف توازن المناخ الذي سينعكس سلباً على التوازن البيئي على الأرض، إضافة إلى غاز ثاني أكسيد الكربون، يعد غاز «الميثان» أيضاً من الغازات الدفيئة الحابسة للحرارة، وهو ينبعث في الجو من مصادر عدة منها المصانع الكيميائية والمناجم ومقالب النفايات وغيرها[2].

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، العدد «٢٩٠١» تاريخ ١٩٨٦/١١/٧م.

(٢) أمن وحماية البيئة، خالد محمد القاسمي، وجيه جميل البعيني ص ٨٣ طبعة دار الثقافة العربية، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة ١٩٩٧م.

ب ـ تلوث المحيطات والبحار:

المحيطات والبحار هما المصادر الرئيسية للثروة السمكية وللقشريات، وأدت حركة السفن التجارية وناقلات النفط إلى تلوث البيئة البحرية خاصة في البحار المغلقة، كما أن تفريغ ماء الرجيع ونفايات المصانع وتآكل الموانئ الصناعية والتجارية ومنصات صناعة البترول ومياه المجاري في المحيطات والبحار أدى إلى زيادة نسبة المعادن الثقيلة في المياه مثل الزئبق الذي يؤدي إلى إصابة الجهاز العصبي وتشوه المواليد والجنون، ولعل أشهر ملوثات المحيطات هي بقع الزيت، التي بدأت مع بداية نقل النفط البحري.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك علاقة وثيقة بين تلوث المحيطات والبحار وتلوث الهواء، حيث أثبتت الدراسات ارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون ومركبات الكبريت في عينات الجليد من القطبين الشمالي والجنوبي، ويلاحظ أن التلوث في القطب الجنوبي أقل بكثير منه في القطب الشمالي لأن النصف الشمالي منه يقطنه ٩٠٪ من سكان الأرض[١].

ج ـ تلوث مياه الأنهار:

الأنهار في الأرض هي شرايين الحياة، وهي تنتشر في توزيع جغرافي في كل القارات تحمل معها الخصب والنماء والحياة، وهي تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها وفق طبيعة الأرض.

ويمكن تلخيص أهم مصادر تلوث مياه الأنهار في المصادر التالية:

١ ـ **النفايات الصناعية**: حيث أصبحت الأنهار في كثير من المناطق الصناعية مصارف لملوثات الصناعة الكيميائية وغيرها.

٢ ـ **المصادر الزراعية**: حيث أدى التوسع في استخدام الأسمدة الكيميائية والمبيدات الحشرية في الأغراض الزراعية إلى تسرب جزء منها إلى مياه الأنهار وتلويثها.

---

(١) إطلالة على أنواع التلوث البيئي والتوعية للدكتور/إبراهيم بن عبد الحميد عالم ص ١٧٠ بدون جهة نشر أو سنة نشر.

٣ ـ **مياه المجاري (الصرف الصحي)**: حيث إن كثيراً من دول العالم تلقي نفاياتها من مستودعات المياه المستعملة وفضلات الإنسان في مياه الأنهار[١].

د ـ تلوث التربة والمياه الجوفية:

يمكن أن تتعرض التربة والمياه الجوفية للتلوث لا سيما في المناطق التي تدفن فيها النفايات الصناعية أو الزراعية أو الإنشائية أو الطينية.

وتعتبر مياه الصرف الصحي من مسببات تلوث التربة والمياه الجوفية بسبب غياب شبكات الصرف الصحي وتدني الصيانة والتشغيل تؤدي جميعها إلى تلوث المياه الجوفية والتربة.

ومن العوامل الأخرى التي تسبب في تلوث المياه الجوفية والتربة التخلص غير المسؤول من الكيماويات، والزيوت والمعادن في المناطق المكشوفة[٢].

هـ ـ التلوث الحراري:

هو التخلص الذي يؤدي إلى زيادة الحرارة في البيئة، ويؤثر على الحياة واستمرارها، ويعد رجيع المصانع الذي يصب في البحار مصدراً رئيسياً لهذا النوع من التلوث، حيث إن ارتفاع درجة الحرارة يؤدي إلى القضاء على الحياة في المنطقة بسبب نقص الأكسجين لأن ذوبان الأكسجين في الماء يقل مع زيادة درجة الحرارة، كما يؤدي إلى هروب الأسماك والكائنات المتحركة، ومن السهل علاج هذا النوع من التلوث بتبريد مياه الرجيع قبل إعادته إلى الوسط المائي[٣].

---

(١) تلوث البيئة، أسبابه، أخطاره، مكافحته ص ٢٠٠، هندسة النظام البيئي ص ١٦٥، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي ١٠٧، ١٠٨، النظام القانوني لحماية البيئة البحرية من التلوث لصداقة ص ١١١، ١١٢.

(٢) إطلالة على أنواع التلوث البيئي والتوعية للدكتور/إبراهيم بن عبد الحميد عالم ص ١٧٠، البيئة مشاكلها وقضاياها للفقي ص ٧٢.

(٣) إطلالة على أنواع التلوث البيئي والتوعية للدكتور/إبراهيم بن عبد الحميد عالم ص ١٧٥، البيئة مشاكلها وقضاياها للفقي ص ٦٠.

و ـ التلوث الإشعاعي:

يعتبر تلوث المياه بالمواد المشعة من أهم مصادر تلوث المياه في العصر الحاضر كما يذكر علماء البيئة، كما يعد تلوث المياه بالمواد المشعة من مظاهر تلوث المياه شديدة الخطورة، وقد تكونت النفايات المشعة نتيجة للجوء الإنسان في هذا العصر إلى استغلال المواد والنظائر المشعة في حياته؛ لاستخدامها في أغراض كثيرة، ابتداءً بإنتاج وتوفير الطاقة، وأسلحة التدمير الشامل، وانتهاءً بالتشخيص والعلاج الطبي، وبالعديد من التطبيقات الطبية والصناعية والزراعية[1].

لذا سوف أبين معنى تلوث الماء بالمواد المشعة، ومصادرها، وأضرارها على البيئة المائية والإنسان.

أولاً: معنى تلوث الماء بالمواد المشعة:

يقصد بالإشعاع: «انبعاث طاقة من المادة وانتقالها في الفضاء»[2]. أو هو: «عبارة عن طاقة تنتشر من مكان لآخر بسهولة فائقة وبسرعة الضوء»[3].

ويقصد بالتلوث الإشعاعي: «وجود قدر من المواد المشعة الصنعية في البيئة، سواء كانت هذه المواد في الهواء أو الماء أو التربة أو في الطعام».

ويقصد بالمواد المشعة الصنعية: «تلك المواد التي صنعها الإنسان باستخدام المعجلات أو المفاعلات النووية ليستخدمها في أغراض شتى»، وهي تختلف عن المواد المشعة الطبيعية التي خلقها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لحكمة يعلمها، وتتمثل تلك المواد في نظائر اليورانيوم[4]

---

(١) أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني ص ١٤١.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة ١٦٥/١، علوم تلوث البيئة ص ٢٣٧.

(٣) تلوث البيئة، أسبابه وأخطاره ص ٣٢٥.

(٤) اليورانيوم: عنصر معدني مشع صلب، لونه أبيض فضي، وهو ذو نظائر مشعة، يعتبر بعض أوزانها الذرية مصدراً لسلسلة تحلل، ويوجد اليورانيوم على هيئة خامات. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ٩٨٩/٢.

والثوريوم[1] ونواتج تفككهما وفي غيرهما، ويتفاوت تركيز هذه المواد المشعة الطبيعية تفاوتاً كبيراً[2].

أما تلوث الماء بالمواد المشعة فهو: «ذلك التلوث الذي ينتج عن النفايات النووية التي يتم التخلص منها في المسطحات المائية، وتمتصها الكائنات الحية وتنقلها إلى الإنسان»[3].

ثانياً: مصادر تلوث المياه بالمواد المشعة:

تعتبر التفجيرات النووية والمفاعلات الذرية، ودفن مخلفات المواد المشعة، والمواد المشعة المستعملة في الأغراض الطبية والصناعية وفي توليد الطاقة، من أهم مصادر تلوث المياه بالمواد المشعة، وهذا عرض موجز لأهم الأنشطة البشرية التي أسهمت في تلوث المصادر المائية بالمواد المشعة[4].

١) عندما تجرى التفجيرات النووية تحت الأرض تتسرب منها إشعاعات إلى المياه الجوفية التي تحملها إلى البيئة السطحية.

٢) عندما تجري التفجيرات الذرية في الجو فإن قوة التفجير والارتفاع الكبير في درجة الحرارة تعمل على صهر الغبار العالق بالهواء، وتدمجه مع العناصر المشعة، ومن ثَم لا يلبث أن يتساقط الغبار الذري في المسطحات المائية القريبة من مكان الانفجار، بينما الجزيئات الصغيرة من الغبار يمكن أن تنتقل مع الهواء إلى آلاف الكيلومترات وتترسب منه كميات متفاوتة من وقت لآخر[5].

---

(١) الثوريوم: عنصر فلزي، ذو نشاط إشعاعي، ينحل وينتج أحد متماكنات الرصاص، ويوجد بعض الخامات المعدنية، وهو مصدر للطاقة الذرية، وتستعمل بعض أملاحه في الطب. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ٥٨٨/١.

(٢) مجلة العلوم والتقنية، العدد (٣٠) ص ٢١.

(٣) الأمن المائي العربي ص ٢٨٩.

(٤) أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحياني ص ١٤٣.

(٥) التلوث البيئي، مشكلة التلوث البيئي الكيميائي والبيولوجي، مختار كامل ص ٤٧.

٣) كما أن استخدام الأشعة السينية وغيرها في علاج وتشخيص الأمراض المستعصية من مصادر تلوث المياه بهذه المواد، التي تطرح من مخلفات المستشفيات، والتي لا يفيد معها التعقيم[١].

٤) كما يأتي ـ أيضاً ـ خطر تلوث المياه بالمواد المشعة من المفاعلات الذرية لإنتاج الوقود الذري، وتوليد الطاقة النووية، واستخدام كميات كبيرة من المياه لتبريد المفاعلات، حيث تلقى بعد ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الأنهار أو البحار، حاملة معها مواد مشعة، إضافة إلى ذلك فإن هناك ـ أيضاً ـ نشاطاً إشعاعياً يصل إلى البحار عن طريق الغواصات والسفن التي تسير بالطاقة النووية، وإن كانت كمياته قليلة إذا ما قورنت بكمية المواد المشعة التي تتسرب عن طريق محطات توليد الطاقة النووية[٢].

ثالثاً: أضرار المواد المشعة على البيئة المائية والإنسان:

للمواد المشعة أضرار وآثار كبيرة على البيئة بوجه عام[٣].

ومن ذلك البيئة المائية، وما فيها من كائنات حية، حيوانية أو نباتية، وتشير التجارب والأبحاث إلى وجود المواد المشعة في كثير من المحيطات، وأنسجة كثير من المخلوقات المائية وربما كان السبب الأساسي لذلك هو طرح الفضلات النووية في أعماق البحار والمحيطات والمواد المشعة[٤].

والجدير بالذكر أن التلوث الإشعاعي قد حدث لكثير من

---

(١) تلوث المياه المشكلة والأبعاد ص ٣٨، ٣٩.

(٢) التلوث المائي ص ١٥٨.

(٣) أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني ص ١٤٤.

(٤) أبحاث مختارة من علوم البيئة ص ٥٢، التلوث المائي ص ١٦٨، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي للدكتور/عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني ص ١٤٤.

العسكريين في الولايات المتحدة الذين أصيبوا بالسرطان من جراء تلك التفجيرات، والتعرض للإشعاعات الناتجة من مولدات الكهرباء النووية مما له آثار ضارة، كما حدث في شيرنوبيل بالاتحاد السوفيتي حيث تساقط الغبار المحمل بالإشعاع على أوربا الشرقية والغربية، وأدى إلى تلوث المحاصيل الزراعية والحيوانات والمنتجات الحيوانية.

وهذا النوع من التلوث أخطر الأنواع حيث إن المواد المشعة تبقى نشطة لمدة طويلة من الزمن قد تصل إلى مئات السنين، وخير دليل على ذلك حادث جزيرة (THREE MILES ISLAND) في الولايات المتحدة حيث أغلق المفاعل النووي فيها لفترة سنوات طويلة قادمة، ولا يخفى على الجميع الأمراض وتشوهات المواليد في هيروشيما ونجازاكي باليابان نتيجة لإشعاع القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية[1].

ز ـ تلوث الهواء:

يقصد بتلوث الهواء: «وجود مادة أو أكثر من الملوثات في الهواء مثل الغبار، أو الأبخرة، أو الغازات، أو الروائح، أو الدخان، وبقائها لمدة كافية للضرر بالإنسان أو الحيوان أو النبات أو الممتلكات أو بسبب عدم الراحة عن طريق الأنف أو الأذن، أو أعضاء الجسم المتضررة، أو ما يتعارض مع استمرار الحياة الفطرية بشكل طبيعي».

ونظراً لسرعة التطور العلمي والتقدم الصناعي فإن المركبات الحديثة تنتج يومياً دون دراسة متأنية على النواحي الصحية أو البيئية حيث يزيد عدد المركبات الكيمائية التجربة عن ٦٥٫٠٠٠ مركب يستخدمها البشر في الحياة اليومية مثل الوقود، والمبيدات الحشرية، ومواد البناء، والإنشاء من إلقاء الدهان والمذيبات العضوية، ومواد

(١) البيئة مشاكلها وقضاياها للفقي ص ٣٦. تلوث البيئة ثمن للمدنية د/علي زين العابدين عبد السلام، د/محمد بن عبد المرضي عرفات ص ٢٩ وما بعدها، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧م.

الصناعة مثل المواد البتروكيماوية، والمواد المشعة والأسمدة الصناعية، وبعض هذه المواد تسبب الأمراض مثل السرطان والحساسية الصدرية، وما زالت البحوث التي تجري في هذا المضمار محدودة بسبب الكم الهائل من المركبات، وبسبب شح التمويل لإنجاز البحوث الملائمة[1].

❋ ❋ ❋

(١) التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان للمهندس/محمد السيد أرناؤوط ص ٢٠ طبعة مكتبة الدار العربية للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، له الحمد الحسن، والثناء الجميل، وصلى الله على عبده ومصطفاه محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه... **وبعد:**

فلقد اهتم الدين الإسلامي بالبيئة بمفهومها الواسع ومواردها المختلفة سواء أكانت حية أم غير حية، وأظهر أسس التعامل معها بحيث يمكن حمايتها والحفاظ عليها.

ولقد تميز مفهوم البيئة في الإسلام بشموليته فهو يضم كل مخلوقات الله من إنسٍ وجانٍ، والبحار، والأنهار، والجبال، والنبات، والحيوانات، والحشرات، وإن هذه المخلوقات سخّرها الله سبحانه وتعالى للإنسان.

لذا فإن الحفاظ على البيئة واجب ديني على كل فرد، كما أنه واجب اجتماعي عام يقوم به كل مسؤول في مؤسسته.

وفي نهاية المطاف يمكن استخلاص عدة توصيات من خلال البحث المقدم، لعل فيها الفائدة لمن أراد معالجة مثل هذه الموضوعات من شتى جوانبه، وهي كما يلي:

- **التوصية (١):** تنمية الوعي البيئي لدى الإنسان المسلم عن طريق تزويده بالرؤية الصحيحة عن البيئة ومكوناتها بما يحقق دوره المطلوب في الأرض باعتباره خليفة الله فيها.
- **التوصية (٢):** إدخال مواد عن البيئة في مختلف مراحل التعليم والتركيز على الأفكار الأساسية، أو الموضوعات المتعلقة بالأبعاد البيئية للمجالات الأخرى داخل هذه المجالات، منها تربية النشء، وتوعية وتثقيف الكبار، والتعاون مع الجماعات والمؤسّسات الأهليَّة والرسميَّة الإقليميَّة والدُّوَلِيَّة.

- **التوصية (٣)**: حث جميع الدول على المشاركة، والانضمام في أي تجمع يهدف إلى حماية البيئة وعدم التواني في ذلك، والتصديق على الاتفاقيات الدولية والإقليمية التي تصب في مصلحة البيئة.

- **التوصية (٤)**: مناشدة الدول بسن القوانين والتشريعات الداخلية المتسمة بالصرامة في ملاحقة ملوثي البيئة، وعدم التراخي في توقيع العقوبات عليهم، وملء الفراغ التشريعي في بعض البلدان النامية.

التوصية (٥): توجيه الإعلام ووسائله الفعالة إلى نشر الوعي البيئي، وتكثيف برامجه الداعية للمحافظة عليها، واطلاع الأفراد على مخاطر التلوث، وكذلك زيادة النشرات، والبحوث والدوريات المتخصصة التي تحمل طابع التوجيه والإرشاد للتعامل مع البيئة؛ لإخراج جيل مشبع بالتربية البيئية وداعياً لها.

- **التوصية (٦)**: اتباع آلية أفضل لتبادل المعلومات بين الدول والمنظمات الدولية الحكومية منه وغير الحكومية بشأن المشاكل البيئية تتصف بالسرعة والدقة وبعيدة عن الجوانب الإجرائية والشكلية، وذلك للانتفاع بها واستخدامها في مواجهة أي خطر يهدد البيئة.

- **التوصية (٧)**: لا بد أن يتدخل القانون ويفعّل بالتطبيق على المتسببين في أخطر ما يلوث البيئة من كوارث نتيجة الحروب والنزاعات المسلحة، أو حتى المناورات والتدريبات العسكرية التي تستغل الطبيعة أسوأ استغلال، وعدم التساهل في ملاحقة من يهدد بيئة الإنسان الآمن.

- **التوصية (٨)**: وضع استراتيجيات لتغيير نمط حياة الفرد ليصبح مسؤولاً نحو البيئة للمحافظة عليها.

- **التوصية (٩)**: التركيز على المواد والمنتجات الصديقة للبيئة والتعامل مع الشركات التي تعمل نحو بيئة أفضل.

- **التوصية (١٠)**: إنشاء مؤسسات معنية بالبيئة بشكل أساسي، وليس بالأمور الاقتصادية والاجتماعية بشكل مستقل عن البيئة.
- **التوصية (١١)**: توفير الدعم المادي من خلال الجهات الحكومية أو الشركات البترولية لاهتمامها الحالي نحو البيئة، وتغيير الانطباع العام عن الشركات، أو من خلال الدعاية والإعلان في البرامج للشركات المهتمة بالبيئة.

❋ ❋ ❋

فهرس المراجع والمصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ أثر التراث الإسلامي في تقدم علم الزراعة والبيطرة: د. علي المجذوب، بحث منشور في مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، تصدر عن كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، العدد السادس.

٣ ـ الإجماع: لابن المنذر، المتوفى سنة ٣١٨هـ، تحقيق ودراسة د. فؤاد عبد المنعم، طبعة دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، الرياض، السعودية.

٤ ـ الأحاديث المختارة: لأبي عبد الله بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، طبعة مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٥ ـ أحكام البيئة في الفقه الإسلامي: للدكتور عبد الله بن عمر بن محمد السحيباني، طبعة دار ابن الجوزي.

٦ ـ الأدب المفرد: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة البخاري، المتوفى سنة ٢٥٦هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٧ ـ الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار: تصنيف الإمام أبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر الأندلسي. وثق أصوله الدكتور/عبد المعطي قلعجي. طبعة دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٨ ـ الإسلام والبيئة: محمد مرسي محمد مرسي، مطبوعات أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٩ ـ الإسلام والبيئة: د. عبد الرحمٰن جبرة، طبعة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٠ ـ الإسلام والبيئة، رؤية إسلامية حضارية: للدكتور بركات محمد مراد، طبعة دار القاهرة ٢٠٠٣م.

١١ ـ الإسلام والبيئة: د. إبراهيم علي حسن، ضمن سلسلة الدراسات الإسلامية التي يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف بمصر، العدد (١٥) القاهرة ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
١٢ ـ الإسلام وحماية البيئة: د. آمنة نصير، ضمن سلسلة القضايا الإسلامية الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، مصر، العدد (٧٦) ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
١٣ ـ إطلالة على أنواع التلوث البيئي والتوعية: للدكتور إبراهيم بن عبد الحميد عالم، بدون جهة أو سنة نشر.
١٤ ـ اقتصاد البيئة في الإسلام: للأستاذ مسدور فارس، طبعة جامعة سعد، دحلب، البليدة.
١٥ ـ أمن وحماية البيئة: خالد محمد القاسمي، وجيه جميل البعيني، طبعة دار الثقافة العربية، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة ١٩٩٧م.
١٦ ـ الإنسان وتلوث البيئة: محمد السيد أرناؤوط، طبعة الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٩م.
١٧ ـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف علي مذهب الإمام أحمد بن حنبل: للإمام علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان بن أحمد المرداوي السعدي الحنبلي، طبعة دار إحياء التراث العربي.
١٨ ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للكاساني الحنفي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
١٩ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد: للإمام أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ) طبعة دار الفكر، بيروت.
٢٠ ـ بلغة السالك لأقرب المسالك إلي مذهب الإمام مالك على الشرح الصغير: للشيخ أحمد الصاوي، طبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الأخيرة.
٢١ ـ البيان في فقه الإمام الشافعي: للإمام يحيى بن أبي الخير بن سالم بن أسعد بن عبد الله بن عمران العمراني، تحقيق د. أحمد حجازي أحمد السقا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
٢٢ ـ البيان والتحصيل: أبو الوليد محمد بن رشد، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦م.
٢٣ ـ التاج والإكليل لمختصر خليل: لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري الشهير بالمواق، والمتوفى سنة ٨٩٧هـ، مطبوع مع مواهب الجليل، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤ ـ البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، م/محمد عبد القادر الفقي، طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٩٩م.
٢٥ ـ البيئة من منظور إسلامي: د. زين الدين عبد المقصود، طبعة شركة المطبعة العصرية ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٢٦ ـ البيئة والمناهج الدراسية: أحمد إبراهيم شلبي، الرياض، مؤسسة الخليج العربي ١٩٨٤م.
٢٧ ـ التاج والإكليل لمختصر خليل: لأبى عبد الله محمد بن يوسف العبدرى الشهير بالمواق. مطبوع بهامش مواهب الجليل. طبعة دار الفكر. الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٢٨ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: للعلامة محمد عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٩ ـ تحفة الألباب: لأبي حامد الغرناطي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، بدون تاريخ.
٣٠ ـ تحفة المحتاج: لابن حجر الهيتمي، طبعة دار إحياء التراث العربي.
٣١ ـ تلوث البيئة ثمن للمدنية: د. علي زين العابدين عبد السلام، د. محمد بن عبد المرضي عرفات، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧م.
٣٢ ـ تلوث البيئة فساد في البر والبحر: محمد فيض الله الحامدي، بحث منشور في مجلة نهج الإسلام، العدد (٦٣) رمضان ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م
٣٣ ـ التلوث البيئي، مشكلة التلوث البيئي الكيميائي والبيولوجي: لمختار كامل.
٣٤ ـ التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان: للمهندس محمد السيد أرناؤوط، طبعة مكتبة الدار العربية للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م.
٣٥ ـ التلوث مشكلة العصر: د. أحمد مدحت إسلام، العدد (١٠٢) من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، أغسطس ١٩٩٩م.
٣٦ ـ التوقيف على مهمات التعاريف: لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، طبعة دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى١٤١٠هـ.
٣٧ ـ الجامع لأحكام القرآن الكريم المعروف بتفسير القرطبى: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى. طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية. الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م.
٣٨ ـ الجريدة الرسمية: العدد رقم (٥) في ١٩٩٤/٢/٣م.

٣٩ ـ حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة: د. جعفر عبد السلام، طبعة رابطة الجامعات الإسلامية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م
٤٠ ـ الحق في سلامة الغذاء من التلوث في تشريعات البيئة: د. محمد محمد عبده إمام، الناشر. دار الجامعة الجديدة للنشر الإسكندرية عام ٢٠٠٤م.
٤١ ـ الخراج: لأبي يوسف، طبعة المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ.
٤٢ ـ الذخيرة: لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي المتوفى سنة ٦٨٤هـ ١٢٨٥م، تحقيق: محمد حجي، طبعة دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
٤٣ ـ رعاية البيئة في شريعة الإسلام: للدكتور يوسف القرضاوي، طبعة الشروق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.
٤٤ ـ سنن أبي داود: للإمام سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، المتوفى بالبصرة في شوال ٢٧٥هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الفكر، مع الكتاب: تعليقات كَمَال يوسُف الحوت، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
٤٥ ـ سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
٤٦ ـ سنن الدارقطني: للإمام علي بن عمر الدارقطني، المتوفى سنة ٣٨٥هـ، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.
٤٧ ـ سنن الدارمي: للإمام أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن الدارمى، المتوفى سنة ٢٥٥هـ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
٤٨ ـ السنن الكبرى: للإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، (٤٥٨هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
٤٩ ـ سنن ابن ماجه: للإمام محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني (٢٠٧ ـ ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر، بيروت.
٥٠ ـ سنن النسائي الكبرى: للإمام أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمٰن النسائي، المتوفى سنة ٣٠٣هـ تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٥١ ـ شرح ميارة الفاسي: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المالكي ٤١١/٢ ـ ٤١٣، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمٰن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
٥٢ ـ الشريعة الإسلامية وحماية البيئة: د. عبد العزيز خليفة القصار، د/وليد خالد الشايجي، بحث منشور بمجلة كلية الشريعة والقانون بالقاهرة، العدد الواحد والعشرون ١٩٩٨م ـ ١٩٩٩م.
٥٣ ـ صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، المتوفى سنة ٢٥٦هـ، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧هـ.
٥٤ ـ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٥٥ ـ صحيح مسلم: للإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج (٢٠٦ ـ ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، إشراف: د. مصطفى الذهبي، طبعة دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
٥٦ ـ طعام الإنسان وشرابه بين الطب والقرآن والسنة: للمهندس محمد السيد أرناؤوط، طبعة المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
٥٧ ـ الطفل والبيئة: د. أيمن أبو الروس، طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٩٩م.
٥٨ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر: لابن خلدون، بيروت ١٩٤١م.
٥٩ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: لزكريا بن محمد القزويني، طبعة دار العلم، بيروت، بدون تاريخ.
٦٠ ـ العدوي بين الطب وحديث المصطفى: د. محمد علي البار، طبعة الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ.
٦١ ـ العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية: د. سيد رضوان علي، طبعة دار المريخ للنشر، الرياض.
٦٢ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود: للإمام محمد شمس الحق العظيم آبادي، أبي الطيب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
٦٣ ـ العين: لأبي عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
٦٤ ـ فتح القدير: الإمام كمال محمد بن عبد الواحد السيواسي السكندري، المعروف بابن الهمام الحنفي، المتوفى سنة ٦٨١هـ، طبعة دار الفكر، بيروت.

٦٥ ـ قانون حماية البيئة الإسلامي مقارناً بالقوانين الوضعية: د. أحمد عبد الكريم سلامة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٦٦ ـ قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة: د. ماجد راغب الحلو، الناشر: دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية عام ١٩٩٥م.
٦٧ ـ قضايا البيئة من منظور إسلامي: د. أحمد عبد الرحيم السايح، د. أحمد عبده عوض، طبعة مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
٦٨ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام: للعز بن عبد السلام، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٩ ـ قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية: للعلامة محمد ابن أحمد ابن جزي الغرناطي المالكي (١٢٩٤ ـ ١٣٤٠م) تحقيق: الشيخ عبد الرحمٰن حسن محمود، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م، طبعة عالم الفكر، القاهرة.
٧٠ ـ الكافي في فقه أهل المدينة المالكي: تأليف: شيخ الإسلام أبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبي. تحقيق وتقديم وتعليق: الدكتور محمد محمد أحمد. الناشر: مكتبة الرياض الحديثة. الرياض. البطحاء.
٧١ ـ كشاف القناع عن متن الإقناع: للعلامة منصور بن يونس بن إدريس البهوتى الحنبلى، تحقيق: أبو عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الشافعي، طبعة: الكتب العلمية. بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
٧٢ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: المؤلف: علي بن حسام الدين المتقي الهندي المتوفى سنة ٩٧٥هـ، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩م
٧٣ ـ لسان العرب: أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، المعروف بابن منظور، طبعة: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
٧٤ ـ المبسوط: لشمس الدين أبو محمد بن أحمد بن سهل السرخسي، طبعة: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٧٥ ـ متن المنهاج: لشرف الدين يحيى النووي مطبوع مع السراج الوهاج شرح العلامة محمد الزهري الغمراوي، طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م.
٧٦ ـ مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر: تأليف: المحقق العلامة عبد الله ابن الشيخ محمد بن سليمان، المعروف بداماد أفندي، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بدون سنة طبع.

٧٧ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٧٨ ـ المجموع شرح المهذب: للنووي، طبعة دار الفكر، بيروت.
٧٩ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية: جمع وترتيب: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، طبعة مؤسسة قرطبة ـ الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.
٨٠ ـ المحلى: تأليف/أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، المتوفى ٤٥٦هـ، تحقيق/لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٨١ ـ المحلى بالآثار: تأليف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، المتوفى ٤٥٦هـ، طبعة دار الفكر، بيروت.
٨٢ ـ مختار الصحاح: تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، الرازي، تحقيق: محمود خاطر، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
٨٣ ـ المدونة الكبرى: للإمام مالك بن أنس. ط. مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر. الطبعة الأولى.
٨٤ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر: للمسعودي، طبعة دار المعارف، القاهرة.
٨٥ ـ مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات: لابن حزم، ط. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
٨٦ ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث: للحافظ الكبير أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
٨٧ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل: المؤلف: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، المتوفى ٢٤١هـ، الناشر: مؤسسة قرطبة، القاهرة.
٨٨ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: العلامة أحمد بن محمد بن علي، المقري، الفيومي، طبعة المكتبة العلمية، بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
٨٩ ـ معجم ألفاظ القرآن: للأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.
٩٠ ـ المعجم الأوسط: للحافظ أبى القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (٢٦٠ ـ ٣٦٠هـ) تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين ـ القاهرة، ١٤١٥هـ.

٩١ ـ المعجم الكبير: للحافظ أبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى (٢٦٠ ـ ٣٦٠هـ) تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.
٩٢ ـ معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة دار الجيل، بيروت.
٩٣ ـ المُغرب في ترتيب المُعرب: أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد ابن علي بن المطرزي، تحقيق: محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، طبعة مكتبة أسامة بن زيد، حلب الطبعة الأولى ١٩٧٩م.
٩٤ ـ المغني: تأليف موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠هـ، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٩٥ ـ مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: تأليف الإمام محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٩٦ ـ المنتقى شرح الموطأ: للإمام أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي الأندلسي (٤٠٣ ـ ٤٩٤هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
٩٧ ـ منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث: د. عدنان أحمد الصمادي، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بالكويت، العدد الحادي والخمسون، شوال ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
٩٨ ـ المهذب في فقه الإمام الشافعي: للشيرازي، طبعة دار الفكر، بيروت.
٩٩ ـ الموافقات في أصول الشريعة: المؤلف: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، الشاطبي، طبعة دارالمعرفة، بيروت ـ لبنان، بدون سنة طبع.
١٠٠ ـ مواهب الجليل لشرح مختصر خليل: تأليف إمام المالكية في عصره: أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن المغربي المعروف بابن الحطاب (٩٠٢ ـ ٩٥٤هـ)، طبعة دار الفكر، الطبعة الثانية.
١٠١ ـ موسوعة حماية البيئة في القانون الجنائي الداخلي والقانون الدولي الجنائي والفقه الإسلامي: د. محمود صالح العادلي، الناشر: دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م
١٠٢ ـ موقف الإسلام من قضايا التلوث البيئي المعاصرة، التلوث الغذائي: د. محمد حسين قنديل، بحث منشور في مجلة البحوث الفقهية والقانونية التي تصدرها كلية الشريعة والقانون بدمنهور، العدد السادس عشر ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، الجزء الأول.

١٠٣ ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: لشمس الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي الصوفي.
١٠٤ ـ واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية: د. محمود السيد حسن داود، طبعة رابطة الجامعات الإسلامية ٢٠٠٥م.
١٠٥ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة: للشيخ عبد الرحمٰن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري، تحقيق: السيد البار العريني، طبعة دار الثقافة، بيروت.
١٠٦ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
١٠٧ ـ نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج في الفقه على مذهب الإمام الشافعي: لمحمد بن شهاب الدين الرملي، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.

● تم ترتيب المراجع حسب حروف المعجم، مع مراعاة أنه لا اعتبار لحرف (أل).

❋ ❋ ❋

البيئة والمحافظة عليها
من منظور إسلامي

إعداد
د. عبد اللطيف محمود آل محمود
عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
مملكة البحرين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **وبعد:**

فبناء على اختياري وتكليفي من سعادة الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي الدولي للكتابة عن موضوع (البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي) كتبت هذه الورقات مستعيناً ببحث سبق لي إعداده بعد إدخال التعديلات عليه بما يوافق العنوان المطلوب، راجياً أن أكون قد أوفيت بما اخترته. وكان تأخير انعقاد الدورة التاسعة عشرة لمؤتمر المجمع متيحاً لي الفرصة للمشاركة في هذا البحث.

مع خالص شكري وتقديري.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
١٠ محرم الحرام ١٤٣٠ هـ
٦ يناير ٢٠٠٩ م
عبد اللطيف محمود آل محمود
الحد ـ البحرين

❋ ❋ ❋

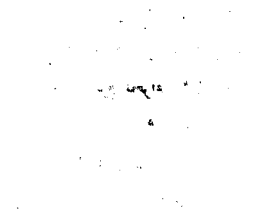

تعريف البيئة

البيئة كلمة لها عدة دلالات لغوية منها[1]:

١) المنزل الذي يأوي إليه الكائن الحي، جاء في الحديث: «في المدينة ههنا المتبوأ».

٢) المكان المهيأ والمعد للاستخدام، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾[2].

٣) المحيط.

٤) الحالة.

٥) المكان الذي تتوافر فيه العوامل المناسبة لمعيشة كائن حي أو مجموعة كائنات حية خاصة كالبيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية والبيئة الجغرافية.

أما من الناحية الاصطلاحية فنجد لهذه الكلمة عدة تعريفات منها:

١) البيئة مجموع النظام الفيزيائي الخارجي والبيولوجي الذي يعيش فيه الجنس البشري والكائنات الحية الأخرى كلاً متكاملا[3].

٢) البيئة هي كل ما هو خارج عن كيان الإنسان، وكل ما يحيط به من موجودات، فالهواء الذي يتنفسه الإنسان والماء الذي يشربه، والأرض التي يسكن عليها ويزرعها، وما يحيط به من كائنات حية أو من جماد هي عناصر البيئة التي يعيش فيها، وهي الإطار

(١) لسان العرب (بوأ)، المنجد (بوأ)، المعجم العربي الأساسي (ب وء).
(٢) سورة العنكبوت: (٥٨).
(٣) الجمهور والبيئة: ١.

الذي يمارس فيه حياته ونشاطاته المختلفة[1].

٣) البيئة هي الأرض وما تضمه من مكونات غير حية ممثلة في مظاهر سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان، وصخور ومعادن وتربة وموارد مياه، ومكونات حية ممثلة في النباتات والحيوانات البرية النشأة سواء كانت على اليابسة أو في الماء، وما يحيط بالأرض من غلاف غازي يضم الكثير من العناصر الأساسية اللازمة لوجود الحياة على سطح الأرض[2].

هل الإنسان عنصر من عناصر البيئة؟

من هذه التعريفات يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده هل يعتبر الإنسان داخلاً في تعريف البيئة أم هو خارج عنها؟

يبدو لأول وهلة من التعريف الأول أن الإنسان جزء من البيئة، ومن التعريفين الثاني والثالث أنه ليس جزءاً منها.

وبالتمعن في التعريفات الثلاثة أرى أنه لا تناقض بينها إذ التعريف الأول يعرف البيئة كلاً متكاملاً ولذلك اعتبر الإنسان جزءاً منها، أما التعريف الثاني والثالث فإنهما ركزا على البيئة التي يعيش فيها الإنسان وتحيط به، وعلى هذا الاعتبار اعتبر الإنسان خارجاً عن البيئة.

وحيثُ إننا نريد المعنى العام للبيئة في هذه الدراسة فإن الإنسان سيعتبر جزءاً من عناصرها.

❋ ❋ ❋

(١) التلوث ومشكلة العصر: ٩.

(٢) البيئة من منظور إسلامي: ٢١.

عناصر البيئة

يمكن أن تقسم عناصر البيئة كما وردت في التعريفات الثلاثة إلى ما يلي:

١) ما على الأرض أو في باطنها من مكونات غير حية من جبال وهضاب وسهول وصحاري ووديان وصخور ومعادن وتربة ومياه.

٢) ما على الأرض أو في باطنها من مكونات حية من إنسان ونباتات وحيوانات برية وبحرية.

٣) الغازات المحيطة في حدود الغلاف الجوي للأرض.

٤) الطاقة الحرارية سواء التي تأتي من خارج الأرض إليها أو تصدر من الأرض.

٥) الضوء.

٦) الأشعة والموجات الصادرة من مصادر متعددة طبيعية أو صناعية.

ويقسمها البعض وفق توصيات مؤتمر ستوكهولم، إلى ثلاثة عناصر هي[١]:

١ ـ البيئة الطبيعية:

وتتكون من أربعة نظم مترابطة ترابطاً وثيقاً وهي: الغلاف الجوي، الغلاف المائي، اليابسة، المحيط الجوي، بما تشمله هذه الأنظمة من ماء وهواء وتربة ومعادن، ومصادر للطاقة بالإضافة إلى النباتات والحيوانات، وهذه جميعها تمثل الموارد التي أتاحها الله سبحانه وتعالى للإنسان كي يحصل منها على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى.

---

(١) جمعية الحياة البرية في فلسطين، http://www. wildlife - pal. org/Environment. htm .

٢ ـ البيئة البيولوجية:

وتشمل الإنسان «الفرد» وأسرته ومجتمعه، وكذلك الكائنات الحية في المحيط الحيوي، وتعد البيئة البيولوجية جزءاً من البيئة الطبيعية.

٣ ـ البيئة الاجتماعية:

ويقصد بها ذلك الإطار من العلاقات الذي يحدد ماهية علاقة حياة الإنسان مع غيره، ذلك الإطار من العلاقات الذي هو الأساس في تنظيم أي جماعة من الجماعات سواء بين أفرادها بعضهم ببعض في بيئة ما، أو بين جماعات متباينة أو متشابهة معاً.

❋ ❋ ❋

التكامل بين عناصر البيئة

خلق الله تعالى البيئة متكاملة بعناصرها المختلفة، يؤدي كل عنصر وظيفته لغيره حتى تتكامل عناصر البيئة في شكل دورات.

ولتيسير فهم هذا التكامل الدائري للنظام البيئي يقسم المختصون عناصر النظام البيئي إلى أربعة رئيسة[1]:

أ ـ عناصر الإنتاج (كائنات حية منتجة):

تتكون عناصر الإنتاج من النباتات الخضراء بكل أنواعها من الطحالب الخضراء إلى الأشجار الضخمة المختلفة، وهذه تنتج غذاءها بنفسها.

ب ـ عناصر الاستهلاك (كائنات حية مستهلكة):

تتكون عناصر الاستهلاك من كل الكائنات الحية، وهذه تعتمد في غذائها على غيرها، فيتغذى بعضها بالنباتات والأعشاب، وبعضها يأكل لحوم الحيوانات الأخرى، والإنسان يستهلك من النباتات والحيوانات.

ج ـ عناصر التحليل (كائنات حية محللة):

وتشمل عناصر التحليل كل ما يؤدي إلى تحلل عناصر الإنتاج وعناصر الاستهلاك أو تلفها كالبكتيريا والفطريات وبعض أنواع الحشرات والخنافس التي تساعد الكائنات الحية الدقيقة في عملية تحليل المواد العضوية إلى ماء وغاز ثاني أكسيد الكربون ونترات وفوسفات وغيرها لتثري العناصر الطبيعية غير الحية.

د ـ العناصر الطبيعية غير الحية:

وهي تشمل الماء والهواء ـ بما فيه من غازات ـ وضوء الشمس

---

(١) التلوث مشكلة العصر: ٩ ـ ١١، المدخل إلى العلوم البيئية: ٣٣ ـ ٣٦.

بإشعاعاتها الحرارية وفوق البنفسجية وبعض المواد المعدنية وبعض الأجزاء المتحللة من النباتات والحيوانات. وتعتبر الجاذبية والإشعاع من بين العناصر الفيزيائية للعناصر الطبيعية غير الحية.

ويمكن رؤية هذا التكامل في دورة الكربون، إذ يمتص النبات (عنصر إنتاج) غاز ثاني أكسيد الكربون من الهواء لصنع حاجته من الغذاء ويطلق غاز الأكسجين، وتستخدم الحيوانات المختلفة (عنصر استهلاك) غاز الأكسجين في عملياتها الحيوية للحصول على الطاقة اللازمة وتطلق غاز ثاني أكسيد الكربون إلى الهواء لتستخدمه عناصر الإنتاج مرة ثانية.

ومثل هذا التكامل يرى بصورة أوضح في دورة الماء بين تبخر وتكثف وأمطار، وكذلك دورة الأكسجين، ودورة النيتروجين وغيرها.

ويحكم هذا النظام البيئي القاعدة الربانية ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[1]، وأيّ اختلال في عنصر من عناصر النظام البيئي يؤدي إلى اختلال متعاقب في العناصر التالية له في المنزلة.

❋ ❋ ❋

(١) سورة القمر: ٤٩.

التوازن بين عناصر البيئة

أهم ما يميز البيئة الطبيعية كما خلقها الله تعالى التوازن الدقيق القائم بين عناصرها المختلفة. ويلاحظ العلماء أن التغيير في إحدى البيئات لظروف معينة قد يؤدي إلى حدوث تطورات فيها تعالج تلك الآثار وإن كان بعد أمد. ومن ذلك ما يلاحظ أن النار إذا دمرت جزءاً من إحدى الغابات فإنه بعد أعوام قليلة تكتسي تلك الأرض المحروقة بالحشائش والأعشاب ثم سرعان ما تنتشر فيها الأشجار مرة أخرى[1].

وهذا التوازن لا يشترط أن يكون مستمراً طول الوقت، لأن النظم الطبيعية تتعرض لتغييرات يومية وموسمية وسنوية، لكن التوازن موجود بصفة عامة. ففي المناطق الرعوية المحاطة بالجبال العالية من جميع الجهات والتي لا تستطيع الحيوانات الدخول إليها أو الخروج منها ويعيش فيها أسود وغزلان وفيها أعشاب رعوية إذا قل هطول الأمطار إلى درجة كبيرة بحيث تؤثر على الأعشاب تضعف الغزلان مما يتيح للأسود صيد الكثير منها وبالتالي يقل عدد الغزلان وتزداد أعداد الأسود. وعندما تسقط الأمطار في السنة الثانية وتنمو الأعشاب وتزداد كثافة الأعشاب تقوى الغزلان فتعاني الأسود من فترة حرجة، فيقل عدد الأسود وتزداد أعداد الغزلان ثم يعود التوازن بين أعداد الغزلان والأسود ويعود النظام إلى حالته المتوازنة[2].

هذا التوازن نظام قائم بين العناصر البيئية ويعبر عنه باسم (النظام البيئي) وهو نظام متكامل تعيش فيه جميع عناصر البيئة في توازن تام يعتمد كل منها على الآخر في جزء من حياته واحتياجاته ويؤدي مهمته في الحياة كما أرادها الله تعالى[3].

---

(١) التلوث مشكلة العصر: ٩.
(٢) المدخل: ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) التلوث: ٩.

المخاطر التي تهدد البيئة

يسعى الإنسان دائماً إلى الأفضل ويعمل على التطور والاختراع، وهو في الغالب ـ ما لم يكن ذا عقيدة تعطي الجماعة حقها عليه ـ ينظر إلى نفسه أولاً ثم إلى الدائرة التي يعيش فيها من أهله وأهل مدينته ودولته ثم إلى الدائرة التي تحيط به من الدول المجاورة أو المتقاربة معه، ثم إلى الدائرة العالمية الأوسع.

وفي إطار بحثه عن الأفضل مهّد الطرق واخترع الآلات والأساليب والوسائل التي تحقق له غايته. وفي الغالب كان تحقيق الغنى المادي أو السيطرة على الآخرين هما من الحوافز على تلك الاختراعات والابتكارات. وفي سبيل الوصول إليهما لم يكن يبالي بنتائج عمله على بقية أفراد الإنسان وعلى الأرض والحيوان وبقية عناصر البيئة، وإن بدا أنه يسعى لخدمة الإنسانية أحياناً في سعيه لإنتاج الأغذية وتيسير الخدمات لبني جنسه الذي تتزايد أعداده في تنام مستمر بأعداد كبيرة، خاصة وقد زاد متوسط حياته في العصر الحاضر نتيجة التقدم في المجال الصحي.

ومنذ أن بدأ الإنسان في التحكم في بيئته المحيطة به بتعلم الزراعة واكتشافه النار وإقامته القناطر والسدود على الأنهار وإدخاله الآلات في الزراعة وإنتاج المحاصيل واختراعه الوسائل والمواصلات واستخدامه للمواد الطبيعية الظاهرة والباطنة وما نتج عن التطور الصناعي من ظهور أصناف جديدة من المواد الكيماوية لم تكن معروفة من قبل كل ذلك أثر على عناصر البيئة بما فيها الإنسان، وإن كان هذا التأثير قد تزايد من القرن العشرين بصورة مذهلة بحيث أصبح مشكلة تهدد الحياة على الأرض كلها، كما أن الحروب والأمراض والفقر والجوع كانت من المخاطر التي هددت البيئة والإنسان، ومنها ما كان من كسب يده.

وقد انعكست آثار تصرفات الإنسان في الإخلال بتوازن النظم البيئية تتضح فيما يأتي[1]:

ـ الغابات:

الغابة نظام بيئي شديد الصلة بالإنسان، وتشمل الغابات ما يقرب ٢٨٪ من القارات ولذلك فإن تدهورها أو إزالتها يحدث انعكاسات خطيرة في النظام البيئي وخصوصاً في التوازن المطلوب بين نسبتي الأكسجين وثاني أكسيد الكربون في الهواء.

ـ المراعي:

يؤدي الاستخدام السيئ للمراعي إلى تدهور النبات الطبيعي، الذي يرافقه تدهور في التربة والمناخ، فإذا تتابع التدهور تعرّت التربة وأصبحت عرضة للانجراف.

ـ النظم الزراعية والزراعة غير المتوازنة:

قام الإنسان بتحويل الغابات الطبيعية إلى أراضٍ زراعية فاستعاض عن النظم البيئية الطبيعية بأجهزة اصطناعية، واستعاض عن السلاسل الغذائية وعن العلاقات المتبادلة بين الكائنات والمواد المميزة للنظم البيئية بنمط آخر من العلاقات بين المحصول المزروع والبيئة المحيطة به، فاستخدم الأسمدة والمبيدات الحشرية للوصول إلى هذا الهدف، وأكبر خطأ ارتكبه الإنسان في تفهمه لاستثمار الأرض زراعياً هو اعتقاده بأنه يستطيع استبدال العلاقات الطبيعية المعقدة الموجودة بين العوامل البيئية النباتات بعوامل اصطناعية مبسطة، فعارض بذلك القوانين المنظمة للطبيعة، وهذا ما جعل النظم الزراعية مرهقة وسريعة العطب.

ـ النباتات والحيوانات البرية:

أدى تدهور الغطاء النباتي والصيد غير المنتظم إلى تعرض عدد كبير من النباتات والحيوانات البرية إلى الانقراض، فأخل بالتوازن البيئي.

---

(١) جمعية الحياة البرية في فلسطين، http://www. wildlife - pal. org/Environment. htm.

ـ التصنيع والتكنولوجيا الحديثة:

نتج عن التصنيع واستخدام التكنولوجيا الحديثة آثار سيئة في البيئة، فانطلاق الأبخرة والغازات وإلقاء النفايات أدى إلى اضطراب السلاسل الغذائية، وانعكس ذلك على الإنسان الذي أفسدت الصناعة بيئته وجعلتها في بعض الأحيان غير ملائمة لحياته.

وأهم المخاطر التي تهدد البيئة تتمثل فيما يلي[1]:

(١) تلوث الهواء:

وهذا التلوث قد يكون بالعناصر الطبيعية كالبراكين والعواصف وحرائق الغابات وحبوب اللقاح في فصل الربيع والجراثيم وغيرها وهذه تقدم خدمة كبيرة في التوازن البيئي، وقد يكون بالعناصر الصناعية. ومن هذا التلوث بثاني أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت وأكسيد النتروجين، وأول أكسيد الكربون والتلوث بعادم السيارات وبالرصاص وغيرها.

(٢) الاحتباس الحراري:

وهذا التلوث ناتج عن المصانع والآليات وغيرها ومن نتائجها التأثير على طبقة الأوزون.

(٣) تلوث المياه (مياه الآبار أو العيون أو الأنهار أو البحيرات أو الخلجان أو البحار والمحيطات):

ويتمثل هذا التلوث في التلوث الكيميائي الناتج عن المبيدات الحشرية والمخصبات الزراعية غير الطبيعية وفي مخلفات البترول ومياه الصرف وفي الأمطار الحمضية والمياه الصناعية والمعادن الثقيلة.

(٤) المخلفات الصلبة والسائلة:

وهي المخلفات التي تقذف بها المنازل والمصانع المختلفة من مياه المجاري والأطعمة والنفايات.

---

(١) انظر كتب: التلوث، إنقاذ كوكبنا، ملوثات البيئة، ومقال الفلسفة البيئية وأخلاقيات البيئة.

(٥) تدهور الأرض وتصحرها:

وقد تسبب الإنسان في تدهور الأرض بإزالة الغابات والأراضي الحراجية مما تسبب في كثير من الحالات إلى تصحر الأرض أو زحف الصحراء على الأراضي الزراعية. كما أن استخدام الإنسان للمواد الكيماوية لزيادة المحاصيل الزراعية والإنتاج الزراعي المكثف أدى إلى ضعف الأرض وتدهورها.

(٦) خسارة التنوع البيولوجي:

فقد شهد العالم انقراض أنواع من الحيوانات بسبب الافتقار إلى البيئة الملائمة أو بالاستغلال والصيد المفرط أو بسبب التلوث.

(٧) استنزاف الثروات الطبيعية:

سواء ما كان منها على سطح الأرض كالغابات أو في باطنها كالبترول والمعادن، مما يخشى معه إفقار الأرض منها بالنسبة للأجيال القادمة.

(٨) النفايات الخطرة:

ومنها المواد الكيميائية السامة سواء المستخدمة في الصناعة أو في الأسلحة الكيميائية والمبيدات الحشرية.

(٩) النفايات المشعة:

ومن أشد هذه النفايات التلوث بالإشعاع من المفاعلات النووية والقنابل الذرية والنووية والهيدروجينية والنيوترونية. على أن هناك أخطاراً من الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية وأشعة إكس وأشعة الليزر وغيرها تهدد حياة الإنسان والحيوان والبيئة على وجه العموم.

(١٠) خطر الضجيج والضوضاء:

وهذا الضجيج والضوضاء تصدره المصانع والورش والمعامل وبعض أنواع المركبات والقطارات والطائرات وأجهزة البث الإذاعي من مذياع وتلفاز ومكبرات الصوت والفرق الموسيقية وغيرها، الذي يؤثر

على حاسة السمع وعلى الأداء الوظيفي للجسم ومنها الارتباكات المعوية والتوتر العصبي الذي يؤثر على القدرة على التركيز والإنتاجية.

(١١) الخطر على حياة الإنسان:

ويمثل الجوع والفقر والمرض والجهل والحروب والفتن أهم مسببات الخطر على حياة الإنسان.

❋ ❋ ❋

أنواع التلوث

ويركز البعض على التلوث باعتباره أهم المخاطر التي تهدد البيئة فيقسمونه إلى:

١ ـ تلوث الهواء:

ويقصد به وجود المواد الضارة به مما يلحق الضرر بصحة الإنسان في المقام الأول ومن ثمَّ البيئة التي يعيش فيها.

٢ ـ التلوث بالنفايات:

من أنواع التلوث البيئي التلوث بالنفايات والتي تشتمل على: القمامة، النفايات الإشعاعية، وغيرها.

٣ ـ التلوث البصري:

هو التشويه لأي منظر تقع عليه عين الإنسان يحس عند النظر إليه بعدم ارتياح نفسي، ويمكن وصفه أيضاً بأنه نوع من أنواع انعدام التذوق الفني، أو اختفاء الصورة الجمالية لكل شيء يحيط بنا من أبنية... إلى طرقات... أو أرصفة.

٤ ـ تلوث الماء:

وقد أصاب هذا التلوث المياه العذبة والبيئة البحرية.

٥ ـ التلوث السمعي:

يرتبط التلوث السمعى أو الضوضاء ارتباطاً وثيقاً بالحضر وأكثر الأماكن تقدماً وخاصة الأماكن الصناعية للتوسع في استخدام الآلات ووسائل التكنولوجيا الحديثة.

٦ ـ تلوث التربة:

تعتبر التربة مصدراً للخير والثمار، وهي من أكثر العناصر التي

يسيء الإنسان استخدامها في هذه البيئة. فهو قاسٍ عليها لا يدرك مدى أهميتها فهي مصدر الغذاء الأساسي له ولعائلته.

٧ ـ التلوث الغذائي:

تلوث الأطعمة يزداد يوماً بعد يوم بصورة مفزعة حتى في البلدان المتقدمة التي بها أعلى مستويات الرعاية والعناية، وذلك بالكيماويات والأشعة الضارة وغيرها.

❋ ❋ ❋

مستويات مخاطر التلوث

يقسم المختصون التلوث إلى الأقسام التالية:

أ ـ التلوث غير الخطر:

وهو المنتشر فوق سطح الكرة الأرضية ولا يخلو أي مكان فيها منه كلية، ويمكن أن نطلق عليه التلوث المقبول الذي يستطيع أن يتعايش معه الشخص بدون أن يتعرض للضرر أو المخاطر كما أنه لا يخل بالتوازن البيئي وفى الحركة التوافقية بين عناصر هذا التوازن.

ب ـ التلوث الخطر:

وهو التلوث الذي يظهر له آثار سلبية تؤثر على الإنسان وعلى البيئة التي يعيش فيها ويمكن أن نطلق عليه «التلوث الحرج»، وخاصة فيما يرتبط بالنشاط الصناعي بكافة أشكاله. وخطورته تكمن في ضرورة اتخاذ الإجراءات الوقائية السريعة التي تحمى الإنسان من وجود خطر حقيقي يهدد حياته ولا يصح تجاهله، فالإنسان هنا من غير المسموح له التعايش مع هذا التلوث مثل النوع السابق من التلوث غير الخطر.

ج ـ التلوث المدمر:

وهو التلوث الذي يحدث فيه انهيار للبيئة وللإنسان معاً ويقضى على كافة أشكال التوازن البيئي، أي أنه يدمر بدون إعطاء أي فرصة للإنسان ـ حتى مجرد التفكير في تقديم حلول ـ للتدخل، ونجده أيضاً متصلاً بالتطور التكنولوجي الذي يظن الإنسان أنه يبدع فيه يوماً بعد يوم من النشاطات الإشعاعية والنووية، وخير مثال حادثة المفاعل النووي «تشرنوبل». ويحتاج الإصلاح مع هذا النمط التلوثي سنوات طويلة للإصلاح ونفقات باهظة التكاليف، ولا يقف الأمر عند هذا الحد وإنما تتأثر أجيال من البشر على المدى الطويل منه.

❋ ❋ ❋

نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان

يربي الإسلام متبعيه على قيم ومبادئ وقواعد لتحكم تصرفاتهم في الأرض والكون كله. ومن أهم هذه القيم والمبادئ والقواعد ما يأتي:

أولاً: الكون كله مخلوق لله تعالى:

وهذا الأساس تجمع عليه كل الديانات السماوية. قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[1].

والخلق ابتداع الشيء على غير مثال سابق، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدؤه على غير مثال سُبق إليه[2].

ثانياً: الإنسان مستخلف في الأرض من الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3]، وإنما جعل الله الإنسان خليفة لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين[4]، وهذا يستدعي منه أن يتبع أوامر الله تعالى ونواهيه وتوجيهاته في سلوكه الحياتي لنفسه أو لغيره.

---

(١) سورة فصلت: ٩ ـ ١٢.

(٢) لسان العرب (خلق) ٨٥/١٠.

(٣) سورة البقرة: ٣٠.

(٤) هذا أحد رأيين يذكرهما الرازي في تفسيره: ١٦٥/٢.

ثالثاً: جميع ما في الكون مسخر لمنافع الإنسان:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

والتسخير: التذليل بلا أجر ولا ثمن[2].

رابعاً: الاستمتاع بما في الأرض من منافع عامة لجميع من يحتاج إليها من مخلوقات الله تعالى على الأرض:

فقد قضى الله عزّ وجلّ أن الأقوات التي خلقها على الأرض هي حق لجميع الطالبين لذلك القوت، فلا يحرم أحد من حقه فيه، أخذا من قوله تعالى عما خلق في الأرض: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ۖ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[3]، أي وفق مراد طالب القوت ومن له حاجة إليه، وهو كل حيوان على وجه الأرض... فالناس والحيوان جميعاً كلهم سائلون ربهم ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ولباس ورداء سؤالاً طبيعياً مغروساً في جبلتهم[4].

خامساً: خلق الله كل شيء في الأرض بمقدار حاجة المخلوقات فيها:

قال الله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾[5]، أي خلق في الأرض

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.
(٢) لسان العرب (سخر) ٣٥٣/٤.
(٣) سورة فصلت: ١٠.
(٤) تفسير المراغي: ١١١/٢٤.
(٥) سورة فصلت: ١٠.

القوى التي تنشأ منها الأقوات وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها. ومن التقدير تقدير كل نوع بما يصلح له من الأوقات من حر أو برد أو اعتدال. وهو تقدير لجميع من يحتاج للقوت فللدواب أقوات، وللطير أقوات، وللوحوش أقوات، وللزواحف أقوات، وللحشرات أقوات، وجعل للإنسان جميع تلك الأقوات مما استطاب منها[1].

وقد تكرر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[2]، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[3]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[5].

سادساً: وجوب المحافظة على الإنسان والبيئة:

قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[6]، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[7]، وقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[8].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢٤/٢٤٤.
(٢) سورة القمر: ٤٩.
(٣) سورة الرعد: ٨.
(٤) سورة المؤمنون: ١٨.
(٥) سورة الحجر: ١٩ ـ ٢١.
(٦) سورة المائدة: ٣٢.
(٧) سورة البقرة: ١٧٩.
(٨) سورة البقرة: ١٩٥.

سابعاً: تحريم تخريب العمران والإفساد في الأرض بكل أنواعه:

قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2]، وقال عن دعوة شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾[3] وقال سبحانه: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[4].

ثامناً: الكفر بالله تعالى وارتكاب المعاصي يؤثر على البيئة:

ذكر الله تعالى نصيحة نوح عليه السلام لقومه: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.
(٢) سورة الأعراف: ٥٤ ـ ٥٦.
(٣) سورة الأعراف: ٨٥ ـ ٨٦.
(٤) سورة محمد: ٢٢ ـ ٢٤.

وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾[1]، وقال عن الفساد الذي يظهر في الأرض وتغيير الأحوال إلى الأسوأ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[2]، وقال عما حصل لآل فرعون من عذاب بالسنين (قحط) ونقص من الثمرات ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[3] وما يمكن أن يحصل لغيرهم: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[4]

تاسعاً: عدم تطبيق أحكام الله تعالى يؤثر على البيئة:

فقد قال الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[5].

وللنظر إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهو يحذر من فساد البيئة وتغيرها بسبب مخالفة أحكام الله تعالى حيث يقول: «كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط فعمل بها بينهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم تمطروا، وما

---

(١) سورة نوح: ٩ ـ ١٢.
(٢) سورة الروم: ٤١.
(٣) سورة الأعراف: ١٣٠.
(٤) سورة الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣.
(٥) سورة المائدة: ٦٥ ـ ٦٦.

بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفذوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة رسوله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر: ١٩٧/٣ رقم ٣٣١٥.

القواعد الضابطة لمسؤولية الإنسان عن عناصر البيئة

مسؤولية الإنسان عن البيئة ناتجة عن مكانته التي أرادها الله تعالى له في الكون فهو المستخلف من الله تعالى في الأرض، وهو يستمد تعاليمه منه تعالى.

ومن هذا المنطلق نرى أن مسؤولية الإنسان عن البيئة تتمثل في عدة قواعد أقسمها إلى ما يلي:

أ ـ قواعد عامة

١. عمارة الأرض مهمة من مهام خلق الإنسان:

فقد قال الله تعالى على لسان صالح عليه السلام لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[(١)]، والاستعمار: الإعمار، وهو يكون بالبناء أو الغرس أو الزرع[(٢)].

٢. العمارة صدقة جارية ما انتفع به:

يقول الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: (من بنى بنياناً من غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء كان له أجر جار ما انتفع به من خلق الله تبارك وتعالى)[(٣)].

٣. الزرع والثمر من الصدقة الجارية:

ولذلك يكتب للزارع الأجر على قدر الفائدة التي قدمها للإنسان أو الحيوان أو الطير، سواء قصد ذلك أم لم يقصد، وسواء علم من استفاد من عمله أو لم يعلم. قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه

---

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٠٨/١٢.

(٣) رواه أحمد، ح١٥٠٦٣.

وسلم: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[1]، وقال: «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه[2] أحد إلا كان له صدقة»[3].

٤. تكتسب الملكية بإحياء الأرض الميتة التي لا مالك لها:

يقول الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق»[4]، خاصة تلك التي تكون خارج العمران، حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «من أحيا أرضاً دعوةً من المَصر أو رميةً من المصر فهي له»[5]، وقال: «من عمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها»[6].

٥. حرمة الاعتداء على الأرض المملوكة للغير:

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: (من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين)[7].

٦. حرمة الإفساد في الأرض:

فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[8].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المزارعة، ح٢١٥٢.
(٢) بأن يأخذه منه بغير حق وبغير رضاه.
(٣) رواه مسلم، كتاب المساقاة، ح٢٩٠٠.
(٤) رواه أبو داود، كتاب الخراج، ح٢٦٧١.
(٥) رواه أحمد، ح١٤٣٨٣.
(٦) رواه أحمد، ح٢٣٧٣٧.
(٧) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، ح٢٩٥٩.
(٨) سورة الأعراف: ٥٦ و٨٥ وهما دعوتا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ودعوة شعيب عليه السلام.

٧. يتحمل الإنسان مسؤولية ما يقع منه من إفساد في الأرض:

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[1]، ولقد تأكد هذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[2].

٨. لعنة الله عقوبة تحلّ على المفسدين في الأرض:

هؤلاء الذين يفسدون في الأرض ملعونون من الله تعالى حيث يقول عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾[3].

ويشمل الإفساد المحرم الإفساد الخلقي والإفساد المعنوي والإفساد المادي ومنه الإفساد البيئي، وقد نعى الله على بني إسرائيل إفسادهم في الأرض حيث قال عنهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾[4]، وقال للناس قاطبة: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾[5].

٩. وجوب أن يعمل الإنسان على إصلاح ما فسد في الأرض وإلا فإن الوبال والهلاك يأتي على الجميع:

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾[6].

---

(١) سورة الروم: ٤١.
(٢) سورة النساء: ٧٩.
(٣) سورة الرعد: ٢٥.
(٤) سورة الإسراء: ٤.
(٥) سورة محمد: ٢٢ ـ ٢٣.
(٦) سورة هود: ١١٦ ـ ١١٧.

١٠. يجوز للحاكم تخصيص أراض محمية لصالح الضعفاء أو للصالح العام:

قال رسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «لا حمى إلا لله ولرسوله»[١]، وقد حمى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم النقيع وحمى عمر السرف والربذة، وقال عمر لعامله عليه: يا هني، اضمم جناحك عن المسلمين، واتقِ دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل رب الصريمة ورب الغنيمة، وإياك ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع، وإن رب الصريمة ورب الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتيني ببنيه فيقول: يا أمير المؤمنين، أفتاركهم أنا؟ لا أبا لك، فالماء والكلأ أيسر علي من الذهب والورق»[٢]، وحرم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما بين لابتي المدينة (حرتا المدينة المنورة)، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها ما ذعرتها، وجعل اثني عشر ميلاً حول المدينة حمى»[٣].

١١. التعبد بإزالة ما يعرقل السير أو يعطل المصالح:

قال رسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون ـ أو ـ بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[٤]، وسأل أبو برزة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قائلاً: «يا نبي الله، علمني شيئاً أنتفع به؟ قال: اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[٥]، وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «دخل عبد الجنة بغصن شوك على ظهر طريق المسلمين فأماطه عنه»[٦]، وقال: «من

---

(١) رواه البخاري، كتاب المساقاة، ح٢١٩٧.
(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، ح٢٨٣١.
(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، ح٢٤٣٦.
(٤) رواه البخاري، كتاب الإيمان، ح٤٦.
(٥) رواه مسلم، كتاب البر، ح٤٧٤٧.
(٦) رواه أحمد، ح٨٨٧٨.

زحزح عن طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم كتب الله له به حسنة، ومن كتب له عنده حسنه أدخله الله بها الجنة»[1].

١٢. النهي عن الضوضاء والأصوات المرتفعة المؤذية:

كان من وصية لقمان عليه السلام لابنه: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾[2]، وحتى في الدعاء كان توجيه الله تعالى للداعين: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾[3]، وقال للمصلي: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾[4].

١٣. العدل والإحسان هما أساس الحياة التي يرتضيها الله تعالى للإنسان في تصرفاته كلها:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[5]، وقال: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾[6]، وقال: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[7]، وقال: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾[8].

ب ـ الماء:

١٤. الماء حق للجميع:

قال الله تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨﴾[9]، وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله

---

(١) رواه أحمد، ح٢٦٢٠٧.
(٢) سورة لقمان: ١٩.
(٣) سورة الأعراف: ٥٥.
(٤) سورة الإسراء: ١١٠.
(٥) سورة النحل: ٩٠.
(٦) سورة القصص: ٧٧.
(٧) سورة الحجرات: ٩.
(٨) سورة المائدة: ٨.
(٩) سورة القمر: ٢٨.

وصحبه وسلم: «المسلمون شركاء في ثلاث في الكلأ والماء والنار»[1].

١٥. يجب بذل الفضل من الماء للزراعة:

وفي هذا الحق لعموم من يحتاج إلى الماء وهو فاضل عن حاجته يقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «لا تمنعوا فضل الماء لتمنعوا به فضل الكلأ»[2]، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بين أهل المدينة أن لا يمنع فضل ماء ليمنع فضل الكلأ[3].

١٦. الكفر والمعاصي أسباب لشح المياه والثروات:

لقد نصح نوح عليه السلام قومه بالاستغفار من الذنوب والمعاصي عندما أصابهم الجدب والقحط لينزل الله عليهم المطر فقال الله تعالى حاكياً قوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[4].

١٧. الكفر والمعاصي أسباب لغور المياه من الآبار والعيون:

وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم مخاطباً الكافرين ومبيناً قدرته على أن تغور المياه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[5].

١٨. المحافظة على الماء من التلوث:

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[6]، وقال

---

(١) رواه أبو داود، كتاب البيوع، ح٣٠١٦، ورواه ابن ماجه، كتاب الأحكام، ح٢٤٦٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب المساقاة، ح٢١٨٣.

(٣) رواه أحمد، ح٢١٧١٤.

(٤) سورة نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٥) سورة الملك: ٣٠.

(٦) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، ح٢٤، وابن ماجه، كتاب الطهارة، ح٣٢٣.

أيضاً: «لا يبولنّ أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه»[1].

١٩. الترشيد في استخدام الماء:

روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم مرّ بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف!»، فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نعم، وإن كنت على نهر جار»[2]. وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم مثالاً للترشيد في استهلاك الماء حتى في أمور العبادة إذ كان يغتسل بصاع إلى خمسة أمداد[3]، ويتوضأ بالمد كما يخبر بذلك خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه[4].

ج ـ الأرض:

٢٠. الاستمرار في زراعة الأرض حتى نهاية الحياة:

يقول الرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[5].

٢١. وجوب الزكاة على ما تنتجه الأرض من المزروعات والمغروسات:

قال الله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، ح٢٣٢.

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب طهارة وسننها، ح٤١٩، ورواه أحمد، ح٦٧٦٨.

(٣) المد ربع صاع.

(٤) رواه البخاري، كتاب الوضوء، ح١٩٤، ورواه مسلم، كتاب الحيض، ٤٩٠.

(٥) رواه أحمد، ح١٢٥١٢.

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾[1]

٢٢. إصلاح الأرض يبارك لصاحبها:

والبركة أن ييسر الله للأرض ما ينفعها ويزيد من إنتاجها، فعن عبد الله بن مَسعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلا بَينَا هُوَ يَسقِي زَرعًا لَهُ إِذ رَأَى غَيَابَةً تَرَّهيَا[2] فَسَمِعَ فِيهَا صَوتًا: أَنِ اسق أَرضَ فُلانٍ، فَاتَّبِعَ الصَّوتَ حَتَّى انتَهَى إِلَى الأَرض الَّتِي سُمِّيَت، فَسَأَلَ صَاحِبَهَا مَا عَمَلُكَ فِيهَا؟ قَالَ: إِنِّي أُعِيدُ فِيهَا ثُلُثاً، وَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثٍ، وَأَحبِسُ لأَهلِي ثُلُثاً[3]، وفي رواية قال: بينما رجل ممن كان قبلكم قائم في أرضه يسقيها، إذ ارتفعت أو مرت عليه عنانة تَرَهْيَأ، فقال: هذه تسقي أرضي، قال: فسمع فيها صوتاً: أن اسق أرض فلان، قال: فخرج يمشي في ظلالها، حتى انتهى إلى رجل وهو قائم في أرض له يسرب الماء فيها، قال: فلما بلغتها السحابة تفقأت فيها، فقال له: يا عبد الله، كيف تصنع في أرضك هذه؟ قال: «إذا حصدت زرعها قسمته ثلاثة أثلاث، فجعلت ثلثاً لعيالي، وثلثاً أرده في الأرض، وتصدقت بثلث. قال: قال مسروق، فكان عبد الله يبعثني إلى أرضه بزبارا ـ وقال الآخر بالسالحين ـ فأصنع مثل ذلك كل عام[4].

د ـ الحيوان:

٢٣. كل حيوان أمة من الأمم:

جعل الله كل نوع من أنواع الحيوان أمة من الأمم، وكل نوع من

---

(١) سورة الأنعام: ١٤١.

(٢) سحابة تتهيأ لإنزال مطرها.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، ح٢٤، وابن ماجه، كتاب الطهارة، ح٣٢٣.
رواه البخاري، كتاب الوضوء، ح٢٣٢.
رواه ابن ماجه، كتاب طهارة وسننها، ح٤١٩، ورواه أحمد، ح٦٧٦٨.
المعجم الكبير للطبراني ٢٢٧/٨.

(٤) الخراج ليحيى بن آدم، ٢٢١/١، ومصنف عبد الرزاق، ومجمع الزوائد.

أنواع الحيوان يؤدي مهمته في الحياة، فيجب على الإنسان أن يمكّن هذا الحيوان من أداء مهمته التي خلقه الله لها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح»[١]، وفي رواية: «فهلا نملة واحدة!»[٢].

٢٤. الإحسان إلى الحيوان إذا كان في سلطة الإنسان:

فقد صلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة الكسوف فقال: «دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم، فإذا امرأة تخدشها هرة، قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعاً»[٣]، وفي رواية قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار»، فقال، والله أعلم: «لا أنتِ أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا أنتِ أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض»[٤].

٢٥. يجب إنقاذ الحيوان إذا كان في محنة:

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «إن رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعل يغرف له به حتى أرواه، فشكر الله له فأدخله الجنة»[٥].

٢٦. استخدام الحيوان على النحو الذي سخره الله له:

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة». قيل: يا رسول الله، فما حقها؟ قال: «حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، ح٢٧٩٦ ورواه مسلم، كتاب السلام، ح٤١٥٧.

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، ح٣٠٧٢ ورواه مسلم، كتاب السلام، ح٤١٥٨.

(٣) رواه البخاري، باب فضل سقي الماء.

(٤) رواه البخاري، باب فضل سقي الماء.

(٥) رواه البخاري، كتاب الوضوء، ح١٦٨.

رأسها فيرمى بها»[1]، وقال: «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب، إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة»[2].

٢٧. حرمة قتل الحيوان النافع:

فقد (نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم عن قتل أربع من الدواب، النملة والنحلة والهدهد والصرد (نوع من الطيور)[3]، والضفدع)[4].

٢٨. جواز قتل الحيوان المؤذي:

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم؛ الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحديا»[5].

٢٩. يجوز أكل بعض أنواع الحيوانات إذا ذكيت:

قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[6]، وبهيمة الأنعام هي: الإبل والبقر والضأن والمعز، وحرّم الخنزير وكل ما له ناب يعدو به من الدواب، وحرّم من الطير كل ما له مخلب. كما حرّم ما لم يتم تذكيته على الطريقة الشرعية بقطع الحلقوم والمريء والودجين فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[7]، وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾[8].

---

(١) رواه النسائي، كتاب الضحايا، ح٤٣٦٩.
(٢) رواه النسائي، كتاب الضحايا، ح٤٣٧٠.
(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، ح٤٥٨٣.
(٤) في رواية ابن ماجه، ح٣٢١٤.
(٥) رواه مسلم، كتاب الحج، ح٢٠٦٩، والحديا: الحدأة.
(٦) سورة المائدة: ١.
(٧) سورة المائدة: ٣.
(٨) سورة المائدة: ٩٦.

٣٠. حرمة التمثيل بالحيوان وحرمة تعذيبه:

قال الله تعالى حاكياً إضلالات الشيطان لإبعاد عباد الله عن العمل بشرع الله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً»[٢]، كما لعن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً»[٣].

٣١. معصية أمر الله يذهب بركة الحيوان ويقلل وجوده:

وقد ضرب الله لذلك مثلاً عن جماعة من بني إسرائيل فقال تعالى عنهم: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[٤]، فقد أذهب الله عنهم بركة صيد السمك بفسقهم.

٣٢. جواز استخدام بعض الحيوانات للدفاع والكر والفر:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٥].

٣٣. قد يرحم الله الإنسان بسبب الحيوان:

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا»[٦].

---

(١) سورة النساء: ١١٩، والبتك: القطع.
(٢)(٣) رواهما مسلم، كتاب الصيد والذبائح، ح٣٦١٧، ٣٦١٩.
(٤) سورة الأعراف: ١٦٣.
(٥) سورة الأنفال: ٦٠.
(٦) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، ح٤٠٠٩.

٣٤. يغفر للإنسان إذا رحم الحيوان:

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: (أَنَّ رَجُلاً رَأَى كَلباً يَأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ فَجَعَلَ يَغرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَروَاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَأَدخَلَهُ الجَنَّةَ)[1].

❋ ❋ ❋

(١) صحيح البخاري، ٣١٥/١.

الجهود العالمية لمكافحة الأخطار التي تهدد البيئة

الإحساس بالمخاطر التي تهدد البيئة بدأت بصورة فردية من قبل بعض الفلاسفة والحكماء والعلماء في الحضارات القديمة، ولكن القرن التاسع عشر والعشرين شهدا اهتماماً أكبر بهذه المشكلة وقامت الدول وبلديات المدن الكبيرة بوضع التشريعات لمكافحة تلك الأخطار[١].

غير أن تزايد المخاطر وتهديدها للبيئة على مستوى عالٍ وعالمي جعل الاهتمام بها يرتفع من مستوى الأفراد إلى مستوى المؤسسات والمنظمات الإقليمية والدولية.

ومن الجهود الدولية لمكافحة الأخطار التي تهدد البيئة دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة لعقد مؤتمر عالمي لبحث مشاكل البيئة على مستوى العالم في صيف عام ١٩٧٢م في مدينة ستوكهولم.

وبموجب توصيات هذا المؤتمر اتخذت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٢م قرارها رقم ٢٩٩٧ القاضي بتأسيس برنامج الأمم المتحدة للبيئة (يونيب)[٢].

كما عقد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية في ريو دي جانيرو بالبرازيل في حزيران/يونيو ١٩٩٢م سمي (قمة الأرض) وتبنت الدول المشاركة فيه ثلاث وثائق رئيسية هي[٣]:

أ ـ جدول أعمال القرن ٢١:

وهو برنامج عمل دولي شامل لجميع حقول التنمية المستديمة، ويركز على الإجراءات الضرورية لاستئصال الفقر والجوع، وتغيير

---

(١) انظر جذور الحركة البيئية في الجمهور والبيئة: ٣ ـ ٦.

(٢) نشرة الأمم المتحدة والبيئة: ٥.

(٣) نشرة الأمم المتحدة والبيئة: ٨.

الأنماط الاستهلاكية الهدرية والمدمرة، وفهم أفضل للطاقة السكانية مع إشراك الناس في التخطيط والسياسة العامة وصنع القرار، ويدعو للتركيز على الرعاية الصحية الأولية ومكافحة الأمراض المعدية وتقليص أخطار التلوث على الصحة، وحماية الجماعات الضعيفة كالأطفال والنساء والمسنين مع دعوة خاصة لتعبئة جهود جميع الدول للوقاية من مرض الإيدز (العوز المناعي المكتسب).

ب ـ إعلان الريو:

يضم مجموعة مبادئ تحدد حقوق الدول وواجباتها فيما يتعلق بالبيئة والتنمية.

ج ـ مجموعة مبادئ تشكل أساس إدارة مستديمة للغابات في العالم أجمع:

إن من أهم المبادئ القانونية غير الملزمة التي احتوتها وثيقة (إعلان الريو) التي تشتمل على سبعة وعشرين (٢٧) مبدأ ما يلي[١]:

١ ـ الجنس البشري هو من صميم اهتمامات التنمية المستديمة، وله الحق في حياة صحية ومنتجة بانسجام مع الطبيعة.

٢ ـ حق الدول السيادي في استغلال مواردها، وهي مسؤولة عن ضمان عدم الإضرار ببيئة الدول الأخرى.

٣ ـ الالتزام بشكل منصف بالحاجات الإنمائية والبيئية للأجيال الحالية والمقبلة.

٤ ـ تعاون الدول والشعوب على استئصال شأفة الفقر كشرط لا غنى عنهُ للتنمية المستديمة.

٥ ـ العمل على تخفيف أنماط الإنتاج والاستهلاك التي تضر بالبيئة.

* * *

(١) نشرة الأمم المتحدة والبيئة: ٩.

الموقف من الاتفاقيات الدولية
الضابطة لقضايا البيئة على المستوى العالمي

الأصل أن الاتفاقيات الدولية الضابطة لقضايا البيئة على المستوى العالمي تسعى لما فيه خير الإنسان وخير الدول الغنية والفقيرة، وفي هذه الحال فإن الشريعة الإسلامية تتفق معها بل وتؤيدها. ومن القواعد الضابطة لمسؤولية الإنسان عن عناصر البيئة التي مرّ بيانها يتبين لنا حرص الإسلام على ما فيه خير الإنسان وخير جميع عناصر البيئة.

لكن هذه الاتفاقيات لا يطبقها الدول الكبيرة التي تضر بالبيئة العالمية فضلاً عن البيئة المحلية، وذلك مثل امتناع الولايات المتحدة الأمريكية عن التوقيع على اتفاقيات تقليل مقدار الانبعاث الحراري لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال، وتضرب بعرض الحائط مصالح البيئة التي تعيش فيها ومصالح البيئة العالمية.

❋ ❋ ❋

الخاتمة

يتبين مما سبق أن البيئة كانت من اهتمام الشريعة الإسلامية وقد شرّعت للمسلمين ما عملوا به في حضارتهم قبل أن ينتبه العالم الحديث للمشاكل البيئية التي أحاطت بهم حتى دقوا ناقوس الخطر وبدؤوا يعملون على تلافي هذه الأخطار.

غير أن الاتفاقيات الدولية لن تستطيع تحقيق مصالح البيئة العالمية ما لم يكن الإنسان مقتنعاً بحقوق الآخرين والأجيال القادمة في البيئة النظيفة وفي الثروات الطبيعية التي وهبها الله للإنسان على هذه الأرض، وأسهل طريق هو غرس الإيمان في قلوب العباد ليشعروا بمراقبة الله تعالى لهم ويكونون رقباء على أنفسهم قبل أن يستشعروا رقابة القوانين والاتفاقيات المحلية والإقليمية والدولية.

❋ ❋ ❋

مشروع قرار حول
البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي

(بعد المقدمة):

١ ـ البيئة هي الأرض وما تضمه من مكونات غير حية ممثلة في مظاهر سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان، وصخور ومعادن وتربة وموارد مياه، ومكونات حية ممثلة في النباتات والحيوانات البرية النشأة سواء كانت على اليابسة أو في الماء، وما يحيط بالأرض من غلاف غازي يضم الكثير من العناصر الأساسية اللازمة لوجود الحياة على سطح الأرض.

٢ ـ خلق الله تعالى البيئة متكاملة بعناصرها المختلفة، يؤدي كل عنصر وظيفته لغيره حتى تتكامل عناصر البيئة في خدمة الإنسان الذي سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ليستطيع أن يعيش على هذه الأرض مؤدياً لمهمة من مهامه التي خلقه الله لها وهي عمارة الأرض.

٣ ـ يحكم النظام البيئي القاعدة الربانية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[1]، وأيّ اختلال في عنصر من عناصر النظام البيئي يؤدي إلى اختلال متعاقب في العناصر التالية له في المنزلة ويؤدي إلى إضرار مادي بالإنسان ومستقبل الأجيال التالية.

٤ ـ أهم ما يميز البيئة الطبيعية كما خلقها الله تعالى التوازن الدقيق القائم بين عناصرها المختلفة.

---

(١) سورة القمر: ٤٩.

٥ ـ وأهم المخاطر التي تهدد البيئة تتمثل في تلوث الهواء، والاحتباس الحراري، وتلوث مياه الآبار والعيون والأنهار والبحيرات والخلجان والبحار والمحيطات، والمخلفات الصلبة والسائلة، وتدهور الأرض وتصحرها، وخسارة التنوع البيولوجي، واستنزاف الثروات الطبيعية، والنفايات الخطرة والكيميائية السامة، والنفايات المشعة، وخطر الضجيج والضوضاء، وكل ذلك يمثل خطراً على حياة الإنسان بل على النوع الإنساني.

٦ ـ وقد ربى الإسلام متبعيه على قيم ومبادئ وقواعد لتحكم تصرفاتهم في الأرض والكون كله. ومن أهم هذه القيم والمبادئ والقواعد أن الكون كله مخلوق لله تعالى، وأن الإنسان مستخلف في الأرض من الله تعالى، وأن جميع ما في الكون مسخر لمنافع الإنسان، وأن الاستمتاع بما في الأرض من منافع عام لجميع من يحتاج إليها من مخلوقات الله تعالى على الأرض، وأن الله خلق كل شيء في الأرض بمقدار حاجة المخلوقات فيها، ووجوب المحافظة على الإنسان والبيئة، وتحريم تخريب العمران والإفساد في الأرض بكل أنواعه، وأن الكفر بالله تعالى وارتكاب المعاصي يؤثر على البيئة، وأن عدم تطبيق أحكام الله تعالى يؤثر على البيئة.

٧ ـ إنّ الشريعة الإسلامية قد وضعت ضوابط لمسؤولية الإنسان عن البيئة، منها قواعد عامة، ومنها قواعد تتصل بكل عنصر من عناصر البيئة، وهذه القواعد عند تطبيقها من الفرد والجماعة والدول كفيلة بتحقيق الاستقرار البيئي للإنسان والتنمية البيئة المستدامة له ولغيره من الكائنات الحية.

٨ ـ تؤيد الشريعة الإسلامية كل الاتفاقيات الضابطة لقضايا البيئة على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي التي تسعى إلى ما فيه خير الإنسان وخير الدول الغنية والفقيرة على السواء، ولا تجيز الاتفاقيات التي تفرض على الضعفاء والفقراء لمصلحة الأقوياء والأغنياء.

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ إنقاذ كوكبنا: التحديات والآمال (حالة البيئة في العالم ١٩٧٢ ـ ١٩٩٢)، مصطفى كمال طلبة، مركز دراسات الوحدة العربية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، بيروت، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢م.

٣ ـ البيئة من منظور إسلامي، ا. د/زين الدين عبد المقصود غنيمي، جامعة الكويت ومجلس حماية البيئة، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٤ ـ تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٣٠ج، ط. الأولى، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٥ ـ تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير)، محمد بن عمر القرشي الطبرستاني الرازي، ٣٢ج، ط. الثانية، دار الكتب العلمية ـ طهران.

٦ ـ تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ٣٠ج، ط. الثالثة، دار الفكر ـ بيروت، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٧ ـ التلوث مشكلة العصر، د/أحمد مدحت إسلام، عالم المعرفة ١٥٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٨ ـ الجمهور والبيئة، حالة البيئة ١٩٨٨/ برنامج الأمم المتحدة للبيئة.

٩ ـ سنن أبي داود، (حسب القرص المدمج لشركة حرف لبرنامج: موسوعة الحديث الشريف، الإصدار الثاني).

١٠ ـ سنن ابن ماجه، (حسب القرص المدمج لشركة حرف لبرنامج: موسوعة الحديث الشريف، الإصدار الثاني).

١١ ـ سنن النسائي.

١٢ ـ شعب الإيمان، للبيهقي.

١٣ ـ صحيح البخاري، (حسب القرص المدمج لشركة حرف لبرنامج: موسوعة الحديث الشريف، الإصدار الثاني).

١٤ ـ صحيح مسلم، (حسب القرص المدمج لشركة حرف لبرنامج: موسوعة الحديث الشريف، الإصدار الثاني).

١٥ ـ الفلسفة البيئية وأخلاقيات البيئة من منظور إسلامي، ا. د/كمال الدين البتاتوني، المؤتمر الدولي الأول للفلسفة الإسلامية (الفلسفة الإسلامية

والتحديات المعاصرة) ٢٠ ـ ٢٢ أبريل ١٩٩٦م، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، قسم الفلسفة الإسلامية.
١٦ ـ لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، ١٥ج، دار صادر، بيروت.
١٧ ـ المدخل إلى العلوم البيئية، د. سامح غرايبة ود. يحيى الفرحان، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن.
١٨ ـ مسند الإمام أحمد، (حسب القرص المدمج لشركة حرف لبرنامج: موسوعة الحديث الشريف، الإصدار الثاني).
١٩ ـ المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
٢٠ ـ ملوثات البيئة: أضرارها، مصادرها، وطرق مكافحتها، د. محمد بن إبراهيم الحسن ود. إبراهيم بن صالح المعتاز، ط. الأولى، مكتبة الخريجي، الرياض، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٩م.
٢١ ـ المنجد في اللغة والإعلام.
٢٢ ـ نشرة الأمم المتحدة والبيئة، الذكرى الخمسون لإنشاء الأمم المتحدة، برنامج الأمم المتحدة للبيئة، المكتب الإقليمي لغرب آسيا ـ البحرين.

المصادر الإلكترونية

٢٣ ـ جمعية الحياة البرية في فلسطين، http://www.wildilife-pal.org/Environment.htm .
٢٤ ـ http://ww.feedo.net/invironment/pollution/Definition of pollution.htm .

❋ ❋ ❋

البيئة والحفاظ عليها
من منظور إسلامي

إعداد
الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد
مفتي جمهورية مصر العربية، وعضو المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة، الصادق البرق، والحائز في ميدان اصطفاء الرحمٰن قصب السبق، خاتم الأنبياء، ونبي الهدى، الذي طهر قلبه وغفر ذنبه وختم به الرسالة رَبُّهُ، خير من وطئ الثرى، من لو حازت الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقاً، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقاً، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن موضوع هذا البحث لم يقتصر على المفهوم الشائع عن البيئة، والذي حددها بأنها كل ما يحيط بالإنسان من مخلوقات ومظاهر طبيعية، ولكنه ينظر للبيئة على أنها الإنسان وكل ما يحيط به؛ وذلك لأنه ليس ثمة سبب منطقي يُخرِجُ الإنسان عن كونه جزءاً من البيئة، وهو أهم جزء فيها، وصلاحها مرتبط بصلاحه، وفساده وعدم المحافظة عليه من الناحية النفسية والعقلية والجسدية بتنمية قدراته يعد أكبر فساد في البيئة.

والخلافة والأمانة التي هي وظيفة الإنسان في الأرض تعني الاعتناء والرعاية بالإنسان أولاً، ثم بغيره من الكائنات، وذلك لا يكون إلا بهدايته إلى المنهج السوي في إعمار الكون وفهم مراد الحق سبحانه وتعالى من الوجود.

والخلافة في الأرض بالمفهوم الإسلامي تعني تحمل الإنسان لمسؤولية إعمار الكون والمحافظة على البيئة، وذلك في مقابل ما ينعم به الإنسان من تسخير الكون في خدمته وسعادته.

والتسخير هو انتفاع الإنسان بصفته الإنسانية بخيرات الكون وطيباته، ولذلك فلا يحق لإنسان ـ تبعاً للمنهج الإسلامي ـ أن يستأثر

بهذا النفع دون غيره على المستوى الزماني أو المكاني.

فقد نَصَّبَ الله الإنسان حارساً وخليفة في الكون وجعله مهيمناً على ما فيه من منافع وتسخيرات حتى يظل سيداً وخليفة فلا يُحتَكَمُ عليه من غير جنسه، وهي مسؤولية يحاسب عليها في الآخرة ويجازى بمقتضى فعله فيها إن خيراً وصلاحاً فخير وإن شراً وفساداً فشر.

وإعمار الكون والمحافظة على البيئة عملية تقوم على بعدين:

البعد الأول: يتعلق بالتصورات العقائدية التي ترسم العلاقات بين الإنسان والكون والإله.

والبعد الثاني يتعلق بالتصورات الفقهية والتي تصدر عنها الأحكام الشرعية والتي تنظم العلاقات بين الإنسان والكون وبين الإنسان والخالق.

ويهدف البحث إلى توضيح ما جاء في الإسلام من تصورات عقائدية وأحكام فقهية جعلت الإنسان مطالباً وقادراً ومدفوعاً إلى المحافظة على بيئته الإنسانية، والمشاركة والتعاون على عدم الإفساد فيها، وتوضيح أن الشرع الإسلامي لم يقف عند حدود المحافظة بل تعداها إلى التنمية والإصلاح وغير ذلك؛ لأن الإسلام حض على العمل والتفكر والبحث عن أسرار الكون استدلالاً على الوجود الإلهي ووصولاً إلى المحبة.

فالتصور الذي رسمه الإسلام للسماء والأرض والجماد والنبات والحيوان كان أدعى إلى حصول الاهتمام والرعاية من الإنسان لبقية المخلوقات، بل والرفق والرحمة والمحبة؛ لأن المسلم بحبه لله تَحصُلُ في قلبه المحبةُ لكل ما خلق الله وأبدع.

ويوضح البحث ما جاء في النصوص الشرعية من ثنائيات ترسم التصور الإسلامي للوجود، مثل الخلافة والتسخير، والحق والواجب، والمنهج والبناء، والمحافظة والمحبة، والمنفعة والجمال.

أما أولاً: الخلافة والتسخير:

الخلافة تعني المسؤولية عن الكون برعايته والمحافظة عليه، والتسخير يعني الاستفادة منه والاستمتاع به، وكلاهما يقتضي المشاركة والتعاون. والمسؤولية تقع على الناس جميعا كما أن الانتفاع حق مكفول للجميع ومشترك بين الناس بصفتهم الإنسانية، لم يجعله الله حقا لقوم أو فئة دون غيرها.

فالمؤمن يعتقد أنه عبد مخلوق لله مثل بقية المخلوقات، سواء منهم الإنس أو الجن أو الجماد أو الحيوان؛ وقد جعله الله أميناً ووكيلاً يحافظ على الكون ولا يستأثر به ولا يطغى بالسيطرة عليه؛ لأنه حق جعله الله شركاً بين الأحياء جميعاً، فلا يحق له أن يحرم منه حتى الحيوان.

فإن الله خلق الإنسان في هذا الكون وحيداً عاجزاً عن إيجاد الأشياء التي تضمن له البقاء في الحياة، فيسر الله له رزقه وسخر له الأرض والسماء والشمس والسحاب وغيرها حتى توفر له الماء العذب والهواء النقي والطعام الشهي؛ وذلك لأنه سبحانه لم يرد من الإنسان أن يأتيه قهراً تحت وطأة الحاجة والعوز للطعام أو الشراب أو غير ذلك، وإنما أراده أن يختار الإيمان طوعاً ويصل إلى اليقين بوجوده وحكمته عن طريق التفكر والتأمل في قدرته على الخلق والإبداع.

وأما ثانياً: الحق والواجب:

فالحق هو الحق المشترك بين الناس في الاستمتاع والانتفاع بعطاء الله ورزقه الذي لم يجعل أحداً كفيلاً على آخر في الوصول إليه، والواجب هو واجب الرعاية والمحافظة على الكون والوجود؛ لأن هذا هو مقتضى الخلافة والأمانة التي تحملها الإنسان.

والشرع الإسلامي ارتقى بالحقوق وقدس مكانتها حتى غدت واجبات على الفرد والجماعة، وأدخل حقوق الإنسان ضمن حقوق الأكوان، فهي دائرة أعم وأشمل، ومعنى ذلك أن الشرع إذ أعطى

الإنسان حق المعتقد مثلاً فقد أوجب عليه حفظ الدين بإقامة الشعائر والعبادات وإحسان التعبير والدعوة إليه، وعليه أيضاً أن يطالب بهذا الحق بل ويجاهد دونه ولا يتنازل عنه، لا في حقه فقط بل وفي حق غيره، بمعنى أن يطالب المسلم المجتمع الإسلامي وغيره أن يكفل للإنسان حق المعتقد وحق التعبير عنه بحرية ودون قهر أو إكراه، وهكذا فهي دائرة واحدة الحقوق والواجبات فيها وجهان لعملة واحدة.

فحينما أوجب الشرع على المسلم حفظ الأعراض منحه حقاً على المجتمع كله أن يحفظ عليه عرضه وشرفه وكرامته من أي اعتداء يصيبه، ويبذل المجتمع وسعه في حمايته والمحافظة عليه من أي امتهان مهما كلفهم الأمر، فحماية عرض الأفراد حق لهم واجب على مجتمعهم الإسلامي، ومثل ذلك أموال الفرد، فهي مودعة في ضمان الجماعة وحمايتها.

والشرع الإسلامي لم يجعل للإنسان حقاً في إهدار بنيانه، بل أوجب عليه احترامه ورعاية حقوقه، وأوجب عليه احترام كرامته وصيانتها من الدنس، وأوجب عليه العمل لئلا يضطر إلى اللجوء إلى الخلق بمذلة أو مهانة.

ومن نفس المنطق تعاملت الشريعة الإسلامية مع العلاقة بين الإنسان والبيئة، فكما أوجبت عليه المحافظة والمشاركة والرحمة والرفق جعلت له حقاً يُطَالِبُ به وهو أن يعيش في بيئة نظيفة جميلة، يشعر فيها بالحرية والكرامة.

وقد كان المحتسب في الدولة الإسلامية يقوم بدور كبير في المطالبة بحقوق الأفراد في التنعم ببيئة نظيفة وخدمات راقية، وكذلك في إلزامهم الإحسان والإتقان في العمل. وإنه لأمر يدعو للانبهار بالمستوى المتحضر الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية.

فقد كان المحتسب على سبيل المثال يطالب الخباز بأن يَكُونَ مُلَثَّماً؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا عَطَسَ أَو تَكَلَّمَ، فَقَطَرَ شَيءٌ مِن بُصَاقِهِ أَو مُخَاطِهِ فِي العَجِينِ، وَيَشُدُّ عَلَى جَبِينِهِ عِصَابَةً بَيضَاءَ، لِئَلاَّ يَعرَقَ فَيَقطُرُ مِنهُ شَيءٌ فِي

العَجِينِ وَيَحلِقُ شَعرَ ذِرَاعَيهِ لِئَلاَّ يَسقُطَ مِنهُ شَيءٌ فِي العَجِينِ، وَإِذَا عَجَنَ فِي النَّهَارِ فَليَكُن عِندَهُ إنسان فِي يَدِهِ مَذَبَّةٌ يَطرُدُ عَنهُ الذُّبَابَ[1].

وكان يضع شروطاً لممارسة الطب، ويشرف على تحققها فيمن يزاول المهنة، فَالطَّبِيبُ هُوَ العَارِفُ بِتَركِيبِ البَدَنِ، وَمِزَاجِ الأَعضَاءِ، وَالأَمرَاضِ الحَادِثَةِ فِيهَا، وَأَسبَابِهَا وَأَعرَاضِهَا وَعَلاَمَاتِهَا، وَالأَدوِيَةِ النَّافِعَةِ فِيهَا، وَالاعتِيَاضِ عَمَّا لَم يُوجَد مِنهَا، وَالوَجهِ فِي استِخرَاجِهَا، وَطَرِيقِ مُدَاوَاتِهَا، لِيُسَاوِيَ بَينَ الأَمرَاضِ وَالأَدوِيَةِ فِي كَمِّيَّاتِهَا، وَيُخَالِفَ بَينَهَا وَبَينَ كَيفِيَّاتِهَا.

فَمَن لَم يَكُن كَذَلِكَ فَلاَ يَحِلُّ لَهُ مُدَاوَاةُ المَرضَى، وَلاَ يَجُوزُ لَهُ الإقدَامُ عَلَى عِلاَجٍ يُخَاطِرُ فِيهِ، وَلاَ يَتَعَرَّضُ إلَى مَا لَم يُحكِم عِلمَهُ مِن جَمِيعِ مَا ذَكَرنَاهُ[2].

وقد أحاطت الشريعة أمر المحافظة على البيئة بتشريعات كثيرة ضمنت ارتباط إعمار الكون وتنميته بالإطار العام للدين، وإن مقررات الشريعة الإسلامية لتستهدف دائماً صلاح الفرد والجماعة في غير عسر ودونما حرج.

ولذلك شَرَعَت العقوبات المقررة على الأفراد، وفَرَضَت عليهم جهاد المعتدين المفسدين قاصدة عمارة الأرض هادفة المحافظة عليها ومنع الفساد فيها أو العبث بحياة المخلوقات عليها. والفساد في الأرض له صور متعددة فهو يشمل الظلم والقتل والجحود والتخريب، ويجب على المسلم الامتناع عن كل أشكال الفساد وصوره.

وأما ثالثاً: المنهج والبناء:

إن الشرع الإسلامي جعل إعمار الكون أمراً واجباً وضرورياً على الإنسان ديناً ودنيا، وهذا الإعمار عام يشمل كل الوجود والمخلوقات،

---

(١) عبد الرحمٰن الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص٢٢، تحقيق د/السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٧.

ولم يفرض الشرع على الإنسان أسلوبا أو كيفية محددة يتبعها في عملية التنمية والإعمار، بل وسع عليه في ذلك، وطلب منه الاجتهاد في تحصيل كل طريق يحقق له المصلحة والسعادة في حياته، ورسم له منهاجاً عاماً وضع فيه منارات تهديه وترشده إلى المصالح الحقيقية التي تصل به إلى السعادة، وذلك ببيانه المقاصد والأهداف من وراء إعمار البيئة من حولنا، مما جعل خطوات الإنسان في بنائه إيجابية في جوهرها لا هدامة أو مُطَفِّفَة، وجعلها لا تُخِلُّ بالعلاقات المُقَدَّرَةِ المحكمةِ بين عناصر الوجود.

وإعمار الأرض الذي كُلِّفَ الإنسان به يقوم على شقين: المنهج، والبناء. والإهمال لأي من الشقين يعتبر إفساداً، فإهمال البناء والتنمية يعد خللاً في القيام بوظيفة الخلافة، وكذلك إهمال تحصيل المنهج السوي القائم على الالتزام الخلقي والفضيلة يُفَوِّتُ الفرصةَ في جَعلِ البناء حضارياً يُحَقِّقُ للإنسان السعادة.

فطغيان الجانب المادي جعل الإنسان لا يبالي بإفساد الأرض بالنفايات الذرية والنووية والإشعاعية وغيرها، والتي تتخلف عن عملية إنتاج الطاقة، تحت تأثير التلهف إلى حصول المصلحة المباشرة السريعة، ففقدت الأرض كثيراً من صلاحيتها للعمارة والعطاء.

ولم يكتف القائمون على الفلسفة المادية بالإعراض عن المنهج السوي القائم على الفضيلة والقيم بل راح يفسد في هذا المنهج ويلوثه بما يبثه من ثقافة الجنس والعري والعنف، أو يدعو إليه من اعتقاد في الإلحاد والخرافات.

وأما رابعاً: المحافظة والمحبة:

إن الإسلام تعامل مع الطبيعة والكون من منطلق الحب والاحترام، وهو مستوى رفيع يزيد على مستوى المحافظة والتنمية، فالإسلام وَجَّهَ الإنسان إلى إنشاء علاقة بينه وبين الجماد فيها مشاركة وحنين وشوق، فالكون في المنظور الإسلامي طائع لله يسبح ويسجد، يحب الطائعين

ويبكي رحيلهم عن الدنيا، ويبغض العاصين الكافرين ولا يبالي بزوالهم وهلاكهم؛ وذلك لأن الطائعين متناغمون متشاركون معه في أداء السجود والتسبيح، أما الآخرون فهم معاندون متنافرون مع كل ما يحيط بهم.

ونحن نرى الرسول ﷺ حينما خرج من مكة للهجرة عَبَّرَ عن حبه وتعلقه بالأرض التي نشأ فيها وتربى، حيث قال وَاقِفًا عَلَى الحَزوَرَةِ: «وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيرُ أَرضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَولاَ أَنِّي أُخرِجتُ مِنكِ مَا خَرَجتُ»[1].

فالنبي ﷺ أحب الأرض (الجماد) لفضلها وكرامتها عند الله وعنده، حيث شَرُفَت بأن كان فيها أول بيت وضع للناس، ولكن الرسول في ذات الحين أبغض الإنسان لفعله الجحود والكفر والجهل والفساد والإعراض.

وقد حن الجذع لرسول الله ﷺ حبًّا، وأنَّ أنين العشار فسمع صوته من كان بالمسجد من الصحابة، فلم يُعرِض عنه النبيُّ بل جاوبه وتفاعل معه، فنزل وذهب إليه فالتزمه ومسح عليه حتى سكن.

وتلك رؤية تميز بها الإسلام فقدم رؤية متكاملة للكون تدعو الإنسان إلى المحافظة عليه وحسن الانتفاع بما فيه من موارد.

❋ ❋ ❋

(١) الترمذي (كتاب المناقب ـ باب فِي فَضلِ مَكَّةَ).

علاقة الكون بخالقه

١ ـ الكون كله يسبح لله عز وجل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النور: آية ٤١].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: آية ٤٤].

وطالما أن الكون يسبح ربه ويحمد خالقه الحق فإن أي اعتداء عليه أو تصرف فيه بغير حق يعد عبثاً وطغياناً يؤدي حتماً إلى الفساد، وينبغي أن يُجَرَّمَ صاحبه؛ لأن أي اعتداء على الكون يعد اعتداء على حق الإنسان في الحياة.

والمسلم بهذا التصور يحترم جميع المخلوقات أصغرها وأعظمها؛ لأنه يراعي فيها عظمة موجدها ومدبرها، وقدرة من تَعَبَّدَهَا بالتسبيح والسجود.

٢ ـ والكون يشارك الإنسان في الطاعة والتسبيح، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٧٩].

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة سبأ: آية ١٠].

فنبي الله داود عليه السلام الذي جعله الله خليفة في الأرض وآتاه الحكم والعلم ورزقه الحكمة وأمره أن يحكم بالحق فَحَكَمَ، كان جزاؤه أن سخر الله له الجماد والحيوان تسخيراً خاصاً، فكان إذا سبح داود أجابته الجبال، وكان عليه السلام إذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطاً واشتياقاً.

٣ ـ وقد خاطب الحق سبحانه وتعالى كثيراً من المخلوقات غير الإنسان: فأوحى إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [سورة النحل: آية ٦٨ ـ ٦٩].

وأمر الأرض والسماء، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [سورة هود: آية ٤٤].

وجعل للأرض والسماء اختياراً، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة فصلت: آية ١١].

وعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، وجعل لهم اختياراً، فرفضن تحمل الأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأحزاب: آية ٧٢].

وكل ذلك إنما يعكس احترام الكائنات في التصور الإسلامي على المستوى المادي والوجداني. ومن هذا المنطلق يتصرف المسلم مع الأرض والسماء وكل المخلوقات باحترام ورحمة، تدفعه أن يحافظ عليها ولا يهمل وجودها لا من الناحية المادية ولا من الناحية المعنوية.

❋ ❋ ❋

علاقة الإنسان بالكون

تقوم العلاقة بين الإنسان والكون على التوافق والانسجام، ومنذ هبط الإنسان إلى الأرض وقد ارتبط تطوره العقلي والحضاري بحسن توافقه وتكيفه مع البيئة والكون، وحسن استخدامه وانتفاعه بمفردات الحياة. فلا يحق له بأي حال الإساءة إليه، بل يجب عليه احترامه ورعايته.

والمسلم خاصة يتعامل مع مخلوقات الله من منطلق الشعور بالمساواة معها والمشاركة في العبودية لإله واحد، وترتبط علاقاته بغيره بمدى تعلقه والتفاته إلى ربه، فهو يتوجه بالحب إلى الله، ومن خلال ذلك الحب يتوجه بالحب إلى ما أبدع وصنع، ولذلك نراه يستوي عنده ضعف المخلوقات وقوتها، حقارتها وعظمتها؛ لأن نظره لا يتعلق بها بل يتعلق بخالقها القوي الحكيم. فالمسلم يقدس من عالم الأشياء المصحف والكعبة وقبر النبي محمد ﷺ ونحوها؛ لمكانتها عند الله عز وجل، وتقديسه لها يجمع بين الاحترام والحب.

١ ـ ولقد أعطى النبي ﷺ أصحابه درساً في حب الجماد والتفاعل معه ومجاوبته حينما حن إليه الجذع ومال، فَعَن جَابِرٍ: كَانَ المَسجِدُ مَسقُوفاً عَلَى جُذُوعٍ مِن نَخلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذعٍ مِنهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنبَرُ، وَكَانَ عَلَيهِ، فَسَمِعنَا لِذَلِكَ الجِذعِ صَوتاً كَصَوتِ العِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيهَا، فَسَكَنَ[1].

ومن الناس بل ومن المؤمنين من قلبه ونفسه أكثر قسوة من الجذع فلا تحن لرسول الله ولا تئن لفراقه كما فعل.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة).

٢ ـ وعندما مر النبي ﷺ على جبل أحد، وعلى الرغم من أنه كان موطناً أصاب المسلمين فيه قرح وأصاب النبيَّ جرح، واستشهد عليه عمه حمزة بن عبد المطلب فحزن النبي لذلك، إلا أنه أشار إليه وقال: هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ[١].

فالجبل أحب المسلمين، والمسلمون يحبون هذا الجبل، على الرغم من أن ما حدث في موقعة أحد كان أدعى أن يتشاءم المسلمون منه.

وفي موقف آخر مع جبل أحد نجد النبي ﷺ يغمزه برجله حينما اهتز من تحته، فعَن أَنَس بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ وَعُثمَانُ، فَرَجَفَ بِهِم، فَضَرَبَهُ بِرِجلِهِ قَالَ: «اثبُت أُحُدُ، فَمَا عَلَيكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَو صِدِّيقٌ أَو شَهِيدَانِ»[٢].

٣ ـ ولم يكن هذا الأمر من التفاعل مع الجماد في البيئة الإنسانية مقصوراً في حياة رسول الله ﷺ بعد بعثته، بل وقبلها فقد قال ﷺ: «إِنِّى لأَعرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبلَ أَن أُبعَثَ إِنِّى لأَعرِفُهُ الآنَ»[٣].

فالنبي يذكر أنه لم يتجاهل الحجر بعد البعثة، بل ظل يعرفه ويتعلق به، ليس إلا أنه مخلوق لله، أحبه وعظمه، وكان يسلم عليه قبل بعثته مبشراً له ومعلماً بما سَيُكَلَّفُ به النبي من تحمل الرسالة وأدائها.

٤ ـ ومثل ذلك أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ ﷺ حِينَ أَرَادَهُ اللَّهُ بِكَرَامَتِهِ وَابتَدَأَهُ بِالنُّبُوّةِ كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبعَدَ حَتّى تَحسّرَ عَنهُ البُيُوتُ وَيُفضِي إِلَى شِعَابِ مَكّةَ وَبُطُونِ أَودِيَتِهَا، فَلاَ يَمُرّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

---

(١) صحيح البخاري (كتاب المغازي ـ باب أُحُدٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ).

(٢) صحيح البخاري (كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه).

(٣) صحيح مسلم (كتاب الفضائل ـ باب فَضلِ نَسَبِ النَّبِىِّ ﷺ وَتَسلِيمِ الحَجَرِ عَلَيهِ قَبلَ النُّبُوَّةِ).

بِحَجَرٍ وَلاَ شَجَرٍ إلاّ قَالَ: السَّلاَمُ عَلَيك يَا رَسُولَ اللَّهِ[1].

٥ - وفي ليلة الجن التي خرج فيها النبي ﷺ مع عبد الله بن مسعود، فاجتمع نفر من الجن يستمعون القرآن ثم انصرفوا إلى قومهم منذرين، سئل ابن مسعود من أخبر رسول الله بحضورهم، فقال: آذَنَتهُ بِهِم شَجَرَة[2].

٦ - ولقد نبع الماء بين أصابعه الشريفة ﷺ وسبح الطعام بين يديه فسمعه أصحابه، فَعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعُودٍ قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنتُم تَعُدُّونَهَا تَخوِيفاً، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في سَفَرٍ، فَقَلَّ المَاءُ فَقَالَ: «اطلُبُوا فَضلَةً مِن مَاءٍ». فَجَاؤُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدخَلَ يَدَهُ في الإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، وَالبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ» فَلَقَد رَأَيتُ المَاءَ يَنبُعُ مِن بَينِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَد كُنَّا نَسمَعُ تَسبِيحَ الطَّعَامِ وَهوَ يُؤكَلُ[3].

٧ - والذراع المطهية تحدثت لرسول الله تحذره من السم الذي دسته اليهودية فيها، فَإِنَّ يَهُودِيَّةً مِن أَهلِ خَيبَرَ سَمَّت شَاةً مَصلِيَّةً ثُمَّ أَهدَتهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الذِّرَاعَ فَأَكَلَ مِنهَا وَأَكَلَ رَهطٌ مِن أَصحَابِهِ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ارفَعُوا أَيدِيَكُم». وَأَرسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى اليَهُودِيَّةِ فَدَعَاهَا فَقَالَ لَهَا: «أَسَمَمتِ هَذِهِ الشَّاةَ؟». قَالَتِ اليَهُودِيَّةُ: مَن أَخبَرَكَ؟ قَالَ: «أَخبَرَتنِي هَذِهِ في يَدِي». لِلذِّرَاعِ. قَالَت: نَعَم. قَالَ: «فَمَا أَرَدتِ إِلَى ذَلِكَ؟». قَالَت: قُلتُ: إِن كَانَ نَبِيًّا فَلَن يَضُرَّهُ، وَإِن لَم يَكُنِ استَرَحنَا مِنهُ. فَعَفَا عَنهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[4].

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة (باب مبتدأ البعث والتنزيل وما ظهر عند ذلك من تسليم الحجر والشجر وتصديق ورقة بن نوفل إياه)، ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٣٣، ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٥٧.

(٢) صحيح البخاري (كتاب مناقب الأنصار ـ باب ذِكرِ الجِنِّ وَقَولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾.

(٣) صحيح البخاري (كتاب المناقب ـ باب عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ في الإِسلاَمِ).

(٤) أبو داود (كتاب الديات ـ باب فِيمَن سَقَى رَجُلاً سَمًّا أَو أَطعَمَهُ فَمَاتَ أَيُقَادُ مِنهُ).

٨ ـ وقد كان التراب سلاحاً ناجعاً استجاب لرسول الله ﷺ في غزوة بدر وغزوة حنين فغشي أعين المشركين.

فَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ المَلأَ مِن قُرَيشٍ اجتَمَعُوا في الحِجرِ فَتَعَاقَدُوا باللاَّتِ وَالعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخرَى وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ لَو قَد رَأَينَا مُحَمَّداً لَقَد قُمنَا إِلَيهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَم نُفَارِقهُ حَتَّى نَقتُلَهُ، فَأَقبَلَتِ ابنَتُهُ فَاطِمَةُ تَبكِي، حَتَّى دَخَلَت عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَت: هَؤُلاَءِ المَلأُ مِن قُرَيشٍ قَد تَعَاقَدُوا عَلَيكَ لَو قَد رَأَوكَ لَقَد قَامُوا إِلَيكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيسَ مِنهُم رَجُلٌ إِلاَّ قَد عَرَفَ نَصِيبَهُ مِن دَمِكَ. فَقَالَ: «يَا بُنَيَّةُ أَرِينِي وَضُوءاً». فَتَوَضَّأَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيهِمُ المَسجِدَ، فَلَمَّا رَأَوهُ قَالُوا: هَا هُوَ ذَا. وَخَفَضُوا أَبصَارَهُم وَسَقَطَت أَذقَانُهُم في صُدُورِهِم، وَعَقِرُوا في مَجَالِسِهِم فَلَم يَرفَعُوا إِلَيهِ بَصَراً، وَلَم يَقُم إِلَيهِ مِنهُم رَجُلٌ، فَأَقبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُؤُوسِهِم، فَأَخَذَ قَبضَةً مِنَ التُّرَابِ فَقَالَ: «شَاهَتِ الوُجُوهُ». ثُمَّ حَصَبَهُم بِهَا فَمَا أَصَابَ رَجُلاً مِنهُم مِن ذَلِكَ الحَصَى حَصَاةٌ إِلاَّ قَتَلَ يَومَ بَدرٍ كَافِراً[1].

وعن العباس بن عبد المطلب: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: «انهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ». فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَن رَمَاهُم بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلتُ أَرَى حَدَّهُم كَلِيلاً وَأَمرَهُم مُدبِراً.

وقال سلمة بن الأكوع وقد شهد مع رسول الله حنيناً: فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ عَن البَغلَةِ ثُمَّ قَبَضَ قَبضَةً مِن تُرَابٍ مِنَ الأَرضِ ثُمَّ استَقبَلَ بِهِ وُجُوهَهُم فَقَالَ: «شَاهَتِ الوُجُوهُ». فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنهُم إِنساناً إِلاَّ مَلأَ عَينَيهِ تُرَاباً بِتِلكَ القَبضَةِ فَوَلَّوا مُدبِرِينَ[2].

٩ ـ ولم يكن تفاعل عالم الجماد مع رسول الله ﷺ مقصوراً على العالم الأرضي، بل والسماوي فنجد القمر ينشق نصفين معجزة له، فَإِنَّ أَهلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَن يُرِيَهُم آيَةً فَأَرَاهُم انشِقَاقَ القَمَرِ.

---

(١) مسند أحمد (مسند عبد الله بن عباس).

(٢) صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير ـ باب في غَزوَةِ حُنَينٍ).

قال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يعادلها شيء من آيات الأنبياء؛ لأنه ظهر في ملكوت السماء، والخطب فيه أعظم، والبرهان به أظهر؛ لأنه خارج عن جملة طباع ما في هذا العالم من العناصر[1].

١٠ ـ وقد استجاب الله لنبيه فسخر السماء والسحاب لاستسقائه ﷺ من حينها، فَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهدِ النَّبِيِّ ﷺ فَبَينَا النَّبِيُّ ﷺ يَخطُبُ في يَوم جُمُعَةٍ قَامَ أَعرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَ المَالُ وَجَاعَ العِيَالُ، فَادعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيهِ، وَمَا نَرَى في السَّمَاءِ قَزَعَةً، فَوَالذي نَفسِي بِيَدِهِ مَا وَضَعَهَا حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمثَالَ الجِبَالِ، ثُمَّ لَم يَنزِل عَن مِنبَرِهِ حَتَّى رَأَيتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحيَتِهِ ﷺ، فَمُطِرنَا يَومَنَا ذَلِكَ، وَمِنَ الغَدِ، وَبَعدَ الغَدِ وَالذي يَلِيهِ، حَتَّى الجُمُعَةِ الأُخرَى، وَقَامَ ذَلِكَ الأَعرَابِيُّ ـ أَو قَالَ غَيرُهُ ـ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَهَدَّمَ البِنَاءُ وَغَرِقَ المَالُ، فَادعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَينَا، وَلاَ عَلَينَا». فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلاَّ انفَرَجَت، وَصَارَتِ المَدِينَةُ مِثلَ الجَوبَةِ، وَسَالَ الوَادِي قَنَاةُ شَهراً، وَلَم يَجِئ أَحَدٌ مِن نَاحِيَةٍ إِلاَّ حَدَّثَ بِالجَودِ. وفي رواية: وَخَرَجنَا نَمشِي في الشَّمسِ[2].

فالجماد له احترامه في تصور المسلم للوجود، وقد تعلقت كثير من العبادات بالمكان والزمان، وأوضح مثال على ذلك حركة المسلم في طوافه حول الكعبة، فإنها حركة تشبه كثيراً حركة النجوم والأجرام السماوية في أفلاكها حول مركزها، وتشبه أيضا حركة الإلكترونات في مساراتها حول النواة داخل الذرة، مما يعكس صورة رمزية لوحدة البناء بين أعظم المخلوقات وأدقها، فينطق بأنه سبحانه خالق كل شيء، وأن الكون عبارة عن مسجد كبير اشتركت فيه الكائنات سجوداً وتسبيحاً لخالقها.

---

(١) بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٢٤/١٦، تحقيق عبد الله محمود، دار الكتب العلمية، ط١/٢٠٠١م.

(٢) صحيح البخاري (كتاب الجمعة ـ باب الاِستِسقَاءِ في الخُطبَةِ يَومَ الجُمُعَةِ).

والإنسان وجميع الموجودات خاضعون لقانون واحد وسنة واحدة تتحكم في تحركهم وسكونهم، وهذا النظام يعبر عن وحدة الخالق، وتظهر فيه سنن الله في خلقه. فلكل موجود ممكن دورة حياة، تبدأ بالوجود ثم النماء ثم الضمور فالموت، وهو أمر يصيب كل شيء من حولنا، سواء في ذلك الجماد والحيوان والإنسان، حتى النجوم والمجرات لها أعمار وآجال، بانتهائه تدخل في دورة حياة كائنات أخرى، وتفقد صورتها الأولى وتتحول إلى صور أخرى متعددة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الزمر: آية ٢١].

وقال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الروم: آية ٥٤].

فالموجودات تتشابه في أطوار التكوين وتتابعها عليها بين الضعف والقوة والنقص والكمال، ولكل موجود أجل وعمر مقدر لا يتقدم عليه لحظة ولا يتأخر، ينتهي دوره في الكون بانتهاء أجله.

وكذلك فهناك تشابه في التكاثر بين المخلوقات، حيث خلق الله سبحانه وتعالى من كل شيء زوجين متجاذبين تتولد الطاقة أو الحياة من التقائهما، فالحياة كلها تعتبر آية ساطعة على التوحيد تظهر على وجه الكائنات صغيرها وكبيرها.

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الذاريات: آية ٤٩].

علاقة التسخير

إن الإسلام حرر الإنسان من عبودية عالم الأشياء، وجعله يتحرر من رهبتها أو مراقبتها بتوجس، فأصبح يتعامل معها من منظور السلطة والسيادة، فلا يُفَوِّتُ أي فرصة للانتفاع بما سخره الله فيها.

والإنسان لا يستطيع أن يصل من التأمل في الكون إلى معرفة نظامه وقوانينه إلا إذا وثق بنفسه أولاً وآمن بأن الكون المشاهد خاضع لإدراكه وبحثه، وبأن ظواهره ليست بالشيء المبهم الغامض الذي لا يفسر، وبأن في مقدوره الاستفادة من الكون واستغلال خيراته على أوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها.

وتأكيد القرآن على أن الكون كله مسخر للإنسان هو في نفس الوقت تأكيد على روح المنهج العلمي الصحيح، الذي يحاول دائماً استكشاف ما هو مجهول من هذا الكون وظواهره على أساس من الثقة بقدرة الإنسان وبالعلم في مواجهة الطبيعة[1].

فالإنسان جزء من الكون، لكنه تميز عليه بعلاقته الخاصة مع الخالق، فهو المكلف بحمل الأمانة التي شق على السموات والأرض والجبال تحملها؛ لأنها مسؤولية، فارتضت الكائنات أن تكون مسخرة للإنسان يُسأَلُ هو عنها.

وقد تميز الإنسان أيضاً على بقية المخلوقات بأنه خُلِقَ مُعَدًّا لاستيعابها معرفياً، فباستطاعته أن ينقل العالم الخارجي في صورته الكمية والكيفية إلى عالمه الداخلي، فاستحق بقدرته المعرفية أن يحمل أمانة الخلافة.

---

(١) أبو الوفا التفتازاني: الإنسان والكون في القرآن، مجلة عالم الفكر المجلد الأول العدد الثالث ص ١٠٧.

والملكات والقدرات التي مُنِحَهَا الإنسان وفُضِّلَ بها إنما هي ليتمكن من الاستفادة بما سخر له في الكون من منافع، ولم تكن للسيطرة على الكون والتعالى عليه، والشعور بالسيادة المطلقة فيه، فإن تلك القدرات التي وهبت للإنسان لتمكنه من فهم وإدراك سنن الله المودعة سلفاً في كونه، وبمعرفتها يتمكن من الانتفاع بخيرات الكون التي سخرها الله له.

إذن فليست ملكات الإنسان وقدراته هي التي سَخَّرَت له الكونَ ومَكَّنَتهُ منه، ودليل ذلك:

١ ـ أنا نرى أضعف الخلق كالذباب يمكنه أن يخترق كل الحجز ويصل إلى الإنسان فيسلبه شيئاً لا يستطيع استنقاذه منه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: آية ٧٣].

٢ ـ وكذلك نرى أضعف الناس جسماً كالطفل الصغير وأضعفهم عقلاً كالمجنون يستطيع التحكم فيما سُخِّرَ للإنسان نفعه كالماء والحيوانات الضخمة وغيرها، تنفعل له وتستجيب لقياده لا لقدرة بدنية أو عقلية فيه.

٣ ـ وقد تنفعل الطبيعة مع الإنسان دون قصد منه، كأن يمر في طريق فتطأ قدمه بذرة فتصير شجرة فيأكلها حيوان فيصيده الإنسان فيأكله، فيجعله الله سبباً في حياة دون أن يدري ذلك.

ونخلص من ذلك بأن الكون سُخِّرَ للإنسان بإرادة الله وقدرته، وليس لِتَمَيُّزِهِ وقوته دَخلٌ في ذلك التسخير.

٤ ـ والطبيعة قد تنفعل بذاتها بإذن الله فتحافظ على قدرتها ونضارتها وجمالها، فحتى فترة وجيزة من التاريخ كان الإنسان يعثر في الأرض على أماكن لم تطأها قدم إنسان من قبل، وقد حظيت الطبيعة فيها بخيرات وحياة وجمال ينبهر به الإنسان.

مما يكشف للإنسان عن مسبب أول وخالق أعلى لهذه الأرض، أودع فيها القدرة على المحافظة على خيراتها ملايين السنين دون أن يعلم عنها إنسان شيئاً.

٥ ـ ويثبت التاريخ والمشاهدات والتجارب عن حالات كثيرة تتخلف فيها مظاهر الكون عن سيطرة الإنسان وقبضته، فتنخرق السنة التي يظن الإنسان أنه أحاط بكل أسرارها واستنفذ جميع أسباب إقامتها، فالمؤمن يعلم أن من وراء ذلك إلهاً واحداً، وأنه لا سلطان حقيقاً في الكون غير سلطانه ولا قوة قاهرة غير قوته ولا ملك إلا ملكه.

ويحكي لنا القرآن عن بعض الملوك المتجبرين والفراعنة في الأرض الذين ظنوا أن سلطانهم فوق كل قوة، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الزخرف: آية ٥١].

وكأن تسلطه على الأرض والماء في بقعة من الأرض يعطيه الحق في استعباد الناس. وقد سعى لاستعبادهم بكل سبيل، ولم يتصور أن يَخرُجَ موسى وقومه على إرادته وبطشه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة القصص: آية ٤ ـ ٦].

فكل القوانين الكونية أو التوقعات البشرية لَتُؤَكِّدُ أن فرعون منتصر، فبعد أن تجبر في أرض مصر وتكبر وعلا أهلها وقهرهم حتى أقروا له بالعبودية فلا يمكن لموسى ومن تبعه أن ينجوا من بطشه، فضلاً أن يتحقق له ما وعده الله به، وأنجزه وعده. قال: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ ولاةً وملوكاً ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ نورثهم ملك آل فرعون في الأرض ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولولا أن تدخلت إرادة الله وقوته فقلبت

الموازين وغيرت السنن في اتجاه نصرة الحق ونجاة أصحاب المنهج ما كانت تلك النتيجة.

ولا يمكن لإنسان العصر أن يستقر نفسياً ويأخذ وجهته الصحيحة نحو إنجاز رسالته على الأرض إلا إذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره، ذلك أن الكون كله شأن من شؤون الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٩] فهو تعالى خالق الكون بما فيه الإنسان، وهو الذي ركب العقل في الإنسان ليعمر به الأرض لا ليدمرها، وليعرف به خالقه لا ليلحد، وحاول أن تضع الإنسان في إطار الكون كله وقوانينه الحتمية لا في إطار قدرته الخاصة المحدودة، لترى أن ليس للإنسان قدرة على توجيه مجرى الحوادث الكونية وفق مشيئته؛ لأن هذا من شأن خالق الأشياء جميعاً ومدبرها، وهو الله[1].

❋ ❋ ❋

(١) المرجع السابق: ص ١٣١.

العلاقة بين الإنسان والأرض

إن العلاقة المتصورة في المنظور الإسلامي بين الإنسان والأرض لهي أدعى إلى الإلفة والارتباط بينهما فضلا عن المحافظة والتنمية، أو الاقتصار على التفكر والتدبر، فالعلاقة بين المسلم والأرض تدور في ثلاثة مستويات، أدناها وأقربها مستوى الانتفاع بالتسخير وهو ما يتعلق بالجسد، وأوسطها مستوى التفكر والاعتبار وهو ما يتعلق بالعقل، وأعلاها مستوى المحبة والإلفة وهو ما يتعلق بالروح.

١ ـ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة نوح: ١٧ ـ ٢٠].

فولاء الإنسان للأرض وحنينه إليها يشبه حنين الابن إلى أمه، فإنه منها خلق ومن خيرها يأكل ويشرب وفي أحضانها يدفن.

٢ ـ قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة طه: آية ٥٥].

٣ ـ وقال ﷺ: «وَتَحَفَّظُوا مِنَ الأَرضِ فَإِنَّهَا أُمُّكُم»[١].

٤ ـ وَعَن عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ كَانَ إِذَا اشتَكَى الإنسان الشَّيءَ مِنهُ أَو كَانَت بِهِ قَرحَةٌ أَو جَرحٌ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِصبَعِهِ هَكَذَا ـ وَوَضَعَ سُفيَانُ سَبَّابَتَهُ بِالأَرضِ ثُمَّ رَفَعَهَا ـ «بِاسمِ اللَّهِ تُربَةُ أَرضِنَا بِرِيقَةِ بَعضِنَا لِيُشفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذنِ رَبِّنَا»[٢].

---

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١/٥٥٠، تحقيق عبد الله الدرويش، دار الفكر، ١٩٩٤م. وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٢) صحيح مسلم (كتاب السلام ـ باب استِحبَابِ الرُّقيَةِ مِنَ العَينِ وَالنَّملَةِ وَالحُمَةِ وَالنَّظرَةِ).

قال الإمام النووي: قَالَ جُمهُورُ العُلَمَاء: المُرَاد بِأَرضِنَا هُنَا جُملَة الأَرض. وَقِيلَ: أَرض المَدِينَة خَاصَّة؛ لِبَرَكَتِهَا. وَالرِّيقَة أَقَلّ مِن الرِّيق. وَمَعنَى الحَدِيث أَنَّهُ يَأخُذ مِن رِيق نَفسه عَلَى أُصبُعه السَّبَّابَة ثُمَّ يَضَعهَا عَلَى التُّرَاب فَيَعلَق بِهَا مِنهُ شَيء، فَيَمسَح بِهِ عَلَى المَوضِع الجَرِيح أَو العَلِيل، وَيَقُول هَذَا الكَلَام فِي حَال المَسح. وَاللَّهُ أَعلَم.

وَقَالَ البَيضَاوِيُّ: قَد شَهِدَت المَبَاحِث الطِّبِّيَّة عَلَى أَنَّ لِلرِّيقِ مُدخَلاً فِي النُّضج وَتَعدِيل المِزَاج، وَتُرَاب الوَطَن لَهُ تَأثِير فِي حِفظ المِزَاج وَدَفع الضَّرَر، فَقَد ذَكَرُوا أَنَّهُ يَنبَغِي لِلمُسَافِرِ أَن يَستَصحِب تُرَاب أَرضه إِن عَجَزَ عَن استِصحَاب مَائِهَا، حَتَّى إِذَا وَرَدَ المِيَاه المُختَلِفَة جَعَلَ شَيئاً مِنهُ فِي سِقَائِهِ لِيَأمَن مَضَرَّة ذَلِكَ[1].

إذن فهناك عاطفة تربط الإنسان بالأرض التي نشأ فيها وتربى، ولا نكير في ذلك، بل هو مما حض عليه الشرع وورد به، فذوو الفطرة السليمة يشعرون دائماً بالشوق والحنين إلى أوطانهم ولا يشعرون بالإلفة أو الطمأنينة قدر ما يشعرون بها في بلادهم.

٥ ـ والقرآن يصور علاقة الإلفة والمحبة التي تنشأ بين الأرض والسماء وبين الإنسان، حيث قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الدخان: آية ٢٩].

وهذا انفعال بين الإنسان والأكوان، فقد روى الطبري عن سعيد بن جبير قال: أتى ابن عباس رجلٌ فقال: يا أبا عباس أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله

(١) النووي: شرح صحيح مسلم ١٤/١٨٥، المطبعة المصرية ط١/١٩٣٠م، وابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣/١٧٦، تحقيق أبو قتيبة نظر الفاريابي، دار طيبة ط١/٢٠٠٥م.

وينزل منه رزقه بكي عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض.

❋ ❋ ❋

الأمر العام بالرحمة والرفق بجميع الخلق

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [سورة الأنبياء: آية ١٠٧].

فكان رسول الله ﷺ رحمة بالخلق أجمعين، إنسهم وجنهم، رحمة بالحيوان والنبات والجماد، وأعظِم بِالرَّحمَةِ هداية الناس إلى المعرفة، معرفة الخالق ومعرفة الخلق، وتحديد المنهج القويم في عبادة الخالق ورحمة الخلق والانتفاع بما سُخِّرَ فيهم من خيرات.

١ ـ فَعَن أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لاَ يَضَعُ اللَّهُ رَحمَتَهُ إِلاَّ عَلَى رَحِيم». قُلنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «لَيسَ الَّذِي يَرحَمُ نَفسَهُ خَاصَّةً، وَلَكِنِ الَّذِي يَرحَمُ النَّاسَ عَامَّةً»(١).

٢ ـ وقد أمر النبي ﷺ بالرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات فقال: «الرَّاحِمُونَ يَرحَمُهُمُ الرَّحمٰنُ ارحَمُوا مَن فِي الأَرضِ يَرحَمكُم مَن فِي السَّمَاءِ»(٢).

قال الطيبي: لأن الرحمة في الخلق رقة القلب، والرقة في القلب علامة الإيمان، فمن لا رقة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له شقي، فمن لا يرزق الرقة شقي.

«من في الأرض» بصيغة العموم يشمل جميع أصناف الخلائق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والمبهم، والوحش والطير(٣).

---

(١) البيهقي: شعب الإيمان ٤٠٨/١٣، تحقيق مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، ط١/٢٠٠٣م.

(٢) الترمذي (كتاب البر والصلة ـ باب رحمة المسلمين)، وأبو داود (كتاب الأدب ـ باب في الرحمة).

(٣) المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٥١/٦، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر.

وقال ابن بطال المغربي (ت٤٤٩): فيه الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم، كافرهم ومؤمنهم، ولجميع البهائم ـ المملوك منها وغير المملوك ـ والرفق بها. وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفى كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثاً. ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام، والسقي والتخفيف في الحمل، وترك التعدي بالضرب[١].

وقال العارف البوني: فإن كان لك شوق إلى رحمة من الله فكن رحيماً لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك ورفع غضبك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه، فكل ما يفعله من خير دق أو جل فهو صادر عن صفة الرحمة[٢].

٣ ـ وقال ﷺ: «ارحَمُوا تُرحَمُوا، وَاغفِرُوا يُغفَر لَكُم؛ وَيلٌ لِأَقمَاعِ القَولِ، وَيلٌ لِلمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُم يَعلَمُون»[٣].

«ارحَمُوا تُرحَمُوا» لأن الرحمة من صفات الحق التي شمل بها عباده، فلذا كانت أعلاماً اتصف بها البشر، فندب إليها الشارع في كل شيء حتى في قتال الكفار والذبح وإقامة الحجج وغير ذلك. «وَاغفِرُوا يُغفَر لَكُم» لأنه سبحانه وتعالى يحب أسماءه وصفاته التي منها الرحمة والعفو، ويحب من خلقه من تخلق بها. «وَيلٌ لأَقمَاعِ القَولِ» أي شِدَّة هَلَكَةِ من لا يعي أوامر الشرع ولم يتأدب بآدابه، والأَقمَاعُ جمع قِمَعٍ:

---

(١) ابن بطال: شرح صحيح البخاري ٢١٩/٩، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد.

(٢) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير.

(٣) مسند أحمد (مسند عبد الله بن عمرو)، والسيوطي في الجامع الصغير، والألباني في صحيح الجامع رقم (٨٩٧)، والسلسلة الصحيحة رقم (٨٩٧).

الإناء الذي يجعل في رأس الظرف ليملأ بالمائع، شَبَّهَ استماعَ الذين يستمعون القول ولا يَعُونَهُ ولا يعملون به بالأقماع التي لا تَعِي شيئاً مِمَّا يُفرَغُ فِيهَا[1].

٤ ـ وقد أمر النبي ﷺ بالرفق في كل شيء، ولذلك يجب على المسلم إذا دخل داره أو خرج منها ألا يدفع الباب دفعاً عنيفاً؛ لأن هذا مناف للطف والرفق، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرِّفقَ لاَ يَكُونُ في شَيءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنزَعُ مِن شَيءٍ إِلاَّ شَانَهُ»[2].

والرحمة العامة التي أمر بها النبي ﷺ دائرة أوسع وأشمل من كل معاني المحافظة والرعاية للبيئة الإنسانية التي يمكن أن نجد دعواها في أي شريعة أو فلسفة في أي مكان أو زمان غير الإسلام.

❋ ❋ ❋

(١) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤٢/٤، دار المعرفة ـ بيروت، ١٩٧٢م.

(٢) مسلم (كتاب البر والصلة والآداب ـ باب فَضلِ الرِّفقِ).

مفهوم الخلافة في المنظور الإسلامي

استخلاف الإنسان في الأرض هو أمر من الله تعالى بالمحافظة عليها ورعايتها، وتوكيل منه سبحانه للإنسان بإعمارها وإصلاح ما يطرأ عليها من فساد.

١ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٦].

٢ ـ قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ص: آية ٢٦].

يلاحظ في الآية الأولى حرص الملائكة على الأرض ـ من حيث إنها مخلوقة لله ـ وخشيتهم على ما يصيبها من الفساد بفعل الإنسان، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وفساد الأرض يتعلق بالمكان والزمان. ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾. وسفك الدماء يتعلق بالإنسان، إذن فقد كانت خشيتهم تتعلق بالإنسان أيضا؛ لأنه مخلوق لله، يستحق الرحمة والرعاية.

وتظهر الوحدة البنائية في النص من خلال عرضها لثنائية الأرض والإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [سورة البقرة: آية ٢٠٥] ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ فساد الأرض ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾ هلاك الإنسان، بهلاك الغذاء وهلاك النسل.

فقد علمت الملائكة من خلق آدم أنه سيكون مختاراً، يختلف بذلك عن غيره من الكائنات والمخلوقات، والمختار يجوز في حقه ورود المخالفة للمنهج، على عكس الكائنات التي تُؤمَرُ فتطيع، تُعَلَّمُ فَتَعلَم، فلا يمكنها مخالفة المنهج، ولا تتعلق إرادتها بذلك. ونظرت الملائكة إلى ما رُكِّبَ في الإنسان من انفعالات ورغبات وشهوات،

وظنت أنه حتماً سَيَدفَعُهُ اتِّبَاعُهَا إلى النزوع إلى التقاتل والهرج من أجل السيطرة والتسلط.

ولكن الملائكة حينما بَيَّنَ لهم الله تعالى ما خفي عنهم في خلق آدم من قدرة على تحصيل العلم والمعرفة وإعادة تراكيبها واستدعائها ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

ويستفاد من ذلك أن فساد الإنسان والبيئة متعلق بفعل الإنسان وسلوكه، فإن غلبت عليه الشهوات والهوى وحاد عن العقل والعلم كان هلاكاً لنفسه ولغيره، وإن غلب عقله وتدبره وسعى لتحصيل العلم والحكمة فإنه سيوافق السنة والمنهج (الحق) الذي قام عليه الخلق، ويصير فعله إعماراً وبناءً وإبداعاً.

ويلاحظ في الآية الثانية ما جاء فيها من ذكر الخلافة والأرض والحق، فالحق هو الله سبحانه وتعالى، والحق هو الذي قام عليه الخلق، فإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أو لعباً.

● قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الأنبياء: آية ١٦ ـ ١٨].

● قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: آية ١١٥ ـ ١١٦].

فالله سبحانه وتعالى عندما جعل داود خليفة في الأرض طلب منه الحكم بالحق، والحق مرادف العدل والصلاح وضد العبث واللعب والفساد، وأصل الملك الذي أُوتِيهِ داودُ الخليفةُ هو القيام بالحق. ولذلك أعقبه بقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾، والهوى هو الجانب الذي ظهر للملائكة أولاً في خلق آدم، فكان حكمهم على الإنسان بأنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء. والحق هو العقل والعلم، وهو الجانب الذي خفي عن الملائكة أول الأمر.

● وقد أمر الله سبحانه وتعالى النبي محمد ﷺ أن يحكم بالحق والقسط؛ لأن ذلك طريق المحبة والقربى من الله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المائدة: آية ٤٢].

٣ - وسيادة الإنسان على الكون سيادة **انتداب**، وليست سيادة تملك وتسلط مطلق، فالإنسان قائم بما يقوم به الموكل من الحفظ والرعاية، وذلك مفهوم الخلافة الذي جاء به الإسلام.

ولذلك فالإنسان مسؤول عن الأمانة التي حَمَلَهَا، مسؤول عن إحسانه وإتقانه أو إساءته وإفساده، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سورة الملك: آية ٢].

وقال تعالى في نفس السورة بيانا للإحسان في العمل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الملك: آية ١٥].

فقد سَخَّرَ الله الأرضَ وجعلها مذللةً للإنسان كي يستفيدَ من خيراتها، فوجب عليه العمل والسعي، لتحصيل نفعها والإصلاح فيها.

● وقد جاء في سنة النبي ﷺ ما يؤكد على أهمية العمل بالنسبة للإنسان، وأهمية التربية على المنهج الذي يمنح الإنسان العزم والقوة والكرامة في حياته باستهدائه سُبُلَ العمل الشريف.

أ - عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسأَلُهُ فَقَالَ: «أَمَا في بَيتِكَ شَيءٌ». قَالَ: بَلَى حِلسٌ نَلبَسُ بَعضَهُ وَنَبسُطُ بَعضَهُ وَقَعبٌ نَشرَبُ فِيهِ مِنَ المَاءِ. قَالَ: «ائتِنِي بِهِمَا». فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ: «مَن يَشتَرِي هَذَينِ». قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرهَم. قَالَ: «مَن يَزِيدُ عَلَى دِرهَم؟». مَرَّتَينِ أَو ثَلاَثًا قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرهَمَينِ. فَأَعطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرهَمَينِ وَأَعطَاهُمَا الأَنصَارِيَّ وَقَالَ «اشتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَاماً فَانبِذهُ إِلَى أَهلِكَ وَاشتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأتِنِي بِهِ». فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُوداً بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ «اذهَب فَاحتَطِب وَبِع وَلاَ أَرَيَنَّكَ

خَمسَةَ عَشَرَ يَوماً». فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَد أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَاشتَرَى بِبَعضِهَا ثَوباً وَبِبَعضِهَا طَعَاماً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «هَذَا خَيرٌ لَكَ مِن أَن تَجِيءَ المَسأَلَةُ نُكتَةً في وَجهِكَ يَومَ القِيَامَةِ إِنَّ المَسأَلَةَ لاَ تَصلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ لِذِى فَقرٍ مُدقِعٍ أَو لِذِي غُرمٍ مُفظِعٍ أَو لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ»(١).

ب ـ وَعَن أَبِى هُرَيرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبرَةِ طَعَامٍ فَأَدخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَت أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟». قَالَ: أَصَابَتهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «أَفَلاَ جَعَلتَهُ فَوقَ الطَّعَامِ كَي يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَن غَشَّ فَلَيسَ مِنِّي»(٢).

فدعوة الإسلام دعوة إلى العمل الشريف، ورسالته تقول للإنسان: اعمل واجتهد في التنمية والإصلاح، وسيرى الله عملك ورسوله، وستجازى عليه. ولكن بشرف ودون غش أو خداع. فالعمل بناء، والشرف منهج، والعمل لا يكون إيجابياً إن افتقد الشرف والأمانة.

فالغش يهدم السلام الاجتماعي وَيُهلِكُ الحركةَ الاقتصادية؛ لإحداثه حالةً مِن انعِدَامِ الثقة بين المُتَبَايِعين، كما يَقضِي على السلام النفسي بإشاعته الخوفَ والقلق وإلقائِهِ التوجسَ والرهبةَ بين الناس، وكل ذلك من مظاهر الفساد في حياة الإنسان.

❋ ❋ ❋

(١) أبو داود (كتاب الزكاة ـ باب ما يجوز فيه المسألة).

(٢) مسلم (كتاب الإيمان ـ باب قول النبي من غشنا فليس منا).

دعوة الإسلام إلى النظر والتأمل في الكون

وهي دعوة للمحافظة على البيئة باكتشاف أسرارها ورعاية جمالياتها، فالحركة في الكون تعد خطاباً واضحاً ورسالة دالة على عظمة الخالق، ولكن لا يستطيع قراءتها إلا ذوو النظر والعقل وأصحاب التأمل والفكر، ولذلك كان العلماء المؤمنون أكثر الناس يقيناً في وجود الحق ووحدانيته.

ومصادر المعرفة لدى المسلم تتوزع بين الوحي والكون، ولا يصل المسلم إلى اليقين إلا عندما يأخذ عن كليهما ويحسن النظر فيهما.

والوحي والكون كلاهما من الله من عالم الأمر ومن عالم الخلق، خاطب بهما عقل الإنسان وحسه، ولكن الوحي تميز بالمباشرة والوضوح في توجيه الإنسان وتحديد المنهج السوي الذي يرسم له خطة يسلكها في تعامله مع الكون ومع نفسه أيضاً، بالشكل الذي يجعله يستفيد ويستمتع بما سخر له في الكون.

والنظر والاعتبار في الكون والوحي فرض واجب في الشريعة الإسلامية، بل هو من أول الواجبات، فهو طريق مباشر يوصل العبد بربه، ومن ناحية أخرى فالنظر حق للفرد في مجتمعه الإسلامي لأنه طريقه إلى العلم والمعرفة، فلا بد أن تيسر له كل الأسباب والمقومات التي تمكنه من الإحسان فيما تصدروا له من بحث. فإن فَقِهَ أفراد المسلمين وجماعاتهم إلى هذا الواجب ارتقت علومهم وزادت معارفهم، وكانت بلادهم نموذجاً للحضارة الإنسانية المتكاملة.

١ ـ والمسلم مدعو بنص الوحي إلى النظر في جمال الكون وإحكام صنعه:

● قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ

مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [سورة الملك: آية ٣ ـ ٥].

● وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [سورة السجدة: آية ٧].

● وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة فصلت: آية ٥٣].

● وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة البقرة: آية ١٦٤].

ويلاحظ ختام الآية بقوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ مما يعني أنه لا ينتفع بتلك الدعوة الصريحة إلى التأمل والنظر في الكون فيصل من ورائها إلى الإيمان بالخالق وإدراك سننه في خلقه إلا أصحاب المنهج العقلي الموضوعي، أولئك الذين يجعلون عقولهم مسيطرة على رغباتهم وشهواتهم، وأولئك الذين يُهدَونَ إلى الحق الذي قام عليه الوجود.

ويلاحظ في الآية أنها تحدثت عن ثلاثة أشياء يمثلون الوجود، وهي: المكان (الأرض والسماء)، والزمان (اختلاف الليل والنهار)، والماء.

٢ ـ وفي عبادات المسلمين ما يقوم أصله على التأمل والتفكر والإجلال لما في الكون من خلق وإبداع، وذلك كصلاة الكسوف والخسوف، وصلاة الاستسقاء.

● قال رسول ﷺ: «إِنَّ الشَّمسَ وَالقَمَرَ لاَ يَنكَسِفَانِ لِمَوتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِن آيَاتِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَيتُمُوهُمَا فَقُومُوا فَصَلُّوا»[1].

٣ ـ والنظر والاعتبار يوجب على الإنسان الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته فمن الآيات التي تحدثت عن الإرادة العليا لله في الكون، وأنه سبحانه لم يترك شيئاً للصدفة أو الطبيعة تتحكم فيه وتدبر شؤونه بنفسها:

● قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل: آية ٦١].

● وقوله: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الفرقان: آية ٥٣].

● وقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمٰن: ١٩ ـ ٢٠].

فالبحران مصدرهما السماء، وكلاهما من ماء، فسبحان من مَيَّزَ لكل منهما مكانه ومقداره وتوزيعه في مساحات اليابسة، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر. وكلاهما على نفس الدرجة من الأهمية للحياة، وفي بغي أحدهما على الآخر فساد عظيم.

٤ ـ ودعت الآيات الإنسان إلى النظر في طعامه:

● قال تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [سورة الكهف: آية ١٩].

فلينظر: أي فليبحث ويفتش عن الطعام الصالح الزكي، وفي ذلك دعوة إلى الانتقاء الذي يدعو الصانع إلى تحسين صناعته والزارع أن يهتم بزراعته، طالما أن المسلم سيبحث عن الأجود والأحسن، وسيتدرب على التذوق والاختيار، ولن يرضى من البيئة عطاءً إلا أجودَهُ وأحسنَهُ.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق ـ باب صِفَةِ الشَّمسِ وَالقَمَرِ).

ولن يقبل ممن يقوم على الرعاية والتنمية إلا أحسنَ العمل وأتقنه.

● وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة عبس: آية ٢٤ ـ ٣٢].

فالنظر في الآية الأولى تعلق بمسألة الانتفاع والتسخير، وفي الآية الثانية تعلق بمسألة الاستدلال والاستهداء المعرفي، فالأولى تستلزم الحض على العمل والإحسان، والثانية تستلزم الإيمان بخالق هذا الكون وصاحب النعم المودعة فيه، فقد سخر له سبيل الطعام ميسراً مذللاً.

٥ ـ ودعت الآيات الإنسان إلى التفكر في خلق الحيوان وتسخيره لنفع الإنسان:

● قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة النحل: آية ٦٦].

ولا يمكن للإنسان معرفة قدرة الخالق إلا بالنظر والاعتبار في ملكوته، وفي الآية دلالة على قدرة الله على استخلاص الصلاح والخير والصفاء من رحم ضده، فالحق سبحانه وتعالى يضع يد الإنسان على الآيات والمعاني التي تجعله قادراً على أداء الأمانة التي حَمَلَها، وذلك لا يكون إلا بالسعي إلى إعمار الكون بإخراج المصالح والحقوق والخيرات من رحم المفاسد والشرور.

٦ ـ ودعت الآيات الإنسان إلى النظر في الرياح باعتبارها أول حركة إعمارية في الحياة:

● قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحجر: آية ٢٢].

وفي الآية هداية إلى دور الرياح في النماء والحياة، بأمر من أرسلها وجعلها سبباً في تلقيح النبات وزيادته، وليست الرياح بذاتها تفعل، وإنما هي فقط تأتمر بأمر مرسلها، وفِعلُهَا يأتي تبعاً لأمره. ودليل

ذلك أنها قد تأتي وبالاً ودماراً لقوم، وفي نفس الوقت خيراً ولقاحاً لآخرين، فهي مسخرة ومؤتمرة، وليس فعلها من خير أو شر بإرادة منها.

● وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [سورة فاطر: آية ٩].

فالرياح تعتبر المرحلة الأولى في دورة الحياة الأرضية، ولذلك نرى الآية ابتدأت بلفظ الجلالة تأكيداً على أنه سبحانه المتفرد بإرسالها محركةً للسحاب مبتدأةً لحركة الحياة على الأرض.

٧ ـ ودعت الآيات الإنسان إلى التفكر في جماليات الكون وفي ذلك دعوة للمحافظة على ما في البيئة من منافع وجمال:

● قال تعالى: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة الحج: آية ٥ ـ ٦].

إذن فهناك ارتباط بين الجمال والحق، فالحق يقتضي من الإنسان الحفاظ على أصل الوجود وعلى جمالياته.

● وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة لقمان: آية ١٠].

● وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ . . . ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [سورة النمل: آية ٦٠ ـ ٦٢].

وفي الآية ارتباط بين الجمال وبين الخلافة في الأرض، فقد جعلنا المولى تبارك وتعالى خلفاء في الأرض من أجل الاستمتاع بهذا الجمال وتنمية وجوده والمحافظة عليه. ووضوح هذا المفهوم في التصور الإسلامي من شأنه أن يجعل المسلم مُبدِعاً في كل صناعة أو عمل.

● وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ تَعَٰلَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة النحل: آية ٣ ـ ٨].

بدأت الآيات بالحديث عن الحق الذي قام عليه خلق السماوات والأرض، ثم تحدثت عن خلق الإنسان من نطفة، ثم تبادلت الآيات الحديث عن الضروريات والتحسينيات، أي المنافع المباشرة والجمال والزينة.

فالآية الخامسة تحدثت عن الدفء والأكل والمنافع في الأنعام، والآية السادسة تحدثت عن البهجة التي يحصلها الإنسان من نظره إلى جمال الأنعام، والآية السابعة عادت تتحدث عن منفعة الأنعام في حمل أثقال الإنسان إلى المسافات التي لا يتيسر له بلوغها إلا بحصول المشقة البالغة، والآية الثامنة تحدثت عن المتعة في ركوب الأنعام للتنزه والتريض، ومن أجل الزينة والمتعة. فقد تحدثت الآية السابقة عن الحمل أي النقل، فتكون المنة في «لتركبوها» هي الجمال واللذة.

وعلى الإنسان الاستفادة من التسخير الضروري والجمالي حتى تحصل له الصحة المادية والمعنوية، الجسدية والنفسية والعقلية، وعليه حينها أن يحافظ على البيئة في بعديها: المنافع، والجماليات. وعليه أن يعمل ويحسن ويتقن ما يحقق له المنافع، ويحقق له الإبداع الجمالي الذوقي.

● وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة فاطر: آية ٢٧ ـ ٢٨].

مما يعكس أن روح الله في خلق الكائنات ضمت التنوع الشكلي،

والتناسق اللوني، مما يحدث انبهارا ومتعة بصرية لا فطور فيها.

● وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [سورة فاطر: آية ١٢].

سخر لنا الشراب العذب والملح واللحم الطري، ويلاحظ هنا الأوصاف، فالماء العذب سائغ شرابه، والملح أجاج، واللحم طري، مما يعني أن المولى سبحانه وتعالى لم يهب لنا مقومات الحياة فقط بل جعل فيها اللذة والجمال، ثم أعقب ذلك بذكر المنة في خلق الحلية المستكنة في قاع الأنهار والمحيطات كاللؤلؤ، نلبسه لنتجمل به ونتزين.

❋ ❋ ❋

دعوة الإسلام إلى عمارة الأرض

١ ـ قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: آية ٦٢].

أي أمركم بعمارة الأرض، والعمارة تشمل كل عمل فيه إصلاح للأرض وتوفير ضروريات المعاش فيها. والكون كله بكل مظاهره وموجوداته مسخر للإنسان قائم على خدمته فوجب عليه عمارته والمحافظة عليه.

وإعمار الكون مظهر تتحقق فيه عبودية الإنسان لخالقه، لأن المعرفة بأسرار الكون توصل الإنسان إلى التماس نصيب من حكمة الله في الوجود، ويحتاج الإنسان من أجل القيام بوظيفة الخلافة وتنفيذ أمر الخالق بإعمار الأرض أن يطيل التدبر والاعتبار في العلاقات الكلية والجزئية التي تجمع مفردات الكون وتتحكم فيه، وبمعنى آخر إن صلاح منهج الإنسان في الإعمار مرتبط بتكوين نظرة كلية عن السبب الأول في وجود الخلق، وعن طبيعة العلاقة التي تربط الإنسان بذلك السبب، والعلاقة التي تربطه ببقية الكائنات في الوجود.

ويمكن فهم إعمار الأرض على أنه بذل الجهد لإقامة مجتمع فاضل عادل تتحقق فيه للإنسان الكرامة التي أرادها الله له، وتتحقق للإنسان فيه الحرية التي هي مناط المسؤولية، وإقامة مجتمع يسالم الطبيعة ويسالم الإنسان وتسود فيه قيم المحبة والرحمة.

٢ ـ ولا بد أن تشمل عملية الإعمار المطلوبة شرعاً جوانب الحياة الثلاث: المادة، الروح، العقل، بتوازن وانضباط، بحيث لا يطغى جانب على آخر، وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة وأقام المسجد، وكان أول إعمار يقوم به في المدينة، وكان عملاً إعمارياً شمل الجوانب الثلاث من الحياة، كان إقامة للبنيان وللإنسان، فقد كان مكاناً يتجمع فيه المسلمون ويلجأ إليه

المعوزون، وتُستَقبَلُ فيه الوفودُ، وتُؤَدَّى فيه العباداتُ الروحية، وتُلقَى فيه الدروس والتعاليم التي ترسم المنهج، وكانت تُعقَدُ فيه الألويةُ، وتوزعُ فيه المهام العسكرية، وترسم فيه الخطط، وتمارس فيه الدعوة إلى الدين.

قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ١٤١].

والشاهد في الآية أنها جمعت بين مخاطبة العقل بالدعوة إلى النظر والتأمل في القدرة والحكمة والجمال والتنوع، وفي ذلك سعادة العقل بتحقيق المعرفة والعلم، وبين مخاطبة الحواس ودعوتها إلى الأكل، وفي ذلك استمتاع الجسد بالتسخير المادي، وبين مخاطبتها الروح ودعوتها إلى التزكية والطهارة حيث أمرت الإنسان بالعطاء والبذل، مما يحقق للنفس والروح سعادتها وطمأنينتها. وختمت الآية أوامرها بعدم الإسراف مما يعني ضبط العلاقات والمقادير.

٣ ـ وعملية إعمار الأرض كما يتصورها الإسلام ذات شقين، الأول يتعلق بصلاح المنهج، والثاني يتعلق بإتقان العمل والبناء وبذل الوسع فيه.

ولا بد من انضباط كل من الشقين حتى تنجح تلك العملية، وأساس صلاح البناء صلاح المنهج:

أ ـ قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الحج: آية ٤٥] ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ فساد المنهج والذي أدى إلى فساد البناء والبيئة.

قال الطبري: فباد أهلها وخلت، وخوت من سكانها، فخربت وتداعت، وتساقطت على عروشها؛ يعني على بنائها وسقوفها... ومن بئر عطلناها، بإفناء أهلها وهلاك وارديها، فاندفنت وتعطلت، فلا واردة

لها ولا شاربة منها... وَقَصرٍ مَشِيدٍ رفيع بالصخور والجص، قد خلا من سكانه، بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء فعالهم، فبادوا وبقيت قصورهم المشيدة خالية منهم.

ب - وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الكهف: آية ٥٩].

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته فصلاً في أثر الظلم وما يفعل في العمران والحضارة: «فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران»، قال: «واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال»[1].

ومن المشاهد أنه إذا صاحب التقدم المادي البنائي تخلف عن القيم والفضائل الأخلاقية فسدت البيئة وانهدمت الحضارة، ففساد المنهج يمثل اصطداماً للإنسان بالكون يؤدي حتماً إلى شقاوته ومعاناته للقلق والحيرة، وذلك لأن الكون له منهج وسنن، وله علاقة بخالقه، فيها تسبيح وسجود، فإذا تصرف الإنسان بعشوائية وفوضاوية دون نظام أو سنة وإذا قطع علاقته بخالقه ومصدر الوحي والمنهج كان مصيره إلى الجهل؛ لأنه قد انقطعت صلته بمصدري المعرفة: الكون، والإله. وصار متصادماً مع كل الكائنات من حوله، يفسد حياتها وحياته من حيث يدري ومن حيث لا يدري.

ج - وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة هود: آية ١١٦ - ١١٧].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٦٩٩/٢، تحقيق د/علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م.

والآيات تشرح منهجاً محكماً مترابطاً غايته أنه ينهى الإنسان عن الظلم ويوجب عليه دفعه بالحق.

(وَكَانُوا مُجرِمِينَ) مباشري الفسادِ بالظلم والإجرام، فسبب استئصالِ الأمم المُهلَكة فشوُّ الظلمِ واتباعُ الهوى مع ترك النهي عن المنكرات.

د ـ وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة محمد: آية ٢٢].

إن توليتم عن المنهج الإلهي ستكون نتيجة أفعالكم مؤدية إلى الفساد والهدم والقطيعة، الفساد على مستوى الأرض، والقطيعة على مستوى الإنسان، مما يذكر بالوحدة البنائية التي أشرنا لها من قبل.

هـ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [سورة البقرة: آية ٢٠٥].

فالتولي والإعراض عن المنهج الحق يؤدي حتماً إلى الفساد البيئي على مستوى الإنسان ومستوى الأكوان.

والوحدة البنائية في النص القرآني إضافة إلى الوحدة البنائية في خلق الأكوان لهي أكبر الدلائل على وحدانية الخالق الذي له الخلق والأمر.

٤ ـ والمولى سبحانه وتعالى يقرن دائماً الإيمان (المنهج) بالعمل الصالح (البناء)، ويقرن الحق في الانتفاع بالواجب في العمل والإحسان:

أ ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [سورة المؤمنون: آية ٥١].

ب ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [سورة النمل: آية ١٩].

فالنبي سليمان عليه السلام لما وجد الطبيعة قد استجابت له وسُخِّرت له تسخيراً خاصًا، فصار يعلم لغة تخاطب الحشرات والطير، دعا ربه أن يكون شاكراً له على هدايته إلى صلاح المنهج، وأن يعينه

على الاستمرار في أداء العمل الصالح (البناء) الذي يرضاه الله.

ج ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة ص: آية ٢٧ ـ ٢٨].

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات اتبعوا المنهج وقاموا بالبناء، وهم الذين يؤمنون أن الله سبحانه وتعالى قد أقام خلق السموات والأرض على الحق والعدل ولم يخلقهما عبثاً أو لعباً أو باطلاً، أما المفسدين في الأرض فهم الذين كفروا بالمنهج ولم يعملوا الصالحات، وذلك لسوء ظنهم واعتقادهم بربهم أنه خلق الكون عبثاً وباطلاً.

❋ ❋ ❋

دعوة الإسلام إلى النهي عن الفساد والإفساد

النظام الكوني له سنن وقوانين مقدرة محكمة إن خرج عنها قيد أنملة فنت أجزاؤه وتحطمت، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة يس: آية ٤٠].

وقد خلق الله عز وجل الكون وجعله يقوم على علاقات توافقية بين أجزائه، جاءت صورها في المد والجزر، وفي قوى الجذب والطرد التي تحكم حركة النجوم في أفلاكها وحركة الإلكترونات في ذراتها، ولو تغلبت قوى الجاذبية على قوى التنافر أو العكس لحدث اختلال عظيم وفساد في الكون.

وهكذا فالنفس البشرية في علاقاتها مع الآخر سواء كان جماداً أو إنساناً مركبة من قوى الجذب والطرد، وتأتي صورها في الحب والكره أو السلام والحرب، ولا بد أن يكون الإنسان متوازناً في علاقاته حتى لا يحدث خللاً أو اضطراباً في حياته.

١ ـ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة البقرة: آية ٢٧].

ينقضون عهد الله أي يفسدون المنهج، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل أي يحدثون اختلالاً في العلاقات التوازنية بين مفردات الوجود، بقطع ما حقه الوصل ووصل ما حقه القطع، فتضطرب علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بالكون، وهذه المعادلة تكون نتيجتها الخسران والبوار في الدنيا بفساد الحياة وتحصيل الشقاء، وفي الآخرة بضياع النعيم.

٢ ـ وقد جعل الله الأصل في فطرة الإنسان وفي خلق الأكوان

الصلاح والانتظام، وإنما يظهر الفساد في حياة الإنسان والكون بفساد الفطرة الإنسانية التي تدعو الإنسان إلى المحبة والسلام، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الروم: آية ٤١].

لعلهم يرجعون إلى الأصل الذي تركوه، وهو أصل الصلاح، ورجوعهم يكون بالإصلاح لما أفسدوه في حياتهم وباستهدائهم المنهج وإحسانهم العمل.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: آية ٨٥].

أمر نبي الله شعيب عليه السلام قومه بأن يُتِمُّوا للناس حقوقهم ولا ينقصوهم إياها. وأمرهم بضبط الميزان هو ضبط العلاقات، وهو الحكم بالحق والعدل والمساواة، وهذا صلاح الإنسان والأرض على السواء.

٤ ـ وأمر الله قارون عندما طغى وأفسد وقطع العلاقات مع الخلق والخالق، وظن أنه يستطيع الاعتماد على نفسه وجوداً وحفاظاً فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص: آية ٧٧].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ﴾ [سورة البقرة: آية ١١٤].

لا أظلم ولا أفسد ممن منع الإصلاح الذي يقيمه أولياء الله في بيوت الله، بذكره وتعليم منهجه. ولا أظلم ممن سعى في خرابها، مادياً بإزالة البنيان، ومعنوياً بالاعتداء على دورها الإصلاحي، أو تهميش دورها في المجتمع حتى تصبح عاجزة عن تزكية النفوس وتلقينها العلم والمعرفة اللذين يَهدِيَان الإنسان إلى إدراك الحق والعدل والصلاح. وفي ذلك اعتداء على حرية الإنسان وحرية العقيدة.

ولو أخذنا لفظ «مساجد الله» على عمومه بمعنى الأرض كلها، فقد جعلت الشريعة الأرض مسجداً وطهوراً، بنص رسول الله ﷺ، لكان تأويل الآية: لا أظلم ممن سعى في الأرض فساداً باعتدائه على المنهج والفكر أو باعتدائه على البيئة والبناء الحضاري الإنساني.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف: آية ٥٦].

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة الشعراء: آية ١٥١ ـ ١٥٢].

٨ ـ ونهى النبي ﷺ أصحابه عن الفساد في الأرض، فأوصاهم وهم يستعدون للقاء «العدو ألا تَغُلُّوا وَلاَ تَغدِرُوا وَلاَ تَمثُلُوا وَلاَ تَقتُلُوا وَلِيدًا[1]. [وَلاَ تَحرِقُوا كَنِيسَةً، وَلاَ تَعقِرُوا نَخلاً]»[2].

وهذه الوصية كررها أبو بكر الصديق رضي الله عنه لجيش أسامة بن زيد حين قال: وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشر: لاَ تَقتُلَنَّ امرَأَةً، وَلاَ صَبِيًّا، وَلاَ كَبِيراً هَرِماً، وَلاَ تَقطَعَنَّ شَجَراً مُثمِراً، وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِراً، وَلاَ تَعقِرَنَّ شَاةً وَلاَ بَعِيراً إِلاَّ لِمَأكَلَةٍ، وَلاَ تَحرِقَنَّ نَحلاً، وَلاَ تُفَرِّقَنَّهُ، وَلاَ تَغلُل، وَلاَ تَجبُن[3].

فالمسلم صاحب رسالة سلام لكل شيء وليس حربا على الطبيعة أو على الإنسان وليس عابثاً أو مدمراً.

العلاقة بين الحب والفساد:

وإنه ليوجد ارتباط عكسي في آيات الله بين الفساد والحب.

---

(١) مسلم (كتاب الجهاد والسير ـ باب تَأمِيرِ الإمام الأُمَرَاءَ عَلَى البُعُوثِ وَوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُم بِآدَابِ الغَزوِ وَغَيرِهَا).

(٢) وهذه الزيادة وردت في مصنف عبد الرزاق ٥/٢٢٠، حديث رقم (٩٤٣٠).

(٣) الموطأ (كتاب الجهاد ـ باب النَّهي عَن قَتلِ النِّسَاءِ وَالوِلدَانِ في الغَزوِ).

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة المائدة: آية ٦٤].

العداوة والبغضاء تؤدي إلى الحرب والاعتداء، وهي سعي في الأرض بالفساد.

والمفسدين في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ اسم فاعل من الفعل الرباعي أَفسَدَ، وفيه إشارة إلى أن الحب والسلام والصلاح هو أصل الخلق، والعداوة والبغضاء هي إفساد للأصل، وفي هذه الآية يخبرنا سبحانه عن عدم حبه للفاعلين الفساد، وفي آية أخرى أخبرنا سبحانه عن عدم حبه لجنس الفساد فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٠٥].

وأمر الشرع الإسلامي بحماية الإنسان من نفسه، ولم يعطه الحق في قتلها أو إفسادها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٩٥].

فالله سبحانه يحب المحسنين ولا يحب المفسدين، يحب المقسطين ولا يحب المعتدين.

الإسلام والنهي عن الإسراف

الإسراف يعتبر تبديداً لموارد الحياة، وقد نهى الله عنه.

١ ـ قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ٦٠].

فقد جعل سبحانه وتعالى لكل سبط من بني إسرائيل مشرباً من الحجر وأعلمهم به كي لا يطغى سبط على حق غيره، وقد فعل ذلك سبحانه لما علمه من أمرهم من كثرة الاختلاف وكثرة التطلع إلى نصيب الغير، ولكي لا يسرف أحدهم في الانتفاع بمشربه طامعاً في الاعتداء على حق غيره في انتفاعه بمشربه، ثم أعقب سبحانه ذلك بالنهي عن الفساد والذي يؤدي إليه الإسراف والاعتداء على حق الغير في الانتفاع.

فالإسراف يعتبر استنزافاً لموارد البيئة، ويؤدي حتماً إلى تشويهها ويهدد وجود الإنسان حاضراً ومستقبلاً. وقد وردت آيات عديدة تنهى عن السرف وتأمر الإنسان بالوسطية والاعتدال.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الإسراء: آية ٢٦ ـ ٢٧].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الإسراء: آية ٢٩].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الفرقان: آية ٦٧].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأعراف: آية ٣١].

والإسراف اعتداء على حق الآخرين في الحياة، وعلى حقهم في تحصيل ضروريات العيش، كالأكل والشرب من رزق الله.

الإسلام والأمر بالمشاركة في الانتفاع بما سخره الله في الكون

ومفهوم التسخير الإلهي كما يتضح في المنظور الإسلامي يوجب المساواة والمشاركة بين الناس جميعاً في التمكين من الانتفاع بمنافع الكون، وفي توفير القدر اللازم لاستمرار حياة الإنسان.

١ ـ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: آية ٢٩].

والآية فيها أكثر من دلالة على العموم، عموم النفع لعموم الجماعة الإنسانية، فالضمير في ﴿لَكُمْ﴾ والاسم الموصول ﴿مَا﴾ و﴿جَمِيعًا﴾ فيها دلالات العموم. و﴿جَمِيعًا﴾ في مكانها من سياق الجملة يَصِحُّ أن تكون تأكيداً على العموم الذي أفاده الاسم الموصول، ويصح أن تكون تأكيداً على الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ فيكون التأويل حينئذ إما: هو الذي خلق لكم جميعاً ما في الأرض. أو: هو الذي خلق لكم جميع ما في الأرض.

والاشتراك بين الناس جميعاً في أحقية الانتفاع بضروريات الحياة أوجبته الشريعة الإسلامية من منطلق المساواة في الإنسانية، ولذلك فيجب على المسلم أن يتعاون مع غيره في القيام بواجبات المحافظة على البيئة ورعايتها، كما اشتركا في حقوق الانتفاع بخيراتها، ولكن المسلم يتحمل واجباً أكبر من غيره، حيث ألزمته الشريعة تحمل واجب الدعوة إلى المنهج السوي والدين القويم، والذي يمثل الشق الآخر من عملية الإعمار.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة الأعراف: آية ٢٤].

﴿وَلَكُمْ﴾ أي لجميعكم وتفيد عموم الإنسان.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع الأرض وتفيد عموم المكان.

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أي موضع استقرار وأمان تتوفر فيه الضروريات الحياتية،

المادية من غذاء ومتنفس وحركة، والمعنوية من احترام وتكريم وحرية وعدل.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي موضع تتحقق فيه جماليات وتحسينيات تُوَفِّرُ للإنسان الراحة والمتعة في إقامته على الأرض.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقطاع الدنيا، وتفيد امتداد الزمان.

والآية الكريمة جمعت كل مفردات الوجود المشهود، الإنسان والمكان والزمان وأصول الحياة والجمال.

والآية وإن جاءت في صيغة خبرية ولكنها تنبئ الإنسان بمفهوم يترتب على استقراره في عقيدته عدة أوامر شرعية، تتعلق بمهمته في إعمار الكون وخلافته فيه بالحق الإلهي، فمن ذلك تشير إلى أحقية بني آدم جميعاً في الانتفاع بما في الأرض جميعها بما يوفر لكل فرد منهم الأمن والاستقرار والتمتع بجماليات الكون المسخر، وأن يستمر هذا الانتفاع طيلة بقائه في الدنيا، وأنه هناك مقدار أولي يشترك فيه جميع الناس بقدرٍ متساو، وبناءً على ذلك فلا يحق لإنسان أن يحتكر حق غيره في الحياة والوجود بأن يستحوذ على القدر الذي يمكنه من العيش آمناً حراً كريماً عنده ما يكفيه من المأكل والملبس والمسكن وبقية الضروريات والجماليات الأساسية.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سورة فصلت: آية ١٠].

والشاهد في الآية قوله: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾. فكلمة سواء تشير إلى معاني المساواة والمشاركة، فالله سبحانه وتعالى قدر في الأرض الأقوات والأرزاق للناس جميعاً، بمعنى أنها لن تضيق بهم، ولن تعجز يوما عن كفايتهم الغذائية، ولن تعطي سائلاً وتمنع آخر، بل ستستجيب للجميع على سواء، وذلك لأنه لم تتعلق مشيئة الله أن تكون الأرزاق حكراً على جنس دون آخر أو دُولَة بين فئة وجماعة دون أخرى، بل جعلها سواء للسائلين.

ولم يجعل الله عطاءه في الكون مرتبطاً بالاختيارات العقائدية للإنسان، فالكون يعطي الإنسان بصفته إنساناً مخلوقاً لله، يعطيه على قدر جهده وعلمه، وعلى قدر موافقته لسنن الكون وقوانين تسخيره، وليس الأمر مرتبطاً بإيمان أو كفر؛ لأن الله تبارك وتعالى أراد من الإنسان أن يأتيه طوعاً مختاراً محبّاً، ولو شاء سبحانه أن يعنته لفعل، أو يجبره لجاء كما جاءت غيره من الكائنات ولم يتخلف، ولكي لا تكون الحاجة إلى الطعام والشراب أو طلب الأمن دافعاً مرغماً على الإيمان جعلها الله سواء بين من آمن به ومن كفر.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة القمر: آية ٢٨].

فالماء هو أصل الحياة على الأرض، وبدونه يهلك الإنسان والحيوان، ولذلك وجب على الجميع اقتسامه، ولا يحرم منه إنسان.

وهذا التصور الإسلامي يبعد كثيراً عن المعاني العدوانية أو الاحتكارية الموجودة في المذاهب المادية، التي تصور الإنسان مالكاً مطلقاً ليس عليه سلطان فيما يملك، ولكن التصور الإسلامي تشيع فيه قيم الأمانة ومعاني المحبة والسلام.

وفي السنة النبوية الكثير من معاني التكافل والمشاركة بين الناس:

٥ ـ قال ﷺ: «الخَلقُ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ أَنفَعُهُم لِعِيَالِهِ»[1].

٦ ـ وقد قضى النبي ﷺ بإشراك الناس في عهده في ثلاثة أشياء، هي: الماء والكلأ والنار، وهي تمثل مصدر الحياة ومصدر الغذاء ومصدر الطاقة، فَعَن ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «المُسلِمُونَ شُرَكَاءُ في ثَلَاثٍ، في المَاءِ وَالكَلإِ وَالنَّارِ، وَثَمَنُهُ حَرَامٌ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: يَعنِي المَاءَ الجَارِي[2].

---

(١) البيهقي: (التاسع والثلاثون من شعب الإيمان ـ فصل في نصيحة الولاة ووعظهم).
(٢) ابن ماجه (كتاب الرهون ـ باب المُسلِمُونَ شُرَكَاءُ في ثَلَاثٍ).

● وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ قَالَ «ثَلاَثٌ لاَ يُمنَعنَ المَاءُ وَالكَلأُ وَالنَّارُ»[1].

● وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ قَالَ: «لاَ يُمنَعُ فَضلُ المَاءِ لِيُمنَعَ بِهِ فَضلُ الكَلإِ»[2].

وجاء في بعض الروايات: «النَّاسُ شُرَكَاءُ».

والحديث الثاني والثالث يفسران الحديث الأول، بما يعني أن النبي ﷺ يخبرنا بأن الله جعل الأشياء الثلاثة مشتركة بين الناس، ولا يعني ذلك أن النبي يوجب تقسيمها عليهم، ولكن غاية الأمر أنه يحق لكل شخص أن ينتفع منها بقدر حاجته، ويترك الباقي يذهب لغيره أو يسير في دورته في الكون.

والمشاركة تكون في أشياء كثيرة مما سخره الله للإنسان لينتفع به، ولكن الرسول ذكر الثلاثة لأهميتها، وفي روايات زاد عليها الملح، وهذا قضاء من النبي ﷺ بصفته حاكماً بين المسلمين، وكان المقصد والعلة من وراء هذا الحكم هو منع احتكار مثل هذه الأشياء الضرورية اللازمة لحياة الإنسان وغيره على الأرض، وعليه فيجوز للحاكم المسلم أن يقضي من الأحكام والقوانين التي تمنع من احتكار الأشياء اللازمة لحياة الإنسان وصلاح البيئة.

والماء خاصة لا يصبر على الحرمان منه كائن حي، ولذلك تَوَعَّدَ النبي ﷺ من يقوم على ماء في موطن شدة وحاجة فيشرب منه ويمنع فضله ابنَ السبيل، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يَنظُرُ اللَّهُ إِلَيهِم يَومَ القِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِم، وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ، فَمَنَعَهُ مِن ابنِ السَّبِيلِ»[3].

٧ ـ والإسلام احترم الملكية الفردية ومع ذلك أقر الملكية

---

(١) ابن ماجه: نفس الموضع السابق.
(٢) صحيح البخاري (كتاب الحيل ـ باب مَا يُكرَهُ مِنَ الاِحتِيَالِ في البُيُوعِ).
(٣) صحيح البخاري (كتاب المساقاة ـ باب إِثمِ مَن مَنَعَ ابنَ السَّبِيلِ مِنَ المَاءِ).

الجماعية، وجعل تنمية البيئة والمحافظة علي مدخراتها دائراً بين هاتين الملكيتين، فغريزة التملك والسيطرة لدى الإنسان محترمة ومعتبرة شرعاً، ولكن لا بد ألا تطغى على حق الجماعة في الانتفاع بضروريات الحياة كالماء والهواء والغذاء الضروري. وقد جعل الإسلام الملكية سواء كانت فردية أو جماعية تعمل في خدمة الوجود الإنساني، فالإسلام يجعل حفظ البيئة دائرا في مستويين من الحفظ: حفظ الفرد بصفته مالكاً أصلياً أو خليفةً مباشراً، وحفظ المجتمع والدولة والقانون بصفتهم مسؤولين عن حفظ الممتلكات الفردية، وضمانها، وصيانتها من الاعتداء، ومعاقبة من يهدرها أو يُفَوِّتُ على الفرد والجماعة نفعها.

فالملكية الفردية في المنظور الإسلامي سبيل وعامل يحفز على حفظ البيئة من باب تحفيزه على العمل والإتقان، ويتضح لنا كيف استخدم النبي ﷺ الملكية الفردية في تنمية البيئة وزيادة كفاءتها وعطائها للإنسان، حيث قال ﷺ: «مَن أَحيَا أَرضاً مَيتَةً فَهِيَ لَهُ، وَلَيسَ لِعِرقِ ظَالِمٍ حَقٌّ»[1].

والأَرض المَيتَة هِيَ الَّتِي لَم تُعَمَّر، شُبِّهَت عِمَارَتهَا بِالحَيَاةِ وَتَعطِيلهَا بِالمَوتِ.

وفي هذا الحديث احترام للعمل وتحفيز عليه وتقدير للمجتهد ومكافأته، وفيه جعل الملكية الفردية دافعاً للأفراد إلى التعمير والبناء.

❋ ❋ ❋

(١) أبو داود (كتاب الخراج ـ باب في إحيَاءِ المَوَاتِ).

الإسلام والأمر بالنظافة على مستوى الإنسان والبيئة

لقد جعل الإسلام الطهارة شرطاً في صحة العبادة، فاشترط لصحة الصلاة طهارة الجسد وطهارة المكان وطهارة الثوب وستر العورة.

وجعل الإسلام الطهارة سبيلاً مؤدياً إلى الحب الإلهي.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٢٢].

وذلك في الطهارة المادية، أي نظافة البدن من خارجه.

وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [سورة التوبة: آية ١٠٨].

والطهارة هنا نقاء النفس وصفاؤها، وطهارة الروح والعقل وصحة المنهج وسلامة التفكير.

وأمر الإسلام بالحفاظ على النظافة والطهارة في كثير من الآيات والأحاديث النبوية:

أ ـ منع من تلويث البيئة، ومن ذلك:

١ ـ عَن أَبِي بَرزَةَ قَالَ: قُلتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ عَلِّمنِي شَيئًا أَنتَفِعُ بِهِ، قَالَ: اعزِلِ الأَذَى عَن طَرِيقِ المُسلِمِينَ[1].

٢ ـ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقُوا اللَّاعِنَينِ»، قَالُوا: وَمَا اللَّاعِنَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَو ظِلِّهِم»[2]. يَتَخَلَّى: يَتَغَوَّطُ أَو يَبُولُ.

---

(١) مسلم (كتاب البر والصلة والآداب ـ باب فضل إزالة الأذى عن الطريق). وابن ماجه (كتاب الأدب ـ باب إماطة الأذى عن الطريق).

(٢) أبو داود (كتاب الطهارة ـ باب المواضع التي نهى النبيُّ ﷺ عن البول فيها). والحاكم في مستدركه ٢٩٦/١، رقم (٦٦٤) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم وقد أخرجه عن قتيبة، وله شاهد عن محمد بن سيرين بإسناد صحيح واللفظ غير هذا ولم يخرجه».

٣ ـ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: البَرَازَ في المَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ». المَوَارِدُ: المَجَارِى وَالطُّرُقُ إِلَى المَاءِ[١].

ب ـ أمر الناس بالتداوي والعلاج، وأوجب الاجتهاد في البحث عن الدواء النافع:

فقال ﷺ: «تَدَاوَوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَم يَضَع دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الهَرَمُ»[٢].

ج ـ أمر بمكافحة الأمراض ومنع انتشارها بين الناس:

وعرف الإسلام فكرة الحجر الصحي التي تمنع انتشار المرض من مكان لآخر، فقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن إِذَا سَمِعتُم بِهِ ـ يَعنِي الطَّاعُونَ ـ بِأَرضٍ فَلَا تُقدِمُوا عَلَيهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرضٍ وَأَنتُم بِهَا فَلَا تَخرُجُوا فِرَاراً مِنهُ»[٣].

د ـ أمر بنظافة المكان:

وكان ﷺ نموذجاً وقدوةً لأصحابه فقد كَانَ يَتَّبِعُ غُبَارَ المَسجِدِ بِجَرِيدَةٍ[٤].

وعندما توفيت المرأة التي كانت تهتم بالمسجد وتقوم على نظافته، ولم يبال الصحابة بأمرها كثيراً، فَعَافَوا أن يُنبِئُوا النبيَّ بأمرها، ولكنهم وجدوه ﷺ يسأل عنها ويفتقد دورها، ولما أعلموه بموتها، حزن، ووبخهم لتصغيرهم أمرها وعدم إعلامه بموتها، بل وأكثر من ذلك ذهب وهم معه إلى قبرها، فوقف عليه وصلى عليها، فتبين لهم من تعظيمه شأنها ومكانتها قيمة الدور الذي كانت تقوم به من نظافة المسجد، فَعَن أَبِي هُرَيرَةَ، أَنَّ امرَأَةً سَودَاءَ كَانَت تَقُمُّ المَسجِدَ ـ أَو شَابًّا ـ فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنهَا ـ أَو عَنهُ ـ فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «أَفَلَا كُنتُم

(١) أبو داود (كتاب الطهارة ـ باب المَوَاضِعِ التي نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ البَولِ فِيهَا).
(٢) أبو داود (كتاب الطب ـ باب في الرَّجُلِ يَتَدَاوَى).
(٣) صحيح البخاري (كتاب الطب ـ باب مَا يُذكَرُ في الطَّاعُونِ).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (كتاب الصلاة ـ في كنس المساجد).

آذَنتُمُونِي». قَالَ: فَكَأَنَّهُم صَغَّرُوا أَمرَهَا ـ أَو أَمرَهُ ـ فَقَالَ: «دُلُّونِي عَلَى قَبرِها». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيهَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ القُبُورَ مَملُوءَةٌ ظُلمَةً عَلَى أَهلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُم بِصَلاَتِي عَلَيهِم»[1].

هـ ـ وأمر بنظافة اليد:

١ ـ قال ﷺ: «بَرَكَةُ الطَّعَامِ الوُضُوءُ قَبلَهُ وَالوُضُوءُ بَعدَهُ»[2].

والوضوء غسل اليدين والفم من الزهومة، إطلاقاً للكل على الجزء مجازاً أو بناءً على المعنى اللغوي، قيل: والحكمة أن اليد لا تخلو عن تلوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة. والمراد من الوضوء بعد الطعام غسل اليدين والفم من الدسومات[3].

٢ ـ وأمر ﷺ بغسل اليد فور القيام من النوم وقبل استعمالها في شيء، فقال: «إِذَا استَيقَظَ أَحَدُكُم فَليُفرِغ عَلَى يَدِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ قَبلَ أَن يُدخِلَ يَدَهُ في إِنَائِهِ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَدرِي فِيمَ بَاتَت يَدُهُ»[4].

و ـ وأمر بنظافة الفم:

١ ـ وأمر ﷺ بنظافة الفم وشدد على ذلك، حتى قال: «مَن أَكَلَ ثُوماً أَو بَصَلاً فَليَعتَزِلنَا ـ أَو قَالَ ـ فَليَعتَزِل مَسجِدَنَا، وَليَقعُد في بَيتِهِ»[5].

ومعنى ذلك أنه من لم يحافظ على نظافة فمه وعلى طيب رائحته سيحرم من الجماعة؛ لئلا يؤذي مجاوريه في العبادة.

٢ ـ وأمر النبي ﷺ بمداومة نظافة الفم، وكان يحرص على استعمال السواك حتى في لحظاته الأخيرة، ويلاحظ في اختيار النبي للسواك كوسيلة لنظافة الفم أنه مستجلب من النبات فهو متوافق مع

---

(١) مسلم (كتاب الجنائز ـ باب الصلاة على القبر).
(٢) أبو داود (كتاب الأطعمة ـ باب في غَسلِ اليَدِ قَبلَ الطَّعَامِ).
(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود على نفس الحديث.
(٤) مسلم (كتاب الطهارة ـ باب كَرَاهَةِ غَمسِ المُتَوَضِّئ وَغَيرِهِ يَدَهُ المَشكُوك في نَجَاسَتِهَا في الإِنَاءِ قَبلَ غَسلِهَا ثَلاَثاً).
(٥) صحيح البخاري (كتاب الأذان ـ باب مَا جَاءَ في الثُّومِ النِّئ وَالبَصَلِ وَالكُرَّاثِ).

الإنسان، ويحقق طهارة الفم والأسنان واللثة، وسهل الاستعمال والحمل، ومتوفر بكثرة، ورخيص الثمن.

قال ﷺ: «مَطهَرَةٌ لِلفَمِ، مَرضَاةٌ لِلرَّبِّ»(١).

وقَالَ: «لَولاَ أَن أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي - أَو عَلَى النَّاسِ - لأَمَرتُهُم بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ»(٢).

ز - وأمر بنظافة الشعر:

١ - فقال: «مَن كَانَ لَهُ شَعرٌ فَليُكرِمهُ»(٣).

٢ - ومثله ما روي أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ الأَنصَارِيَّ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ لِي جُمَّةً أَفَأُرَجِّلُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَم وَأَكرِمهَا». فَكَانَ أَبُو قَتَادَةَ رُبَّمَا دَهَنَهَا في اليَومِ مَرَّتَينِ؛ لِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَكرِمهَا»(٤).

٣ - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في المَسجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ ثَائِرَ الرَّأسِ وَاللِّحيَةِ، فَأَشَارَ إِلَيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنِ اخرُج، كَأَنَّهُ يَعنِي إِصلاَحَ شَعرِ رَأسِهِ وَلِحيَتِهِ، فَفَعَلَ الرَّجُلُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيسَ هَذَا خَيراً مِن أَن يَأتِيَ أَحَدُكُم ثَائِرَ الرَّأسِ كَأَنَّهُ شَيطَانٌ»(٥).

٤ - وَعَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللَّهِ، قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى رَجُلاً شَعِثاً قَد تَفَرَّقَ شَعرُهُ فَقَالَ: «أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعرَهُ؟». وَرَأَى رَجُلاً آخَرَ وَعَلَيهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ: «أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغسِلُ بِهِ ثَوبَهُ؟»(٦).

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الصوم - باب سِوَاكِ الرَّطبِ وَاليَابِسِ لِلصَّائِمِ).
(٢) صحيح البخاري (كتاب الجمعة - باب السِّوَاكِ يَومَ الجُمُعَةِ).
(٣) سنن أبي داود (كتاب الترجل - باب في إِصلاَحِ الشَّعرِ).
(٤) موطأ مالك (كتاب الشعر - باب إصلاح الشعر).
(٥) موطأ مالك (كتاب الشعر - باب إِصلاَحِ الشَّعرِ).
(٦) أبو داود (كتاب اللباس - باب في غسل الثوب وفي الخلقان).

ح ـ وأمر بنظافة الثوب:

١ ـ فقد قال تعالى آمرا نبيه بتطهير ثوبه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [سورة المدثر: آية ٤].

٢ ـ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كَانَ فِي قَلبِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَن يَكُونَ ثَوبُهُ حَسَناً وَنَعلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمطُ النَّاسِ»[1].

٣ ـ وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُم قَادِمُونَ عَلَى إِخوَانِكُم، فَأَصلِحُوا رِحَالَكُم وَأَصلِحُوا لِبَاسَكُم حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُم شَامَةٌ في النَّاسِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفُحشَ وَلاَ التَّفَحُّشَ»[2].

فينبغي أن تكون شخصية المسلم متميزة بجمالها وكمالها.

❋ ❋ ❋

(١) مسلم (كتاب الإيمان ـ باب تحريم الكبر وبيانه).

(٢) أبو داود (كتاب اللباس ـ باب مَا جَاءَ في إِسبَالِ الإِزَارِ).

الإسلام والمحافظة على الماء

إن الماء هو أصل الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٣٠].

وقال تعالى عن تسخير الماء للإنسان: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة إبراهيم: آية ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [سورة البقرة: آية ١٦٤].

١ ـ وقد نهى النبي ﷺ عن تلويث الماء، فَنَهَى أَن يُبَالَ في المَاءِ الرَّاكِدِ[١].

والتبول في الماء الراكد لا يفسده فقط بل يجعله مستنقعاً وموطناً لانتشار الأوبئة والأمراض.

٢ ـ وأمر ﷺ بحفظ الطعام والشراب من الجراثيم فقال: «أَطفِئُوا المَصَابِيحَ إِذَا رَقَدتُم، وَغَلِّقُوا الأَبوَابَ، وَأَوكُوا الأَسقِيَةَ، وَخَمِّرُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَلَو بِعُودٍ تَعرُضُهُ عَلَيهِ». خَمِّرُوا الآنِيَةَ أَي: غَطُّوهَا[٢].

٣ ـ وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَن يُتَنَفَّسَ في الإِنَاءِ أَو يُنفَخَ فِيهِ[٣].

وذلك لحماية الماء والطعام من الميكروبات المتصاعدة من الجوف.

٤ ـ وكان ﷺ يشرب على ثلاثة أنفاس، ولا يدلق الماء في جوفه

---

(١) مسلم (كتاب الطهارة ـ باب النهي عن البول في الماء الراكد).
(٢) صحيح البخاري (كتاب الأشربة ـ باب تَغطِيَةِ الإِنَاءِ).
(٣) أبو داود (كتاب الأشربة ـ باب في النَّفخِ في الشَّرَابِ وَالتَّنَفُّسِ فِيهِ).

دفعة واحدة، وكان يقول: «إِنَّهُ أَروَى وَأَبرَأُ وَأَمرَأُ»[1].

وقد كان الأعرابي في الجاهلية يشرب دفعة واحدة، فيندلق الماء على صدره ويتساقط على لحيته، مما يعكس صورة شخص بدائي غير متحضر، يتناول الأشياء بنهم وشراهة، وهذه صورة أراد النبي ﷺ أن يفارقها المسلم في أسلوب طعامه وشرابه، كي يظهر صورة متحضرة ونظيفة.

٥ ـ ونهى عن الإسراف في استعمال الماء، ولو تعلق الأمر بالعبادة كالوضوء، فَقَد مَرَّ ﷺ بِسَعدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ: «مَا هَذَا السَّرَفُ؟». فَقَالَ: أَفِي الوُضُوءِ إِسرَافٌ؟ قَالَ: «نَعَم وَإِن كُنتَ عَلَى نَهرٍ جَارٍ»[2].

❋ ❋ ❋

(١) صحيح مسلم (كتاب الأشربة ـ باب كَرَاهَةِ التَّنَفُّسِ في نَفسِ الإِنَاءِ وَاستِحبَابِ التَّنَفُّسِ ثَلَاثاً خَارِجَ الإِنَاءِ).

(٢) ابن ماجه (كتاب الطهارة وسننها ـ باب مَا جَاءَ في القَصدِ في الوَضُوءِ وَكَرَاهِيَةِ التَّعَدِّي فِيهِ).

١ ـ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن قَطَعَ سِدرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رَأسَهُ في النَّارِ». يَعنِي: مَن قَطَعَ سِدرَةً في فَلاَةٍ يَستَظِلُّ بِهَا ابنُ السَّبِيلِ وَالبَهَائِمُ عَبَثاً وَظُلماً بِغَيرِ حَقٍّ يَكُونُ لَهُ فِيهَا صَوَّبَ اللَّهُ رَأسَهُ في النَّارِ[١].

٢ ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِن مُسلِم يَغرِسُ غَرساً إلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلاَ يَرزَؤُهُ أَحَدٌ إلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»[٢].

٣ ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن نَصَبَ شَجَرَةً فَصَبَرَ عَلَى حِفظِهَا وَالقِيَامِ عَلَيهَا حَتَّى تُثمِرَ كَانَ لَهُ في كُلِّ شَيءٍ يُصَابُ مِن ثَمَرَتِهَا صَدَقَةٌ عِندَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٣].

٤ ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِن قَامَت عَلَى أَحَدِكُمُ القِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسلَةٌ فَلْيَغرِسهَا»[٤].

وفي أمر النبي حض على مواصلة العمل بلا ضجر أو إحباط.

❋ ❋ ❋

(١) أبو داود (كتاب الأدب ـ باب في قَطعِ السِّدرِ).
(٢) مسلم (كتاب المساقاة ـ باب فَضلِ الغَرسِ وَالزَّرعِ).
(٣) مسند أحمد (حديث من شهد النبي)، والبيهقي في (الثاني والعشرون شعب الإيمان ـ باب من نصب شجرة فصبر على حفظها).
(٤) مسند أحمد (مسند أنس بن مالك).

الإسلام والمحافظة على الحيوان والرفق به

١ ـ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِيَّاكُم أَن تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُم مَنَابِرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُم لِتُبَلِّغَكُم إِلَى بَلَدٍ لَم تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ فَعَلَيهَا فَاقضُوا حَاجَتَكُم»(١).

٢ ـ وَعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ جَعفَرٍ، قَالَ: أَردَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلفَهُ ذَاتَ يَومٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لاَ أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفاً أَو حَائِشَ نَخلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأَنصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَت عَينَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ: «مَن رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَن هَذَا الجَمَلُ؟» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «أَفَلاَ تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدئِبُهُ»(٢). وَذِفرَاهُ: أَصلُ أُذُنَيهِ.

٣ ـ وَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ أَهلُ بَيتٍ مِنَ الأَنصَارِ لَهُم جَمَلٌ يَسنُونَ عَلَيهِ وَإِنَّ الجَمَلَ استُصعِبَ عَلَيهِم فَمَنَعَهُم ظَهرَهُ، وَإِنَّ الأَنصَارَ جَاؤُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نُسنِي عَلَيهِ وَإِنَّهُ استُصعِبَ عَلَينَا وَمَنَعَنَا ظَهرَهُ وَقَد عَطِشَ الزَّرعُ وَالنَّخلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ لأَصحَابِهِ: «قُومُوا». فَقَامُوا فَدَخَلَ الحَائِطَ وَالجَمَلُ فِي نَاحِيَةٍ فَمَشَى النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ نَحوَهُ فَقَالَتِ الأَنصَارُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ قَد صَارَ مِثلَ الكَلبِ الكَلِبِ وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيكَ صَولَتَهُ. فَقَالَ: «لَيسَ عَلَيَّ مِنهُ بَأسٌ». فَلَمَّا نَظَرَ الجَمَلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَقبَلَ نَحوَهُ حَتَّى خَرَّ سَاجِدًا بَينَ

---

(١) أبو داود (كتاب الجهاد ـ باب في الوقوف على الدابة).

(٢) أبو داود (كتاب الجهاد ـ باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم).

يَدَيهِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ بِنَاصِيَتِهِ أَذَلَّ مَا كَانَت قَطُّ حَتَّى أَدخَلَهُ في العَمَلِ[1].

٤ ـ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَافَرتُم في الخِصبِ فَأَعطُوا الإِبِلَ حَقَّهَا، وَإِذَا سَافَرتُم في الجَدبِ فَأَسرِعُوا السَّيرَ، فَإِذَا أَرَدتُمُ التَّعرِيسَ فَتَنَكَّبُوا عَنِ الطَّرِيقِ»[2].

٥ ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُذِّبَتِ امرَأَةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتهَا حَتَّى مَاتَت، فَدَخَلَت فِيهَا النَّارَ، لاَ هي أَطعَمَتهَا وَلاَ سَقَتهَا إِذ حَبَسَتهَا، وَلاَ هي تَرَكَتهَا تَأكُلُ مِن خَشَاشِ الأَرضِ»[3].

٦ ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَينَمَا رَجُلٌ يَمشِي بِطَرِيقٍ اشتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلبٌ يَلهَثُ يَأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَد بَلَغَ هَذَا الكَلبَ مِنَ العَطَشِ مِثلَ الذي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ البِئرَ فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الكَلبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا في البَهَائِمِ أَجراً؟ فَقَالَ: «في كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ»[4].

٧ ـ قَالَت عَائِشَةُ: كَانَ لآلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحشٌ، فَإِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَعِبَ وَاشتَدَّ وَأَقبَلَ وَأَدبَرَ، فَإِذَا أَحَسَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَد دَخَلَ، رَبَضَ فَلَم يَتَرَمرَم مَا دَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في البَيتِ كَرَاهِيَةَ أَن يُؤذِيَهُ[5].

٨ ـ وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ التَّحرِيشِ بَينَ البَهَائِمِ[6].

---

(١) مسند أحمد (مسند أنس بن مالك).
(٢) أبو داود (كتاب الجهاد ـ باب في سرعة السير).
(٣) البخاري (كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب حدثنا أبو اليمان).
(٤) البخاري (كتاب الأدب ـ باب رحمة الناس والبهائم).
(٥) مسند أحمد (حديث السيدة عائشة).
(٦) أبو داود (كتاب الجهاد ـ باب في التحريش بين البهائم).

٩ ـ وَعَن جَابِرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُرَّ عَلَيهِ بِحِمَارٍ قَد وُسِمَ في وَجهِهِ، فَقَالَ: «أَمَا بَلَغَكُم أَنِّي قَد لَعَنتُ مَن وَسَمَ البَهِيمَةَ في وَجهِهَا أَو ضَرَبَهَا في وَجهِهَا». فَنَهَى عَن ذَلِكَ[١].

١٠ ـ وَعَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللَّهِ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَن يُقتَلَ شَيءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبراً[٢].

١١ ـ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَتَّخِذُوا شَيئاً فِيهِ الرُّوحُ غَرَضاً»[٣].

١٢ ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالحَلُوبَ»[٤].

١٣ ـ وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ فَإِذَا قَتَلتُم فَأَحسِنُوا القِتلَةَ وَإِذَا ذَبَحتُم فَأَحسِنُوا الذِّبحَ وَليُحِدَّ أَحَدُكُم شَفرَتَهُ وَليُرِح ذَبِيحَتَهُ»[٥].

(فَإِذَا قَتَلتُم) أي قَوَداً قِصَاصاً، (فَأَحسِنُوا القِتلَةَ) أي هيئة القتل، والإحسان فيها اختيار أسهل الطرق وأقلها إيلاماً (وَإِذَا ذَبَحتُم) أي بهيمة تحل (فَأَحسِنُوا الذِّبحَ) الذبح بالرفق بها، فلا يصرعها بعنف، ولا يجرها للذبح بعنف، ولا يذبحها بحضرة أخرى (وَليُرِح ذَبِيحَتَهُ) وإراحتها تحصل بسقيها وإمرار السكين عليها بقوة ليسرع موتها فتستريح من ألمه.

قال الإمام النووي: وَهَذَا الحَدِيث مِن الأَحَادِيث الجَامِعَة لِقَوَاعِد الإِسلاَم. وَاللَّهُ أَعلَم.

١٤ ـ وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلاً أَضجَعَ شَاةً يُرِيدُ أَن يَذبَحَهَا وَهُوَ يُحِدُّ شَفرَتَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرِيدُ أَن تُمِيتَهَا مَوتَاتٍ؟ هَلاَ حَدَدتَ شَفرَتَكَ قَبلَ أَن تُضجِعَهَا»[٦].

---

(١) أبو داود (كتاب الجهاد ـ باب في وسم الدواب).
(٢) مسلم (كتاب الصيد والذبائح ـ باب النهي عن صبر البهائم).
(٣) مسلم (كتاب الصيد والذبائح ـ باب النهي عن صبر البهائم).
(٤) صحيح مسلم (كتاب الأشربة ـ باب جَوَازِ استِتبَاعِهِ غَيرَهُ إِلَى دَارِ مَن يَثِقُ بِرِضَاهُ بِذَلِكَ).
(٥) مسلم (كتاب الصيد والذبائح ـ باب الأَمرِ بِإِحسَانِ الذَّبحِ وَالقَتلِ وَتَحدِيدِ الشَّفرَةِ).
(٦) الحاكم في المستدرك (كتاب الأضاحي) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. والألباني في صحيح الجامع رقم (٩٣).

الإسلام ورحمة الطير

١ ـ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن قَتَلَ عُصفُوراً عَبَثاً عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَومَ القِيَامَةِ مِنهُ يَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ فُلَاناً قَتَلَنِي عَبَثاً وَلَم يَقتُلنِي لِمَنفَعَةٍ»[1].

٢ ـ فَبَينَا نَحنُ عِندَهُ إِذ أَقبَلَ رَجُلٌ عَلَيهِ كِسَاءٌ وَفِي يَدِهِ شَيءٌ قَدِ التَفَّ عَلَيهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَمَّا رَأَيتُكَ أَقبَلتُ إِلَيكَ فَمَرَرتُ بِغَيضَةِ شَجَرٍ، فَسَمِعتُ فِيهَا أَصوَاتَ فِرَاخِ طَائِرٍ، فَأَخَذتُهُنَّ فَوَضَعتُهُنَّ فِي كِسَائِي، فَجَاءَت أُمُّهُنَّ فَاستَدَارَت عَلَى رَأسِي فَكَشَفتُ لَهَا عَنهُنَّ فَوَقَعَت عَلَيهِنَّ مَعَهُنَّ، فَلَفَفتُهُنَّ بِكِسَائِي فَهُنَّ أُولَاءِ مَعِي. قَالَ: «ضَعهُنَّ عَنكَ». فَوَضَعتُهُنَّ وَأَبَت أُمُّهُنَّ إِلاَّ لُزُومَهُنَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصحَابِهِ: «أَتَعجَبُونَ لِرُحمِ أُمِّ الأَفرَاخِ فِرَاخَهَا؟». قَالُوا: نَعَم يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَوَالذي بَعَثَنِي بِالحَقِّ لَلَّهُ أَرحَمُ بِعِبَادِهِ مِن أُمِّ الأَفرَاخِ بِفِرَاخِهَا، ارجِع بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ مِن حَيثُ أَخَذتَهُنَّ وَأُمُّهُنَّ مَعَهُنَّ». فَرَجَعَ بِهِنَّ[2].

٣ ـ وَعَن عَبدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَانطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَينَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرخَانِ، فَأَخَذنَا فَرخَيهَا، فَجَاءَتِ الحُمَّرَةُ فَجَعَلَت تَفرُشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَن فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيهَا»[3].

❋ ❋ ❋

(١) مسند أحمد (حديث الشريد بن سويد الثقفي).
(٢) أبو داود (كتاب الجنائز ـ باب الأَمرَاضِ المُكَفِّرَةِ لِلذُّنُوبِ).
(٣) أبو داود (كتاب الجهاد ـ باب في كراهية حرق العدو بالنار).

الإسلام والتوازن البيئي

لقد نبه الإسلام على أهمية الحفاظ على التوازن البيئي، وأمر بحفظ أنواع الكائنات الحية وسلالاتها من الانقراض من أجل استمرار هذا التوازن.

١ ـ التوازن البيئي يقوم على حفظ المقادير الكمية والكيفية في الكون:

إن الله تبارك وتعالى قد وضع لكل شيء في الكون مقداراً محدداً بدقة وحكمة، وجعل العلاقات القائمة بين أجزائه تقوم على ميزان منضبط لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وإن أيَّ تَدَخُّلٍ من الإنسان يُخِلُّ بهذا التوازن الكمي في المقدار أو الكيفي في العلاقات يؤدي حتماً إلى فساد البيئة ويهدد الوجود.

أ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الحجر: آية ١٩].

والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد.

ب ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحجر: آية ٢١].

ج ـ وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الرعد: آية ٨].

د ـ وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الرعد: آية ١٧].

والشاهد في الآية قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ مما يشير إلى انضباط مقدار الماء النازل من السماء مع انضباط مساحة الأودية التي

جعلها الله في الأرض تتحمله وتسعه. ومن المفهوم ضمنا أنه عند حدوث أي خلل في هذا المقدار يحدث فساد الأرض وهلاك الإنسان؛ لأنه إن زاد الماء عما قُدِّرَ له من أماكن يسير فيها لأغرقَ وهَدَّمَ مظاهرَ الحياة التي ابتَنَاهَا الإنسان، وكذلك إن ضاقت الأودية ولم تسع الماء المقدَّرَ.

وهناك شاهد آخر جاء في قوله: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فالآية أشارت إلى ضربها مثلاً للحق والباطل، تمثل الحق (وهو ما قام عليه الخلق وهو ضد العبث والفساد والظلم) فيما ينفع الناس، وهو إصلاح الأرض وعمارتها، وتيسير الحياة على ساكنيها، وهذا هو الذي يمكث في الأرض، أي يبقى نفعه ويستمر أثره. وتمثل الباطل (الفساد والعبث والظلم) فيما يذهب جفاء، ولا يحصل منه صاحبه على منفعة حقيقية، ولا يبقى أثره في الأرض، بل هو إفساد وضياع يحدث في الأرض وفي حياة الناس.

هـ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر: آية ٤٩].

و ـ وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمٰن: ٥ ـ ٩].

والشاهد في الآيات: الحسبان، والميزان، والقسط. فالآيات تتحدث عن الخلق والأمر، والأمر قام على ما قام عليه الخلق من الحق والميزان، فطالبت الإنسان بضبط هذا الميزان وعدم الخسران فيه، بتخسير المقدار (الكمي) أو العلاقات (الكيفي) التي تتحكم فيه.

٢ ـ التوازن البيئي يقوم على حفظ سلالات الكائنات:

أ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ٣٨].

قال: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. فهي أمثالنا في كونها مخلوقة لله، مشتركة معنا في الوجود على الأرض، ولذلك فاحترام وجودها وعدم الاعتداء عليها واجب علينا، ورعاية حقها في الحياة هو جزء من عمارة الأرض وصلاحها، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى نوحاً أن يحمل في سفينته من كل أمة زوجين كي يحفظها من الانقراض.

ب ـ قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [سورة هود: آية ٤٠].

فجعل سبحانه أمر المحافظة على وجود الحيوانات والطيور وغيرها من الأهمية حيث بدأ أمره لنوح بحملها في السفينة، ثم عطف على ذلك أهله، ثم عطف عليهم المؤمنين. فكانت السفينة شركاً بينهم جميعاً في النجاة عليها كما كانت الأرض من قبل شركاً في احترام الحياة عليها، وفي ذلك ما يعكس أهمية المحافظة على التوازن البيئي وبقاء الأمم التي خلقها الله على الأرض.

وفي سنة رسول الله ﷺ نرى ما يدعو إلى احترام الحشرات والحيوانات والطيور والحرص على بقاء سلالاتها؛ لأنها أمم خلقها الله في الأرض، والمحافظة عليها جزء من المحافظة على التوازن البيئي الذي يُصلِحُ حياة الإنسان.

ج ـ قال رسول الله ﷺ: «قَرَصَت نَملَةٌ نَبيًّا مِنَ الأَنبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَريَةِ النَّملِ فَأُحرِقت، فَأَوحَى اللَّهُ إِلَيهِ أَن قَرَصَتكَ نَملَةٌ أَحرَقتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ»(١).

د ـ وقال ﷺ: «لَولاَ أَنَّ الكِلاَبَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرتُ بِقَتلِهَا فَاقتُلُوا مِنهَا الأَسوَدَ البَهِيمَ»(٢).

فالله لم يخلق شيئاً عبثاً، وفي كل شيء له حكمة.

قال النووي: وأما قوله: أمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، ثم

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير ـ حَدَّثَنَا يَحيَى بنُ بُكَيرٍ).

(٢) أبو داود (كتاب الصيد ـ باب في اتخاذ الكلب للصيد وغيره).

قال: «مَا بَالُهُم وَبَالُ الكِلَابِ». ثم رخص في كلب الصيد وكلب الغنم... فقال أصحابنا: إن كان الكلب عقوراً قُتِلَ، وإن لم يكن عقورا لم يَجُز قتله، سواء كان فيه منفعة من المنافع المذكورة أو لم يكن. قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين: والأمر بقتل الكلاب منسوخ، وقد صح أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب مرةً، ثم صح أنه نهى عن قتلها، قال: واستقر الشرع عليه، على التفصيل الذي ذكرناه. قال: وأمر بقتل الأسود البهيم، وكان هذا في الابتداء [يبدو أنه كان نوعاً عقوراً منتشراً في المدينة يغلب عليه إيذاء الإنسان] وهو الآن منسوخ. هذا كلام إمام الحرمين ولا مزيد على تحقيقه، والله أعلم[1].

ويظهر من أمره ﷺ بقتل الكلاب ثم تخصيصه بالأسود البهيم ثم نسخه أن الأمر كان يتعلق بمراعاة التوازن البيئي، وأن العلة التي دار معها الأمر هي زيادة أعداد الكلاب في المدينة بالشكل الذي كان يهدد أمن الإنسان وحياة غيره من الحيوانات. فكان أمره ﷺ بقتل الكلاب ثم تخصيصه ثم نسخه كل ذلك رحمة منه ومحافظة على البيئة الكلية والتوازن البيئي الذي يحفظ على الإنسان حياته وأمنه.

٣ ـ التوازن البيئي يقوم على إقامة المحميات البيئية:

قال ﷺ: «إِنَّ إِبرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي أُحَرِّمُ المَدِينَةَ حَرَامٌ مَا بَينَ حَرَّتَيهَا وَحِمَاهَا كُلُّهُ، لاَ يُختَلَى خَلاَهَا، وَلاَ **يُنَفَّرُ** صَيدُهَا، وَلاَ تُلتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلاَّ لِمَن أَشَادَ بِهَا، وَلاَ تُقطَعُ مِنهَا شَجَرَةٌ إِلاَّ أَن يَعلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ، وَلاَ **يُحمَلُ** فِيهَا السِّلاَحُ لِقِتَالٍ»[2].

قال النبي ﷺ: «إِنِّي حَرَّمتُ مَا بَينَ لاَبَتَي المَدِينَةِ كَمَا حَرَّمَ إِبرَاهِيمُ مَكَّةَ». وَقَالَ راوي الحديث: ثُمَّ كَانَ أَبُو سَعِيدٍ يَأخُذُ أَحَدَنَا في يَدِهِ الطَّيرُ فَيَفُكُّهُ مِن يَدِهِ ثُمَّ يُرسِلُهُ[3].

---

(١) النووي: شرح صحيح مسلم ١٨٦/٣.

(٢) مسند أحمد (مسند علي بن أبي طالب).

(٣) صحيح مسلم (كتاب الحج ـ باب التَّرغِيبِ في سُكنَى المَدِينَةِ وَالصَّبرِ عَلَى لأوَائِهَا).

وهذا أقرب شيء إلى فكرة المحميات الطبيعية التي عرفها الإنسان حديثاً، ولكنها محميات إسلامية تحفظ النبات والحيوان والإنسان ليس من الفناء والموت فقط، ولكن من مجرد الشعور بالخوف. فالمحميات الإسلامية والتي تتمثل في فكرة الحرم فرضت على الإنسان الأمن لكل من يدخل في حدودها من الأحياء.

الإسلام والسلام البيئي

يبدأ السلام البيئي من احترام الإنسان والإحسان إليه باعتباره جزءاً من البيئة، وحمايته وتنميته جزء من مهام الخلافة التي كلفنا الله بها، وإن أي اعتداء على الإنسان من ناحية هدم بنيانه أو الاعتداء على كرامته واحترامه وحريته لهو أكبر اعتداء وفساد في البيئة؛ لأنه يحرمها من اليد التي تقوم على حمايتها.

واحترام **الإنسان** للإنسان يبدأ من:

أولاً: التواضع:

وهو احترام إنسانية الإنسان، وعدم التعالي عليه لسبب أو لآخر، حتى وإن ضل إنسان طريق ربه فجحده وكفر بنعمه، يجب على من أنعم الله عليهم بالهداية إلى المنهج الحق وإلى الإيمان المتفق مع العقل والفطرة أن يحترموا كونه مخلوقاً لله، فيحترموا إنسانيته وحقه في المشاركة في التسخير والتعاون في المحافظة على الحياة والوجود المشترك.

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوحَى إِلَيَّ أَن تَوَاضَعُوا، حَتَّى لاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَفخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»(١).

وليس التواضع أن يحقر الإنسان نفسه أو يبخسها حقها من الكرامة والعزة والحرية، ولكنه يعني الاحترام، فَعَن أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يَحقِر أَحَدُكُم نَفسَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيفَ يَحقِرُ أَحَدُنَا نَفسَهُ؟ قَالَ: «يَرَى أَمراً لِلَّهِ عَلَيهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لاَ يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ يَومَ القِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَن تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشيَةُ النَّاسِ. فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنتَ أَحَقَّ أَن تَخشَى»(٢).

---

(١) سنن أبي داود (كتاب الأدب ـ باب في التواضع).

(٢) ابن ماجه (كتاب الفتن ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

ثانياً: عدم الإيذاء:

ومثال ذلك نهي النبي ﷺ عن إيذاء الجار، فَعَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن لاَ يَأمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[1]. أي أذاه.

وبمقتضى هذا النص لا بد أن يُجَنِّبَ المسلمُ جارَهُ أي شر أو إيذاء، والجار يشمل المسلم والكافر والحر والعبد والغني والفقير والقريب والأجنبي والقاصي والداني والأفراد والجماعات. ويشمل جار السكن وجار الصحبة وجار الطريق وجار العمل وجار المسجد.

وعموم لفظة «بوائقه» يشمل كل أذى أو اعتداء يُحدث تلوثاً أو تشويهاً في البيئة الإنسانية، سواء كان بصرياً أو ضوضائياً أو إشعاعياً أو هوائياً أو غير ذلك، وتشمل الأذى المادي والمعنوي، وحماية البيئة تبدأ من حماية الجار.

ويلاحظ في الحديث أنه لم ينه عن إيذاء الجار فقط، ولكن أمر بتأمينه من الأذى، أي جعله يشعر بالطمأنينة وسلامة الجانب في مجاورة المسلم؛ لأنه لا يتوقع منه شراً أبداً، ولن يُوصِلَهُ المؤمنُ إلى تلك الحالة إلا بِمُدَاومَتِهِ تَقدِيمَ البِرِّ والسلام لَه.

● ومن صور الإيذاء المنهي عنه والتي تحدث تلوثاً بصرياً كتابة الشعارات وتعليق الصور والإعلانات على جدران البيوت والمحلات دون إذن أصحابها، فذلك يعد اعتداء على ملكية الغير، فخارج البيت كداخله وتابع له.

فما بالنا بالدول التي تنتج الطاقة النووية وتسعى إلى دفن النفايات الإشعاعية الناتجة عن عملية التصنيع في أرض جيرانها، دون إذن منهم، أو بإرغامهم على قبول ذلك بالقوة.

● ولا أدل على احترام الجار من منع النبي ﷺ من أكل ثوماً أو

---

(١) مسلم (كتاب الإيمان ـ باب بيان تحريم إيذاء الجار).

بصلاً أن يحضر الجماعة في المسجد فيؤذي جيرانه برائحته الكريهة، وأمره أن يأخذ زينته عند كل مسجد.

● ويصف المقداد بن الأسود لطف رسول الله ﷺ ومحافظته على أصحابه ومجاوريه من إزعاجهم بالصوت فَقَالَ: فَكُنَّا نَحتَلِبُ فَيَشرَبُ كُلُّ إنسان مِنَّا نَصِيبَهُ، وَنَرفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ، فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيلِ فَيُسَلِّمُ تَسلِيماً لاَ يُوقِظُ نَائِماً، وَيُسمِعُ اليَقظَانَ[1].

● وكان ﷺ إذا قام يتهجد بالليل ـ في المسجد أو في بيته ـ قرأ بصوت يؤنس اليقظان ولا يوقظ الوسنان.

● وكان صحابة رسول الله ﷺ يقرعون بابه بأظافرهم. أدباً منهم مع رسول الله ﷺ[2].

ثالثاً: الحب:

قال رسول الله ﷺ: «لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفسِهِ»[3].

إذن فالثقافة الإسلامية هي ثقافة بيئية؛ لأن فيها احتراماً لصحة الإنسان وذوقه ومشاعره، والثقافة البيئية جزء رئيس من ثقافتنا الدينية حتى ولو لم ترد فيها نصوص صريحة[*].

❋ ❋ ❋

(١) مسلم (كتاب الأشربة ـ باب إكرَامِ الضَّيفِ وَفَضلِ إيثَارِهِ).
(٢) البخاري: الأدب المفرد (باب قرع الباب).
(٣) البخاري (كتاب الإيمان ـ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه).
(*) **هوامش البحث:** يلاحظ الاقتصار على ذكر الكتاب والباب من كتب الحديث عند تخريج الحديث، وذلك لأنه الشيء الثابت بين مختلف الطبعات.

البيئة والمحافظة عليها
من منظور إسلامي

إعداد
د. فريد بن يعقوب المفتاح
وكيل وزارة العدل والشؤون الإسلامية
عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
مملكة البحرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه الغرر الميامين، ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم إلى يوم الدِّين. أما بعد:

فإنَّ مِما لا شك فيه بأن رسالة الإسلام رسالة شاملة لكل جوانب الدِّين والدنيا، فشملت الحياةَ الإنسانية كلَّها، ومن الأمور التي شملتها اهتمامها بالبيئة، فقد أرست الأُسس والقواعد والمبادئ العامة التي تضبط علاقة الإنسان ببيئته، من خلال العلاقة السوية والمتوازنة التي تصون البيئة من ناحية، وتساعدها على أداء دورها الذي أراده الله تعالى من ناحية أخرى.

ومما يجدر ذكره أنَّ قضية البيئة وما تعانيه من تدهور واستنزاف وسوء استخدام، أصبحت من القضايا الملحّة في وقتنا الحاضر، هذا مع غياب الوعي والحسِّ البيئي الإسلامي الذي يجب أن يحكم سلوكيّاتنا وتصرّفاتنا تجاه بيئتنا.

لقد وصلنا ـ حقاً ـ إلى مرحلة أصبحنا فيها أحوج ما نكون إلى العودة الصادقة والمخلصة والواعية والملتزمة بتعاليم الإسلام وتوجيهاته السديدة، لنرسِّخ الوعي البيئي الإسلامي كي ننقذ البشرية مما تعانيه من مشكلات بيئية ناتجة من استغلال مدمِّر ومستنزف لمواردها، وصدق الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ حينما قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[1].

والفساد بمعناه الشامل ضد التعمير والصلاح، وهو: كُلُّ سلوك بشري يُفسد نعم الله تعالى، ويُحيلها من مصدر منفعة وحياة إلى مصدر

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

ضرر وخطر على الحياة، وهو يشمل الإفساد المادي بتخريب العامر، وإماتة الأحياء، وتلويث الطاهرات، وتبديد الطاقات، واستنزاف الموارد في غير حاجة أو مصلحة، وتعطيل المنافع وأدواتها، ويشمل أيضاً الإفساد المعنوي كمعصية الله تعالى، ومخالفة أمره، والكفر بنعمته، والتمرّد على شريعته، والاعتداء على حرماته، وإشاعة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وترويج الرذائل، ومحاربة الفضائل.

ومن هنا تبرز أهمية معالجة هذا الموضوع كبداية متواضعة نحاول من خلالها إيجاد الوعي البيئي الإسلامي، وإبراز التوجيهات والتعاليم الإسلامية الرشيدة من سوء استغلال البيئة، والإخلال بتوازنها، مما يهدد البشرية، ويعرقل مسيرة حركة الحياة على غير ما أمر الله سبحانه وتعالى.

إنني آمل أن تكون هذه الدِّراسة المتواضعة مُعينة على ترسيخ السلوك البيئي على هدي من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام لإيجاد أجيال تتعامل مع بيئتها بأسلوب راشد وعاقل، وبذلك نحقق هدفاً أساسياً من أهداف خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، وهو تعميرها وصيانتها وتنميتها، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1].

وأتمنى أن تكون هذه الدِّراسة المتواضعة بداية لدراسات أخرى تسهم في ترسيخ وتعميق المفاهيم البيئية الإسلامية لدى الأجيال القادمة.

نسأل الله أن يوفقنا إلى صراطه المستقيم، وأن يوجهنا إلى ما ينفع المسلمين والبشرية كافة، ويحقق لهم الخير والرّفاه، ونسأله عز وجل أن يديم علينا نعمة الإسلام، وأن يثبت قلوبنا على الحق والخير والصلاح.

ويسعدني أن أقدِّم هذا البحث الموجز عن (البيئة والمحافظة عليها

---

(١) سورة هود، الآية: ٦١. قال العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير ١٦٣/٧: (والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسّين والتاء للمبالغة كالتي في استبقَى واستفاق. ومعنى الإعمار أنهم جَعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأنّ ذلك يعدّ تعميراً للأرض حتى سمي الحرث عِمارة، لأنّ المقصود منه عَمر الأرض).

من منظور إسلامي)، للمشاركة في مؤتمر الفقه الإسلامي الدولي.

وقد اشتمل البحث على مقدمة وأربعة فصول، وخاتمة[1]:

- **الفصل الأول: رعاية البيئة في الشريعة الإسلامية**، وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول: تعريف البيئة لغةً واصطلاحاً.**
- **المبحث الثاني**: التأصيل الشرعي لرعاية البيئة في الإسلام، وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: التوازن البيئي في الإسلام.
- المطلب الثاني: فكرة المحميات الطبيعية.
- المطلب الثالث: الملكية المشتركة لعناصر البيئة في الإسلام.
- المطلب الرابع: رعاية البيئة في تاريخنا الإسلامي.

- **الفصل الثاني: رعاية البيئة المائية في الإسلام**، وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول**: المحافظة على الماء، وحمايته من التلوث.
- **المبحث الثاني**: النهي عن استنزاف مصادر الماء.

- **الفصل الثالث: رعاية البيئة البرية في الإسلام، وفيه ثلاثة مباحث:**

- **المبحث الأول**: رعاية البيئة النباتية.
- **المبحث الثاني**: رعاية البيئة الحيوانية.
- **المبحث الثالث** مصادر تهديد النظام البيئي البري.

---

(١) استفدت بعض التقسيمات المذكورة من بحث للدكتور عبد السميع الأنيس بعنوان (رعاية البيئة في السنة النبوية المطهرة)، ومن بحث للدكتور محمد عيد الصاحب بعنوان: (النهج الإسلامي في حماية البيئة من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية).

- **المبحث الرابع**: رعاية البيئة الجوية في الإسلام.

● **خاتمة**، وفيها أهم التوصيات.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

❋ ❋ ❋

الفصل الأول
رعاية البيئة في الشريعة الإسلامية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف البيئة لغةً واصطلاحاً.

المبحث الثاني: التأصيل الشرعي لرعاية البيئة في الإسلام.

❋ ❋ ❋

المبحث الأول
تعريف البيئة لغةً واصطلاحاً

أولاً: البيئة لغةً: مأخوذ من الفعل باء، يقال: باء يبوء بوءاً ومباءة، وأصل الباء من الموضع الذي تبوء إليه الإبل، أي ترجع، ثم جعل عبارة عن المنزل.

ولهذا كان أشهر معاني الباءة أو المياه، هي الموضوع أو المنزل والإقامة[1].

وللبيئة معان أخرى، لكن هذا المعنى الذي ذكرته هو المرتبط بموضوع بحثنا.

ثانياً: البيئة في الاصطلاح: ليس للفظ البيئة معنى اصطلاحيا محددا، فهي كلمة شاع استعمالها، وكثر تداولها، وهي مع غموض معناها وصعوبة تحديد مفهومها تلقى القبول عند الباحثين، ولذلك استقر الباحثون على استعمال لفظ البيئة مضافة إلى موضوع البحث، فقالوا: البيئة الطبيعية، والبيئة الثقافية، والبيئة الاجتماعية وهكذا.

وموضوع البحث يتناول البيئة الطبيعية، وهي التي تشمل على ما يحيط بالإنسان من تربة وماء وحيوان ونبات وهواء، ويطلق عليها: البيئة المائية، والبرية، والجوية.

❋ ❋ ❋

(١) ينظر: لسان العرب ٣٦/١، والقاموس المحيط ص٤٣.

المبحث الثاني
التأصيل الشرعي لرعاية البيئة في الإسلام

تمهيد:

لا شك أن الله سبحانه وتعالى نهى عن الإفساد في الأرض فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[1] والفساد في الإسلام يشمل الجانب العقدي والأخلاقي وكل ما هو ضار في هذا الكوكب، ويأتي التلوث البيئي على رأسها، لأنه يطال الإنسان والحيوان والنبات، ومتناقض مع ما يريده سبحانه من عمارة الأرض وعدم الإفساد فيها، وللحديث عن نظرة الإسلام إلى ضرورة الاهتمام بالبيئة نشير إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول: التوازن البيئي في الإسلام.

المطلب الثاني: فكرة المحميات الطبيعية.

المطلب الثالث: الملكية المشتركة لعناصر البيئة في الإسلام.

المطلب الرابع: رعاية البيئة في تاريخنا الإسلامي.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
التوازن البيئي في الإسلام

إن البيئة بكل عناصرها تخضع لقانون التوازن، وهو نظام لا يقبل العبث أو النقص أو التعديل، فلا تقوم بوظائفها على الوجه الأكمل إلا في ظل هذا القانون، وأي خلل في عنصر من عناصره يؤدي إلى خلل وظائف البيئة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

ولهذا فإن الحديث عن الأرض كأحد مصادر البيئة الرئيسة لا يمكن فصله عن الماء والهواء وغير ذلك، بسبب التشابك المعقد بين هذه العناصر، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[2] وقال أيضاً: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[3]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾[4].

إن هذه الآيات وغيرها تدل بوضوح على أن كلَّ موارد البيئة الحيّة كالحيوان والنبات، وغير الحيّة كالهواء والماء والتربة تخضع لقانون التوازن، وأنَّ كلَّ شيء في الكون ثابت وموزُون ومقدَّر، وعليه فأي اعتداء على عنصر من عناصرها هو اعتداء على جميع عناصرها لأنه سيؤدي لا محالة إلى اضطراب في وظائف هذه العناصر، وتختلّ معها العلاقات التفاعلية التبادليّة بينها، ومن ثَمَّ تتحول عناصرها البيئية من عناصر مفيدة إلى عناصر ضارة مسببة للكثير من الأخطار التي تهدد مستقبل مسيرة الحياة[5].

* * *

المطلب الثاني
فكرة المحميات الطبيعية

من روائع ما جاء في سنة النبي ﷺ تدريب المسلم إذا أحرم بالحج أو العمرة أن يحترم حيوانات البيئة ونباتها، فلا يحلّ قتل صيدها، ولا قطع شجرها، كما جعل من منطقة الحرم في مكة

(١) سورة الحجر، الآية: ١٩.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.
(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ١١.
(٥) ينظر: كتاب قضايا البيئة من خلال القرآن والسنة للدكتور محمد السيد جميل ص٥٩.

(بيئة محمية) فلا يُمَسَّ فيها حيوان إلا المؤذي، ولا نبات إلا ما اقتضته الضرورة.

يدل على ذلك ما جاء في حديث النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله حَرَّم مكَّة»، وفيه: «لا يُختَلى خَلاَها، ولا يُعضَدُ شَجَرها، ولا يُنَفَّرُ صيدها»، قال العباس: «إلا الإذخر»[1].

وإذا كان حرم مكة قد أجمع عليه عند العلماء، فإن المدينة المنورة هي أيضا حرم عند الجمهور كما استفاضت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: «إن إبراهيم حرَّم مكة، وإني حرَّمت المدينة ما بين لابيتها، لا يقطع عُضَاها، ولا يصادُ صيدها»[2].

وعن أبي هريرة أنه كان يقول: لو رأيتُ الظِّبَاءَ تَرتَعُ بالمدينةِ مَا ذَعَرتُها، قال رسول الله ﷺ: «ما بين لاَبَتَيها حَرَامٌ»[3].

وعن الزُّهريِّ رحمه الله قال: (بَلَغَنا أن رسول الله ﷺ حَمَى النَّقِيعَ)[4].

ففي هذه الأحاديث دليل على أن النبي ﷺ خصص مناطق معينة كمحميات طبيعية للمحافظة على الثروة النباتية والحيوانية في مكة والمدينة، ويمكن أن يقاس عليها غيرها إذا ما أراد المسلمون الاستفادة من هذا النظام في المحافظة على الثروة النباتية والحيوانية.

---

(١) رواه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٣)، وقوله: «لا يختلى خلاها» معنى الخلاء: الرطب، واختلاؤه: قطعه واحتشاشه، وقوله: «لا يعضد شجرها» أي لا يقطع، وينظر: فتح الباري ٤٨/٤.

(٢) رواه البخاري (٢٠٢٣)، ومسلم (١٣٦٠)، واللفظ له، والعضاه: كل شجر يعظم وله شوك، ينظر: فتح الباري ١٥٨/١.

(٣) رواه البخاري (١٧٧٤)، ومسلم (١٣٧٢)، واللابة: الحرة، وهي الحجارة السوداء، ينظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٢٩٠/١٠.

(٤) رواه البخاري (٢٢٤١) بلاغاً، والنقيع: واد بالقرب من المدينة، والحمى: موضع فيه الكلأ والعشب يحميه الإمام من الناس فلا يرعى.

كما يشار هنا إلى أن هذه المحميات لها حدودها، وأبعادها التشريعية المناسبة لحماية الحياة البرية فيها، وبذلك كان للإسلام السبق في إدخال هذه التشريعات الحضارية في المحافظة على البيئة[1].

❋ ❋ ❋

المطلب الثالث
الملكية المشتركة لعناصر البيئة في الإسلام

يقرّر المهتمون بشؤون البيئة: أن فكرة الملكية المشتركة للإنسان التي يراد من ورائها الحث على صيانة الموارد الطبيعية، وعدم التعسف في استعمالها هي فكرة حديثة نسبياً، في حين أن فكرة الملكية المشتركة للموارد الطبيعية للبيئة قد وجدت في الإسلام منذ مبعث الرسالة، فقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «المسلمونَ شُرَكاءُ في ثلاثٍ: في الماء، والكلأ، والنار»[2].

والأمور الثلاثة المذكورة في هذا الحديث هي العناصر الرئيسة في تكوين البيئة، وهي التي تشكل قوام الحياة، وهو مفهوم بيئي حديث يطرحه كثير من علماء البيئة الآن، ويعرف باسم (النظام الإيكولوجي)[3] ويعني دراسة العلاقات بين عناصر البيئة الحية وغير الحية، بحيث تتفاعل بعضها مع بعض في نظام دقيق، واعتمد كل عنصر منها على العناصر الأخرى الموجودة في المحيط نفسه.

والحديث واضح في التأكيد على فكرة الاشتراك في هذه الموارد البيئية، لكن هذا في المباح العام، وليس فيما كان محرزاً أو ملكاً للغير.

---

(١) ينظر: كتاب قضايا البيئة من خلال القرآن والسنة للدكتور محمد السيد جميل ص٨٢.

(٢) رواه أبو داود (٣٤٧٧)، وأحمد ٣٦٤/٥، وإسناده صحيح، وينظر: نصب الراية للزيلعي ٣٥٢/٤.

(٣) ينظر موقع (أخبار البيئة) على شبكة الأنترنت.

ولا شك أن هذه الفكرة تدفع الإنسان للمحافظة على تلك الموارد، لأن إهدارها تعطيل للمهمة التي أناطه الله تعالى بها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[1]، وقال أيضا: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[2] والإفساد يكون بالإتلاف، وتفويت المنافع، والتلويث، والإسراف، مما ينتج عنه تعطيل الحياة على وجه الأرض، ويعد بذلك إضاعة لمقاصد الشريعة الإسلامية.

ومن أبرز قواعد الشريعة عند الأصوليين: إن الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. يقول ابن القيِّم: (فكل مسألة خرجت عن العَدل إلى الجَور، وعن الرَّحمة إلى ضِدّها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه)[3].

ويقول الأستاذ علال الفاسي رحمه الله: (المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كُلِّفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل، وفي العمل، وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع)[4].

❋ ❋ ❋

المطلب الرابع
رعاية البيئة في تاريخنا الإسلامي

هناك وقائع تاريخية تعبر عن الاهتمام الإسلامي بالبيئة، وقد أشار

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.
(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/٣.
(٤) ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ص ٤٢.

إلى بعضها بعض الباحثين منها: وجود مؤسسات لرعايتها في بعض الفترات، حيث إنها لم تترك لضمير الفرد فقط.

ومن هذه المؤسسات: مؤسسة الحسبة التي كانت تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، ومن الكتب التي صدرت في هذا الأمر كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للإمام عبد الرحمٰن بن نصر الشيرازي المتوفى سنة (٥٨٩)، ومما ذكره هذا الكتاب في شأن المراقبة على الخبازين ما ملخصه: ضرورة رفع أسقف الحوانيت وأن يصمم فيها منافذ لتسريب الدخان حتى لا يتضرر الناس، وأن يقوم الخباز بمسح الفرن بخرقة نظيفة قبل وضع العجين فيه، وأن تنظف أوعية العجين جيدا بالماء، وألا يعجن العجَّان برجليه الدَّقيق لأن في ذلك مهانة للطعام، وأن يضع العجان على فمه كمامة حتى لا يعطس في العجين، وأن يشد على جبينه عصابة حتى لا يسقط عرقه أثناء العجين، وأن يُخصص له شخص بمنشّة حتى يطرد عنه الذُّباب إذا كان يعجن بالنهار[1].

وعرف المسلمون أثر المناخ في الناحية الصحيّة، فقد قام السلطان العبَّاسي عَضُد الدَّولة بالإفادة من موهبة الطبيب الرَّازي المشهور واستشاره في اختيار موضع لبناء البِيمَارستان العَضُدي في بغداد، فذهب الرَّازي إلى نواح يطلب أصحّها هواء وأطهرها جواً، فعَلَق قِطعة من اللحم في جهات مختلفة، فالموضع الذي بقيت فيه قطعة اللحم أطول فترة دون أن تفسد فذلك هو المكان الصحّي، وهو المكان الذي اختاره لبناء البيمارستان العَضُدي، وهو المستشفى المشهور في بغداد أيام الخلافة العباسيّة[2].

---

(١) ينظر: كتاب رعاية البيئة في الشريعة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي ص٦٤.

(٢) ينظر: كتاب العامة في بغداد للأستاذ فهمي سعد ص١٥٥.

الفصل الثاني
رعاية البيئة المائية في الإسلام

تمهيد:

يعدُّ الماء من أهم العناصر البيئيّة التي تتوقف عليها حياة الإنسان على هذه الأرض، وهو نعمة من نعم الله عز وجل، كما أنه أساس الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1].

وشكر هذه النعمة يكون بالمحافظة عليها، وإبعاد مصادر التلوث عنها، كما يكون بعدم الإسراف فيها، وعليه فإن الحديث عن رعاية البيئة المائية يكون في مبحثين:

المبحث الأول: المحافظة على الماء، وحمايته من التلوث.

المبحث الثاني: النهي عن استنزاف مصادر الماء.

❋ ❋ ❋

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

المبحث الأول
المحافظة على الماء، وحمايته من التلوث

تتواجد بين أيدي العلماء اليوم حقائق مذهلة مفزعة عن حجم ظاهرة تلوث البحار والمحيطات والأنهار، بحيث أصبح ٥٠٪ من كل أنهار العالم ملوثة بالملوثات الصناعية والكيميائية السامة.

ومن المعلوم أن المحافظة على الماء هو أساس المحافظة على الحياة بجميع أشكالها، ولذلك جاءت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ في المحافظة على الماء، والنهي عن إفساده وتلويثه.

يدل على ذلك:

أ) ما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبولنَّ أَحَدُكم في الماء الدَّائِم ثم يَغتَسِل فيه»[1].

وجه الدِّلالة:

أن النبي ﷺ نهى الأفراد عن البول في الماء منعاً للتلوث، فيدخل في هذا النهي من باب أولى كافة أوجه تلويث الماء، ومنها على سبيل المثال:

١) جرُّ مياه المجاري لتصبَّ في البحار أو الأنهار.

٢) طرح مخلفات المصانع الكيماوية وغيرها.

٣) دفن النِّفايات الخطرة والسامة، وكلُّ النفايات النووية والكيمياوية وغيرها، الأمر الذي يخلُّ بالتوازن الحيوي للمياه الجوفية، وما

(١) رواه البخاري (٢٣٦)، ومسلم (٢٨٢).

يتبع ذلك من إخلال بالتوازن البيئي عموماً[1].

ب) ومنها: أن النبي ﷺ أمر بتغطية الأواني للمحافظة على الماء وحمايته من التلوث، يدل على ذلك ما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وخَمِّروا آنيتكم» وفي رواية: «وخَمِّروا الطَّعَام والشَّرَاب»[2].

ج) ومن ذلك: النهي عن التنفس أو النفخ في الماء لما يمكن أن ينجم هذا النفخ من انتقال الجراثيم إلى الإناء المنفوخ فيه، يدل على ذلك قوله ﷺ: «إذا شَرِب أَحَدُكم فلا يَتَنَفَّسُ في الإناء»[3].

د) ومن توجيهات النبوة في ذلك أنه عليه الصلاة والسلام عدَّ تلويث مصادر الماء مجلبة للعن، يدل على ذلك ما رواه معاذ بن جبل رضي عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «اتَّقوا الملاعِنَ الثلاثَ: البُرَازُ في الموارِد، وقَارِعةُ الطَّريق، والظِّلُ»[4].

إنَّ ترتيب اللَّعن على التبول في موارد المياه يدل على مدى التشدّد

---

(١) أفاد تقرير دولي أنه تم دفن نحو ملايين طن من النفايات في إحدى عشر دولة آسيوية خلال أربع سنوات، وفي لبنان تم اكتشاف شحنة نفايات قادمة من ألمانيا، وفي الصومال كان انهيار الدولة عاملاً أساسياً في تحول المياه الإقليمية والأراضي الصومالية إلى مقبرة للنفايات، وتم اكتشاف مدافن نفايات في إحدى الولايات النيجرية، وفي الصين يجري التحقيق في وصول شاحنات نفايات أميركية إلى موانئ عديدة، وفي البوسنة تتهم السلطة البوسنية قوات حفظ السلام ببناء مستودع كبير لتخزين النفايات النووية، نقلاً عن موقع قناة الجزيرة القطرية.

(٢) رواه البخاري (٥٣٠٠)، وفي (٥٩٣٨)، ومسلم (٢٠١٢)، و«خمروا» - بفتح المعجمة وتشديد الميم - أي غطوها، ينظر: تحفة الأحوذي ١١٨/٨.

(٣) رواه البخاري (١٥٢) من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، وقال السندي في حاشية سنن النسائي ٤٣/١: قوله: «فلا يتنفس في الإناء» أي من غير إبانته عن الفم، وهذا نهي تأديب لإرادة المبالغة في النظافة إذ قد يخرج مع النفس بصاق أو مخاط أو بخار رديء فيحصل للماء به رائحة كريهة، فيتقذر بها هو أو غيره عند شربه.

(٤) رواه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، وإسناده حسن.

في أمر تلويث المياه وإفساده، بحيث استحق فاعل ذلك الطرد من رحمة الله.

(وفي هذا توجيه نبوي عظيم بأن تبقى موارد المياه ـ أي طرقه التي يجري فيها ـ نظيفةً، بعيدة عن الأذى، حتى لا يقع التلوث للماء إذ كان قد ذكر البُراز، فهو تنبيه إلى ضرورة إبعاد المجاري الصحيّة عن مجاري الماء، ويمكننا الاستفادة من هذا الحديث بوضع القوانين اللازمة المحافظة على مجاري المياه المتمثلة بمجاري الأنهار، والشلالات، والعيون، والينابيع، والقنوات المائية، والأفلاج، وكذلك الأوعية التي تكون مجرى للمياه في وقت من الأوقات، بحيث تبقى هذه الموارد المائية سليمة من الناحية البيئية، ويكون ذلك بصيانتها، وتغطيتها، والمحافظة على نظافتها، وعدم تحويل شيء من المكبّات الملوثة إليها، ثم إن فعل النبي ﷺ يعالج هذه القضية من حيث ورد أنه ﷺ كان إذا أراد قضاءَ حاجَته أبعدَ[1]، فبُعدُه ﷺ عن تجمعات الناس في قضاء حاجته يمثل تصوّراً وحلاً لمشكلة الصرف الصحي التي يعاني منها المجتمع المعاصر، وهذا الحل يمثل بإبعاد مجاري الصرف الصحي إلى أمكنة نائية، بحيث لا يعود لها أثر سلبي على أي جانب من الجوانب البيئية المختلفة)[2].

❋ ❋ ❋

(١) رواه أبو داود (١)، والترمذي (٢٠)، والنسائي (١٧)، وابن ماجه (٣٣١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: بحث (المنهج الإسلامي في حماية البيئة) للدكتور محمد عيد الصاحب ص ٤٨٢.

المبحث الثاني
النهي عن استنزاف مصادر الماء

إنَّ الاستفادة المثلى من هذا المورد الحيوي يتطلب منهجاً رشيداً في استعماله، والانتفاع به، وقد جاءت التوجيهات القرآنية لتمنع الإسراف في استعمال الماء، قال الله عز وجل: ﴿وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1].

وكذلك نجد أنَّ النبي ﷺ نهى عن التبذير في استعمال الماء والإسراف فيه، مما يؤدي إلى استنزافه.

ومن النصوص الواردة في ذلك:

١ ـ ما جاء من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال ﷺ: «كُل واشرَب مِن غَيرِ إسرَافٍ ولا مَخِيلة»[2].

٢ ـ ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِسَعدٍ وَهُو يتوضَّأ فقال: «ما هذا الإسرَافُ يا سَعدُ؟». فقالَ: وَهل في الماءِ إسرَافٌ يا رسولَ الله؟ قال: «نَعم، وإن كنتُ على نَهرٍ جَارٍ»[3].

وجه الدلالة:

أن النبي ﷺ لم يعدَّ ندرة الماء وقلّته هي المبرّر لعدم الإسراف في استعمال الماء، بل قد جاء النهي عن الإسراف حتى مع كثرته

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) رواه النسائي (٢٥٥٩)، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وأحمد ٣٨١/٢، قال المناوي في فيض القدير ٤٦/٥: (لا مخيلة) كعظيمة بمعنى الخيلاء وهو التكبر، وقيل: بوزن مفعلة، من اختال إذا تكبر أي بلا عجب ولا كبر.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٤)، وأحمد ٢٢١/٢.

وتوفره كما جاء ذلك في قوله: «وإن كنتُ على نَهر جَارٍ».

٣ ـ حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جَاء أَعرابيٌّ إلى النبي ﷺ يسأَلهُ عَنِ الوُضُوءِ، فأَرَاهُ ثَلاثاً، ثُمَّ قال: «هذا الوضوءُ، فَمن زَاد على هذا فقد أَسَاءَ، وتَعَدَّى، وظَلَم»[1].

٤ ـ وكان الرَّسولُ ﷺ يَغتسل بالصَّاع، ويتوضّأ بالمدِّ[2].

٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَغتَسِلُ أَحَدُكُم في الماءِ الدَّائم وَهُو جُنُبٌ»، فَقِيل: كيف يفعلُ يا أبا هُرَيرة؟ قال: يتناولهُ تَنَاولاً[3].

ولا شك أن هذه التوجيهات القرآنية والنبوية تشكِّل دَعوَةً صَرِيحةً إلى ضرورة الاعتدال والاقتصاد، وحُسن استغلال موارد البيئة، وكل هذا يُؤَدِّي بالضرورةِ إلى معالجة مشكلةٍ من أهم مشكلات البيئة ألا وهي مشكلةٌ نُدرة المياه العذبة، وهي مشكلة تؤدي إلى كثير من الصراعات الدولية والإقليمية في وقتنا الحاضر.

* * *

(١) رواه النسائي (١٤٠)، وابن ماجه (٤٢٢)، وأحمد ١٨٠/٢.

(٢) رواه البخاري (١٩٨)، ومسلم (٣٢٥) من حديث أنس، والصاع أربعة أمداد إلى خمسة.

(٣) رواه مسلم (٢٨٣).

الفصل الثالث
رعاية البيئة البرِّية في الإسلام

تمهيد:

تشمل البيئة البرِّية كل مظاهر الحياة النباتية والحيوانية على اليابسة والماء، فهي من الأنظمة الحيويّة، ذاك لأن اعتماد الإنسان وغيره من الكائنات الحيّة على الثروة النباتية، والثروة الحيوانية، فما هي يا ترى وجوه رعاية البيئة البرية في الإسلام؟

للجواب عن هذا السؤال يتطلب منا البحث في عدة قضايا، سأجعلها في مبحثين:

المبحث الأول: نظافة البيئة البرّية، وحمايتها من التلوث في الإسلام.

المبحث الثاني: رعاية عناصر البيئة البرّية في الإسلام، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رعاية البيئة النباتية.

المطلب الثاني: رعاية البيئة الحيوانية.

المبحث الثالث: مصادر تهديد النظام البيئي البري.

❋ ❋ ❋

المبحث الأول

نظافة البيئة البرية، وحمايتها من التلوث في الإسلام

وردت عن النبي ﷺ أحاديث تفيد ضرورة أن يتوجه المسلمون إلى أهمية نظافة البيئة، وحمايتها من التلوُّث:

١) لعل من أروع ما يطالعنا في هذا المجال أن النبي ﷺ عدَّ النظافة شعبةً من شعب الإيمان، وجزءا من عقيدة المسلم التي يجب أن يتمثَّلها واقعاً عمليًّا في حياته، يدل على ذلك قوله ﷺ: «الإِيمَانُ بِضعٌ وَسَبعُونَ - أَو - بِضعٌ وَسِتُّونَ شُعبَةً، فَأَفضَلُهَا قَولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَدنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَن الطَّرِيقِ»[١].

٢) كما أنه ﷺ جعلَ النَّظافة عبادةً من العبادات التي يتقرَّب الإنسان بها إلى الله عز وجل فقال عليه الصلاة والسلام: «وإِمَاطَتُكَ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقةٌ»[٢].

وكلمة الأَذى كلمة عامَّة، وعليه فكُلُّ ما يُؤذي النَّاس في صحتهم يدخل في مفهوم الأَذى الذي يؤمر المسلم بإزالته، والتخلص منه، قال الإمام النوويُّ رحمه الله: (هذه الأحاديثُ المذكورة في الباب ظَاهِرة في فَضلِ إزالةِ الأذى عن الطريق، سواء كان الأذى شجرةً تؤذي، أو غصنَ شوكٍ، أو حجراً يعثر به، أو قَذراً، أو جَيفةً، وغير ذلك. وإماطة الأذى عن الطريق من شُعب الإيمان)[٣].

وقال العيني في عمدة القاري: (واعلم أنَّ الشخص يُؤجر على إماطةِ الأذى وكلِّ ما يُؤذي الناس في الطَّريق، وفيه دِلاَلةٌ على أنَّ طَرح

---

(١) رواه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (٢٨٢٧)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦١/١٧١.

الشَّوك في الطريق، والحجارة، والكُناسة، والمياه المفسدة للطرق، وكل ما يُؤذي الناس يُخشى العقوبة عليه في الدُنيا والآخرة، ولا شك أن نزع الأذى عن الطريق من أعمال البر، وأنَّ أعمال البر تُكَفِّر السيئات، وتُوجب الغُفران، ولا ينبغي للعاقل أن يَحقِر شيئا من أعمال البر... إلخ)[1].

٣) جعل النبي ﷺ النظافة متمثلة بإماطة الأذى عن الطريق سبباً من أسباب مغفرة الذنوب، يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «بَينَما رَجُلٌ يَمشي بِطَرِيقٍ، وَجَد غُصنَ شَوكٍ فأَخَّرَه، فَشَكَر اللَّهُ له، فَغَفَر لَهُ»[2].

٤) وجعلها أيضاً سبباً من أسباب دخول الجنة، فقد قال ﷺ: «مَرَّ رَجُل بغُصن شَجَرةٍ على ظَهرِ طِرِيقٍ فقال: والله لأَنحينَّ هذا عَن المُسلِمين لا يُؤذِيهِم فأدخل الجنة»[3].

٥) وجَعَلها كذلك باباً مِن أبواب الخير الذي يدلُّ عليه، وطريقة عملية من الطُرق التي يجب أن تنتشر في المجتمع، كما جاء عن أبي بَرزَة الأَسلَمِي رضي الله عنه قال: قُلتُ: يَا نَبِيَّ الله، عَلِّمْني شَيئاً أنتَفِعُ به؟ قال: «اعزِل الأَذَى عَن طَرِيقِ المُسلِمينَ»[4].

٦) والنَّظافةُ أيضا من مَحَاسِن أعمال هذه الأمة، يَقُولُ عليه الصلاة والسلام: «عُرِضت عَلَيَّ أعمال أُمَّتِي حَسَنُها وسَيِّئُها فَوَجدتُ من مَحَاسِنِ أعمالهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، ووجَدتُ في مَسَاوِئ أعمالهَا النُّخَاعَةُ تَكُونُ في المسَجدِ لاَ تُدفَنُ»[5].

---

(١) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للعيني ٢٣/١٣.

(٢) رواه البخاري (٦٢٤)، ومسلم (١٩١٤) من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم (١٩١٤) من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم (٢٦١٨).

(٥) رواه مسلم (٥٥٣) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

٧) وجَعَلها ﷺ شِعَاراً للمُسلِمين يُمَيِّزُهم بِها عن غيرهم من الأمم، فقد أمرَ المسلمينَ بنَظافةِ أَفنِيةِ بيُوتَهم، فقال: «نَظِفُوا أَفنِيَتَكُم، ولا تَشَبَّهُوا باليهُودِ»(١).

ويبلغُ التَّحذير الشَّدِيد ذِروَته حِينَما نَجِد النبيَّ ﷺ يعدُّ إهمال النَّظافة، وتَعرِيض الطُّرُق للمَخَاطِر البيئيَّة أمراً يَستَوجِب اللَّعن، يَدُلُّ على ذلك قَولهُ عليه الصَّلاة والسَّلام: «اتَّقُوا اللَّعَانَين»، قَالُوا: ومَا اللَّعَانَانِ يَا رَسُولَ الله؟ قال: «الذي يَتَخَلَّى في طَرِيقِ النَّاسِ أَو ظِلِّهم»(٢).

قالَ الإمام ابن الأثير الجَزَرِيُّ رَحِمَهُ الله: (اتَّقُوا اللاعِنَين، أي الأمرَين الجالِبَين لِلَّعن الباعِثَين للناس عليه، فإنه سَبَبٌ لِلَعن مَن فَعَله في هذه المواضع، وليس ذا في كل ظِلّ وإنما هو الظِّلُّ الذي يَستظِلّ به الناسُ ويَتَّخِذونه مَقِيلاً ومُناخاً، واللاعِن: اسم فاعِل مِن لَعَن فسُمِّيت هذه الأماكِن لاعِنَة لأنها سببُ اللَّعن)(٣).

والظِّلُّ المرادُ في الحديث المكانُ الذي يَنزِله الإنسان مِن أَجلِ رَاحَتِه، أو نُزهَتِه أو غير ذلك.

وعليه فإنَّ الحدائِقَ والمُتَنَزَّهَاتِ وغَيرِ ذلك من الأماكنِ يَنبَغِي عَدَمُ تَعرِيضِها للأَوسَاخِ والقَاذُوراتِ بسببِ ارتيادِ النَّاسِ لها.

إنَّ هذا الاحتفاءَ الكبير بالنظافة ليدلُّ بوضوح على مدى اهتمام الإسلام بحماية البيئة من كل ما يُلوِّثُها، أو يضرُّ بها، وكون هذه الأحاديث قد وردت في بعض الأماكن كالأفنية والطرق وأماكن الظِّل والطُّرق، وذكرت بعض الملوِّثات كالبُرَاز لا يقلل من أهمية هذه التوجيهات والإرشادات النبوية، إذ يُمكن أن يقاس عليها كل موضع من الأرض يتعرَّض لأي صورة من صور تلويث البيئة مهما تعددت صوره، وتنوَّعت أشكاله، كما أن هذه التوجيهات يمكن أن تكون قاعدة عامة،

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٩٩) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وإسناده ضعيف.

(٢) رواه مسلم (٢٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥١١/٤.

ومرشداً للأمة لكي تتحرك نحو إنشاء قوانين وأنظمة تعالج كل تجاوز يضرُّ بالبيئة، ويحافظ على سلامتها من التلوّث.

المبحث الثاني: رعاية عناصر البيئة البرّية في الإسلام، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رعاية البيئة النباتية.

المطلب الثاني: رعاية البيئة الحيوانية.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
رعاية البيئة النباتيّة

يعدُّ النباتُ من أَهَمِّ عناصرِ الحياةِ الأساسيّة للإنسان والحيوان، فما هو يا ترى هدي الإسلام في رعاية البيئة النباتية؟

المُطَّلِع على الهدي النبوي في هذا المجال يجد أنَّ النبي ﷺ رغَّب في زرع النبات، وحثَّ عليه، واتخذ لذلك أساليب متعدّدة، منها:

١ ـ عدَّ الزِّراعةَ عبادةً يتعبَّد المسلم بها، إذ جعلَ الفَائِدة الحاصلة منها من باب الصَّدقات التي يُؤجر المرءُ عليها، سواء كانت هذه الفائدة تَخُصُّ الإنسان أم تعود على الحيوان، وهذا الأَجر يستمر لصاحبه ما دام الغَرس والزَّرع وما تولد منه قائماً إلى يوم القيامة.

يدلُّ على ذلك ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن مُسلم يَغرِس غَرسا أو يَزرَعُ زَرعا فيأكلُ منه طَيرٌ، أو إنسان، أو بهيمةٌ إلاَّ كان له به صدقة»[1].

وعَن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قالَ: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن مُسلِم يَغرِسُ غَرساً إلاَّ كانَ ما أُكل منهُ صَدَقةً، وما سُرِقَ مِنهُ له صَدَقةٌ، وما أَكَلَ السَّبُع منه فَهُو له صَدَقة، وما أَكَلِت الطَّيرُ فَهُوَ له

(١) رواه البخاري (٢١٩٥)، ومسلم (١٥٥٣).

صَدَقةٌ، ولا يَرزَؤُهُ أَحَدٌ إلاَّ كانَ له صَدَقةٌ»[1].

وعَن جَابِرٍ أيضاً: أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلَّم دَخَلَ عَلَى أُمِّ مُبَشِّرٍ الأَنصَارِيَّةِ في نَخلٍ لَها، فقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَن غَرَسَ هذا النَّخلَ؟ أَمُسلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟». فقالت: بل مُسلِمٌ، فقالَ: «لا يَغرِسُ مُسلِمٌ غَرساً، ولا يَزرَعُ زَرعاً فَيَأكُلُ منهُ إنسان ولا دابَّةٌ ولا شَيءٌ إلاَّ كانت له صَدَقةٌ»، وفي رواية: «إلى يومِ القِيَامةِ»[2].

قالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ رحمه الله: (وظَاهِر الحَدِيث أنَّ الأَجر يَحصل لِمُتعاطِي الزَّرع أو الغَرس ولو كان مِلكه لِغَيره... وفِي الحَدِيثِ فَضلُ الغَرسِ والزَّرعِ، والحَضُّ على عَمَارةِ الأَرضِ، ويُستَنبَطُ منهُ اتِّخَاذُ الضَّيعَةِ والقِيَامُ عَلَيها)[3].

٢ ـ ومِن الأَسَالِيب المُتَّخَذة في ذلك أنَّ النبي ﷺ رَغَّب في الزِّراعة عن طريق تَقدِيم الحوافزِ الدُّنيوية، وذلك من خلال تَمليك الأَرض لمن يعمل على استصلاحها وزِرَاعتها، يدل على ذلك ما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن أَعمَر أَرضاً لَيسَت لأَحدٍ فهو أَحَقُّ بها»[4].

٣ ـ وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أَحيا أَرضَا مَيتَةً فَهِي له»[5].

وقد اتفق الفقهاء على مشروعية إحياء الأرض، وعدم تركها بلا استثمار، وهو ما يسمى عندهم بباب إحياء الموات، فالأرض يجب أن تُستَغلَّ حتى تُوفِّر الزَّرع للإنسان، وقال الحافظُ ابن حجر رحمه الله: (إحياءُ الموات أن يعمدَ الشَّخص لأَرض لا يَعلَم تقدُّم مِلك عليها لأحدٍ

---

(١) رواه مسلم (١٥٥٢).

(٢) رواه مسلم (١٥٥٢).

(٣) فتح الباري ٤/٥.

(٤) رواه البخاري (٢٢١٠).

(٥) رواه أبو داود (٣٠٧٣)، ورواه البخاري معلقاً (٢٢١٠).

فَيُحيِيها بالسَّقي، أو الزَّرع، أو الغَرس، أو البِنَاء، فَتَصِيرُ بذلك مِلكَه، سواءٌ كانت فيما قَرُب مِن العِمران أم بَعُد، سواء أَذِن له الإمام في ذلك أم لم يأذن، وهذا قول الجمهور، وعن أَبي حَنِيفةَ: لا بُدَّ من إذنِ الإمام مُطلقاً، وعن مالك: فيما قَرُب، وضابط القُرب ما بأهل العمرانِ إليه حاجة من رَعيٍ ونحوه)[1].

بل إنَّ الأمر بالإحياءِ لَم يَقتَصِر على الأرض الزِّراعيّة بل تعدَّاه إلى استثمار الثروات المعدنيَّة المُهمَلة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قالَ: (إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقطَعَ بِلاَلَ بنَ الحَارِثِ المُزَنِيَّ مَعَادِنَ القَبَلِيَّةِ، جَلسِيَّهَا وَغَورِيَّهَا، وَحَيثُ يَصلُحُ لِلزَّرعِ مِن قُدسٍ، وَلَم يُعطِهِ حَقَّ مُسلِمٍ)[2].

٤ ـ ومِن الأَسَاليب النبويّة في التَّشجِيع على الزِّراعة: حَثُّ النبي ﷺ على أن يُوَاسِي أصحابَهُ بَعضَهُم بَعضاً في الزِّراعة، كما جاءَ في حَدِيث جَابِر بن عبد الله رضي الله عنه قالَ: قال رسول الله ﷺ: «مَن كَانت لَهُ أَرضٌ فَليَزرَعها، أو لِيَمنَحها أَخَاه، فإن أَبَى فَليُمسِك أَرضَهُ»، وفي رِوَايةٍ: «فَليَهَبها أَو يُعِيرَها» وقَد عَقَد الإمام البُخاري رحمه الله في صحيحه الترجمةَ لهذا الحديث بقوله: (بابُ ما كانَ مِن أَصحَابِ النبيِّ ﷺ يُوَاسِي بَعضُهُم بَعضاً في الزِّرَاعةِ والثَّمرةِ)[3].

قالَ الحافظ ابن حجر: والمُرادُ بالمُوَاسَاةِ: المشاركةُ في المال بغير مُقَابِلٍ[4].

---

(١) فتح الباري ١٨/٥.

(٢) رواه أبو داود (٣٠٢٦)، وأحمد ٣٠٦/١. و(القبلية) موضع بين مكة والمدينة، وقوله: (جلسيها) ـ بفتح الجيم وسكون اللام ـ نسبة إلى جلس بمعنى المرتفع، (غوريها) ـ بفتح الغين وسكون الواو ـ نسبة إلى غور، بمعنى المنخفض، والمراد: أعطاها ما ارتفع منها وما انخفض، وقوله: (قُدس) ـ بضم القاف وسكون الدال المهملة بعدها سين مهملة ـ هو الموضع المرتفع الذي يصلح للزرع، ينظر: عون المعبود ٢١٧/٨.

(٣) صحيح البخاري (٢٢١٥).

(٤) فتح الباري ٢٣/٥.

٥ ـ ويبلغ الأمر النبوي الشريف غايته في الحثّ على الزِّراعة عندما أمر النبي ﷺ بممارسة الزراعة، والقيام بغَرس الغِرَاس حتى وإن كان يظن أن أحداً لن يستفيدَ مِن زِرَاعته أو غَرسه، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِن قَامَت السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُم فَسِيلَةٌ فَإِن استَطَاعَ أَن لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغرِسَهَا فَلْيَفعَل»[1].

ولا شَكَّ أن هذه الأساليب والإجراءات التي شرعها النبي ﷺ لأمته في رعاية البيئة النباتيّة إنما هي توجيهات عامة، وإرشادات مهمة نستفيد منها في معالجة كثير من المشكلات في مجال حماية البيئة، والمحافظة عليها، بل نجد فيها معالجة مباشرة لمشكلة التَّصَحُّر[2]، وهي مشكلة أصبحت من القضايا البيئية الملحة في عالمنا المعاصر، ويكاد يتفق علماء البيئة على أن أهم أسباب التَّصَحُّر هو: عدم الاهتمام بالمساحات الزراعية.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
رعاية البيئة الحيوانيّة

وردت في السنة النبوية أحاديث متعددة في رعاية البيئة الحيوانية، وذلك بالمحافظة على الحيوان، وحمايته، والمنع من التعدي عليه، وعدم تعذيبه، أو تعريضه للهلاك، والرِّفق الكامل به، باعتبار أنه جزء

---

(١) رواه أحمد ٣/١٩١، والبخاري في كتاب الأدب المفرد (٤٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه. ولا شك أن هذا الحديث له معنى عظيم في أن يجتنب المسلم الشعور باليأس، وأن يملأ نفسه ثقة وأملا بالله تعالى، ويجعله مغتنماً لفرص الحياة حتى اللحظة الأخيرة.

(٢) يعرف علماء الطبيعة التصحّر بأنه: زحف البيئة الصحراوية على الأراضي الخضراء في المناطق الجافة أو شبه الجافة، ويتمثل في فقدان الغطاء النباتي لسطح الأرض بفعل عوامل مناخية كالتعرية بفعل الرّيح، أو بفعل الإنسان، ينظر: موقع (islam online) مفاهيم ومصطلحات.

من البيئة، وجزء من الكون الذي خلقه الله تعالى متكاملاً متناسقاً، وقد اتخذ لتحقيق هذا الغرض أساليب متعددة، فمن ذلك:

١ - أن النبي ﷺ وَعَد من رَعَى الحيوان بنوع من أنواع الرعاية، ولو أن يسقيه شربة ماء بالمغفرة ودخول الجنة، ويدل على ذلك: ما جاء عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بَينَما رَجُل يَمشي بطَرِيقٍ اشتدَّ عليه العطشُ فوجدَ بِئراً فنزل فيها فَشَرِب ثم خَرج، فإذا كلبٌ يَلهَث يأكلُ الثَرى من العطشِ، فقالَ الرَّجُل: لقدَ بلغَ هذا الكلبُ من العَطَشِ مثلَ الذي كان بلغَ بي، فنزل البئرَ فملأَ خُفَّه، ثُم أمسكَهُ بفِيه، فسقَى الكلب، فشكر الله له فَغَفر لَه»، قَالُوا: يا رَسُول الله، وإنَّ لنا في البهائمِ أجراً؟ فقال: «في كُلِّ ذاتِ كَبَدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ»[١].

(والكَبِدُ الرَّطبَةُ): هي كُلُّ ما له رُوح، وذلك أن الكبدَ لا تكُون رَطبَةً إلاَّ وصَاحِبُها حَيٌّ.

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: فيحصُل الثواب بسقيه، ويلتحق به إطعامهُ وغير ذلك من وجه الإحسانِ إليه[٢].

٢ - بل إنَّ النبي ﷺ جعل جزاءَ من يتعدَّى على الحيوان بتعذيبه وحبسه دخول النار، يدل على ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبت امرأة في هرَّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاشِ الأَرض»[٣].

قالَ ابنُ المُنَيِّر: (دلَّ الحديث على تحريم قتل من لم يُؤمر بقتله عَطَشاً ولو كان هِرَّةً)[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٢٢٤)، ومسلم (٢٢٢٤)، من حديث أبي هريرة.
(٢) فتح الباري ٥/٤٢.
(٣) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (٢٢٤٢).
(٤) نقله ابن حجر في فتح الباري ٥/٤٢.

٣ ـ ومن أَسَاليبه عليه الصلاة والسلام في رِعَاية الحيوان أَنَّهُ نَهَى عن تَعذِيب الحَيَوان، وتعريضه للهلاكِ، أو إيذائه بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الإيذاء، يدل على ذلك:

ما جاء عن أنس قال: (نَهَى النبيُّ ﷺ أن تُصبَرَ البَهَائِمُ)[١]، ومعنى تُصبر: تُوثَقُ ثُمَّ تُقتَلُ رَمياً وضَرباً.

وعن سعيد بن جُبَير قال: (كُنتُ عند ابن عمر فمرُّوا بفتيةٍ أو بنفرٍ نَصَبوا دَجَاجةً يَرمُونَها، فلَمَّا رأوا ابن عمر تفرَّقوا عنها، وقالَ ابنُ عمر: مَن فَعَل هذا؟ إنَّ النبي ﷺ لَعَن مَن فَعَل هذا)[٢]،

وفي روايةٍ لمسلمٍ: (أن رسول الله ﷺ لعنَ مَن اتَّخَذ شيئاً فيه الرُّوح غَرَضاً)[٣].

وفي رواية البخاري: (لَعَن النبي ﷺ مَن مَثَّلَ بالحَيَوان)[٤].

قال ابنُ عبد البر القُرطبي رحمه الله: (وحرَّم رسول الله ﷺ التمثيل بالبَهَائم، ونهى أن يُتَّخذ شيئاً فيه الروح غَرَضاً، ونَهى أن تُصبَر البهائمُ، وذلك فيما يجوز أكله وفيما لا يجوز، وإجماع العلماء المسلمين على ذلك)[٥].

٤ ـ ومِن أساليبه ﷺ في رِعاية الحيوان الرِّفق به، وقد اتخذ الرِّفق في السنة مَظَاهر مُتَعدِّدة امتدت لتشمل الرِّفق به عند الانتفاع به ركوباً، أو حَملاً، أو ذَبحاً.

يدل على ذلك:

ما جاء عن سَهل بن الحَنظَليَّة رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ بَبَعِير قد لَحِق ظَهرُه بِبَطنه، فقالَ: «اتَّقُوا الله في هذه البَهَائِم المُعجَمَةِ

---

(١) رواه البخاري (٥١٩٤)، ومسلم (١٩٥٦).
(٢) رواه البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (١٩٥٨).
(٣) رواه مسلم (١٩٥٨).
(٤) رواه البخاري (٥١٩٦).
(٥) التهميد لابن عبد البر ١٥٧/٤.

فاركَبُوها صَالِحةً، وكُلُوها صَالِحَةً»[1].

قال الإمام المُنَاوي رحمه الله: (اركبوها صالحة يعني: تعهدوها بالعلف، لتتهيأ لما تريدونه منها، فإن أردتم ركوبها وهي صالحة للركوب قوية على المشي بالراكب فاركبوها، وإلا فلا تحملوها ما لا تطيقه، وكالركوب التحميل عليها، وقوله: «وكلوها صالحة» أي: وإن أردتم أن تنحروها وتأكلوها فكلوها حال كونها سمينة صالحة للأكل، وخص الركوب والأكل لأنهما من أعظم المقاصد)[2].

ومن ذلك ما ثبت عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: «أَردَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلفَهُ ذَاتَ يَوم... ثُمَّ قالَ: فَدَخَلَ حَائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأَنصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَت عَينَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفرَاهُ، فَسَكَتَ فَقَالَ: «مَن رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَن هَذَا الجَمَلُ؟»، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ التي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدئِبُهُ»[3].

فهذه الشكوى تشير إلى الرَّحمة بالحيوان، وحسن الرِّعاية من الإنسان به، ومعنى (تُدئِبُهُ) أي: تُتعِبهُ بكَثرة استخدامه واستعماله[4].

وعَن شدَّادِ بنِ أَوسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قالَ: «إِنَّ الله كَتَبَ الإحسَانَ على كُلِّ شَيءٍ، فإذا قتلتم فأَحسِنوا القِتلَة، وإذا ذَبَحتم فأَحسِنوا الذِّبحَةَ، ولْيُحِدَّ أَحَدُكُم شَفرَتَهُ، ولْيُرِح ذَبِيحَتَهُ»[5].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على رَجُلٍ وَاضِعٌ رِجلَهُ على صَفحَةِ شَاةٍ وَهُو يَحُدُّ شَفرتهُ وَهِي تَلحَظُ إليهِ

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٤٨).

(٢) فيض القدير في شرح الجامع الصغير ١٢٥/١.

(٣) رواه أبو داود (٢٤٥٩)، وأحمد ٢٠٥/١، وقوله (ذفراه) هو مؤخر رأسه.

(٤) ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٥٩/٧.

(٥) رواه مسلم (١٩٥٥).

بِبَصَرِها، فقالَ: «أَفَلا قَبلَ هَذا، تُرِيدُ أن تُمِيتَها مَوتَتَين»[1].

ومِن ذَلِكَ نَهى عليه الصلاة والسلام عن إنهاك الحيوان بالجلوس على ظهره دون حاجة لوقت طويل، فقال: «إيَّاكم أن تَتَّخذوا ظُهُور دَوَابِّكم منابر، فإنَّ الله إنما سَخَّرها لكم لتُبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشقّ الأَنفس، وجعل لكم الأَرض، فعليها فاقضوا حاجتكم»[2].

٥ ـ ومن أَسَالِيبه ﷺ في رعاية الحيوان أنه عليه الصلاة والسلام حثَّ على تنمية الثروة الحيوانية وإكثارها، وذلك لما في ذلك من إصلاح أَحوال الناس في مَعَاشِهم، إذ أنَّ الحيوانَ لا يستغني عنه الإنسان في غِذَائه وقَضَاءِ مَصَالِحه، ومن الأحاديث في ذلك قوله ﷺ لأُمِّ هَانئ: «اتَّخِذوا الغَنَم فإنَّ فيها بَرَكةً»[3].

وعَن عَائِشَةَ رَضِي الله عنها قالت: كانَ رَسُولُ الله ﷺ إذا أُتِي باللَّبَنِ قالَ: «كَم في البَيتِ؟ بَرَكَةً أَو بَرَكَتَينِ»[4].

فَوصفُه ﷺ الغَنَم بالبركةِ يَدُلُّ على المنفعة الحاصلة بتربية الأَغنَام وتَنمِيتها حيث يستفيد منها الإنسان: اللَّبن، واللحم، والصوف، والجلد، وكُلُّها من لَوَازِمِ حياةِ الإنسان.

وعَن عروة البَارِقي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخَيلُ مَعقُودٌ في نَوَاصِيها الخَيرُ إلى يومِ القِيَامةِ»[5].

إنَّ هذه الأَسَالِيب والإجراءات التي اتخذها النبي ﷺ في رعاية البيئة الحيوانيّة كان لها أثر كبير في توجيه أنظار الأمة إلى أهمية

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٥٣/٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٢/٤: رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٥٧).

(٣) رواه أحمد ٤٢٤/٦، والطبراني في المعجم الكبير ٤٢٦/٢٤.

(٤) رواه أحمد ١٤٥/٦، وإسناده ضعيف.

(٥) رواه البخاري (٢٦٩٥)، ومسلم (١٨٧٣).

الحيوان، ورعايته رعايةً تامة بحيث شَمِلت كلَّ أنواع الرِّعاية وأصنافها المختلفة.

وكأثرٍ عن هذه التوجيهات النبوية نَجِد الفقهاء شاركوا أيضاً في هذه الرِّعاية، إذ دَوَّنوا ما يتعلق بأمورِ الحيوان من أَحكَام وِفق تَوجِيهَاتِ النُّصوص الشرعيَّة، فتحدَّثوا عن الرِّفق بالحيوان، والنفَقة عليه، ومن امتنع من الإنفاق أجبر عليه عند الجمهور ديانة وقضاء، ومنعوا من تَحميل الحيوان أكثر مما يُطيق، وذكروا أحكام الجناية على الحيوان، وإحراقه، أو تعذيبه، وحبسه، وإضرار الحيوان، وغير ذلك[1].

وقد امتازت حضارة الإسلام في معاملة الحيوان بأمرين لا مثيل لهما عند الأمم القديمة والحديثة:

أولهما: إقامة مؤسسات اجتماعية للعناية بالحيوان، وتأمين معيشته عند العجز وأمراض الشيخوخة.

وثانيهما: أن حضارتنا خلت من محاكمة الحيوان، لأنها نادت برفع المسؤولية الجنائية عنه قبل أربعة عشر قرنا، كما خلت من مظاهر القوة والتحريش بين الحيوانات[2].

❋ ❋ ❋

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٣٨/١٨ مادة (حيوان).

(٢) يراجع: كتاب من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي، باب الرفق بالحيوان ص١٧٧.

المبحث الثالث

مصادر تهديد النظام البيئي البرّي

تمهيد:

إنَّ رعاية البيئة البرّية بكافة أشكالها وصورها هي إحدى وسائل المحافظة على النظام البيئي البرّي من كل ما يتهدده، ولكن يبقى أسلوباً وقائياً في إطار المحافظة على النظام المذكور، وما زالت بنا حاجة للوقوف على مصادر تهديد النظام البيئي البري تهديداً فعلياً، فما هي يا ترى مصادر تهديد النظام البري؟

والجواب عن ذلك يكون في مطلبين:

المطلب الأول: مصادر تهديد النظام البيئي البرّي في الجانب النباتي.

المطلب الثاني: مصادر تهديد النظام البيئي البرّي في الجانب الحيواني.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول

مصادر تهديد النظام البيئي البرّي في الجانب النباتي

اتفقت كلمة علماء البيئة على أن أهم مصادر الثروة النباتية هي: الغابات بأنواعها المختلفة، وأنها رِئَةُ الحياة، ويحصل الإنسان منها على كثير من المنتجات، قُدِّرت بنحو (٤٥٠٠) مادة مُصَنَّعة، يُمكن الحصول عليها جزئياً أو كلياً، فإضافة إلى الأخشاب والوقود أصبح من الممكن إنتاج الأحماض، ومواد اللصق، وعلف الحيوان، والمواد المضادة للتجميد، والملابس، والأصباغ، والمطهرات، والزّيوت، والورق،

والأدوية، والمذيبات، وغير ذلك[1].

وذَكَر عُلَماءُ البيئة أنَّ الاحتطاب الجائرَ ـ وهو قطع الأَشجَار واستغلالها بمعدل يَفُوق قُدرتها التَّجدِيديّة أو التَّعويضيّة بما يُؤثر سلباً على رَصِيدها ـ هو أَحَدُ الأَسباب الرَّئيسة للتَصَحُر الذي تعاني منه كثير من الدول، هذا بالإضافة إلى أنَّ إزالتها يُحدِث انعكاسات خَطِيرة في النظام البيئي، وخُصُوصاً في التوازن المطلوب بين نِسبَتي الأُكسجين وثاني أكسيد الكربون في الهواء.

كما أن فَرط استخدام الأَسمِدة الكِيمَائيّة والمُبيدات بِمُختلف أنواعها يؤدي إلى تَلَوُّث التُّربة، ويكون سبباً في الإخلال بتوازن النظام البيئي، الأمر الذي ينعكس أثره في نهاية المطاف على حياة الإنسان.

وإذا كَانتِ الغَابَاتُ بِهذه الأهميّة فما هو يا ترى موقف الإسلام من ذلك؟

والجوابُ عَن ذَلِكَ نَقُولُ: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قَطَع سِدرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رأسَهُ في النَّارِ».

وقد سُئل الإمام أَبو دَاوُد السِّجِستَاني رَحِمه الله تعالى عن هذا الحديث فقالَ: (يعني: مَن قَطَعَ سِدرَةً في فَلاَةٍ يَستَظِلُّ بِها ابنُ السَّبِيلِ والبَهَائِم عَبَثاً وظُلماً بِغَيرِ حَقٍّ يَكُونُ له فِيها صَوَّبَ اللَّهُ رأسَهُ في النَّارِ)[2].

وكانَ النبيُّ ﷺ يُوصِي أَصحَابَهُ حِينما يَبعَثُهم للجِهاد فيقول: «انطَلِقُوا باسمِ اللَّهِ»، وفيه: «ولا تَعقِرَنَّ شَجَرةً إلاَّ شَجَراً يَمنَعُكُم قِتَالاً، أَو يَحجِز بَينَكُم وبينَ المُشرِكينَ»[3].

وقد استَمرَّ أَصحَابُ رَسُولِ الله ﷺ على هذا النَّهج، فَهَا هُو أَبو

---

(١) ينظر كتاب: قضايا البيئة من خلال القرآن الكريم والسنة للدكتور محمد السيد جميل ص ٢٥.

(٢) سنن أبي داود (٥٢٣٩) من حديث عبد الله بن حُبشي رضي الله عنه.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٩/٩٠.

بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه يُوصِي يَزِيدَ بنَ أَبي سُفيَانَ رضي الله عنه عندما أَمَّره على أَحَدِ الجيوشِ التي وَجَّهها إلى الشام بوصَايا منها قَولهُ: «ولا تَقطَعَنَّ شَجَراً مُثمِراً ولا نَخلاً، ولا تَحرِقَها»[1].

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
مصادر تهديد النظام البيئي البرِّي في الجانب الحيواني

تمهيد:

تُشكِّل الثروة الحيوانية مصدر غذاءٍ مباشر للإنسان، وقد تعرَّضت أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور بسبب صيد الإنسان الجائر لها إلى الانقراضِ مما أخلَّ بظاهرة التَّنوّع الإحيائي، وهدَّد التوازن البيئي الذي خلقه الله في الأرض.

وقد وضع علماء البيُولوجيا دراسات متنوّعة حول سلوك الإنسان، وعملوا على المحافظة على الأنواع المعرضة للانقراض.

فما هو يا ترى موقف الإسلام من مصادر تهديد النظام البيئي في جانب الثروة الحيوانية؟

للجواب عن هذا التساؤل نقول: إن الإسلام حذَّر من تَهديد النظام البيئي في الجانب الحيواني، ومن أمثلة ذلك:

١ ـ حُرمة تَعريض الحيوان للفَنَاءِ والانقراضِ من غير ضرورة ولا حاجة موجبة، فقد ثبتَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن إنسان قَتَل عُصفُوراً فَمَا فَوقَها بِغَيرِ حَقِّها إلاَّ سألهُ الله عز وجل عنها»، قيل: يا رَسُولَ اللَّهِ، ومَا حَقُّها؟ قالَ: «يَذبَحُها فيأكُلها، ولا يَقطَعُ رأسَها يَرمي بها»[2].

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٩٦٥).

(٢) رواه النسائي (٤٣٤٩).

وعن الشَّرِيدِ رضي الله عنه قال: قالَ رَسُول الله ﷺ: «مَن قَتَل عُصفُوراً عَبَثاً عَجَّ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يومَ القِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ إنَّ فُلَانا قَتَلَني عَبَثا ولم يَقتُلني لِمَنفَعَةٍ»(١).

في هذين الحديثين دِلالةٌ وَاضِحةٌ على ضرورة المحافظة على مكَوِّنات البيئة، ومنع العبثِ بِها.

٢ ـ المحافظة على الأجناس الحيَّة من الانقراضِ والفَنَاء من غير ضرورة ولا حاجة موجبة، يدلُّ على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مُغَفَّلٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «لَولا أنَّ الكِلاَبَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرتُ بِقَتلِها، فاقتُلُوا مِنها الأَسوَدَ البَهِيمَ»(٢).

قالَ الإمام الخَطَّابِي رَحِمه الله: مَعناه أَنَّهُ كَرِه إفنَاء أُمَّةٍ من الأمم، وإعدام جيل من الخلق حتى يأتي عليه كُلَّه فلا يبقى منه باقية، لأنه ما من خلق الله تعالى إلاَّ وفيه نَوع من الحكمة وضرب من المصلحة، يقول ﷺ: «إذا كان الأمر على هذا، ولا سبيل إلاَّ قتلهُنَّ كُلَّهن فاقتلُوا شِرَارهُنَّ، وَهِي السُّود البُهم وأبقوا ما سواها...»(٣).

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه، عَن رَسُولِ الله ﷺ قال: «إنَّ نَملَةً قَرَصَت نَبيًّا مِنَ الأنبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَريَةِ النَّملِ فَأُحرِقَت، فَأوحَى الله إلَيهِ: أَن قَرَصَتكَ نَملَةٌ أهلَكتَ أمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ»(٤).

٣ ـ قَتل الضَّارُّ من الحيوان والدواب، مِما يدلُّ على ضرورة الاستفادة من الحيوان النافع، ومن ذلك ما ثبت عن أم المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خَمسُ فَوَاسِق يُقتَلنَ

---

(١) رواه النسائي (٤٤٤٦)، وأحمد ٣٨٩/٤.

(٢) رواه أبو داود (٢٨٤٥)، وسنن الترمذي (١٨٤٦)، والنسائي (٤٢٨٠)، وابن ماجه (٣٢٠٥).

(٣) ينظر: عون المعبود ٣٤/٨.

(٤) رواه البخاري (٢٨٥٦).

في الحِلِّ والحَرَمِ: الفَأرَةُ، والعَقرَبُ، والحُدَيَّا، والغُرَابُ، والكَلبُ العَقُورُ»[1].

وعَن أَبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قالَ رَسُول الله ﷺ: «اقتُلُوا الأَسوَدَينِ في الصَّلَاةِ: الحَيَّةَ والعَقرَبَ»[2].

ولا شَكَّ أن هذه المذكوراتِ في الحديثين أمثلةٌ على الحيوان الضارِّ، ويُمكن أن يُقَاس عليها كل ما هو ضارٌّ فيندب إلى قتله لما يتسبب من ضَرَرٍ على الحياة والأحياء كما ذهب إلى ذلك الجمهور[3].

---

(١) رواه البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (١١٩٨).

(٢) رواه أبو داود (٩٢١)، والترمذي (٣٩٠)، وابن ماجه (١٢٤٥).

(٣) ينظر: فتح الباري ٤/٤٠.

الفصل الرابع
رعاية البيئة الجويّة في الإسلام

تمهيد:

الهواء عنصر من أهم عناصر البيئة، وهو أَحَد موارد الثروة الطَّبيعية المهمة في حياة الإنسان، ومن ثُمَّ فإنَّ تَلوُّثه يشكِّل أخطر التَّهـديدات البيئيَّة، ويَعُمُّ ضَررهُ جَميع عناصر البيئة من ماءٍ، ونَبَاتٍ، وحَيَوانٍ، وتُربةٍ.

وقد ذَكَر عُلَماء البيئةِ بأنَّ مَصَادر تَلوُّث الجو متعددة، وأنَّها تَشمَلُ المصانع، ووسَائِل النَّقل، والانفجارات الذَّرِّية، والفضلات المُشِعَّة، كما تتعدد هذه المصادر وتزدادُ عِدَادُها يَوماً بعدَ يَوم، ومن أمثلَتُها: الكلُور، وأول ثاني أكسيد الكربون، وثاني أكسيد الكِبريت، وأكسيد النِّيتروجين، وأملاح الحَدِيد والزِّنك والرَّصَاص وبعض المُركَّبات العضوية والعناصر المُشِعَة، وإذا زادت نسبة هذه الملوّثات عن حدٍّ مُعَيَّن في الجو أصبح لها تأثيرات واضحة على الإنسان وعلى كائناتِ البيئة.

ولا شكَّ أنَّ هذا نَوع من أنواع الفساد في الأرض، وتقدَّم ذكر الآيات التي تنهى عن الفساد، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ضَرَر ولا ضِرَار»[1] وهذا الحديث هو قاعدة شرعيّة عظيمة، وأنَّ المسلم ينبغي أن يتجنب الأذى والضرر ويسعى إلى الخير من تلقاء نفسه، وبذلك يحرم عليه جَميع التصرُّفات المضرَّة بالبيئة، وذكرنا في هذا البحث بأن الله عز وجل خلق هذا الكون وفق نظام متوازن، وأن الإنسان يجب أن يتعامل مع عناصر المنظومة البيئية بالقدر الذي لا يُجهدها ولا يستنزفها ولا يتجاوز خطوطاً لا رجعة فيها، فلا يُسرف في استخدام

---

(١) رواه مالك (١٤٢٩).

المياه، ولا يُجهد الأرض بالاستعمال، ولا يسرف في قتل الحيوان حتى يقضي على الأنواع، فهناك حدودٌ عليه التقيُّد بها حتى يُبقي على البيئة، ويُجَدِّدها على الدَّوام، فالتوازن مطلوب شرعا وعقلا وأخلاقا، وإذا أمرنا الإسلام بالحفاظ على التوازن بين عناصر البيئة فقد أمرنا أن لا نفسد الموارد، وأن لا نلوّث عناصر المنظومة البيئية، فتلوّث الهواء يصيب الإنسان والحيوان، كما أن فساد المياه ينعكس على النبات والحيوان والإنسان.

وهناك قضايا متعددة تتعلق بالبيئة الجوية قد أساء الإنسان استخدامها، نعرض بعضها فيما يلي[1]:

١ ـ طبقة الأوزون:

وهي إحدى طبقات الغلاف الجوّي المحيط بالكرة الأرضية، وهو شكل من أشكال الأكسجين الموجود في الجو، ويحول دون وصول كميات من الأشعة فوق البنفسجية التي تبثها الشمس، والتي لو وصلت إلى سطح الأرض بكامل قوتها المنبعثة بها من الشمس لدمرت كل مظاهر الحياة، ومن ثم تجلَّت قُدرة الخالق العليم في بناء هذه الطبقة التي تقع على ارتفاع يزيد عن ١٢ كيلومتراً فوق سطح البحر، وأودع فيه كميات هائلة من غاز الأوزون الذي تتمثل إحدى وظائفه في ضبط وتقنين وصول الأشعة فوق البنفسجية إلى الأرض، حيث لا تسمح إلا بمرور كميات محددة ومقدرة من قبل الخالق العليم يراها بعلمه أنها مفيدة وضرورية للحياة.

٢ ـ ارتفاع درجة حرارة الأرض:

وهو ما يطلق عليه بظاهرة الاحتباس الحراري، ويراد بها تغير المناخ والارتفاع الملحوظ في درجة حرارة الأرض، ويعتقد العلماء أن سببه الرئيس هو التلوث الذي يتركه الإنسان من استهلاك مختلف المواد

---

(١) وقد سبق أن ذكرنا أموراً أخرى تتعلق بالتلويث الصناعي، وما يتعلق بالنفايات السامة والخطرة، وينظر: مواقع البيئة على شبكة المعلومات العالمية الانترنت.

السامّة مما أدى إلى تزايد كميات ثاني أكسيد الكربون في طبقات الجو، ويرى العلماء أن استمرار ارتفاع درجة حرارة الأرض سيؤدي إلى ارتفاع مستوى سطح المياه في البحار والمحيطات، وربما سيتسبب ذلك في غرق العديد من الجزر والمدن والمنشآت الساحلية، وهناك عدد غير قليل من العلماء يرى أن نتائج ارتفاع الحرارة لا تقل خطراً من قيام حرب نووية عالمية.

❋ ❋ ❋

خاتمة، وفيها أهم التوصيات

لقد تَبَيَّن لنا أنَّ الإسلام عُنِي عِنايةً كبيرةً بالبيئة، ووضع للإنسان القواعد والأُسس السَّليمة التي تكفل له حُسن استغلال البيئة، والمحافظة عليها، وصيانتها، وليس ثَمَّة شكّ أن ما نعانيه اليوم من مشكلات وتَدَهور مُطَرِّد وخَطِير للبيئة سواء في مواردها، أو طبقاتها الحامِية، يَدُلُّ على أن البشريَّة لم تلتزم بتعاليم الإسلام القويمة في التعامل مع البيئة، بل انطلقت تحت نزعة السيطرة والانفراد والرَّغبة في تحقيق مكاسب سريعة ومُؤَقَّته على حساب موارد البيئة، ورصيد الأجيال القادمة في استغلال البيئة استغلالاً جائراً مُدمِّراً، وهي قضيَّة خطيرة جداً بدأنا نعاني من إرهاصات نتائجها الخطيرة المُتمثِّلة في مشكلات بيئية لا طاقة لنا على تَحَمُّلها، مثل مُشكلة تَدَهور طبقة الأُوزون، ومشكلة تزايد نسبة ثاني أُكسِيد الكَربون، وتدهور البيئة الحيويّة، والتصحُّر، وتلوُّث البحار والمحيطات، وجرف التُّربة وغيرها من المشكلات البيئية التي أصبحت سِمة من سِمَات عصرنا الحاضر.

لقد آن الأَوان أن نُعيد النظر في مفاهيمنا وسلوكيّاتنا البيئية من منظور إسلامي، ليتحقق لنا سلوكيّات بيئيّة إسلامية راشدة، تتعامل مع البيئة من منطق الحرص على صيانتها والمحافظة عليها.

وأتمنى أن تكون هذه الدِّراسة المتواضعة بدايةً لدراسات أخرى تُسهم في ترسيخ وتعميق المفاهيم البيئيّة الإسلامية لدى الأجيال القادمة.

وهذه بعض التوصيات المتعلقة بالموضوع:

١ ـ تربية النشء على الوعي البيئي، وتبصيره بحقيقة الموقف الإسلامي الأصيل من البيئة ورعايتها، وتثقيف الجماهير عبر وسائل التثقيف المختلفة، وإيقاظ الحسّ الإسلامي في رعاية البيئة.

٢ ـ تنمية الجانب البيئي وتوضيح مدى ارتباط الإنسان بالبيئة، ومعرفة الواجبات تجاه الحفاظ عليها.

٣ ـ سنّ القوانين والتشريعات التي تحافظ على البيئة من عبث العابثين.

٤ ـ التعاون البنّاء بين القائمين على المشروعات وعلماء البيئة، وإن أي مشروع نقوم به يجب أن يأخذ بعين الاعتبار احترام الطبيعة.

٥ ـ إيجاد قنوات من التعاون الفعال مع المؤسسات الدولية والإقليمية المهتمة بالبيئة.

٦ ـ تشجيع البحوث العلمية بمكافحة التلوث بشتى أشكاله.

نسأل الله أن يوفقنا إلى صراطه المستقيم، وأن يوجهنا إلى ما ينفع المسلمين والبشريّة كافة، ويحقق لهم الخير والرفاه، ونسأل الله أن يُديم علينا نعمة الإسلام، وأن يثبت قلوبنا على الحق والخير والصلاح.

❋ ❋ ❋

أهم مصادر البحث

١ ـ الإسلام والبيئة، للدكتور محمد مرسي محمد مرسي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية سنة ١٩٩٩م.

٢ ـ الإسلام وحماية البيئة، للدكتور محمود صالح العادلي، بحث في مجلة البحوث الفقهية المعاصرة بالرياض، العدد ٣٢، السنة السادسة، سنة ١٩٩٤م.

٣ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

٤ ـ البيئة من منظور إسلامي، للأستاذ عبد الرحمٰن عبد الوهاب الفارس، شركة المطبعة العصرية ـ الكويت، سنة ١٩٩٠م.

٥ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦ ـ حماية البيئة في الفقه الإسلامي، للدكتور أحمد عبد الكريم، بحث منشور في مجلة الأحمدية بدبي، العدد الأول سنة ١٤١٩.

٧ ـ رعاية البيئة في السنة النبوية المطهرة، للدكتور عبد السميع الأنيس، بحث منشور في مجلة كلية أصول الدين بالزقازيق، جامعة الأزهر، سنة ٢٠٠٦م.

٨ ـ رعاية البيئة في شريعة الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق، ٢٠٠١م.

٩ ـ العامة في بغداد، فهمي سعد، دار المنتخب، بيروت ١٩٩٣م.

١٠ ـ القرآن وتلوث البيئة، للأستاذ محمد عبد القادر الفقي، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

١١ ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت.

١٢ ـ قضايا البيئة من خلال القرآن والسنة، للدكتور محمد السيد جميل، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، سنة ١٩٩٩.

١٣ ـ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤ ـ النهج الإسلامي في حماية البيئة من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، للدكتور محمد عيد الصاحب، بحث منشور في مجلة كلية الشريعة والقانون بجامعة قطر، العدد (١٨)، سنة ٢٠٠٠م.
١٥ ـ بعض المواقع العلمية المتعلقة بالبيئة على شبكة المعلومات العالمية الانترنت.

❋ ❋ ❋

البيئة والحفاظ عليها
من منظور إسلامي

إعداد
الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي

تمهيد:

تحظى البيئة باهتمام الإنسان ورعايته أينما وجد عبر الزمان والمكان، فالناس يهتمون بها سواء عرفوا مصطلحها أم لم يعرفوا، كيف لا؟ وهي تتشكل من مصادر معيشتهم ورفاهيتهم، وتمثل بمكوناتها ميدان عملهم ونشاطاتهم، لكن الإنسان يجحف بحقها أحياناً فيهمل صيانتها وحمايتها، أو يقوم بدور المدمر لمواردها، أو المستنزف لمكوناتها.

ويعطي العالم المتحضر مزيداً من الاهتمام بالبيئة وقضاياها، وبخاصة في مواجهة الدمار الذي يهدد الأمن البيئي، وعلى الرغم من ذلك فإن البيئة تعاني الأمرين من سوء الاستغلال والإهمال والتصحر، والتلوث، وجرف التربة، وقلة الأمطار، وغيرها من المشكلات البيئية التي أصبحت سمة من سمات عصرنا الحاضر، مما يدعو لرعاية البيئة، وحمايتها من عبث العابثين. ونود في هذا البحث التطرق لوضع البيئة في المنظور الإسلامي، فنستهل ببيان مفهوم البيئة وعناصرها.

تعريف البيئة:

البيئة هي «الأرض وما تضمه من مكونات غير حية ممثلة في مظاهر سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان، وصخور ومعادن وتربة وموارد مياه، ومكونات حية ممثلة في النباتات والحيوانات سواء كانت على اليابسة أم في الماء وما يحيط بالأرض من غلاف غازي يضم الكثير من العناصر الأساسية اللازمة لوجود الحياة على سطح الأرض».

وفي تعريف آخر: «هي مجموع الأشياء التي تحيط بنا ونؤثر عليها

وتؤثر على وجود الكائنات الحية على سطح الأرض متضمنة الماء والهواء والتربة والمعادن والمناخ والكائنات أنفسهم، كما يمكن وصفها بأنها مجموعة من الأنظمة المتشابكة مع بعضها البعض لدرجة التعقيد والتي تؤثر وتحدد بقاءنا في هذا العالم الصغير والتي نتعامل معها بشكل دوري».

فيشمل مفهوم البيئة الأرض، وما يحيط بها من هواء وطبقات غازية وغيرها، وما عليها من إنسان وحيوان ونبات وجماد وعلاقات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[1] [الرعد: ٣].

النظرة الإسلامية للبيئة:

عني الإسلام بالبيئة عناية فائقة، ووضع أسساً للحفاظ عليها والاستفادة من خيراتها، وإن لم يستخدم لفظ البيئة في القرآن الكريم، وإنما ذكر عناصرها ومكوناتها في كثير من المواضع والآيات الكريمة، فذكر الأرض والجبال والمياه والنبات والحيوان... إلخ. وتكرر ذكر لفظ الأرض فيه ٤٢٥ مرة.

والناظر في واقع البيئة يجد الحاجة ماسة إلى وعي بيئي، ينطلق من تشريع الإسلام وقيمه وقواعده، التي أكدت على احترام البيئة، وتنمية الاتجاهات الإيجابية نحوها.

والتربية البيئية مطلوبة من كافة المؤسسات ذات العلاقة، وهي تشمل النشاط الإنساني الذي يقوم بتوعية الأفراد بالبيئة وبالعلاقات القائمة بين مكوناتها، وبتكوين القيم والمهارات البيئية وتنميتها على أساس من

---

(١) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ﴾ بسط ﴿ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ﴾ خلق ﴿فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ﴾ من كل نوع ﴿يُغْشِى﴾ يغطي ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بظلمته ﴿ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلالات على وحدانيته تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنع الله.

مبادئ الإسلام وتصوراته عن الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، ومطالب التقدم الإنساني المتوازن.

إن الثقافة البيئية الإسلامية تلزم المسلمين مواجهة الكوارث والمخاطر البيئية العالمية، والإسلام بخصوصيته العالمية لن يغمض عينه عن مشاكل العالم البيئية وغيرها، ويمكن من خلال تمحيص مبادئه وأحكامه تلمس الحلول المناسبة لتلك المشاكل وكثير من تلك الكوارث. آخذين بعين الاعتبار أن كثيراً من أسباب تلك المشاكل ترجع لما اقترفته يد الإنسان بحق بيئته، وعالمه، ونفسه، وأخيه الإنسان، ويصدق في ذلك قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

المشاكل والمخاطر التي تتعرض لها البيئة:

تعرضت البيئة وما زالت تتعرض لبعض أشكال التدهور والدمار والاستنزاف وسوء الاستخدام، ومن صور ذلك استنزاف موارد المياه، أو تلويثها، وتعرض بعض الغابات للحرائق أو الاقتلاع، وانتشار التصحر، ومشاكل طبقة الأوزون، وبعض أنواع النباتات والطيور والحيوانات انقرضت أو توشك على الانقراض، وازدياد أعداد السكان مع تضاؤل بعض الموارد البيئية، وما يعانيه بعض الناس من إبادة، وجوع وعطش، وغير ذلك من صور الانحطاط البيئي، أو المعاناة البيئية.

ومن أكثر الاضطرابات البيئية وأعمها أثراً في هذا الزمان ما يحدث من ثقوب في طبقة الأوزون، فقد أُعلن مؤخراً عن اتساع ثقب في طبقة الأوزون فوق القطب الجنوبي خلال شهر آب ٢٠٠٥. (قناة الجزيرة الفضائية، نشرة أخبار صباح الأربعاء، ٢٠٠٥).

وفي الاحتفال باليوم العالمي للأوزون في شهر أيلول من العام الحالي ٢٠٠٥، ووسط تحذيرات علماء البيئة من الأضرار التي لحقت بطبقة الأوزون فوق المنطقة القطبية الجنوبية، أعلنت وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» أن ثقب الأوزون فوق المنطقة الجنوبية، بلغ حجماً لم

يبلغه من قبل، إذ وصلت مساحة الثقب هذا العام إلى ثمانية وعشرين مليوناً وثلاثمائة ألف كيلومتر مربع، وهذا يعني أن الثقب أصبح يعادل ثلاثة أضعاف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية. وكان حجمه قد سجل قبل سنتين سبعة وعشرين مليوناً ومائتي ألف كيلومتر مربع. ولا توجد أية مؤشرات حسب وكالة أنباء الشرق الأوسط لانكماش حجم الثقب في هذا العقد، كما أن كثافة مادة الكلور فلورو كربون ـ الذي يعتبر أكثر الغازات تدميرا لطبقة الأوزون ـ لم تتغير على مدى السنوات العشر الماضية. ويُرجع العلماء تآكل طبقة الأوزون إلى سلسلة معقدة من التفاعلات التي تساعد عليها مواد معينة مستنفذة للأوزون، أبرزها غاز الكلورفلورو كربون والهاليون، إذ صنعت منها مركبات لأول مرة في الثلاثينات لم يكشف أثرها الكبير في طبقة الأوزون إلا في عام ١٩٧٤.

وحذر تقرير صادر عن الأمم المتحدة من أن ارتفاع درجة حرارة الكون سيؤدي إلى مجاعة في القرن المقبل يعاني منها الملايين، وتقول مجموعة من العلماء وهم أعضاء في اللجنة الحكومية حول التغيير المناخي التابعة للأمم المتحدة، أن الإنتاج الزراعي يتدهور في آسيا، بينما تعاني أستراليا من نقص في المياه، وستعاني أوروبا من خطر الفيضانات، وإفريقيا سيواجهها خطر التصحر.

وتوقع العلماء أن ترتفع درجة حرارة الكون هذا القرن ما بين درجة مئوية واحدة و٥,٨ درجة مئوية بينما سترتفع مستويات البحار بعشرات السنتيمترات، مهددة بذلك ملايين البشر في البلدان المنخفضة عن مستوى سطح البحر.

وحذر علماء البيئة من أن التغييرات المناخية التي ستؤدي إلى تراجع الرقعة الزراعية وتراجع المحاصيل، ستعرض ٥٠ مليون شخص ـ معظمهم في إفريقيا ـ للمجاعة بحلول ٢٠٥٠م، في الوقت الذي يعاني فيه حالياً أكثر من ٥٠٠ مليون شخص بمختلف دول العالم من مخاطر المجاعة نتيجة للتأثير السلبي للبيوت الزجاجية والغازات المنبعثة المسؤولة عن ظاهرة الاحتباس الحراري.

كما تعاني الدول الأوروبية أيضاً من ارتفاع درجات الحرارة، إذ حذر تقرير لصندوق رعاية الطبيعة في العالم ـ وهو منظمة مهمتها الحفاظ على البيئة ـ من احتمال ارتفاع درجات الحرارة في الدول الأوروبية الرئيسة أسرع من المعدل الطبيعي. وذكر أن متوسط درجات الحرارة خلال الصيف ارتفع في غالبية تلك الدول بمعدل درجة واحدة خلال السنوات الخمس الماضية، مقارنة بدرجات الحرارة قبل ٣٠ عاماً. **(جريدة القدس، ١٢٩٦١، تاريخ ٢٠٠٥/٩/١٧، ص ٣٨).**

ومع تطور الصناعة تفاقمت مشاكل عوادم السيارات والمصانع، وما تبثه من دخان وكربون ومواد سامة تضر بالبيئة، وبالتالي بالصحة البيئية للكائنات الحية بما فيها الإنسان، هذا بالإضافة إلى اتساع نطاق وحجم أسلحة الدمار الشامل: الكيماوية والجرثومية والنووية والعنقودية، ومخلفات التجارب الكيماوية والنووية في هذا العصر.

وعدا عن ذلك فإن الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وأعاصير ما زالت تهدد مساحات واسعة من بقاع المعمورة، مما دعا الرئيس الأمريكي رئيس أكبر قوة دولية في العالم المعاصر ليصرح في ٢٠٠٥/٨/٣١ بأنه من غير الممكن الوقوف أمام غضب الطبيعة. جاء ذلك في معرض تعقيبه على إعصار كاترينا الذي ضرب بعض مناطق جنوب أمريكا في أواخر شهر آب ٢٠٠٥، رغم التحذير منه، وجلاء الكثيرين عن منازلهم خوفاً منه، فإنه لما جاء دمر مناطق كبيرة، وشرد آخرين.

وهناك كوارث قد تأتي على سبيل العقاب الرباني، فلما شبه الله تعالى الحياة الدنيا بالأرض التي أخذت زخرفها، نبه إلى أنه تعالى يمكن أن يرسل على هذا البستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة في ليل أو نهار، من برد أو ريح أو سيل، فتصير تلك الأشجار والزروع باطلة هالكة كأنها ما حصلت البتة، فلا شك أنه تعظم حسرة مالك ذلك البستان ويشتد حزنه، فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها، فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها. **(التفسير الكبير ـ الرازي ج: ١٧ص٥٩ ـ ٦٠).**

مكونات البيئة وعناصرها وانواعها

البيئة بمفهومها الواسع تشمل جميع العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية والإنسانية التي تؤثر في أفراد الكائنات الحية وجماعاتها وتحدد شكلها وعلاقتها وعلى هذا الأساس يمكن تلخيص الأبعاد التي يتضمنها مفهوم البيئة، بما يلي:

(١) **البيئة الطبيعية** ، وتشمل:

- الأرض: بما تتضمنه من تربة، وثروات معدنية ومائية، وما تتعرض له من فيضانات وتصدعات وانزلاقات أرضية وزلازل.
- المناخ: بما يتضمنه من أمطار ورياح وأعاصير، ودرجات الحرارة وغير ذلك.
- الحيوانات والطيور البرية.
- النباتات البرية.

(٢) **البيئة الاصطناعية أو المشيدة**، وتتضمن:

- استعمالات الأراضي المحيطة.
- البنية التحتية والخدمات العامة، وتشمل إمدادات المياه من حيث النوعية والكمية، وإدارة النفايات الصلبة والسائلة، وتصريف مياه الأمطار والمجاري، ومصادر الطاقة من كهرباء ونفط وغيرها. والمرافق العامة من طرق، ومطارات ومحطات السيارات والباصات والأسواق.
- مستوى تلوث الهواء، ومصادره.
- مستوى الضجيج، ومصادره.
- مستوى تلوث المياه، ومصادر المياه الجوفية والسطحية في المنطقة ونوعيتها. واستعمال الأسمدة والمبيدات بأنواعها، وطرق صرف المياه العامة، ومناطق معالجة النفايات الصلبة.

(٣) البيئة الاجتماعية والخلقية:

وتتضمن الخدمات الاجتماعية، ومناطق العمل والتجارة، والخصائص الاجتماعية والاقتصادية والعرقية للسكان، كما يشمل ذلك حياة السكان وتجمعاتهم ونشاطاتهم وإداراتهم، وحجم السكان وتوزيعهم، وظرف الإسكان، ومنع الاقتتال، وحرمة الدماء والأعراض، والحرية، ومنع الكذب والاستهزاء واللمز والغمز والغيبة والنميمة والجاسوسية، ووجوب الاستئذان...

البيئة الأخلاقية والاجتماعية: وجوب الستر، وغض البصر، والزواج، والإنجاب، ومنع الفواحش، والمسكرات، والمخدرات.

(٤) البيئة الاقتصادية:

وتشمل العمل والبطالة، ومستوى الدخل والطبيعة الاقتصادية للمنطقة (عن كتاب التربية البيئية ٢٠٠١) منع الغش والاحتكار والربا وإباحة البيع والتجارة والحث على الصناعة.

(٥) البيئة الجمالية: «إن الله جميل يحب الجمال».

ملخص لبعض منطلقات الحديث عن البيئة الطبيعية في الإسلام:

المتدبر في آيات القرآن الكريم، يستخلص عدداً من الأسس والمبادئ والقواعد التي تقوم عليها النظرة الإسلامية للبيئة والعلاقة بها، ومن تلك الأسس:

* **التأكيد على أن البيئة الطبيعية ومكوناتها جزء من خلق الله،** بل هي آيات دالة على قدرة الخالق، ومحط للتفكير والتأمل والنظر للوصول إلى الإيمان، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

فالله سبحانه وتعالى حث على النظر في مكونات البيئة، بهدف الوصول إلى حقيقة الإيمان، أو تعزيزه بالبراهين والمؤكدات، فلفت النظر لآيات الله التي تتجلى في نزول الماء وخلق الجبال والأودية والينابيع والبحار والأنهار والزرع والثمار، وخلق الحيوان والإنسان.

البيئة بمكوناتها ومواردها كائنات خلقها الله أو خلق أصولها، ووضع تشريعات تحميها، وتحقق الغايات النبيلة من وجودها، ووضع لها نظاما تنمو وتسير وفقه، وحدد للإنسان قوانين التعامل معها، فالكائنات البيئية مخلوقة لله كالكائنات البشرية ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

ترتبط قضايا البيئة وفق المنظور الإسلامي بالعقيدة والإيمان كما ارتبطت بالتشريع والتهذيب والأخلاق، فكل ما يجري في الكون يقع ضمن ملكوت الله، فيكون أو لا يكون بقدرته وإرادته وعلمه سبحانه وتعالى، فالمخلوقات تخضع للقوانين الإلهية في أصل وجودها واستمراره وفنائه، يقول عز وجل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠].

ويقول: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١][1].

فالكائنات البيئية آيات دالة في عالم المنظور والمشاهد على قدرة الله ووحدانيته، وسعة علمه، ويفترض أن تقود الإنسان من خلال التدبر والتأمل نحو الإيمان بالله، وحسن عبادته، ليخضع لنظام خالقه في سلوكه الإرادي كما خضع هو والكائنات لله فيما لم يملكوا نحوه حولاً

---

(١) فالله جعل الأرض قراراً لا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ فيما بينها ﴿أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالا أثبت بها الأرض ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بين العذب والملح لا يختلط احدهما بالآخر.

ولا قوة، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٨٤]، ويقول: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات: ٥].

فالشمس شاهد كوني للخضوع لنظام خالقها صباح مساء، فلها في كل يوم مشرق ومغرب، تسير وفق نظام محكم في منتهى غايات الدقة، وكل ذلك كائن بقدرة الله وإرادته سبحانه. وقال سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾[1] [الجاثية: ٣٦].

* البيئة تسبح بحمد ربها:

الكائنات البيئية كبقية مخلوقات الله تسبح بحمد ربها وتنصاع لأمره وتهتدي بهداه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨]، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ...﴾ [الأنبياء: ٧٩]، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾[2] [ص: ١٨].

* كل شيء خلق بقدر:

خلق الله عناصر البيئة بمقدار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] وقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

والمقادير التي خلقها الله من مكونات البيئة تتعاضد في تحقيق الصلاح البيئي، فالماء الذي ينزل من السماء يُنبت البيئة الخضراء

---

(١) العالم ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه التي تسير وفق نظام الله وسننه في الخلق.

(٢) (العشي) وقت صلاة العشاء (والإشراق) بعد شروق الشمس ووقت صلاة الضحى.

اليافعة، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف: ١١].

وأشار الله إلى هذه الحقيقة في معرض حديثه عن المطر والسيول والأودية، فقال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

ونبه الله إلى قضية الجفاف وشح المياه، بقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

وأشار إلى تقدير القوت والطعام، بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ١٠].

* البيئة وعناصرها مسخرة للإنسان:

الجبال والبحار والأنهار والطرقات (البرية والبحرية والجوية والفضائية) والماء والهواء، والثمار والأشجار والطير والحيوان وغير ذلك من موجودات البيئة ومكوناتها سخرت للإنسان، فالإنسان في الإسلام كائن مكرم، وسخر الله كل الكائنات، ليستخدمها لمنافعه المشروعة، دون شطط أو غلو.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية ١٣]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢].

فالله كرم الإنسان فخلقه في أحسن تقويم، وسخر له كثيراً من المخلوقات، ومنها ما يحيط به من عناصر البيئة الطبيعية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾... [لقمان: ٢٠].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠]، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: ٥].

فالبيئة كلها بأرضها وسمائها ومائها وهوائها وجمادها ونباتها وحيواناتها، وما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، كل ذلك قد خلقه الحق تبارك وتعالى مسخراً مذللاً للإنسان.

* الإنسان مستخلف في البيئة:

خلق الله الإنسان وكلفه بأن يكون خليفته في الأرض، وأسند إليه مهمة تعميرها، وفق الشريعة التي أنزلها للعالمين، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ...﴾ [الأنعام: ١٦٥].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠]، ...﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ...﴾ [هود: ٦١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [فاطر: ٣٩].

ويقول الرسول الكريم ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة والله تعالى

مستخلفكم فيها». (**صحيح مسلم/ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار**).

فعلاقة الإنسان بالبيئة إيجابية، تنطلق من نظر الإسلام إلى إقامة تفاعل إيجابي بين الإنسان والبيئة، فهي تجلب للإنسان الراحة والنفع، وهو يعمرها ويحافظ عليها ويرعاها، ويشكر الله أن وهبه نعيمها، وذلل له مناكبها، وسخر له سهولها وجبالها وزرعها وثمارها.

وينظر الإسلام إلى أن يتم هذا التفاعل وفق شريعة الله وسننه، فمثلما ينصاع المطر لأمر الله، وينبت الزرع بإرادة الله، فكذلك الإنسان عليه أن يمتثل لأمر الله في تعامله مع البيئة المحيطة به، في إطار تكليفه بمهمة عمارتها والاستخلاف فيها.

فالإنسان يتمتع بوظيفة الخادم للبيئة والمخدوم من قبلها، فهو يحفظ مواردها ويحميها، وهي تقدم له منافع شتى: وجدانية وجسمية وحتى مأوى لجثمانه بعد الموت.

والإنسان يقوم بمهمة الوصاية على البيئة من خلال كونه مستخلفاً في الأرض، فهو يعمرها ويرعاها، وهي بمثابة أمانة في عهدته، والله سائله عما استرعاه فيها، والله تعالى يقول: ﴿...هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ [هود: ٦١].

وتقع عمارة البيئة في إطار المفهوم العام للعبادة، والذي شمله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

حيث إن العبادة لا يقتصر معناها الشامل فقط على مجرد أداء الشعائر الدينية الروحية من صلاة وصوم وحج وغيرها، وإنما تعني الالتزام المخلص والأمين بمبادئ الإسلام وتعليماته في كل شؤون الحياة، ومنها عمارة البيئة واستثمارها للصالح العام والخاص، فالزراعة والبناء وترشيد استهلاك الموارد الطبيعية، وإماطة الأذى عن الطريق عبادة، والمحافظة على القيم السلوكية النبيلة في المجتمع، والمساهمة في تحقيق الهدوء وترك الضجيج عبادة تسهم في تحقيق السلامة البيئية.

غير أن الاستخلاف مؤقت بزمن محدود، فله أجل محتوم، يقول تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ [البقرة: ٣٦] إلا أن الناس يتوارثون عمارة البيئة، جيلاً بعد جيل، وقد قيل: زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون.

وإلى جانب الأمر بعمارة البيئة بكل وسيلة ممكنة ومتاحة، فإن الشريعة الإسلامية تحظر كل ما من شأنه إفسادها، وإيقاع الضرر فيها، فلا يجوز فعل كل ما فيه أذى وإضرار للبيئة.

الفساد بمعناه الشامل ضد التعمير والصلاح والفساد هو كل سلوك بشري يفسد نعم الله ويحيلها من مصدر منفعة وحياة إلى مصدر ضرر وخطورة على الحياة، وورد النهي الجلي عن الإفساد في الأرض في عدد من الآيات القرآنية، منها: قوله تعالى: ﴿...وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف ٨٥] وقوله تعالى: ﴿...وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] وإفساد البيئة شكل من أشكال الإفساد في الأرض، فهي تمد الإنسان بالنفع والخير، ليتمتع ويقضي حاجته، ويحقق نموه، دون أن يكون معول هدم وتدمير وتخريب لها، يقول تعالى: ﴿...كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

أخرج ابن جرير عن السدي قال: نزلت في الأخنس بن شريق أقبل إلى النبي ﷺ وأظهر الإسلام فأعجبه ذلك منه ثم خرج فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر فأنزل الله الآية. (كتاب **لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي**، تحقيق: خالد شبل التوفر: عدد الاجزاء: ١، سنة النشر: ٢٠٠٢ الطبعة رقم: ١).

ويقول عز وجل: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

ومن أنواع الإفساد البيئي: تلويث المياه، وهي عصب الحياة،

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ويقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩].

وقد حذر الرسول ﷺ من هذا الإفساد، فقال: «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد ثم يغتسل فيه». **(سنن النسائي/ كتاب الطهارة/ باب النهي عن البول في الماء الراكد).**

وفي طريق الناس: **(سنن أبي داود/ كتاب الطهارة وسننها/ باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق).**

الأمن البيئي:

يشمل الأمن البيئي في الإسلام مجالات كثيرة، فهو يعم الأمن الخلقي والأمن الفكري والأمن الثقافي، إضافة للأمن من تلوث البيئة المادي كالنفايات والغازات والأدخنة والضجيج... إلخ.

ومن الإجراءات التي حرص عليها رجال الحسبة والفقهاء لتوفير أنواع من الأمن البيئي إزالة الحوائط والمباني الآيلة للسقوط، من منطلق الحرص على توفير الأمن البيئي الشامل، الذي أشارت إلى بعض جوانبه أحاديث الرسول ﷺ، كقوله: «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون». **(صحيح البخاري/ كتاب الاستئذان/ باب لا تترك النار في البيت عند النوم).**

وفي حديث آخر قال: «اطفئوا المصابيح بالليل إذا رقدتم واغلقوا الأبواب وأوكئوا الأساقي وخمروا الطعام والشراب». **(صحيح البخاري/ كتاب الاستئذان/ باب غلق الأبواب بالليل).**

وهذا يفضي إلى عمارة البيئة بالزرع والبناء، وقد حث الرسول ﷺ على هذه العمارة، فقال: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة». **(صحيح مسلم/ كتاب المساقاة/ باب فضل الغرس والزرع)** وقال: «من أحيا أرضاً وعرة

من المصر أو ميته من المصر فهي له». **(مسند أحمد/ مسند جابر بن عبد الله) وقال: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها». (مسند أحمد/ مسند أنس بن مالك).**

وفي المقابل ينهى الإسلام عن التعرض للشجر والزرع بالقطع أو الإتلاف دون حاجة، حتى في حالة الحرب، مما يشير إلى حرص المسلمين على تحقيق الحماية البيئية، وهو ما يسمى حديثاً بالمحميات الطبيعية.

ولم تقتصر تلك الحماية على الزرع والنبات، وإنما شملت الحيوان كذلك، ففي مجال الثروة الحيوانية، أمر الإسلام بالإحسان إلى الحيوان، والانتفاع به، والحفاظ على وجوده، وحمايته من الانقراض، ومنع قتله إلا لحاجة مشروعة، روى النسائي وابن حبان أن النبي ﷺ قال: «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب، إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة». **(سنن النسائي/ كتاب الضحايا/ باب من قتل عصفوراً بغير حقها).**

ومن أوضح الأمثلة التي ضربها الإسلام في مجال الحث على حماية الحيوان، ما ورد بشأن الذي دخل الجنة في كلب، والتي دخلت النار في هرة.

مظاهر الاهتمام بحماية البيئة الإنسانية من الفقر وتطوير الحياة الاقتصادية:

وضع الإسلام قواعد إيجابية في استثمار الأراضي والانتفاع بها، وبذلك يقضي الإسلام على مشكلة كبيرة تعاني منها شعوب كثيرة ألا وهي مشكلة التصحر نتيجة إهمال الأراضي الزراعية قال رسول الله ﷺ: «من كانت له أرض فليزرعها، أو ليمنحها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه». **(صحيح البخاري/ كتاب المزارعة/ باب ما كان أصحاب النبي يواسي بعضهم بعضاً)** فالمسلم مطالب بأن يزرع أرضه بنفسه أو يتيح لغيره زراعتها دون مقابل أو يعطي أرضه لمن يزرعها ويتحمل جانباً من

نفقات الإنتاج مقابل شطر من الناتج وهي المزارعة.

وفي مجال التنمية الاقتصادية فإن النشاطات الإنسانية في مجالات الإنتاج والتنمية والتوزيع تحكمها قاعدة الحلال والحرام فالحلال هو ممارسة النشاطات النافعة للبيئة الطبيعية والإنسانية أما الحرام فهو النشاطات التي تؤذي البيئة الطبيعية أو الإنسانية ومن هنا فقد نظر الإسلام إلى الإنتاج النافع كواجب ولا يكتمل هذا الواجب الديني إلاّ به، وبهذا فإن الإسلام ينظر إلى الصناعات ضمن منظور مدى ضررها على البيئة وحماية المجتمع الإنساني ويمنع الجشع من وراء التطور الصناعي وما ينتج عنه من تخريب الوسط الغازي والصلب والمائي كما حدث اليوم، أيضاً وضع الإسلام حداً قاطعاً للتدهور البيئي الناتج عن الفقر وهو ما يعاني منه ملايين الناس في العالم ونظر الإسلام إلى الفقر على أنه خطر على العقيدة وخطر على الأخلاق وخطر على الأسرة وعلى المجتمع، فوضع علاجاً للفقر من خلال فريضة الزكاة ونظام الميراث والإنفاق بأموال الكفارات والأوقاف وغيرها.

وفي مجال التنمية الاقتصادية ومكافحة الفقر أيضاً عمل الإسلام على التقريب بين الطبقات بتحريم الكبر ومظاهر الترف وحث الإسلام على التعاون والقرض الحسن ابتغاء مرضاة الله، ووضع الإسلام قواعد تمنع أي هدر في أي مورد فإن كان في الوضوء سرف وهو مدخل للعبادة فكيف بالإسراف والتبذير الذي يتعدى حدود الحلال والذي ينفذ بشكل واسع عند كثير من الأمم على مستوى الأفراد والجماعات.

وبما أن الزراعة من الموارد الأساسية التي تحمي بيئة الأرض فقد أولاها الإسلام عناية متميزة وجعل الاهتمام بها عبادة وبذلك نجد أن رسالة الإسلام قد اهتمت عن طريق التربية بتنظيم العلاقة بين مكونات البيئة، فوضعت نواظم وضوابط لمعاملة الإنسان مع نفسه، ومع الآخرين ومع الأحياء وكذلك نظمت العلاقة بين الإنسان وبين موارد الأرض والسماء، ودعت إلى حمايتها والحفاظ عليها وإنمائها وسخرت لتحقيق تلك الغايات تربية شاملة ممتدة مدى الحياة، من أجل هندسة سلوكية

لإنسان متكامل يحمل حساً بيئياً سليماً وعميقاً لارتباطه الدائم مع موجد البيئة ومصمم قوانينها.

كل ذلك يجعل الإنسان المسلم يقدر البيئة الإنسانية والطبيعية ويقيها من التدهور والدمار من أجل تحقيق بيئة الأمن والسلام على الكرة الأرضية .

* البيئة تتأثر بإصلاح الخلق وإفسادهم:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩]، ﴿...هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ [هود: ٦١]، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿...وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

ويشمل عموم الفساد في الأرض الفساد الخلقي والزراعي والصناعي، فالإفراط في استخدام المبيدات والأسمدة الكيماوية يؤدي إلى إفساد البيئة والإضرار بالخلق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

ومن نتائج الإفساد البيئي ومظاهره انتشار الأوبئة الصحية التي تنتج عن انحراف في السلوك، كمرض الايدز - وباء نقص المناعة المكتسبة - وهو من الأوبئة البيئية التي تعاني من ويلاتها كثير من الشعوب والبلاد، ومن أهم أسبابه الشذوذ الجنسي، وإقامة علاقات جنسية غير شرعية، مما يجعل الممارس لمثل هذه العلاقات عرضة للأوبئة ومنها الإيدز.

ويحسن هنا التذكير بأن الإسلام الحنيف له موقف واضح من قضية المعاشرة الجنسية، التي تعتبر عند الانحراف بها عن مسارها

المشروع السبب الرئيس لوباء الإيدز، فالإسلام يقر بالغريزة الجنسية ولا يستقذرها، بل يحث على الاستجابة لدافعها كحاجة فطرية، ولكن وفق منهج واضح المعالم محدد الأطر. فيحث الرسول ﷺ الناس، وبخاصة أصحاب العنفوان الجنسي وهم الشباب على الزواج، ليخرجوا من حالة التوقان إلى حالة الاعتدال بمزاجهم الجنسي، فيوجه قائلاً: «يَا مَعشَرَ الشَّبَابِ مَن استَطَاعَ مِنكُم البَاءَةَ فَليَتَزَوَّج فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ وَأَحصَنُ لِلفَرجِ وَمَن لَم يَستَطِع فَعَلَيهِ بِالصَّوم فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ». **(صحيح مسلم/ كتاب النكاح/ باب استحباب النكاح لمن طابت نفسه إليه ووجد).**

ويصنف الإسلام المعاشرة الجنسية خارج المجال المشروع، في دائرة الإثم الناتج عن تعدي حدود الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٤ - ٧].

فالزناة عادون مفسدون، لأنهم ابتغوا بفروجهم سبيلاً نهى الله عنه بصريح العبارة، إضافة إلى وصفه بأبغض الصفات فهو فاحشة وسوء سبيل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢] ولا يقل عن شر الزنى وسوئه الشذوذ الجنسي الذي أشار القرآن الكريم إلى إحدى أشكاله في مواضع عديدة، وذلك خلال حديثه عن الأفعال المشينة لقوم لوط، فالله وصف أفعالهم المشينة بالخبائث، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ولوط عليه السلام وصف شذوذ قومه بالفاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الأعراف: ٨٠].

وضرب الله لنا مثلاً بالعقاب الذي سلطه على أصحاب الفاحشة من قوم لوط، فمحقهم به، جراء ما اقترفت أيديهم من شذوذ، فأمطرهم حجارة أهلكتهم، واقتلعهم بها من جذورهم، وجعلهم عبرة للعالمين.

والمعاقبة الربانية لأصحاب الفاحشة غير محصورة على الرمي بالحجارة المهلكة، أو بدمار المساكن والقرى على أصحابها، وإنما قد تأخذ أشكالاً أخرى، مثل أن يسلط الله عليهم أمراضاً فتاكة، كوباء الإيدز، فورد في الحديث قوله ﷺ: «... لَم تَظهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَومٍ قَطُّ حَتَّى يُعلِنُوا بِهَا إلاَّ فَشَا فِيهِم الطَّاعُونُ وَالأَوجَاعُ الَّتِي لَم تَكُن مَضَتْ فِي أَسلاَفِهِم الَّذِينَ مَضَوا...». **(سنن ابن ماجه/ كتاب الفتن/ باب العقوبات)** والمراد بالفاحشة هنا الزنا، في إشارة نبوية سبقت ظهور الإيدز وغيره من الأوبئة التي أفرز فعل الفاحشة وشيوعها في أوساط الناس كثيراً منها.

وقد أثبتت الوقائع والدراسات الطبية والإحصائية الحجم الهائل للمشاكل الصحية والإنجابية والاجتماعية الناجمة عن الانحراف الجنسي، فأشارت تقارير منظمة الصحة العالمية، إلى أن مرض الإيدز تسبَّب عام ١٩٩٨ في وفاة مليونَي شخص في إفريقيا من مجموع ستة ملايين شخص مصاب بهذا المرض في العالم، أي أن هذا الوباء يشكل أخطر قضية صحية تواجه إفريقيا.

مما يؤكد على أن الأخذ بالمنهج الشرعي الذي جاء به النبي محمد ﷺ يتجاوب مع دوافع الفطرة، ويتناغم مع غرائز الإنسان من ناحية، ويكفل حماية البيئة المجتمعية من مخاطر الأوبئة التي تنجم عن الانفلات بالغريزة على العواهن دون التقيد بضوابط السلامة العامة والخاصة، من ناحية أخرى.

وأرشد الأسوة ﷺ إلى وسائل تساعد في مواجهة التوقان الجنسي عند تعذر تحقيق الاستجابة الطبيعية له بالزواج المشروع، فحث ﷺ من لم يستطع الزواج على الصوم، كوسيلة تعبدية تساعد - إن أُديت على الوجه الصحيح، من سلامة النية، وحسن الإخلاص لله بها - على التخفيف من حدة التوقان الجنسي، فهي تشغل صاحبها بأمر الحاجة إلى الطعام والشراب ولا يبقى مُسيطراً عليه بالحاجة الجنسية وحدها، هذا بالإضافة إلى أن الصوم كعبادة يتوجه بها الصائم إلى ربه فهي تذكره برقابة الله وحسابه وجزائه، وتشكل بالتالي مانعاً له من الانحراف عن

الصراط السوي في تعامله مع دوافعه الغريزية وفي انتقائه نوع استجابته لها.

ولم يقف الرسول ﷺ عند الحث على الزواج والنهي عن الفاحشة كسبب رئيس لوباء الإيدز، بل أصدر أوامره بصفته الولي العام لأمر الرعية بمعاقبة مرتكب الفاحشة جلداً إن لم يكن محصناً، ورجماً إن كان محصناً، تنفيذاً للتشريع الرباني الموحى إليه به بهذا الخصوص، وكان من هديه ﷺ أن لا ينظر إلى العقوبة إلا بمنظار وأد الفاحشة، ودفع الضرر الناتج عنها، «فقد جَاءَ مَاعِزُ بنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرني. فَقَالَ: وَيحَكَ، ارجِع فَاستَغفِر اللَّهَ وَتُب إِلَيهِ. قَالَ: فَرَجَعَ غَيرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ... وكرر ذلك ثلاثا والنَّبِيُّ ﷺ يقول له مِثلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَت الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فِيمَ أُطَهِّرُكَ. فَقَالَ: مِن الزِّنَى فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبِهِ جُنُونٌ فَأُخبِرَ أَنَّهُ لَيسَ بِمَجنُونٍ فَقَالَ أَشَرِبَ خَمرًا فَقَامَ رَجُلٌ فَاستَنكَهَهُ فَلَم يَجِد مِنهُ رِيحَ خَمرٍ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَزَنَيتَ فَقَالَ: نَعَم. فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ... ثُمَّ جَاءَتهُ امرَأَةٌ مِن غَامِدٍ مِن الأَزدِ فَقَالَت يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرني فَقَالَ وَيحَكِ ارجِعِي فَاستَغفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيهِ فَقَالَت أَرَاكَ تُرِيدُ أَن تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدتَ مَاعِزَ بنَ مَالِكٍ قَالَ وَمَا ذَاكِ قَالَت إِنَّهَا حُبلَى مِن الزِّنَى فَقَالَ آنتِ قَالَت نَعَم فَقَالَ لَهَا حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطنِكِ قَالَ فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِن الأَنصَارِ حَتَّى وَضَعَت قَالَ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ قَد وَضَعَت الغَامِدِيَّةُ فَقَالَ إِذًا لاَ نَرجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيسَ لَهُ مَن يُرضِعُهُ فَقَامَ رَجُلٌ مِن الأَنصَارِ فَقَالَ إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ فَرَجَمَهَا». **(صحيح مسلم/ كتاب الحدود/ باب من اعترف على نفسه بالزنى).**

وفي مقابل الموقف الحازم للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حيال الفاحشة، التي تتسبب في انتشار الأوبئة والأمراض، فإن الهدي النبوي تضمن حثاً على بعض الأمور التي اكتشف العلماء لاحقاً أهميتها في مجال الوقاية الصحية، فالختان مثلاً يشكل إحدى وسائل الوقاية من الإيدز كما يؤكد كثير من العلماء، وطالبت منظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة لمكافحة الإيدز بإدراج ختان الرجال ضمن

إستراتيجيات الوقاية من نقل فيروس الإيدز، بعد أن أكدت دراسات طبية أن ختان الرجال يخفض احتمال نقل هذا الفيروس من المرأة إلى الرجل، ونسبت هذه الاستنتاجات والتوصيات لعملية تشاورية دولية نظمت في سويسرا.

ومعلوم أن الختان من سنن الفطرة، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب». **(صحيح البخاري/ كتاب اللباس/ باب قص الشارب).**

* حفظ البيئة من الإضرار:

وإن إفساد البيئة سواء باستنزاف مواردها أو تلويثها يتناقض مع القاعدة الفقهية المتضمنة في قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». **(سنن ابن ماجه/ كتاب الأحكام/ باب من بنى في حقه ما يضر بجاره)** ويتسبب هذا الإفساد في جلب الكوارث العامة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿. . . فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل ١١٢].

وقد يجد البعض مصلحة معينة في بعض الأعمال، التي تكون نتائجها العامة وخيمة، كمن يجد نفعاً صناعياً أو زراعياً باتباع وسائل وأساليب تجر ربحاً وفيراً في نفس الوقت الذي تعرض فيه صحة الناس للمخاطر، وهنا يكون الفصل بالقاعدة الفقهية «درء المفاسد أولى من جلب المنافع» بمعنى أن منع الضرر والفساد مقدم على أي منفعة عند استغلال البيئة.

* إماطة الأذى عن الطريق وحفظ حقها:

يرشد الإسلام الحنيف إلى حسن استخدام الطريق ومنع الأذي والضرر عنه يقول الرسول ﷺ «إماطة الأذي عن الطريق صدقة». **(صحيح البخاري/ كتاب الجهاد والسير/ باب من أخذ بالركاب ونحوه)** وفي رواية: عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول: لا إله إلا الله وأدناها

إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان». **(صحيح مسلم/كتاب الإيمان/باب بيان عدد شعب الإيمان).**

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةً». **(صحيح البخاري/ كتاب الجهاد والسير).**

عن أَبِي بَرزَةَ قَالَ: قُلتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ عَلِّمنِي شَيئاً أَنتَفِعُ بِهِ قَالَ: «اعزِل الأَذَى عَن طَرِيقِ المُسلِمِينَ». **(صحيح مسلم/ كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل إزالة الأذى عن الطريق).**

فإزالة الأذى بكل أشكاله المادية والمعنوية عن الطريق عبادة، والأذى هنا يشمل كل ما يضر بالطريق ويشوه جماله ونظافته أو يتسبب في وقوع حوادث الطرق أو الإرباك المروري أو غيرها من الأضرار التي تلحق بالطريق ومستخدميه فمثلاً إلقاء الزجاجات الفارغة والمخلفات من أوراق وغيرها في الطريق يعتبر نوعاً من الأذى وإشغال أرصفه الطرقات، وهي المخصصة للمشاة بما يحول دون استخدامها فيه أذى وضرر لأن هذا الأمر قد يجبر المشاة أن يسيروا في عرض الطريق مما يعرضهم للحوادث كما أن عدم الالتزام بتعاليم وقواعد المرور مما يتسبب في وقوع حوادث مرورية يتأثر بها أناس أبرياء يعتبر أذى فالسائق الذي يسير بسرعة جنونية غير عابئ بما تحدثه هذه السرعة من وقوع حوادث، كثيراً ما تكون مميته، يرتكب مخالفة قانونية وشرعية في حق نفسه وحق الآخرين.

وعندما حذر الرسول ﷺ من الجلوس على الطرقات، بين حق الطريق، فقال: «إِيَّاكُم وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ فَقَالُوا مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا قَالَ فَإِذَا أَبَيتُم إِلاَّ المَجَالِسَ فَأَعطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا قَالُوا وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ قَالَ غَضُّ البَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَأَمرٌ بِالمَعرُوفِ وَنَهيٌ عَنِ المُنكَرِ». **(صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات).**

* **النظافة العامة، الشوارع، والبيوت والأبدان والمدارس والمؤسسات والأسواق.**

* **استهلاك الموارد البيئية باعتدال، ومنع الهدر والإسراف والترف.**

نهى الإسلام عن الإسراف، لما فيه من أضرار كثيرة، فالإسراف في نظر الإسلام كل سلوك يتعدى حدود الاعتدال، وإذا طبقنا هذا المفهوم على البيئة فإنه يتمثل في الاستخدام المفرط أو الجائر لموارد البيئة ومن ثم يصبح هذا السلوك غير المرغوب فيه مصدر ضرر وخطورة على البيئة ومواردها، كما أنه نوع من الأنانية وعدم التبصر وعدم الحكمة في تحمل المسؤولية لأنه مدعاة لسرعة استنزاف موارد البيئة وقد توعد الله المسرفين بالهلاك يقول عز وجل: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩]، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

حتى إن الصوت الذي يصدر عن الإنسان، مطلوب فيه الاعتدال، لقوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩] وفي هذا إشارة إلى الضجيج الذي ينبعث من أصوات الناس أو من سلوكهم في تعاملهم مع الأجهزة والمعدات والمركبات، مما يتسبب في إزعاج للآخرين، ويشكل بالتالي نوعاً من أشكال التلوث البيئي.

ومما يدل على أن الإسلام ينهى عن الإسراف بكل أشكاله وألوانه، إنه ينهى عن الإسراف حتى في أعمال الخير والعطاء والعبادة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد نزلت هذه الآية الكريمة عندما أنفق ثابت بن قيس جذاذ ٥٠٠ نخلة ولم يترك لأهله شيئاً يقول عز من قائل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

وكان الرسول ﷺ: «يغتسل بالصاع (الصاع أربعة أمداد) إلى خمسة

أمداد ويتوضأ بالمد (مقدار حفنة كبيرة) فمن زاد عن ذلك فقد أفاء وظلم (متفق عليه). **(صحيح البخاري/ كتاب الوضوء/ باب الوضوء بالمد).**

تمثل هذه الآيات الكريمات والأحاديث النبوية الشريفة دعوة صريحة للمسلمين إلى الاعتدال والاقتصاد وحسن استغلال موارد البيئة من ناحية، ونبذ الإسراف والاستخدام الجائر والتقتير من ناحية أخرى ولما كان المفسرون يتفقون في أن العبرة في النص القرآني والحديث النبوي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن هذه الدعوة إلى الاعتدال ونبذ الاسراف تشمل كل سلوك إنساني فالحق تبارك وتعالى عندما يمنح الإنسان نعمة ويفضله على سائر مخلوقاته، إنما يريد منه المحافظة على ما وهبه الله من نعم لا تعد ولا تحصى فلا يبددها فيما لا ينفع بل يجب أن يلتزم جانب الاعتدال والاتزان في استخدامها وتجنب الإسراف فالشريعة الإسلامية جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط المعتدل لا إفراط ولا تفريط فحد الاعتدال وحد الاتزان هو حد الإسلام الذي يجب أن نلتزم به في كل سلوكياتنا البيئية وغيرها.

الاعتدال في استهلاك موارد البيئة (ترشيد استهلاك المياه):

فالإسلام دين الوسطية والاعتدال، فهو يتيح للإنسان التلذذ والانتفاع بالطيبات في المأكل والمشرب والمعاشرة، ويوجهه إلى تجنب الإسراف، ويحظر عليه اقتراف المحرمات المحددة في ذلك.

ويأتي الحث على ذلك في سياق الحث العام على الاعتدال وتجنب الإسراف، في مثل قوله تعالى: ﴿...وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقوله: ﴿...وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ورد في صحيح البخاري باب الغسل بالصاع ونحوه. عن أبي سلمة قال: «دخلت أنا وأخو عائشة على عائشة فسألها أخوها عن غسل النبي ﷺ، فدعت بإناء نحواً من صاع، فاغتسلت وأفاضت على رأسها

وبيننا وبينها حجاب»[1]. **(صحيح البخاري/ كتاب الغسل/ باب الغسل بالصاع ونحوه).**

عن أنس «كان النبي ﷺ يغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد ويتوضأ بالمد». **(صحيح البخاري ج ١/ ص: ٤ ٨، وصحيح مسلم ج ١/ ص: ٢٥٨)**[2].

---

(١) قوله: فدعت بإناء، قوله: وبيننا حجاب قال القاضي عياض: ظاهره أنهما رأيا عملها في رأسها وأعالي جسدها مما يحل نظرة للمحرم لأنها خالة أبي سلمة من الرضاعة أرضعته أختها أم كلثوم وإنما سترت أسافل بدنها مما لا يحل للمحرم النظر إليه قال: وإلا لم يكن لاغتسالها بحضرتهما معنى.
وفي فعل عائشة دلالة على استحباب التعليم بالفعل لأنه أوقع في النفس ولما كان السؤال محتملاً للكيفية والكمية ثبت لهما ما يدل على الأمرين معاً، أما الكيفية فبالاقتصار على إفاضة الماء، وأما الكمية فبالاكتفاء بالصاع. فالاغتسال وقع بملء الصاع من الماء تقريباً لا تحديداً. (فتح الباري ج ١/ص: ٣٦٥).

(٢) وورد في كتاب عمدة القاري باب الغسل بالصاع ونحوه، أي: هذا في بيان حكم الغسل بالماء قدر ملء الصاع لان الصاع اسم للخشبة فلا يتصور الغسل به قوله: ونحوه، أي: الصاع من الأواني التي يسع فيها الصاع.
قال الجوهري: الصاع الذي يكال به وهو أربعة أمداد والجمع أصوع، ويقال: هو إناء يشرب فيه، وقال ابن الأثير: الصاع مكيال يسع أربعة أمداد، والمد مختلف فيه فقيل هو رطل وثلث بالعراقي وبه قال الشافعي وفقهاء الحجاز وقيل هو رطلان وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق، فيكون الصاع خمسة أرطال. وقال عياض: جمع الصاع أصوع وهو مكيال لأهل المدينة معروف يسع أربعة أمداد بمد النبي ﷺ. وقال أبو عمر قال الخليل الصاع طاس يشرب فيه (عمدة القاري: ج: ٣ ص: ١٩٦).
وروى مسلم أيضاً من حديثها أنه ﷺ كان يغتسل من إناء يسع ثلاثة أمداد، فهذا يدل على اختلاف الحال في ذلك بقدر الحاجة. وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبي ﷺ (فتح الباري ج ١/ص ٣٠٥).
قال الشافعي: وقد يرفق الفقيه بالقليل فيكفي، ويخرق الأخرق فلا يكفي. (عمدة القاري ج ٣/ص ٩٥).
ورد في سنن ابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف قال: نعم وان كنت على نهر جار» (سنن ابن ماجه ج ١/ص ١٤٧، و(مسند الإمام أحمد بن حنبل ج: ٢ ص ٢٢١) ورد عند صاحب مصباح الزجاجة تضعيف لإسناد هذا الحديث. (مصباح الزجاجة ج ١ص: ٦٢).

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: «هكذا الوضوء، فما زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم». **(سنن النسائي/ كتاب الطهارة/ باب الاعتداء في الوضوء).**

ومن مبررات حفظ الماء من الاستنزاف وترشيد استهلاكه، أن الله خلقه بقدر، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

نشرت مؤخراً تقارير عن تعرض المنطقة العربية إلى نقص قادم في المياه تقدر نسبته بـ٥٠٪ مع حلول عام ٢٠١٠م. مشيرين إلى أن معظم البلاد العربية تطل على مياه مالحة، مما يستلزم عملاً دؤوباً لتحليتها. إضافة إلى ما تعانيه معظم بلدان المنطقة من ندرة المياه. مما يستدعي ترشيد استهلاك المياه، وأن يكون هذا هدفاً لجميع المستويات في المجتمعات العربية.

حماية المياه من التلوث والمكاره الصحية:

حماية المياه الجارية والراكدة ـ مياه البحار والأنهار والآبار والبرك ـ من التلوث بمخلفات المصانع ونضح المجاري والصرف الصحي.

ورد في صحيح مسلم: باب النهي عن البول في الماء الراكد. عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يبال في الماء الراكد. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه» وقال رسول الله ﷺ: «لا تبل في الماء الدائم الذي لا يجري ثم تغتسل منه. **(صحيح مسلم/ كتاب الطهارة/ باب النهي عن البول في الماء الراكد).**

وقال رسول الله ﷺ: «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب»، فقال: كيف يفعل يا أبا هريرة؟ قال: «يتناوله تناولا». **(صحيح**

مسلم/ كتاب الطهارة/ باب النهي عن الاغتسال في الماء الراكد)[1].

الصرف الصحي:

عن عبد الرحمٰن بن أبي قراد: خرجت مع الرسول الله ﷺ فرأيته خرج من الخلاء وكان إذا أراد حاجة أبعد .(**صحيح ابن خزيمة/كتاب الوضوء/ باب التباعد عن الغائط في الصحاري عن الناس ج١/ ص: ٣٠**).

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث البراز في الماء، وقارعة الطريق، والظل للخرأة» هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه إنما تفرد مسلم بحديث أبي هريرة: «اتقوا اللاعنين»، قالوا: وما اللاعنان؟ قال: «الذي يتخلى في الطريق». (**المستدرك على الصحيحين ج ١/ ص: ٢٧٣**).

وعن ابن عمر قال: (نهى رسول الله ﷺ أن يتخلى الرجل تحت شجرة مثمرة، ونهى أن يتخلى على ضفة نهر جار). (**رواه الطبراني في الأوسط وفي الكبير**).

وعن حذيفة بن أسيد أن النبي ﷺ قال: «من آذى المسلمين في طريقهم وجبت عليه لعنتهم». (**رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن**).

وفي رواية قال: «أن يقعد أحدكم في ظل يستظل فيه أو طريق أو في نقع ماء». وفي رواية قال: «لا ينقع بول في طست في البيت فإن الملائكة لا تدخل بيتا فيه بول منتقع ولا تبولن في مغتسلك». (**رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن**).

---

(١) ورد في عمدة القاري باب البول في الماء الدائم. أي هذا باب في بيان حكم البول في الماء الراكد وهو الذي لا يجري في رواية الاصيلي باب لا تبولوا في الماء الراكد وفي بعض النسخ باب الماء الدائم وفي بعضها باب البول في الماء الدائم ثم الذي لا يجري وتفسير الدائم هو الذي لا يجري وذكر قوله بعد ذلك الذي لا يجري يكون تأكيداً لمعناه وصفة موضحة له وقيل للاحتراز عن راكد لا يجري بعضه كالبرك ونحوها. (عمدة القاري ج١٦٦/٣، وشرح النووي على صحيح مسلم ج: ٣ ص: ١٨٧).

دور الماء الملوث في نقل الأمراض:

كثيرة هي الأمراض التي تنتقل بالماء الملوث، ولا سيما تلك التي تسببها بعض الجراثيم أو الطفيليات التي يحتوي عليها براز الإنسان المريض أو بوله، وفي مقدمتها الحمى التيفودية (التيفود وداء البلهارسيا المنشقات) وداء الديدان الشصية (الملقوات أو الانكيلوستوما) وسائر الديدان.

البيئة وتنظيم النسل من منظور إسلامي:

يتحدث الناس عن الانفجار السكاني، المتمثل في تضخم عدد السكان بالنسبة للمتاح من الأرض والمساكن والموارد، ويساهم في هذا التضخم التزايد الضخم في عدد المواليد، فهل يشكل هذا تهديداً بيئياً؟ وما الحكم الشرعي في تحديد النسل أو تنظيمه؟

وهنا يجب التنبيه إلى عدة أمور، منها:

* يرى البعض أن الانفجار السكاني سرطان يجلب الفقر والمرض والأمية والجهل ويقود إلى الاندثار، إلا أن تقريراً للأمم المتحدة عن التنمية في البلاد العربية لعامي ٢٠٠٢ غاب منه عامل الانفجار السكاني كسبب معوق للتنمية.

* أن تنظيم النسل الذي يعني المباعدة بين الولادات وتأخير الحمل جائز شرعاً لعدم وجود نصوص تحرّمه من القرآن الكريم أو السنّة النبوية، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا نعزل والقرآن ينزل». **(صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب العزل)**

وذكر العزل عند النبي ﷺ فقال: «وما ذاكم قالوا الرجل تكون له المرأة ترضع فيصيب منها ويكره أن تحمل منه والرجل تكون له الأمة فيصيب منها ويكره أن تحمل منه قال فلا عليكم أن لا تفعلوا ذاكم فإنما هو القدر» (صحيح مسلم، كتاب النكاح، حكم العزل)

* أن الإجهاض حرام شرعاً، لما فيه من قتل لكائن خلقه الله، فينبغي أن يحمى من أي اعتداء أو اعتراض على هذا الخلق.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩].

وعن عائشة عن جدامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في أناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً» ثم سألوه عن العزل فقال رسول الله ﷺ ذلك الوأد الخفي». **(صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب جواز القبلة وهي وطء المرضع وكراهة العزل).**

* وأولى من الإجهاض بالتحريم قتل الولد بعد أن يخلق بسبب الفاقة أو الخوف من الفقر، وقد نهى الله عن ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾ [الإسراء: ٣١].

* تحديد النسل الذي يعني استخدام وسائل وأساليب تؤدي إلى المنع النهائي للحمل، لا يجوز شرعاً.

* * *

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ صحيح البخاري.
٣ ـ صحيح مسلم.
٤ ـ سنن ابن ماجه.
٥ ـ سنن أبي داود.
٦ ـ (السنن الكبرى ج/ص ٨٢ وسنن النسائي ج: ١/ص: ٨٨).
٧ ـ صحيح ابن خزيمة ج: ١/ص: ٣٠.
٨ ـ (فتح الباري ج: ١/ص: ٣٦٥).
٩ ـ كتاب عمدة القارئ.
١٠ ـ التفسير الكبير ـ الرازي ج: ١٧/ص: ٥٩ ـ ٦٠.
١١ ـ كتاب التربية البيئية ٢٠٠١.
١٢ ـ صلاح عبد السميع عبد الرازق، كلية التربية، جامعة حلوان، التربية البيئية في الإسلام (مفهومها وأهدافها).
١٣ ـ البيئة من منظور إسلامي، الكويت.
١٤ ـ إبراهيم عوض الله، البيئة في الإسلام، مجلة هدى الإسلام، العدد ١٧٣، ٢٠٠٥.
١٥ ـ قناة الجزيرة الفضائية، نشرة أخبار صباح الأربعاء، ٢٠٠٥.
١٦ ـ عن جريدة القدس، ١٢٩٦١، تاريخ ٢٠٠٥/٩/١٧، ص ٣٨.

❋ ❋ ❋

البيئة والمحافظة عليها
من منظور إسلامي

إعداد
الأستاذ الدكتور محمد جبر الألفي
المعهد العالي للقضاء ـ الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن اقتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا بحث موجز عن البيئة والمحافظة عليها من منظور إسلامي، أعددته تلبية لدعوة كريمة من مجمع الفقه الإسلامي الدولي، للمشاركة به في الدورة التاسعة عشرة للمجمع، التي تستضيفها وترعاها إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة.

وستكون الخطة المنهجية ـ وفق ما قررته أمانة المؤتمر ـ على النجو الآتي:

المبحث الأول: نظرة الإسلام للبيئة، وتحته ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ربط عناصر البيئة بالعقيدة الإسلامية.

المطلب الثاني: مقاصد الشريعة في المحافظة على البيئة.

المطلب الثالث: الأحكام الشرعية لرعاية البيئة.

المبحث الثاني: موقف الشريعة من تنظيمات قضايا البيئة، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: أبرز تنظيمات حماية البيئة.

المطلب الثاني: تطبيقات عملية لحماية البيئة في الإسلام.

وغني عن البيان أن موضوع البيئة قد تناولته عدة بحوث ودراسات وكتب، وعقدت له مؤتمرات وندوات على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي، وصدرت بشأنه اتفاقيات وتوصيات وقوانين ومعاهدات بكل

لغات العالم، وتعددت التعريفات التي تحدد مفهوم البيئة المراد حمايتها.

وسوف يشتمل حديثنا عن البيئة على المفهوم الكلي لعنصري الكون اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم:

١ ـ الأرض بما عليها من إنس وحيوان وطير، وما يظهر فوقها من جبال وطرق ونبات، وما يجري تحتها من أنهار وبحار وعيون، وما يحيط بها من هواء، وما أودعه الله فيها من معادن ونحوها.

٢ ـ السماوات وما تضمه من سحب وغازات وكواكب.

وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾[2]. وقوله جل شأنه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾[3].

وقد عبرت عن ذلك المادة الأولى/٧ من النظام العام للبيئة في المملكة العربية السعودية[4] بقولها: «البيئة: كل ما يحيط بالإنسان من ماء وهواء ويابسة وفضاء خارجي، وكل ما تحتويه هذه الأوساط من جماد ونبات وحيوان وأشكال مختلفة من طاقة ونظم وعمليات طبيعية وأنشطة بشرية».

نسأل الله التوفيق والعون، وأن ينفع به، إنه سميع مجيب.

محمد جبر الألفي

الرياض في: ١٥ من ذي الحجة ١٤٢٩هـ

١٣ من ديسمبر ٢٠٠٨م

---

(١) سورة الرحمٰن: ٣٣.

(٢) سورة لقمان: من الآية ٢٠.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢٢.

(٤) الصادر بالمرسوم الملكي رقم: م/٣٤ وتاريخ ١٤٢٢/٧/٢٨هـ، وقرار مجلس الوزراء رقم: ١٩٣ وتاريخ ١٤٢٢/٧/٧هـ، ليعمل به بعد سنة من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

المبحث الأول
نظرة الإسلام للبيئة

الإسلام عقيدة وشريعة، يغرس في النفوس عقيدة سامية، أساسها تقوى الله وابتغاء مرضاته، حتى إذا أينعت وآتت أكلها جاء دور التشريع القائم على الوحي الإلهي والاجتهاد المقيد باستلهام روحه، ورعاية مقاصده، ثم يأتي دور التنفيذ ممن شرع لهم فيكون بناء على وازع من أنفسهم لإيمانهم بعدالة التشريع، وأن الجزاء الأخروي أعظم من الجزاء الدنيوي: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[1].

وانطلاقاً من هذه النظرة الشمولية، سوف نقسم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب:

نتناول في المطلب الأول مظاهر ربط عناصر البيئة بالعقيدة الإسلامية.

أما المطلب الثاني فنستعرض فيه مقاصد الشريعة في المحافظة على البيئة.

ونخصص المطلب الثالث لبيان الأحكام الشرعية المتعلقة برعاية البيئة.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
ربط عناصر البيئة بالعقيدة الإسلامية

المتأمل في آيات القرآن الكريم يلحظ بوضوح وجود وحدة شاملة

---

(١) سورة النساء: ٦٥.

تضم عناصر الكون: السموات والأرض والإنسان، ويكتشف بيسر الغاية من خلق الكون: معرفة الله تعالى وعبادته وحده.

فلنبدأ منذ الأزل: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[1]. ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2].

العقيدة الإسلامية قدمت الحل الصحيح للمعادلة التي حار علماء الفيزياء في فهمها وتحليلها: «الكون الذي نحيا فيه ليس مجموعة أجرام مادية تتحرك هنا وهناك كيفما اتفق، بل إنه محكوم بنسيج من القوانين غاية في الحبك والروعة»[3]، ففي آيات كثيرة من القرآن الكريم نجد إجابة شافية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[4]. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[5]. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[6]. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[7]. ﴿صُنْعَ اللَّهِ

---

(١) سورة فصلت: ٩ ـ ١٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٣.

(٣) أسامة علي الخضر، رؤية قرآنية لقوانين الكون، المكتب العربي للمعارف ـ القاهرة: ٢٠٠٨، ص١١.

(٤) سورة الأنبياء: ١٦.

(٥) سورة القمر: ٤٩.

(٦) سورة الحجر: ٢١.

(٧) سورة السجدة: من الآية ٧.

ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍۚ﴾[1]. والعقيدة الإسلامية تكشف بيسر ووضوح عن الغاية من خلق الكون؛ فكل شيء يقر بعبوديته لله الخالق البارئ المصور، فيسبح بحمده ويسجد له: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾[2]. ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾[3]. ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[4].

والعقيدة الإسلامية تحدد بدقة علاقة الإنسان بالكون؛ فالإنسان مجرد خليفة في الأرض: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾[5]. وهذه الخلافة تقتضي إقامة الحق والعدل وعدم اتباع الهوى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[6]، وهذه الخلافة تستلزم التعامل مع البيئة باعتبارها نعمة من الله تعالى، سخرها للإنسان ليستخدمها فيما خلقت له، ويستمتع بها في حدود حاجته من غير إسراف ولا تقتير: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾[7].

فالإيمان بهذه العقيدة يحرر الإنسان من الخوف من الظواهر الطبيعية، وقد ضل قوم حين عبدوا الشمس أو القمر أو الكواكب، وعندما قربوا القرابين للأنهار أو الرياح أو البرق والرعد، كما ضل قوم ظنوا أنهم سادوا الكون وقهروا الطبيعة، فجاء الإسلام يكشف للناس أن

---

(١) سورة النمل: من الآية ٨٨.
(٢) سورة الإسراء: ٤٤.
(٣) سورة الحج: ١٨.
(٤) سورة الذاريات: ٥٦.
(٥) سورة البقرة: من الآية ٣٠.
(٦) سورة صٓ: من الآية ٢٦.
(٧) سورة لقمان: من الآية ٢٠.

عناصر الكون وظواهر الطبيعة من آيات الله سخرها لنفع البشر، وجعلها دليلاً على قدرته ومادة للتذكر والتدبر والتفكير: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

العقيدة الإسلامية ـ إذن ـ تفرض على المسلم أن يتعامل مع عناصر البيئة ومكوناتها بحب وتعاون وتمازج، فيحافظ عليها وينميها ويحذر من إفسادها حتى لا يتعرض لسخط الله وغضبه: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

* * *

المطلب الثاني
مقاصد الشريعة في المحافظة على البيئة

من العبارات المتداولة على ألسنة العلماء في كتب الأصول والفروع ما نقل عن الغزالي في المستصفى: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة»[3].

هذه هي الثوابت الإسلامية التي ينبغي على المسلم أن يراعيها في نفسه وأن يتعهدها فيمن يرعاه ويسأل عنه. وهذه المقاصد تمتاز بأنها مقاصد إلهية ربانية تتصف بالإتقان والإحكام والكمال، وتراعي حاجات الإنسان وغرائزه التي جبل عليها: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا

---

(١) سورة النحل: ١٢ ـ ١٣.

(٢) سورة الأعراف: ٥٦.

(٣) الغزالي، المستصفى، طبعة الجندي، ص٢٥١.

لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1]. ولذلك وصفها الشاطبي بقوله: «لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين»[2].

١ ـ وأهم هذه المقاصد: حفظ الدين بإقامة أركانه المجمع عليها، وترك المحرمات المتفق على حرمتها[3]. وحفظ الدين على هذا الوجه يرتبط ارتباطاً وثيقاً برعاية عناصر البيئة التي خلقها الله وسخرها لنفع عباده وأراد لها الاستمرار، وحذر من الاعتداء عليها أو محاولة إفنائها: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[4]. فإذا قام الإنسان بشكر الله على ما أنعم زاده الله من الخير في الدنيا والآخرة، وإذا طغى وبغى وأفسد محق الله بركات عمله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾[5]. وشكر النعمة هو استخدامها فيما خلقت له، والحفاظ على توازنها، والحذر من إفسادها أو تغيير طبيعتها: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[6].

٢ ـ وقد عنيت الشريعة بحفظ الأنفس المعصومة، وذلك بتحريم الاعتداء عليها مباشرة أو تسبباً، وتجنب كل ما من شأنه إيقاع الضرر بها، ذلك أن حق الحياة ـ في الإسلام ـ هبة من الله تعالى، ولا يجوز المساس به، ويجب على الأمة ككل، وعلى ولاة الأمور خاصة رعاية الأنفس وصيانتها وتوفير البيئة الصحية

---

(١) سورة الروم: من الآية ٣٠.
(٢) الشاطبي، الموافقات: ٨/٢.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: ١٨٦/٢٨.
(٤) سورة الأنعام: من الآية ٣٨.
(٥) سورة إبراهيم: ٧.
(٦) سورة الروم: ٤١.

الملائمة لها: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

وقد كثرت ـ في عصرنا الراهن ـ الكوارث البيئية التي ترتب عليها إزهاق الأنفس بالآلاف أو بالملايين، مثل استخدام الأسلحة الكيميائية والبيولوجية وأسلحة الدمار الشامل، ومثل انفجار المفاعل النووي في تشيرنوبل (١٩٨٦م)، وانفجار صمام الأمان في مصنع بهوبال (١٩٨٤م)، وانفجار منصة إنتاج النفط في بحر الشمال (١٩٨٨م)، والتجارب النووية التي تجري في البر والبحر والجو. وهذا يؤكد ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[2].

٣ ـ أما حفظ العقل، فلأنه مناط التكليف، ويحرم كل ما من شأنه إدخال الخلل عليه، وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً برعاية البيئة والحفاظ على نقائها؛ فقد ثبت ـ علمياً ـ أن التلوث الإشعاعي والتلوث الصوتي لهما أثر خطير ومباشر على خلايا المخ، وقد يبكر في الإصابة بمرض الزهايمر. «فمن حفظ البيئة أن نحافظ على التفكير السوي في الإنسان الذي يوازن بين اليوم والغد، وبين المصالح والمفاسد، وبين المتعة والواجب، وبين القوة والحق، ولا يتعامل مع البيئة تعامل المخمور السكران، أو المخدر التائه، الذي ألغى عقله باختياره، فلم يعد يعرف ما ينفعه مما يضره»[3].

٤ ـ وحفظ النسل يتضمن المحافظة على الفروج والأعراض وصحة الأنساب، ويواجه هذا المقصد الضروري تحدياً سافراً من المفسدين في الأرض وملوثي البيئة التي فطر الله الناس عليها؛ فالعبث بالجينات الوراثية، وتجارب الاستنساخ البشري، وإباحة

---

(١) سورة المائدة: من الآية ٣٢.
(٢) سورة الروم: من الآية ٤١.
(٣) يوسف القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، ص٥١.

الزواج المثلي ونحو ذلك يعد تحدياً خطيراً للتوازن البيئي. وقد اعتبر القرآن الكريم قوم لوط من المفسدين في الأرض لتغييرهم فطرة الله في الخلق: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

٥ ـ وحفظ المال مقصد يحتاج إلى وقفة متأنية لعلاقته الوطيدة برعاية البيئة والحفاظ على مقدراتها؛ فالمسلم مكلف شرعاً بالسعي لكسب المال الحلال من طرقه المشروعة، وإنفاقه على نفسه وأهله دون سرف أو إقتار، وأداء حقه الشرعي في مصارفه المقررة، ولا يجوز له أن يأكل مال غيره إلا بوجه مشروع ورضا من صاحبه.

ولفظ «المال» يطلق على كل ماله قيمة: كالأرض والمتاع والحيوان والشجر والنقد ونحو ذلك، كما يطلق على ما يمكن أن يصير منتفعاً به[2]، كالسمك في الماء، والطير في الهواء، والحيوان غير المستأنس، وما يمكن حيازته وتعبئته وضغطه من الماء والهواء والضوء وغير ذلك.

وقد وجه الإسلام إلى استعمال ما خلقه الله في الكون استعمالاً متوازناً بدون تقتير ولا إسراف؛ حتى لا يكون هناك اعتداء على حقوق الأجيال المستقبلة، واستنزاف لبعض الموارد الطبيعية المكونة للبيئة: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[3]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

(١) سورة العنكبوت: ٢٨ ـ ٣٠.

(٢) محمد يوسف موسى، الأموال ونظرية العقد في الفقه الإسلامي، دار الفكر العربي، ١٩٨٧، ص١٦٢ وما أشار إليه من مراجع.

(٣) سورة الأعراف: ٣١.

ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[1]. «وحفظ البيئة يوجب علينا أن نحافظ على المال بكل أجناسه وأنواعه: نحافظ على موارده فلا نتلفها بالسفه، ونستنزفها بلا ضرورة ولا حاجة معتبرة، ولا نحسن تنميتها ولا صيانتها، فنتعرض للهلاك والضياع، ولا نسرف في استخدامها، فنضيعها قبل الأوان»[2].

نخلص مما تقدم إلى أن مقاصد الشريعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحماية البيئة والحفاظ عليها من الاستنزاف أو التلف أو الفساد، وهذا ما تنبه إليه علماؤنا الأوائل؛ فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[3] ما يأتي: «هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض: إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان»[4].

❋ ❋ ❋

المطلب الثالث
الأحكام الشرعية لرعاية البيئة

يقول الغزالي في المستصفى: «والفقه عبارة عن العلم والفهم، في أصل الوضع، يقال: فلان يفقه الخير والشر، أي يعلمه ويفهمه، ولكن صار ـ بعرف العلماء ـ عبارة عن العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة ... كالوجوب والحظر والإباحة والندب والكراهة، وكون العقد صحيحاً وفاسداً وباطلاً، وكون العبادة قضاء وأداء، وأمثاله»[5]. وعلم الفقه ينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه،

---

(١) سورة الإسراء: ٢٩.
(٢) يوسف القرضاوي، المرجع السابق، ص٥١.
(٣) سورة الأعراف: من الآية ٥٦.
(٤) أبو حيان، البحر المحيط: ٣١١/٤ ـ ٣١٢.
(٥) الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ط: بولاق (١٣٢٢هـ): ٤/١ ـ ٥.

وعلاقته بمن حوله وما حوله من الإنسان والحيوان والكون، فهو بهذا لصيق الصلة بعناصر البيئة.

وقد بدأ الفقهاء ـ في رعايتهم للبيئة ـ ببيان الأحكام الجزئية، ثم تطور علم الفقه بعد ذلك فأخذ في وضع القواعد والضوابط الكلية، وفي جميع مراحل تطوره كان يهتم بالتطبيق العملي في الفتوى والقضاء.

ولهذا نقسم هذا المطلب إلى فرعين: نخصص أولهما لبيان جهود الفقهاء في رعاية البيئة عن طريق الأحكام الجزئية. ونعرض في الفرع الثاني بعض القواعد والضوابط التي تنظم حماية البيئة.

الفرع الأول
جهود الفقهاء في رعاية البيئة

واجه الفقهاء مخاطر تلوث البيئة ـ التي ظهرت في أيامهم ـ بأحكام استنبطوها من مصادر التشريع الإسلامي، وهذه الأحكام يمكن أن نؤسس عليها ما جَدَّ في أيامنا من مخاطر بيئية، وما سوف يجدَّ منها.

١ ـ فقد شاعت في كتب الفقه ـ من مختلف المذاهب ـ أحكام تحظر كل ما يؤدي إلى تلوث المياه، أو الإسراف في استعمالها[١].

٢ ـ وتعرض الفقهاء في مدوناتهم لأحكام تلويث الهواء والتصرف فيه، واعتبروا أن الهواء المطلق مشاع بين الناس جميعاً ولا يحق لأحد أن يتعدى عليه بالإفساد[٢].

٣ ـ ودعا الفقهاء إلى المحافظة على طهارة الأرض ونظافتها، وإزالة الأذى عن الطرقات، ورعاية المنازل وملحقاتها، وحماية الأوعية والأسقية من كل ما يسبب تلوثها، والعناية بأماكن التجمع من

---

(١) ابن عابدين، حاشية رد المحتار: ٣٤٣/١. الونشريسي، المعيار المعرب: ٣٩٦/٨، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري: ١٨٠/١١، ابن قدامة، المغني: ٢٢٥/١.

(٢) السرخسي، المبسوط: ١٥٩/٢٠. القرافي، الفروق: ٤٠/٤. زكريا الأنصاري، أسنى المطالب: ٢٢٠/٢. البهوتي: كشاف القناع: ٤٠٥/٣.

الأدناس والروائح الكريهة[1].

٤ - واتفق أهل العلم على النهي عن إفناء أمة من الحيوانات، مما يؤدي إلى انقراض نوعها، وتحريم حبس الحيوان أو العبث به أو اتخاذه غرضاً، وبين الفقهاء أحكام تهجين الحيوان - مما يشبه الهندسة الوراثية - بالإنزاء المضر بالنوع، كما بينوا أحكام إضافة المواد المضرة إلى الغذاء الحيواني[2].

٥ - واهتم الفقهاء ببيان الأحكام المتعلقة بالنبات، من ضرورة الغرس، ورعاية أجناس النبات وتحسينها لطعام الإنسان والحيوان، وللزينة والجمال والبهجة وطيب الرائحة والعلاج الطبي... وغير ذلك[3]. كما بينوا أحكام اتخاذ المحميات لحماية النبات والإفادة من أجناسه المختلفة، وحكم التعدي على الحمى[4]. ولم ينس الفقهاء أن يبينوا حكم استعمال النجاسات في تغذية النبات أو إصلاحه أو التأثير في طبيعته[5]. ولهم كلام بديع في الحفاظ على توازن الحياة النباتية، ومنع الزراعة الضارة بالجسم أو بالعقل، وحظر قطع الأشجار والمزروعات لغير حاجة[6].

---

(١) الكاساني، بدائع الصنائع: ٨٩/١. الصاوي، بلغة السالك لأقرب المسالك: ٨٢/١. النووي، المجموع: ٦١١/٢. ابن مفلح: الفروع: ٢٣٨/١.

(٢) الكاساني، بدائع الصنائع: ٣٥/٥. القرافي، الذخيرة: ٢٨٧/١٣. الماوردي، الحاوي: ٣٧٩/٥. ابن قدامة، المغني: ٣٥٦/٦.

(٣) الفتاوى الهندية: ٣٩٢/٦. ابن جزي، القوانين الفقهية: ٢٢٣/١. حاشيتا قليوبي وعميرة: ٩٣/٣. المرداوي، الإنصاف: ٢٩١/٤.

(٤) الطحاوي، شرح معاني الآثار: ٢٧٠/٣. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير: ٧٥/٤. الشافعي، الأم: ٤٨/٤ - ٤٩. ابن قدامة، المغني: ١٦٧/٨.

(٥) ابن عابدين، رد المحتار: ٣٤١/٦. القرافي، الذخيرة: ١٨٨/١. العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام: ص١٦٤. المرداوي، الإنصاف: ٣٦٨/١٠.

(٦) السرخسي، شرح السير الكبير: ٤٣/١. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٨/٣ مع ٢٢٦/٧. الماوردي، الأحكام السلطانية: ص٧٦. البهوتي، كشاف القناع: ٤٩/٣.

الفرع الثاني
قواعد وضوابط حماية البيئة

القاعدة الفقهية: قضية كلية شرعية عملية جزئياتها قضايا كلية شرعية عملية[1]، ومن مجموع القواعد الفقهية التي تداولها الفقهاء أمكن الوقوف على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بحماية البيئة، ومنها على سبيل المثال:

١ ـ لا ضرر ولا ضرار[2]: الضرر إلحاق مفسدة بالغير، والضرار مقابلة الضرر بالضرر. وهذه القاعدة نص حديث في رتبة الحسن، ولها شواهد من الكتاب والسنة، وتعتبر أساساً يستند إليه في جلب المصالح ودرء المفاسد، وعلاقته بحماية البيئة واضحة؛ فكل ما يترتب عليه ضرر مكونات البيئة من تربة وماء ونبات وحيوان وهواء ممنوع شرعاً، وكل ما يؤدي إلى اختلال في التوزان البيئي ممنوع شرعاً.

ويتفرع عن هذه القاعدة عدة قواعد تؤدي معاني أخص، وكلها يدور في فلك منع الإضرار شرعاً، من ذلك:

أ ـ الضرر يزال[3]: أي أنه يجب رفع الضرر وإصلاح ما يترتب عليه من آثار، سواء كان الضرر عاماً أو خاصاً.

ب ـ الضرر لا يزال بمثله[4]: فلا يجوز ارتكاب ما يؤدي إلى ضرر بفاعل الضرر أو بغيره في سبيل إزالة الأضرار، وعلى ذلك: ينبغي إزالة الضرر من غير إيقاع ضرر مثله أو أعظم منه.

---

(١) يعقوب الباحسين، القواعد الفقهية: ص٥٤.

(٢) المادة (١٩) من مجلة الأحكام العدلية، وينظر: شراح المجلة على المادة. السيوطي، الأشباه والنظائر: ص٦٩.

(٣) المادة (٢٠) من مجلة الأحكام العدلية. السيوطي، الأشباه والنظائر: ١٢٠.

(٤) المادة (٢٥) من مجلة الأحكام العدلية. السيوطي، المرجع نفسه: ١٢٣.

ج - يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام[1]: فعند تعارض حق الفرد وحق الجماعة يقدم حق الجماعة ويضحى بحق الفرد في سبيل الحفاظ على الجماعة.

د - الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف[2]: فعند الموازنة بين عدة أضرار لا بد من وقوعها، يجوز إزالة الضرر الأشد بضرر آخر أخف منه.

وفي معنى هذه القاعدة ما جاء في المادة (٢٨) من المجلة: «إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما»، وما جاء في المادة (٢٩) منها: «يختار أهون الشرين».

هـ - الضرر يدفع بقدر الإمكان[3]: فيجب دفع الضرر قبل وقوعه؛ لأن الوقاية خير من العلاج. وإذا وقع الضرر فإنه يدفع بحسب الاستطاعة.

٢ - درء المفاسد أولى من جلب المصالح[4]: «لأن للمفاسد سرياناً وتوسعاً كالوباء والحريق، فمن الحكمة والحزم القضاء عليها في مهدها، ولو ترتب على ذلك حرمان من منافع أو تأخير لها»[5].

٣ - الضرورات تبيح المحظورات[6]: فإذا ترتب على مراعاة تجنب المحظور أمر أعظم محظوراً، رخص للمضطر في الإتيان بالمحظور، مثاله: صيانة النفس عن الهلاك أعظم من احترام حق الغير في ماله.

ويتفرع عن هذه القاعدة قواعد أخرى تؤدي معاني أخص، منها:

---

(١) المادة (٢٦) من مجلة الأحكام العدلية. السيوطي، مرجع سابق: ١٢٤.
(٢) المادة (٢٧) من مجلة الأحكام العدلية. السيوطي، الموضع المتقدم.
(٣) المادة (٣١) من مجلة الأحكام العدلية.
(٤) المادة (٣٠) من مجلة الأحكام العدلية. السيوطي، الأشباه والنظائر: ٨٧.
(٥) مصطفى الزرقا، المدخل الفقهي العام: ٩٩٦/٢.
(٦) المادة (٢١) من مجلة الأحكام العدلية.

أ ـ الضرورات تقدر بقدرها[1]: وهذه القاعدة قيد للقاعدة السابقة، فلا يباح بالضرورة إلا ما يدفع الخطر، وإذا زال الخطر عاد المنع.

ب ـ الحاجة تنزل منزلة الضرورة، عامة كانت أو خاصة[2]: أي «أن التسهيلات التشريعية الاستثنائية لا تقتصر على حالات الضرورة الملجئة، بل حاجات الجماعة مما دون الضرورة توجب التسهيلات الاستثنائية أيضاً»[3].

ج ـ الاضطرار لا يبطل حق الغير[4]: ذلك أن المضطر يسقط عنه الإثم ويعفى من المسؤولية عن التجاوز والتعدي على حق الغير جنائياً، أما ثبوت حق الغير في المثل أو القيمة فلا يبطله الاضطرار، ولا يسقط.

❋ ❋ ❋

(١) المادة (٢٢) من مجلة الأحكام العدلية.
(٢) المادة (٣٢) من مجلة الأحكام العدلية.
(٣) مصطفى الزرقا، المدخل الفقهي العام: ٢/١٠٠٥ ـ ١٠٠٦.
(٤) المادة (٣٣) من مجلة الأحكام العدلية.

المبحث الثاني
موقف الشريعة من تنظيمات قضايا البيئة

لم يخل تاريخ البشرية ممن كانوا يهتمون بحماية البيئة، وإصدار تشريعات تحافظ على البيئة المائية أو الحيوانية أو النباتية، نرى أثر ذلك واضحاً في تشريعات قدماء المصريين المتعلقة بحماية نهر النيل، والحث على زراعة الأشجار، والعمل على القضاء على الحشرات الضارة. كما نرى ذلك في تشريعات اليونان القديمة التي كانت تخصص أماكن بعيدة للتخلص من القمامة، وتعاقب من يلوثون الشوارع بالنفايات. وكان لدى الرومان إدارة للعناية بالصحة، وأخرى لجمع القمامة والتخلص منها. ويذكر التاريخ أن بعض ملوك الهند أصدر مراسيم للحفاظ على البيئة وحماية بعض الحيوانات من الانقراض، وكذلك بعض أباطرة الصين[1].

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
أبرز تنظيمات حماية البيئة

في عصرنا الحاضر[2]: ظهرت مشكلة التلوث البيئي في جميع عناصر الكون نتيجة التطور الصناعي المذهل، وخاصة في مجال التسلح الحربي، واكتشاف الطاقة بكل مكوناتها، والانطلاق إلى الفضاء... وغير ذلك. ولم تقتصر مشكلة التلوث على إقليم بعينه، وإنما تعدت

---

(١) أحمد جواد، التشريعات البيئية، ص ٣٣ وما بعدها. أحمد حشيش، المفهوم القانوني للبيئة في ضوء مبدأ أسلمة القانون المعاصر، ص١٠، وما أشار إليه من مراجع في هـ (١).

(٢) أحمد سلامة، قانون حماية البيئة. ماجد الحلو، قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة. عبد الله السحيباني، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي. عبد الوهاب رجب، الأمن البيئي. محمود العادلي، موسوعة حماية البيئة.

مكانه إلى أماكن بعيدة، حتى أصبحت مشكلة عالمية لا يسلم منها إقليم على ظهر الأرض. عندئذ بدأت الحكومات والمنظمات والأحزاب تنظر إلى الأمر بجدية، فعقدت المؤتمرات، ووقعت الاتفاقيات، وأصدرت الدول قوانين ونظماً وتشريعات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية (ستوكهولم ١٩٧٢م).

٢ ـ اتفاقية هلسنكي الخاصة بالبيئة البحرية (١٩٧٤م).

٣ ـ اتفاقية برشلونة لحماية البحر الأبيض المتوسط من التلوث (١٩٧٦م).

٤ ـ معاهدة جدة بشأن حماية البيئة البحرية للبحر الأحمر وخليج عدن (١٩٨٢م).

٥ ـ اتفاقية جنيف الخاصة بتلوث الهواء بعيد المدى عبر الحدود (١٩٨٩م).

٦ ـ مؤتمر البيئة والتنمية الذي اشتهر بمؤتمر قمة الأرض وحضره أكثر من مائة رئيس دولة وحكومة، وضم ممثلي ١٧٨ دولة في ريو دي جانيرو (١٩٩٢م) للنظر في حماية كوكب الأرض وموارده ومناخه ومحاولة القضاء على الفقر.

٧ ـ مؤتمر قمة الأرض (١٩٩٧م) الذي انعقد في مقر هيئة الأمم المتحدة بنيويورك، لمتابعة مقررات المؤتمر السابق.

٨ ـ مؤتمر قمة الأرض (جوهانسبرج ٢٠٠٢م) لمتابعة ما تم إنجازه في المؤتمرات السابقة، وحضره (١٠٤) من رؤساء الدول والحكومات.

٩ ـ اتفاق الدول الأوربية في مقر الاتحاد الأوروبي (بروكسل ٢٠٠٨/١٢/١٤) على الحد من الاحتباس الحراري بتخفيض نسبة انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون بمقدار ٢٠٪ من معدلها الحالي.

١٠ ـ المنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي (جدة: رجب ١٤٢١هـ)، وحضره عدد كبير من الفقهاء وعلماء البيئة وممثلي

بعض الدول الإسلامية والمنظمات المحلية والإقليمية والدولية.

ومع كل هذه الجهود يمكن القول بأن «النظام الدولي الحالي لم يقدم بعد الحلول القانونية الكافية لمواجهة مشكلة تلوث البيئة، سواء في مجال الأعراف الدولية التي يتنكر لها من يجدها تتعارض مع مصالحه، أم في مجالات الاتفاقات التي تتصف عملية تحويلها إلى قانون بالبطء وعدم التأكيد»[1].

ولا شك في أن هذه الاتفاقات والمؤتمرات تسعى إلى تحقيق المصالح ودرء المفاسد فيما يتعلق بعناصر الكون، وانضمام المسلمين إليها، والتزامهم بتنفيذ ما ورد بها ـ مما لا يتعارض مع أحكام الشريعة ـ، والإسهام في تطويرها وتفعيلها، يعتبر من مبادئ العدل والإحسان التي أمر بها القرآن الكريم[2]، وقد أخرج البيهقي في السنن من حديث طلحة بن عبد الله بن عوف أن النبي ﷺ قال ـ بعد بعثته ـ: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت»[3]. وكان هذا الحلف ـ حلف الفضول ـ يضم بني هاشم، وبني المطلب، وبني أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة: تعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد مظلمته[4].

❋ ❋ ❋

(١) ماجد الحلو، قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة: ص٣١ وما أشار إليه من مراجع في هـ ٢.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) البيهقي، السنن الكبرى: ٣٦٧/٦. الهيثمي، مجمع الزوائد: ١٧٢/٨، وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٩٠/٢ ـ ٢٩٣.

المطلب الثاني
تطبيقات عملية لحماية البيئة في الإسلام

لم يكتف علماء الإسلام بما استنبطوه من أحكام ترعى البيئة وتحافظ على طهارتها وتبعد عنها أشكال التلوث والفساد، وإنما ظهر اهتمامهم واضحاً بدراسة عناصر الكون المختلفة في مؤلفات مستقلة لتنمية الوعي البيئي، وتفسير الظواهر الطبيعية، من ذلك على سبيل المثال[1]:

١ ـ كتاب الطير، لأبي حاتم السجستاني، ومثله للنضر بن شميل.

٢ ـ كتاب الجراد، لأحمد بن حاتم.

٣ ـ كتاب النحل، للمدائني.

٤ ـ كتاب الشاة والغنم، للأصمعي.

٥ ـ كتاب الحيوان، للجاحظ. وللدميري كتاب في الحيوان كذلك.

٦ ـ كتاب النبات، لأبي حنيفة الدينوري.

٧ ـ كتاب البلاد والزرع، للمفضل بن سلمة.

٨ ـ كتاب البستان، لجابر بن حيان.

٩ ـ المنية في الزراعة، لأبي عمرو الإشبيلي.

١٠ ـ الجامع لصفات أشتات النبات، للإدريسي.

١١ ـ رسالة في المد والجزر، للكندي.

١٢ ـ رسالة في آلات مقياس ارتفاع الغيوم والأبخرة، للتبريزي.

١٣ ـ كتاب مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، لمحمد التميمي.

---

(١) سيد رضوان علي، العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية، دار المريخ للنشر ـ الرياض، ص٩٠ وما بعدها.

١٤ ـ رسالة في الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء، لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي.

١٥ ـ جزء فيه تحرير الجواب عن ضرب الدواب، للسخاوي.

١٦ ـ أحكام المرضى، لابن تاج الدين الحنفي.

١٧ ـ الطب النبوي، لابن قيم الجوزية.

١٨ ـ تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، لداود بن عمر الأنطاكي.

١٩ ـ الطب النبوي، للحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي.

٢٠ ـ عمدة الطبيب في معرفة النبات، لأبي آل خير الإشبيلي.

وانعكس هذا النشاط المعرفي على التطبيق العملي في المجتمع الإسلامي لرعاية البيئة وحمايتها من الأضرار التي قد تلوثها أو تتلفها وتفسدها. ويتبين شيء من ذلك فيما قام به نظام الحسبة في الماضي، وما يقوم به القضاء الشرعي في الحاضر.

الفرع الأول
الحسبة وحماية البيئة

جاء في لسان العرب: احتسب فلان على فلان: أي أنكر عليه قبيح عمله[١]. قال الماوردي: «الحسبة: أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله»[٢]. وفي التراتيب الإدارية: «الحسبة: اسم منصب في الدولة الإسلامية، كان صاحبه بمنزلة مراقب للتجارة وأرباب الحرف»[٣].

وقد بدأت الحسبة في عهد النبي ﷺ، وكان يقوم بها بنفسه، فقد

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ط. دار المعارف: ٣١٤/١.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية: ص٢٩٩.

(٣) عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية، المسمى بالتراتيب الإدارية: ٣٣٥/١.

مر يوماً بسوق المدينة فوجد شخصاً يبيع الطعام، وقد أخفى الطعام المبتل داخل الصبرة، فأدخل النبي ﷺ يده وسطها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله ﷺ فقال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس»، ثم قال: «من غش فليس منا»[1]، ثم تولى أمرها الخلفاء الراشدون، لم يكلوا أمرها إلى غيرهم مع ما كانوا فيه من شغل الجهاد وتجهيز الجيوش[2]. وكثير من المؤرخين يرجع ولاية الحسبة ـ كجهاز إداري قضائي ـ إلى العصر العباسي، وقد دونت في ذلك مؤلفات عدة، منها على سبيل المثال:

١ ـ الحسبة، لابن تيمية.

٢ ـ معالم القربة في أحكام الحسبة، محمد القرشي (ابن الإخوة).

٣ ـ نصاب الاحتساب، عمر بن محمد السنامي.

٤ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، لابن بسام.

٥ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، للشيزري.

وفي هذه المؤلفات إرشاد وتفصيل لما ينبغي أن يقوم به والي الحسبة أو المحتسب، من الحفاظ على سلامة البيئة ونظافتها، وكيفية الرقابة الدورية لأحوال الأسواق والمصانع، وحظائر الحيوانات ومزارع الخضر والفواكه، وأفران الخبازين ومداخن المطاعم والطباخين، وتجار الزيت والسمن والأدهان والخلول، وأصحاب الحمامات، وأماكن دباغة الجلود، والمسالخ... وغير ذلك مما يطول ذكره.

وفيها تحديد للسلطة التقديرية للمحتسب، فعليه إجابة من استعداه، وأن يتخذ على إنكار المنكرات أعواناً، وأن يعزر في المنكرات الظاهرة لا يتجاوز إلى الحدود، وله اجتهاد رأيه فيما تعلق بالعرف دون الشرع، كالمقاعد في الأسواق وإخراج الأجنحة في الطرق، فيقر وينكر من ذلك

---

(١) المرجع السابق: ٢٨٤/١. والحديث أخرجه الترمذي في كتاب البر: ٣٣٢/٤.

(٢) التراتيب الإدارية: ٢٨٦/١.

ما أداه اجتهاده إليه[1].

وخلاصة القول في ذلك: أن نظام الحسبة في الإسلام كان هو التطبيق العملي لأحكام الشريعة وما استقر عليه العرف فيما يتعلق برعاية البيئة وحمايتها من التدهور، إلى جانب فتاوى العلماء وأحكام القضاء وتقوى الله في السر والعلن.

الفرع الثاني
تطبيقات قضائية معاصرة

في مؤتمر «دور القضاء في تطوير القانون البيئي في المنطقة العربية»[2] قدم الشيخ عبد الله بن محمد بن سعد آل خنين ورقة عمل بعنوان: (جهود القضاء السعودي في إنماء الفقه البيئي)، عرض فيها بعض القضايا التي فصلت فيها المحاكم بالاستناد إلى ما ورد في مدونات الفقهاء وما تم استنباطه من مبادئ وقواعد الشريعة الإسلامية، نورد منها على سبيل المثال:

١ ـ حكم المحكمة الكبرى بمكة المكرمة، والمؤيد من محكمة التمييز بمكة المكرمة، ومن مجلس القضاء الأعلى بهيئته الدائمة في ١٤٢٢/١٢/٢٧هـ، والقاضي بأن تدفع الشركة السعودية للكهرباء تعويضاً قدره (١٩١٢٥٠٠ ريال) مقابل إمرارها خطوط الضغط العالي فوق أرض الوقف السكنية مما جعلها غير صالحة للسكن وفقاً للأنظمة المعمول بها عالمياً، وإذا لم تدفع المبلغ المحكوم به فعليها إزالة خطوط الكهرباء عن أرض الوقف.

٢ ـ حكم المحكمة الكبرى بالرياض، المؤيد من محكمة التمييز بالرياض، ومن مجلس القضاء الأعلى بهيئته الدائمة في ١٤٢١/٨/١٠هـ، والقاضي بالحكم على بلدية ... برفع يدها عن

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية: ص٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٢) المنعقد في الكويت تحت مظلة معهد الكويت للدراسات القضائية والقانونية بتاريخ ٢٦ ـ ٢٠٠٢/١٠/٢٨م.

موقع معين تعتزم توزيعه سكناً؛ لأن هذا الموقع يتخذه الأهالي مرعى لدوابهم ومصدراً لمياه شربهم وسقيا مواشيهم، ولوجود أماكن للسكنى أفضل من المكان المتنازع عليه. واستندت المحكمة في قرارها على أن توزيع المخطط سوف يقتصر على أناس معينين، في حين أن حق الانتفاع به للرعي والاحتطاب والسقيا حق عام لجميع الأهالي، والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

٣ ـ حكم ديوان المظالم رقم ٦/د/ف/٣٥ لعام ١٤١٥هـ، والقاضي بإلغاء قرار المجمع القروي... المتضمن تحديد موقع مرمى نفايات أعلى الوادي؛ لما يسببه من ضرر لأهالي قبائل... ببلدة... حيث أنه يصب في البئر الوحيدة التي يشرب منها سكان البلدة ويتسبب في تلويثها، «والضرر يزال حسبما هو مقرر شرعاً».

٤ ـ حكم محكمة الطائف، المؤيد من محكمة التمييز بمكة المكرمة، ومن الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى في ١٤١٩/٥/٢٤هـ، والقاضي بإزالة مشروع دواجن في حي صار آهلاً بالسكان، يتضررون من الروائح الكريهة وانتشار الحشرات وآثار المبيدات الحشرية. ولم يلتفت الحكم إلى ادعاء صاحب المزرعة بأن مشروعه سابق لإعمار الحي، وأنه ملتزم بعدم الإضرار بهم بإزالة الروائح. وقد استند الحكم المذكور إلى قاعدة: «يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام»، وإلى قاعدة «الضرر يزال»، وإلى ما روي عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: كل ما كان على هذه الجهة وفيه ضرر يمنع من ذلك، فإن أجاب وإلا أجبره السلطان. **(جامع العلوم والحكم ص٢٦٧)**.

❋ ❋ ❋

مشروع قرار

بعد الديباجة:

١ ـ تتضمن البيئة كل ما يحيط بالإنسان، مما سخره الله تعالى له: لإعمار الأرض وإقامة حياته عليها.

٢ ـ وضع الإسلام ضوابط لاستغلال البيئة، تحفظ التوازن الكوني، وتمنع الإسراف والإفساد في الأرض واستنزاف مواردها.

٣ ـ إن الالتزام بحماية البيئة واجب شرعاً يجب أن يقوم به الفرد، وأن تحترمه الجماعة، وأن يراقب ولي الأمر تنفيذه.

٤ ـ تقتضي المصلحة سن الأنظمة لرعاية البيئة ومعاقبة من يعتدي عليها، أخذاً بأحكام الحسبة المقررة.

٥ ـ ينبغي أن تتابع الدول الإسلامية جهود المجتمع الدولي لحماية البيئة البرية والبحرية والجوية، وأن تشارك في صياغة الاتفاقيات الخاصة بذلك، وأن تنفذها على إقليمها، وتراقب تنفيذها أو الاعتداء عليها من قبل الدول الأخرى، وأن تساعد القضاء الدولي في محاسبة المسؤولين عن تلوث البيئة وتوقيع العقاب عليهم.

والله ولي التوفيق.

❋ ❋ ❋

المصادر والمراجع

١ ـ أحكام البيئة في الفقه الإسلامي، عبد الله بن عمر السحيباني، الرياض: ١٤٢٩هـ.

٢ ـ الأحكام السلطانية، الماوردي، ط. الحلبي: ١٩٧٣م.

٣ ـ الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء، ط. مصطفى الحلبي: ١٩٧٨.

٤ ـ استخلاف الإنسان في الأرض، فاروق الدسوقي، بيروت: ١٩٨٦.

٥ ـ أسس التربية البيئية في الإسلام، عبد الرحيم الرفاعي، الرياض: ١٤١٣.

٦ ـ الإسلام والبيئة، رؤية إسلامية حضارية، بركات محمد مراد، القاهرة: ٢٠٠٣.

٧ ـ الإسلام والحفاظ على البيئة، محمود محمد حبيب ومحروس الشرقاوي، وزارة الأوقاف ـ القاهرة: ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٨ ـ الإسلام وحماية البيئة من التلوث، حسين مصطفى غانم، مكة المكرمة: ١٤١٧.

٩ ـ الإسلام وحماية البيئة، شوقي دنيا، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، عدد ٤٨ سنة ١٢، رجب/رمضان: ١٤٢١.

١٠ ـ الأسلحة الكيميائية والجرثومية والنووية، محمد إبراهيم الحسن، الرياض: ١٤٠٧.

١١ ـ أسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا الأنصاري، المطبعة الميمنية ـ القاهرة.

١٢ ـ الأشباه والنظائر، السيوطي، ط. دار الفكر.

١٣ ـ أضواء على البيئة، عبد الحكيم بدران، الرياض: ١٤١٣.

١٤ ـ الأم، الإمام الشافعي، دار المعرفة ـ بيروت: ١٣٩٣.

١٥ ـ الأمن البيئي، عبد الوهاب رجب، ط. جامعة الملك سعود ـ الرياض: ١٤٢٧.

١٦ ـ الأموال ونظرية العقد، محمد يوسف موسى، دار الفكر ـ القاهرة: ١٩٨٧.

١٧ ـ الإنسان والبيئة بين الحضارة الغربية والإسلام، يوسف الفضل، بيروت: ٢٠٠٤.

١٨ ـ الإنسان والبيئة والتلوث البيني، صالح وهبي، دار الفكر: ١٤٢٢هـ.

١٩ - الإنسان وتلوث البيئة، محمد السيد أرناؤوط، الدار المصرية اللبنانية: ١٤٢٠.
٢٠ - الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المرداوي، دار إحياء التراث.
٢١ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الكتاب الإسلامي: ١٤١٣.
٢٢ - البحر المحيط، الزركشي، ط٢: ١٤١٣.
٢٣ - بدائع الصنائع، الكاساني، بيروت: ١٤٠٦هـ.
٢٤ - البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف: ١٤٠٥هـ.
٢٥ - بلغة السالك لأقرب المسالك، أحمد الصاوي، بيروت: ١٤١٥هـ.
٢٦ - البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، عبد الحكم الصعيدي، القاهرة: ١٩٩٤.
٢٧ - البيئة من منظور إسلامي، علي السكري، منشأة المعارف - الإسكندرية: ١٩٩٥.
٢٨ - البيئة والبعد الإسلامي، فؤاد السرطاوي، دار المسيرة: ١٤٢٠هـ.
٢٩ - البيئة مشاكلها وقضاياها، محمد عبد القادر الفقي، القاهرة: ١٩٩٣.
٣٠ - البيئة والتلوث من منظور إسلامي، خالد محمود عبد اللطيف، القاهرة: ١٩٩٣.
٣١ - البيئة والصحة العامة، إحسان علي محاسنة، عمان: ١٩٩٢.
٣٢ - تلوث البيئة، محمد العودات، دمشق: ١٩٧٩.
٣٣ - التلوث البيئي حاضره ومستقبله، عبد العزيز شرف، الاسكندرية: ٢٠٠٠.
٣٤ - تلوث البيئة وكيف عالجه الإسلام، محمد أحمد رشوان، الرياض: ١٤١٤هـ.
٣٥ - التلوث مشكلة العصر، أحمد مدحت إسلام، عالم المعرفة، الكويت: ١٩٩١.
٣٦ - تلوث البيئة ثمن للمدنية، علي زين العابدين ومحمد عرفات، القاهرة: ١٩٩٢.
٣٧ - الجرائم شديدة الضرر وعقوبتها في النظام البيئي السعودي، عبد الرحمٰن العثمان، بحث تكميلي في السياسة الشرعية بالمعهد العالي للقضاء: ١٤٢٩هـ.
٣٨ - حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
٣٩ - حاشيتا قليوبي وعميرة على المحلي على المنهاج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٤٠ ـ الحسبة، لابن تيمية، دار الكتاب العربي.
٤١ ـ الحسبة في الماضي والحاضر بين ثبات الأهداف وتطور الأسلوب، علي حسن القرني، مكتبة الرشد ـ الرياض.
٤٢ ـ حماية البيئة الخليجية، خالد القاسمي ووجيه اليعيني، الاسكندرية: ٢٠٠٥.
٤٣ ـ حماية البيئة في الإسلام، أبو بكر باقادر وآخرون، الرياض: ١٤٠٩هـ.
٤٤ ـ حماية البيئة المائية والنباتية من التلوث في الفقه الإسلامي، أحمد بن يوسف الدريويس، الرياض: ١٤٢٥هـ.
٤٥ ـ حماية البيئة والموارد الطبيعية في السنة النبوية، فهد بن عبد الرحمٰن الحمودي، كنوز إشبيليا، الرياض: ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
٤٦ ـ الحماية الجنائية للبيئة ـ دراسة مقارنة ـ نور الدين هنداوي، القاهرة: ١٩٨٥م.
٤٧ ـ الذخيرة، القرافي، دار الغرب الإسلامي: ١٩٩٤.
٤٨ ـ رد المحتار، ابن عابدين، دار الفكر: ١٣٨٦هـ.
٤٩ ـ رعاية البيئة بين هدي الإسلام ووثيقة حقوق الإنسان، فؤاد عبد المنعم، المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، س٢٠، ع٣٩: محرم ١٤٢٦هـ.
٥٠ ـ رعاية البيئة في شريعة الإسلام، يوسف القرضاوي، القاهرة: ٢٠٠٦.
٥١ ـ رؤية قرآنية لقوانين الكون، أسامة علي الخضر، القاهرة: ٢٠٠٨.
٥٢ ـ السنن الكبرى، البيهقي، دار المعرفة ـ بيروت.
٥٣ ـ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، القاهرة: ١٩٧١.
٥٤ ـ السياسة التشريعة لحماية البيئة في مصر وقطر ودور الأمم المتحدة في حمايتها، المكتب الجامعي الحديث: ٢٠٠٥.
٥٥ ـ شرح السير الكبير، السرخسي، ت: محمد صلاح المنجد.
٥٦ ـ شرح معاني الآثار، الطحاوي، دار الكتب العلمية: ١٣٩٩هـ.
٥٧ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم، مكتبة المؤيد ـ الطائف: ١٤١٠.
٥٨ ـ علوم تلوث البيئة، حسن السويدان، دار الخريجي ـ الرياض: ١٩٩٧.
٥٩ ـ غياث الأمم في التياث الظلم، الجويني، الدوحة: ١٤٠٠هـ.
٦٠ ـ الفتاوى الهندية، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت: ١٤٠٠هـ.
٦١ ـ فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، مكتبة الرياض الحديثة.
٦٢ ـ الفروع، ابن مفلح، دار عالم الكتب: ١٤٠٥هـ.
٦٣ ـ الفروق، القرافي، دار المعرفة ـ بيروت.
٦٤ ـ قانون حماية البيئة، أحمد عبد الكريم سلامة، الرياض: ١٤١٨ ـ ١٩٩٧.

٦٥ - قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة، ماجد راغب الحلو، الاسكندرية: ٢٠٠٧.
٦٦ - القرآن وتلوث البيئة، محمد الفقي، الكويت: ١٤٠٦هـ.
٦٧ - قضايا البيئة من منظور إسلامي، أحمد السايح وأحمد عوض، القاهرة: ١٤٢٥.
٦٨ - قضايا البيئة من منظور إسلامي، إحسان هندي، دار ابن كثير: ١٤٢١هـ.
٦٩ - قضايا البيئة من منظور إسلامي، بدوي محمود الشيخ، الدار العربية للنشر: ٢٠٠٠.
٧٠ - قضايا البيئة من منظور إسلامي، عبد المجيد النجار، الدوحة: ٢٠٠٢.
٧١ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار القلم: ٢٠٠٠.
٧٢ - القواعد الفقهية، يعقوب الباحسين، مكتبة الرشد - الرياض: ١٤٢١هـ.
٧٣ - القوانين الفقهية، ابن جزي الغرناطي، عالم الفكر: ١٩٨٥.
٧٤ - كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، عالم الكتب - بيروت.
٧٥ - كيمياء وفيزياء الملوثات البيئية، عاطف عليان، جامعة قاريونس - ليبيا.
٧٦ - المجموع شرح المهذب، النووي، ط. دار الفكر.
٧٧ - مجموع الفتاوى، ابن تيمية، المدينة المنورة: ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٧٨ - المستصفى من علم الأصول، الغزالي، ط. بولاق: ١٣٢٢هـ.
٧٩ - مجمع الضمانات، البغدادي، ط. دار الكتاب الإسلامي.
٨٠ - المدخل الفقهي العام، مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم - دمشف: ١٩٩٨.
٨١ - المسؤولية الدولية عن أضرار البيئة، جابر إبراهيم الراوي، القاهرة: ١٩٨٣.
٨٢ - معالم القربة في أحكام الحسبة، ابن الإخوة القرشي، تحقيق: محمد شعبان وصديق المطيعي، القاهرة: ١٩٧٦.
٨٣ - المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، أحمد بن يحيى الونشريسي، دار الغرب الإسلامي: ١٤٠١هـ.
٨٤ - المغني، ابن قدامة، تحقيق: التركي والحلو، القاهرة: ١٤٠٨هـ.
٨٥ - المفهوم القانوني للبيئة في ضوء مبدأ أسلمة القانون المعاصر، أحمد محمد حشيش، دار الفكر الجامعي - الإسكندرية: ٢٠٠١.
٨٦ - الملكية في الشريعة الإسلامية، عبد السلام العبادي، مكتبة الأقصى - عمان: ١٣٧٩هـ - ١٩٩٧.
٨٧ - الموافقات، الشاطبي، دار المعرفة - بيروت: ١٩٧٥.

٨٨ ـ مؤتمر «دور القضاء في تطوير القانون البيئي في المنطقة العربية» وخاصة: بحث عبد الله آل خنين بعنوان: جهود القضاء السعودي في إنماء الفقه البيئي ـ دراسة تطبيقية من خلال عرض بعض القضايا البيئية، معهد الكويت للدراسات القضائية والقانونية: ٢٦ ـ ٢٠٠٢/١٠/٢٨.
٨٩ ـ موسوعة حماية البيئة، محمود العادلي، الإسكندرية: د. ت.
٩٠ ـ المنهج الإسلامي لعلاج تلوث البيئة، أحمد عبد الوهاب عبد الجواد، القاهرة: ١٩٩١.
٩١ ـ نصاب الاحتساب، عمر بن محمد السنامي، مكة المكرمة: ١٤٠٦هـ.
٩٢ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ابن بسام، بغداد: ١٩٦٨.
٩٣ ـ نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي، مصطفى الحلبي ـ مصر: ١٣٨٦.
٩٤ ـ هندسة النظام البيئي في القرآن الكريم، عبد العليم خضر، دار الحكمة: ١٩٩٥.
٩٥ ـ الهندسة الوراثية والأخلاق، ناهد البقصمي، عالم المعرفة ـ الكويت: ١٩٩٣.
٩٦ ـ الوضع القانوني للبحر الإقليمي، محمد السعيد الخطيب، دار النهضة العربية، القاهرة: ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

❋ ❋ ❋

التدابير الشرعية
في المحافظة على البيئة
بين النظرية والتطبيق

إعداد
الأستاذ الدكتور محمد علي الزغول
عميد كلية الدراسات الفقهية والقانونية
الجامعة الأردنية

التدابير الشرعية
في المحافظة على البيئة بين النظرية والتطبيق
مقدمة

في الوقت الذي أتت فيه شرائع الباري جل وعلا على إقرار التدابير التي من شأنها أن تكفل قيم التوازن في العلاقة القائمة بين الإنسان والكون، وفي الوقت الذي سخر الله سبحانه وتعالى هذا الكون للإنسان بما فيه من آيات ظهر منها ما ظهر وبطن منها ما خفا وما لا يعلمه إلا الله جل وعلا؛ وفي الوقت الذي عدت الشريعة الإسلامية بمكنوناتها وجلال عظمتها خاتمة الشرائع الربانية، تربض على ترسانة من المفاهيم والقيم العليا، وتمس مختلف المصالح الفردية والجماعية بجملة من الضوابط المؤطرة للسلوك الإنساني، وتوازن بين المصلحة الفردية والجماعية، وتصب كلها في خدمة الإنسان بمفهومه الشمولي القائم على احترام الفكر والمنطق؛ وفي الوقت الذي ضرب الله الأمثال للبشرية جمعاء حتى تعم الفائدة منها على ما يلزم العمل ضمن محيطه من سلوك وعدم الخروج على الثوابت التي من شأن تجاهلها فقدان التوازن بين المصالح الفردية والجماعية وما يلحق به من تبعات؛ وفي الوقت الذي جعل الله في القرآن الكريم العبر والحقائق العلمية الدالة على عظمة الخالق وبديع صنعه، وفي الوقت الذي تتابعت فيه المؤتمرات، وتوالت القوانين والتشريعات في سبيل الوصول إلى نظام بيئي أقل خطراً وأكثر ملاءمة لحياة الإنسان نجد أن الممارسة العملية التي جنحت إليها الأمم تقف على مسافة من تلك الحقائق الكونية، فبدلاً من أن تتفاعل معها بما يتطلبه الحفاظ على مصلحة الإنسانية من خلال التطبيق السليم للتدابير الشرعية الناظمة لعلاقة الإنسان بهذا الكون ـ عموماً ـ والبيئة كوحدة موضوعية ضمن مكونات الكون خصوصاً ـ يكشف السلوك الإنساني عن أنماط لا منهجية ضمن هاته العلاقة، تغدو فيها تلك التدابير ضمن مسار

متوازٍ مع ما يجب أن يكون، الأمر الذي أفضى إلى مشكلات عملية أخذت تتهدد البشرية، لا بل صفة البقاء ضمن ما ظهر في الجانب الإيكولوجي من مشكلات لا تؤمن عقباها إذا لم يصار إلى الرجوع إلى أمر الله تعالى والعمل بما أنزل وما أمر.

تبدو مثل هذه الرؤيا وكأنما قد دق ناقوس الخطر، والواقع أن المسوغات التي حدت بنا إلى تناول هذه الدراسة بجوانبها الموضوعية تعبر حقيقة عن تلك الرؤيا وعن الخطر الداهم الذي أخذ يتربص بالبشرية ضمن المشكلات البيئية المتفاقمة يوماً بعد يوم، والتي لا يستطيع أي كان إنكارها أو التغاضي عنها، أبرزها ظاهرة النينو (الاحتباس الحراري وثقب طبقة الأوزون وما يترتب عليها من تبعات تتهدد البشرية جمعاء، وتعاقب الهزات والزلازل والبراكين الناجمة عن اختلال التوازن البيئي والاستغلال اللامقنن لخيرات باطن الأرض، زيادة على ارتفاع درجة حرارة الأرض وذوبان الجليد في القطبين المتجمدين الشمالي والجنوبي) وأخيراً المشكلات العظيمة الناجمة عن التلوث البيئي الناجم عن مخلفات الصناعة وعوادم السيارات ومخلفات التكنولوجيا وما يعززه اجتثاث الغابات وقطع الأشجار... إلخ.

إن السعي إلى حصر الممارسات اللامنهجية للأنشطة الفردية والجماعية ضمن طائفة السلوك الإنساني الجائر لهو من قبيل المجازفات التي لا يكاد فيها الباحث يصل إلى نتيجة شمولية طالما عدت المسوغات الأساسية التي تكفل هذا الحكم قائمة على أساس تصاعد وتيرة وأنماط الممارسات غير المقننة بصورها ومظاهرها المبعثرة يوماً تلو الآخر، الأمر الذي يستلزم معه الوقوف كل يوم ـ لا بل كل ساعة ـ ضمن نسق ونمط جديد من السلوك، وهو أمر غاية في الصعوبة.

تحت هذه الأشكال جاءت هذه الدراسة لتعمد إلى وضع إطار عام تسعى من خلاله إلى رصد التدابير الشرعية التي تعاطى من خلالها الدين الحنيف مع البيئة كمخلوق وكوحدة موضوعية ضمن هذا الكون العظيم، وتعمد ـ في الوقت نفسه ـ إلى رصد السلوك الإنساني من شقيه؛ اللامنهجي ـ من جهة ـ والحمائي من جهة أخرى، طالما أخضع هذا

السلوك إلى الجوانب التطبيقية العملية سواء منها ما تعلق بالممارسات الجماعية والفردية التي تشكل خرقاً للقواعد الشرعية من جهة، أو تلك التي سعت فيها الدول (الوحدات السياسية والقانونية) إلى وضع مفاهيم وقيم وضوابط تشريعية بدءاً من قمة الأرض بـ«ريو دي جانيرو» بالبرازيل وما تبعها من مؤتمرات دولية وإعلانات ومواثيق تحذر فيها من مغبة البقاء في مستنقع التغاضي عن تفاقم المشكلة التي تتربص بهذا الكون وبالحياة على سطح الأرض جراء الممارسات اللامشروعة، سيما تلك المرتبطة بالدول الصناعية والتي تغدو فيها الدول الفقيرة ضحيةً شاءت أم أبت.

إن التصدي لهذه المشكلة من زاوية شمولية ينبغي أن لا ينأى بنا عن الوقوف على الأمور من جوانبها المختلفة، ولا حتى عن التعرض إلى الجوانب الدقيقة في رصد العلاقة القائمة بين الفرد والبيئة، ولهذا فإن ما يلزم السعي في افتراضه ضمن هذه الدراسة مؤداه أن الرسالة السماوية السمحة وضعت التدابير التي من شأنها أن تحقق المكتسبات الجماعية والفردية في آن معاً ضمن علاقة الإنسان بالمحيط (الكون) وجعلت اتباعها كفيلا بأن يدرأ الخطر أو ينأى به عن الحياة الإنسانية على سطح هذا الكوكب، في حين جلبت شتى الممارسات المخالفة لتلك الضوابط والثوابت ضروباً متناثرة من المشكلات انتهت في النتيجة إلى أهم وأخطر ما يواجه البشرية من المشكلات والتي مؤداها الإخلال بالتوازن البيئي القائم على أساس التلوث واستنزاف الموارد وزحف الصحارى، وانحسار الغابات، وقتل الأحياء والكائنات البرية والبحرية... إلخ.

مشكلة الدراسة:

في ضوء المشكلات التي أخذت تحيط بالبناء البيئي في أبعاده المختلفة، وفي ضوء تفجر الأزمة المترتبة على تلك المشكلات الناجمة عن الممارسات الإنسانية ذاتها، غدا مهماً الوقوف على الكيفية التي تعاطت بها الشريعة الإسلامية مع هذا الكون بموضوعاته المختلفة وأهمها

قضية الحفاظ على البيئة وحمايتها من التلوث ضمن أفق يتأتى من خلاله الإتيان على التوازن الذي دعت إليه الشريعة الإسلامية في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وفي خضم الحاجة إلى تحقيق هذه الأهداف، جاءت هذه الدراسة لتجيب عن الإشكالية الرئيسة التي عدت محور الدراسة أصلاً، والتي مفادها القول: إلى أي حد ساهمت الشريعة الإسلامية في أدلتها الأصلية (الكتاب والسنة) وما استنبط الفقهاء من قواعد وضوابط في رسم ملامح الحفاظ على البيئة وإلى أي مدى تعاطت في الوقت ذاته مع هذا الأمر بما يتحقق من خلاله التوازن البيئي كهدف يتوجب الالتزام بعدم التفريط به؟ وما هي الآفاق التي أثرت فيها تلك التدابير في التشريعات الوضعية بغية التصدي للممارسات الفردية والجماعية التي عدت خروجاً على هذا الأصل ضمن ما أخذت تعاني منه المجتمعات من مشكلات مؤداها الإخلال بهذا التوازن لأجل الاستحواذ على الثروات وتحقيق المكتسبات الذاتية على حساب مصلحة الإنسانية؟

إن الإجابة عن شتى هذه التساؤلات يقربنا إلى الوقوف على منهج سليم قادر على تحقيق الغاية المنشودة من هذه الدراسة والولوج إلى النتائج المبتغاة.

منهج الدراسة:

أصبح شائعاً القول: إن الاستعانة في أدبيات البحث العلمي بمنهج مفرد بغية الوصول إلى تخريج شمولي من قبيل المفارقات التي يصعب تحقيقها عملياً، سيما وأن دراسة من هذا القبيل تجمع في طياتها بين الشريعة الإسلامية ضمن كتاب الله وسنة نبيه وبين التدابير التي ذهبت إليها التشريعات الوضعية فضلاً عن الإحاطة بالممارسات التطبيقية التي وازت تلك التدابير، تعد ـ بالتالي ـ من الدراسات التي تحتم علينا الاستعانة بمنهج متعدد المشارب.

ولأجل تلك الغايات اقتضت الضرورة الاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على وصف الظواهر في محيطها الاجتماعي وتحليل

الممارسات والنتائج المتأتية عنها، بيد أننا عمدنا في الوقت ذاته إلى ملامسة المنهج الاستقرائي عبر استقراء الآيات الدالة على عظمة الخالق وحكمته جل جلاله والتي رصدت تعاطي الشريعة الإسلامية ضمن كتاب الله وما لحق به من سنة نبيه الكريم ﷺ، والقواعد الكلية والمؤيدات الشرعية مع البيئة كموضوعة ومخلوقة[1] يلزم الإحسان في معاملته وعدم التفريط بمكتسباته طالما أن الله تعالى سخرها للإنسان ليحيا وينعم بخيراتها.

خطة الدراسة:

اقتضت طبيعة هذه الدراسة تناولها في مقدمة ومبحثين وخاتمة على النحو الآتي:

- **المقدمة**: وتشتمل على أهمية الدراسة ومبرراتها ومشكلة الدراسة، والمنهج الذي اتبعه الباحث فيها.
- **المبحث الأول**: الأسانيد الشرعية في الحفاظ على البيئة من منظور إسلامي، وجاء في مطلبين:

- المطلب الأول: دور القرآن الكريم في رصد العلاقة بين الإنسان والبيئة.
- المطلب الثاني: تكريس السنة النبوية لفكر الاعتدال ضمن علاقة الإنسان بالبيئة.

المبحث الثاني: حدود الالتزام بالتدابير الشرعية والنظرية في الحفاظ على البيئة، وجاء في مطلبين:

- المطلب الأول: غياب البعد التطبيقي لتعاليم الشريعة الإسلامية ضمن سلسلة الممارسات اللامنهجية في التعاطي مع البيئة.

---

(١) تنطلق الرؤية الإسلامية إلى البيئة من أنها مخلوقة مثل الإنسان، وأنها مكلفة بالسجود لله تعالى وتسبيحه ولكن بطريقة يعلمها الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤].

- المطلب الثاني: هشاشة التدابير التشريعية في ملامسة المشكلات البيئية المعاصرة.

- **الخاتمة**: تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة والتوصيات.

هذا ولا أزعم أن هذه الدراسة لا يشوبها نقص، فإن الكمال لله وحده، وقد يشفع لي سلامة النية وحسن القصد في إظهار كمال التشريع الإسلامي وضرورته في الحفاظ على التوازن البيئي.

المبحث الأول

الأسانيد الشرعية في الحفاظ على البيئة من منظور إسلامي

لم يعد خافياً على أحد من المهتمين سلسلة المفاهيم التي تناولت المفهوم الاصطلاحي للبيئة متخذة لها من مكونات تلك الأخيرة أسساً في رصد المدلول القادر على ملامسة هذا المصطلح في بيئته المادية، إذ جاء ـ حين السعي إلى رصد بعض هذه المفاهيم ـ ذاك الذي يعرف البيئة بأنها «مجموعة النظم الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الحية الأخرى والتي يستمدون منها زادهم ويؤدون فيها نشاطهم»[١].

بينما ذهب علم البيئة الحديث إلى تعريف البيئة بأنها «الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها»[٢].

في هذا السياق ذهب مؤتمر (ستوكهولم) إلى تحديد دلالتها بأنها كل ما يحيط بالإنسان[٣]، إذ يجسد هذا المفهوم حقيقة البعد المادي في علاقة الإنسان بالمحيط الذي يحيا به من ماء وهواء وكائنات حية... إلخ ليضحى معها التفاعل قائماً على أساس تمكين الإنسان من الانتفاع بهذا المحيط بما يحقق مصلحته بالمقام الأول على أن يتأتى ذلك في ضوء تمكين الأجيال اللاحقة من تحقيق ذات المكتسبات، بمعنى أن لا تكون تلك المصلحة على حساب عوامل أو فئات أخرى يفوتهم ذاك التفاعل الإيجابي[٤].

---

(١) عدنان مساعدة: كيمياء التلوث البيئي الكيميائي، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص٢٣.

(٢) محمد عبد القادر الفقي، البيئة ومشكلاتها وقضاياها وحمايتها من التلوث رؤية إسلامية، ص ١٠.

(٣) عدنان مساعدة: كيمياء التلوث البيئي الكيميائي، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص٢٣.

(٤) عبد المجيد النجار، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز البحث والدراسات، الدوحة، قطر، ط١، ص٢١.

وفي ضوء ذلك يتحدد النظام البيئي بأنه وحدة بيئية متكاملة، تتكون من كائنات حية ومكونات غير حية في مكان ما، يتفاعل بعضها مع بعض وفقاً لنظام دقيق ومتوازن في ديناميكية ذاتية، لتستثمر في أداء دورها في إعالة الحياة، ولذلك يطلق على النظام البيئي: نظام إعالة الحياة[1].

وعلى ذلك يمكن ملاحظة تقسيم البيئة إلى قسمين هما:

أولاً: البيئة الطبيعية وهي كل ما يحيط بالإنسان من ظاهرات أو مكونات طبيعية حية وغير حية من خلق الله تعالى، ممثلة في مكونات سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان وصخور وتربة، وعناصر المناخ المختلفة من حرارة ورياح وأمطار وأحياء نباتية أو حيوانية، برية او مائية، إضافة إلى موارد المياه العذبة والمالحة[2].

ثانياً: البيئة الصناعية وهي التي يشيدها الإنسان من خلال تفاعله مع البيئة الطبيعية كالمصانع والسيارات وما شيد من منشآت.

ولما غدا مسلماً اعتبار الإنسان جزءاً لا يتجزأ من هذه المعادلة القائمة على اعتباره الفاعل الأساس في بناء الأرض وإعمارها، وما يستتبعه من تحقيق مصالحه وإشباع رغباته ضمن أسس قوامها التوازن الذي دعا إليه الخالق جل وعلا، فقد عد من الثابت ـ بالتالي ـ تحديد مقومات هذا التوازن سيما في ضوء ما غدا ظاهراً ـ ولا يغيب على أحد ـ من مشكلات بيئية يندى لها الجبين.

إن السعي نحو ملامسة هذه الأسس يفرض علينا ـ بداية ـ رصد القواعد الشرعية بالدرجة الأولى ضمن دستورنا الإلهي في كتاب الله جل وعلا، وفق ما نسلم به جميعا وما هو ثابت بالحجة والبيان على أن السبق يعود للقرآن الكريم في العديد من الحقائق العلمية الثابتة والتي

---

(١) الفقي، البيئة ومشكلاتها، ص٢٢.

(٢) د. زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان ـ رؤية إسلامية، ص١٣.
الفقي، البيئة ومشكلاتها، ص٢٢.

تعتبر السباقة في رصد ما يجب أن تنهض عليه العلاقة بين الإنسان وما سخره الله له لينتفع به ويحقق مراده وذلك بما لا يخالف كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه ﷺ.

وفي خضم البحث في هذه الحقائق ارتأينا التمحيص **أولاً** في رصد العلاقة بين الإنسان والبيئة من خلال القرآن الكريم **(المطلب الأول)** على أن نتولى لاحقاً بالبحث في دور السنة النبوية في تكريس الدعوة إلى الاعتدال والوسطية ضمن علاقة الإنسان بالبيئة **(المطلب الثاني)**.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
دور القرآن الكريم في رصد العلاقة بين الإنسان والبيئة

تجمع أدبيات البحث العلمي التي تناولت العلاقة بين البيئة والإنسان على الأصل الذي نهضت عليه تلك العلاقة والقائم على فكرة الاعتدال الذي يكفل مصلحة الإنسان بالقدر الذي يحقق التوازن البيئي، بمعنى إسهام هذه الأخيرة في إعالة الحياة على سطح الأرض بما لا يتأتى معه أية مخاطر تمس بالبشرية. وتنتهي جل الدراسات التي تناولت هذا الموضوع إلى القول بأن أي خلل يعتري النظام البيئي سوف لن ينأى بالخطر البليغ على الحياة على سطح هذه الكوكب.

تحت هذه المسميات يتم تفتيت العلاقة بين الإنسان والبيئة إلى وحدات عضوية تلتئم حول مفهوم التوازن دونما أي تفريط في حساب الواحدة على الأخرى، بيد أن التقول بهذا الرأي لا يبتعد عن ضرورة الحاجة إلى الإثبات العلمي لتكاملية تلك العلاقة التي من شأن إغفالها ترتيب النتائج المزمع تحققها عملياً، وبالتالي البناء على القيمة التي تجلت فيها عظمة الخالق ودعوته في كتابه العزيز إلى الحفاظ على هذه العلاقة ضمن نسق يكفل التوازن والتكامل في آن معاً.

ولنتأمل قول الله تعالى: «﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ

بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحجر: ١٩ ـ ٢٢].

ففي هذه الآيات إشارة واضحة إلى أن الله تعالى قد خلق هذا الكون وفق نظام متوازن متكامل العناصر، بحيث يؤدي كل عنصر وظيفته من غير أن يطغى على غيره من العناصر.

كما أن هذه العناصر وجدت بمقادير محدودة ونسب دقيقة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر: ٤٩] ويقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [٢: سورة الفرقان] ويقول عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: ٨].

وإذا كان أي نظام بيئي يمكن إرجاعه إلى أربع مجموعات وهي: عناصر الإنتاج، وعناصر الاستهلاك، وعناصر التحلل، والعناصر الطبيعية غير الحية، فإنه يتوافق مع التعبير القرآني من دقة في الخلق وتناسب في العناصر.

إن مراعاة هذا النظام الذي وضعه الله للمخلوقات بحسب علمه وحكمته سبحانه، هو الذي يكفل أن يؤدي كل مكون أو عنصر من عناصر البيئة ومكوناتها دوره المرسوم بدقة وانسجام، وأما تجاوز الإنسان وتماديه على هذا النظام فيؤدي إلى فساد لا تحمد عقباه.

يذهب أحدهم إلى القول أن تعرية البيئة الغابية سيؤدي إلى جملة النتائج تالياً:

١) اختفاء معظم الأشجار التي تعتمد عليها كثير من الحيوانات، ملجأً وأوكاراً، ومصدراً للغذاء.

٢) تعرية التربة وتعرضها للانجراف، وما يعقب ذلك من عجز الأرض عن امتصاص الماء، وازدياد خطر التصحر.

٣) خلخلة دورة الأكسجين وثاني أكسيد الكربون، باعتبار الأشجار مصدراً بل مصنعاً متجدداً للأكسجين، ومستهلكا لثاني أكسيد

الكربون، وأن نقصان الأشجار يزيد من درجة التلوث الهوائي.

٤) تقليل تبخر الماء الناتج عن الأشجار بسبب قطعها، وما يترتب عليه من جفاف وقلة الأمطار[١].

هذا النموذج من أبسط صور العلاقة التي يمكن أن تنجم عن فشل التعاطي مع فكرة التوازن بين الإنسان والمحيط، ليتأتى معه التساؤل حاضراً في الأذهان؛ بالقول ما هي الأسانيد التي تكفل صحة القول بوجوب السعي نحو الحفاظ على البناء البيئي ضمن أسس متوازنة في العلاقة بين تلك الأخيرة والإنسان؟

نجد الإجابة عن هذا التساؤل ونظائره في كتاب الله جل وعلا ضمن سلسلة النصوص القرآنية التي دللت في مجموعها على تلك الحقائق القاطعة البيان، فقد ورد في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٥]، وجاء في محكم التنزيل قوله جل وعلا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الروم: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة المائدة: ٣٢]، وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة البقرة: ٦٠]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الحجر: ١٩].

يظهر من جملة هذه الآيات وغيرها كيف سخر الخالق جل وعلا

---

(١) مصطفى صالح باجو: مشكلات البيئة من منظور إسلامي، بحث منشور على الموقع الإلكتروني www. geocities. com/icrbsh/mandor. htm.

هذا الكون للإنسان وجعله بكل عناصره وحدة عضوية تحقق خدمة الإنسان وتلبي حاجاته، كما يظهر في الوقت ذاته نهي الخالق عن الإفساد في الأرض بعدما هيّأها سبحانه لخدمة الإنسان، ونهيه عن العبث فيما أرساه على أسس وقواعد متسقة ومتوازنة، ودعوته إلى الإقساط وعدم الإسراف في التعاطي مع عناصر البيئة التي نحيا بها وتحيا بنا، فإذا بنا لا نحسن التدبير ولا التسيير، لتترتب العواقب التي حذر منها سبحانه في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [سورة البقرة: ١٩٥].

إن الحديث عن البيئة في القرآن يجد صداه في عشرات الآيات، حيث تضمنت في مجملها الحديث عن نعمة الله جل وعلا وتسخيره ما في الكون لمصلحة الإنسان، فقد ذكرت الأرض في القرآن ٢٨٧ مرة إجمالاً، وإن أزيد من نصف هذا العدد متصل بموضوع البيئة، كما ذهبت هذه النصوص القرآنية إلى التحذير من أن أي خلل في المقادير والوظائف التي خلق فيها الله تعالى الإنسان والتي أنزله بها لا يبرح أن يعد ناقوس خطر يتهدد الحكمة من الخلق ويعطل المخلوقات عن أداء وظيفتها[1].

ولما كان من غير المتسع ذكر جميع هذه النصوص القرآنية في هذا المقام، فقد كانت الحكمة أبلغ في الوصول إلى النتيجة التي شدد فيها تبارك وتعالى في كتابه العزيز على التفكر في خلقه وبديع صنعه، وحذر من مخاطر التفريط والإفساد في الأرض ونهى عن كل ما من شأنه العبث في هذه الموازين، وهيأ للطغاة العذاب الشديد، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة البقرة: ١١].

وإذا كان ليس محلا للخوض في الحقائق العلمية الثابتة والراسخة وفق ما توصل إليه العلم الحديث، فإن ما لا يجب أن يغيب عن أذهاننا القول إن مختلف الحقائق العلمية التي توصل إليها العلماء متأخرين وجدت دالتها في كتاب الله العظيم، وكان السبق فيها للقرآن الكريم،

---

(١) نفس المرجع، ص١٢ ـ ١٣.

ومن هنا تجد أن ما غدا يتهدد البشرية من مخاطر بيئية معاصرة ليس إلا مما حذر منه تبارك وتعالى بني البشر من التفريط وعدم التدبر في خلقه والإسراف في التعاطي مع عناصر هذا الكون الموزون.

إن النتيجة التي لا مراء حولها تستقر على القول باحتلال البيئة مكانة سامية في كتاب الله العزيز الذي رسم معالم هذا الكون وحدد موازينه ورسم خطى التعاطي معه من قبل بني البشر، بيد أن كل ما أضحى يتهدد الإنسان من مخاطر بيئية لا يعدو أن يشكل سوى تغييب لتلك الحقائق وتجاهل لها، وهو ما حذر منه تبارك وتعالى في كتابه العزيز.

ولما كان للقرآن الكريم الفضل في رصد طبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة، مشيراً فيها إلى حكمة وجود الكون وأسس بناء هذا الأخير بما فيه من موجودات، وإلى الآلية التي على الإنسان فيها التفاعل مع تلك العناصر كمكونات للبيئة كوحدة موضوعية ومادية في آن معاً، فقد دعا الرسول ﷺ في كثير من المواقف وشدد على هذه الأنساق كقاعدة تضمن التوازن البنّاء بين مصلحة الإنسان والحاجة إلى الاستمرار المادي للبناء البيئي من دون أية مشكلات أو مخاطر (**المطلب الثاني**).

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
تكريس السنة النبوية لفكر الاعتدال ضمن علاقة الإنسان بالبيئة

ينبغي ألا يغيب عن بال أحد من الدارسين الأهمية القصوى للتربية البيئية في الإسلام وارتباطها بحياة الإنسان الذي كرمه الله على سطح هذا الكوكب، ففي الوقت الذي يظهر حرص الإسلام ورعايته للبيئة نابعاً من الحرص الشديد على احترام الحياة ومقوماتها على سطح الأرض، تسير في ذات المنحى تجليات أخرى عديدة لا تقل أهمية في التأكيد على الحرص على كشف الحجاب أمام رؤيا الفرد المسلم عن مقومات البيئة

والأبعاد التي يصب فيها دوره باعتباره خليفة الله تبارك وتعالى في الأرض، سيما وأن الفهم الصحيح للبيئة يحقق القدرة على التفاعل معها بأسلوب أمثل يكفل الحفاظ عليها بما يحقق ـ في آن معاً ـ التوازن في المصالح والأهداف.

ولعل استجلاء النظم الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية في ضوء علاقة الإنسان بها يشكل الهدف الذي ذهب إلى تحقيقه الإسلام من خلال مختلف النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وذلك كله حتى لا تلج الإنسانية إلى مرحلة يصعب معها الخروج من المآزق التي تعود بالكارثة عليها حال التفريط بتلك الأحكام.

والواقع أن دور السنة النبوية في هذا المقام لا يقل أهمية عما ذهب إليه كتاب الله العظيم، حيث يشكل هذا الدور تفسير وإتمام ما سطره كتاب الله العظيم في مواضع متعددة[1].

فمن جهة أولى؛ حثت السنة النبوية على العمل النافع ورفضت الإضرار بالغير كيفما كان الضرر، فقد ورد عن ابن عباس قوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا الملاعن الثلاث، قيل: ما الملاعن الثلاث يا رسول الله؟ قال: أن يقعد أحدكم في ظل يستظل فيه، أو في طريق أو في نقع ماء»[2].

في هذا التوجيه النبوي حث على صحة البيئة ونظافة الماء الذي هو أساس الحياة، وفي ذات السياق؛ ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللعانين؟ قالوا وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلهم»[3].

تظهر تلك الأحكام النبوية الشريفة المقصد الذي رمت إليه سنة المصطفى من منع الإساءة إلى منافع الغير من عموم البشر مما هو لصيق

---

(١) ينظر: القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، وصلاح عبد السميع: التربية البيئية في الإسلام ـ مفهومها، أهدافها.

(٢) رواه أحمد، المسند، حديث (٢٥٨٠).

(٣) رواه مسلم، كتاب الطهارة، حديث (٢٦٩).

بما سخره الله سبحانه وتعالى لهم في الأرض، من ظل وماء وهواء... إذ أحلت اللعنة على كل من آذى الناس أو ألحق بهم أي من أوجه الأذى القائم على الإضرار بالانتفاع بتلك المنافع.

إن إشارات السنة النبوية لا يستغنى عنها في عالم اليوم في سبيل الحفاظ على البيئة، ومع ملاحظة أنه لم يكن ثمة مشاكل بيئية معقدة في عصر الرسالة كما هو الحال اليوم... وما جاء في السنة النبوية لا يقف عند مجرد الإشارات وإنما هي تربية موجهة تشمل الفرد والمجتمع في آن واحد، يتجلى ذلك في المجالات التي ارتادتها حتى شملت ما يعرف اليوم بالحجر الصحي، فالرسول ﷺ يوجهنا أنه إذا ظهر الطاعون في بلد أن لا نخرج منه وألا ندخل إليه[1]، هذا إلى جانب توجيهه في مجال تلوث الماء وحفظ الطعام إذ كان يأمر بتغطية أواني الأكل والشرب، فقد روى جابر رضي الله عنه قال: (أمرنا النبي ﷺ أن نوكي أسقيتنا ونغطي آنيتنا)[2] فالطعام والشراب عرضة للتسمم مما قد يتسبب في إيذاء الحياة والأحياء، بل أي حرص أكبر من حرصه ﷺ من انتقال العدوى في مجتمع فقير لا يملك إلا أقل القليل من الحاجيات فينهى عن النفخ أو التنفس في آنية الشرب: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس بالإناء»[3].

وشملت هذه العناية والحماية كافة المخلوقات، فالحيوانات في السيرة النبوية موضع رعاية وعناية وعطف وإحسان، فهو ﷺ يُميل الإناء للقطة حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها[4]. كيف لا وهي مسخرة للإنسان وفي الوقت ذاته تؤدي وظيفتها في البيئة والحياة إلى جانب الإنسان، فلا غرابة أن ينهى النبي عن قتل بعضها، ويحض على رعاية بعضها الآخر بطريقة غير مسبوقة في تاريخ البشرية، فهذه امرأة تدخل النار في هرة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، حديث (٥٢٨٩).

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها حديث (٣٥٤).

(٣) رواه ابن ماجه، كتاب الأترية، حديث (٣٤١٨)، رواه الترمذي، كتاب الأترية عن رسول الله، حديث (١٨١١).

(٤) رواه ابن داود، كتاب الطهارة، حديث (٦٨)، رواه ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، حديث (٣٦١).

حبستها حتى ماتت فلا هي أطعمتها وسقتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[1]. وها هو فتى من الأنصار يلام أشد اللوم لقلة اهتمامه بجمله وعدم قيامه بواجبه نحوه وتحميله ما لا يطيق[2].

وقد أضحى هذا منهجاً يلتفت إليه أولو الأمر بعد رسول الله ﷺ، فهذا عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عماله ألا يحمّلوا الإبل فوق الذي تطيق وألا يضربوها بالحديد[3].

كما أرسى فقهاء المسلمين ضوابط شرعية في هذا المجال، وقد عد ما كتبه العلامة المغربي أبو علي بن رحال[4] من روائع ما تناوله فقهاء المسلمين في الإحسان إلى الطير، إذ ذهب إلى ضرورة أن يتفقد الإنسان ما بحوزته من الطير كما يتفقد أولاده، حتى أنه لم يهمل البعد النفسي والبيئي للطائر حين لاحظ ضرورة أن توضع خشبة ليركب عليها الطائر حتى لا يضره الوقوف على الأرض[5].

وفي ضوء ذلك ينبغي أن لا ننأى عن هذا المنهج الخاص الذي نهجته السنة في الحفاظ على البيئة ودفع الأذى عنها.

ومما ينبغي أن لا يفتنا ذكره أن المقصود بالأذى لا يتوقف عند حدود تلك الصور فحسب، وإنما يمتد إلى ما سواها في مجالات بيئية متعددة شكلت امتداداً لهذا المفهوم وبأنماط جديدة. فلعل القطع والاجتثاث الأهوج للغابات والأشجار ضرب من ضروب الأذى، ولعل التلوث الإشعاعي النابع من سباق التسلح النووي لهو ضرب من ضروب

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث (٣٠٧١).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الطهارة عن رسول الله، حديث (٨٥).

(٣) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، ص١٠٣.

(٤) الإمام الحافظ الفقيه، العلامة أبو علي، الحسن بن أحمد بن محمد بن الليث الكشي ثم الشيرازي الشافعي، من أعيان القراء والحفاظ والفقهاء، ولد في حدود العشرين وثلاثمائة، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء السابع عشر، ص٢١٠.

(٥) د. كمال رزيق، دور الدولة في حماية البيئة، ص١٠٣.

الأذى، ولعل التلوث الكيميائي واسع الانتشار والمترتب على جشع البلدان الصناعية لهو ضرب من ضروب الأذى... وإذا ما أردنا حصر هذه الأشكال ضمن واقعنا المعاش نجده جهد عصي علينا طالما ظهرت وبوتيرة متسارعة أنماطٌ جديدة من أشكال الأذى مصدرها الإنسان ولكنها ليست بإنسانية في حقيقتها.

لقد كان للسنة النبوية الفضل في التأكيد على أهمية البيئة بسائر مقوماتها، وقد اكتشف العلم جملة من الحقائق التي ذكرها القرآن وفسرتها سيرة وأحاديث المصطفى ﷺ، وإن في قوله وفق ما رواه أنس بن مالك عنه: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[1] لهو خير دليل على أهمية هذه الدعوة وارتباطها بالوجود المادي للإنسان[2]. إذ نعلم أنه بقيام الساعة لم يعد ثمة مجالاً للحياة على هذا الكوكب، بل هو بدء للمصير المحتوم، ونعلم أنه بقيام الساعة يسوى كل شيء بأمر الله تعالى دون أن يكون لأحد مجال في فعل أدنى ما يخالف تلك الاعتبارات، ومع ذلك نجد في هذا التعبير البليغ حرص الرسول ﷺ على حث الناس في واقعهم المعاش على ضرورة الاهتمام بمقومات الحياة على سطح هذا الكوكب، فغرس الأشجار والنبات عامل من عوامل التوازن البيئي الذي يحقق مصلحة الإنسان على الأرض، ولطالما تحدث العلم عن ذلك بحقائق ثابتة لا تقبل العكس قطعاً، لا بل نجد أنه حين غدا شائعاً العمل بعكس هذه الأسس ظهرت المشكلات البيئية بدءاً من ثقب الأوزون ومروراً بالتغيرات المناخية وانتهاءً بذوبان الكتل الجليدية وارتفاع درجات الحرارة، حيث لا زالت العجلة تسير...

لقد كان للسنة النبوية أبلغ الأثر في تكريس جملة المبادئ الإسلامية باعتبار أن الإسلام هو دين ودنيا وسلوك وعمل وأداء للتواصل

---

(١) رواه البخاري، كتاب الوضوء، حديث (٢٣٢)، رواه ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، حديث (٣٣٩).

(٢) جعفر عبد السلام: الإسلام والحفاظ على البيئة، سلسة فكر المواجهة (١٦)، منشورات رابطة الجامعات الإسلامية، ص١٥٩ ـ ١٦١.

والتقدم المنشود، وكانت جملة هذه المبادئ تتجه حول وعي الفرد وتحديد دوره في صنع المستقبل، وتطوير وسائل الإنتاج والحث عليها، وتطوير الفكر الاقتصادي، والحث على تنمية الثروة النباتية، والدعوة إلى تنمية الثروة المائية والحيوانية لقوله ﷺ: «لا يبولنَّ أحدكم في الماء الراكد ثم يغتسل فيه»[1]، وقوله: «أوكئوا قربكم واذكروا اسم الله وخمّروا آنيتكم واذكروا اسم الله»[2].

صفوة القول؛ ذهبت السنة النبوية في مواقع وحيثيات عدة إلى تأكيد الدعوة على الاهتمام بالبيئة بسائر عناصرها المادية من ماء وهواء ونبات...، وحمّلت الإثم إلى من يخالف الثوابت المستقرة في هذا الكون وتوعدته بالعقاب الشديد، لا بل عدت هذا الجانب من العبادات وطاعة الرحمٰن، وحذرت من مخاطر مخالفة ومعصية الله في ذلك، الأمر الذي يقودنا إلى القول ـ بالمحصلة ـ أن هذا الاهتمام البالغ يشكل قرينة لا تقبل العكس على العلاقة التي تربط الإنسان بالبيئة باعتبارها الجسم الحاضن له ليحيا وينعم بخيراتها عبر أسس تتطلب منه السعي إلى إعمارها باعتباره خليفة الله بما لا يتأتى معه هدر كامل تلك المكتسبات متناسياً في الوقت نفسه حاجة مَن بعدهُ إلى الانتفاع بتلك المكتسبات ضمن أسس معقولة ووفق نسق من التوازن لا يقبل تغليب الكفة على الأخرى.

إن للبعد الذي كشفت عنه الحقائق العلمية المعاصرة أبلغ الأثر في العودة إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة نبيه حيث يعود الفضل، على أن ما استجد من مشكلات وبمنظور أقوام مختلفة الانتماءات لا ينأى بنا عن جادة التفكير في الكيفية التي تعاطت معها سائر الثقافات من شتى القوميات والأمم مع مختلف المشكلات البيئية الناجمة عن تغاضي الإنسان إلى الحكم بما أنزل تبارك وتعالى وبسنة نبيه الأمين[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأشربة، حديث (٥١٩٢)، رواه مسلم، كتاب الأشربة، حديث (٣٧٥٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الأشربة، حديث (٣٧٥٦).

(٣) د. علي الملكاوي، البيئة والصحة، دراسة في علم الاجتماع الطبيعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥م، ص١٧.

يأتي هذا الجهد في سياق البحث عن مدى الالتزام بالتدابير الشرعية في الحفاظ على البيئة وذلك في ضوء الجهود الدولية والقانونية للتعاطي مع هذا الموضوع (**المبحث الثاني**).

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني
حدود الالتزام بالتدابير الشرعية والنظرية في الحفاظ على البيئة

لما كان للتدابير الشرعية أبلغ الأثر في تقويم النفس البشرية والعناية بسائر أنماط الحياة ومفرداتها، واحتلت البيئة مكانة رئيسة ضمن هذه المفردات المتكاملة، فقد غدا مهماً بالنسبة إلينا البحث في الجوانب التطبيقية لتعاليم الإسلام كدين ودنيا وسلوك وعمل، سيما وأن الجانب التطبيقي لتلك الأحكام عائد كلياً إلى الإنسان.

من جهة أخرى ارتبط البحث في الكيفية التي تحقق للإنسان العمل من خلالها في حماية البيئة بمفهومها الواسع بالتدابير القانونية سواء على المستوى الوطني أو الدولي كنهج يمكن من خلاله الحكم على تلك الجهود ومدى انعكاس ما أصّل إليه كتاب الله وسنة نبيه ـ سيما في المجتمعات الإسلامية ـ على الأفراد والجماعات فيها.

إن الإمعان في أصول الالتزام بالتدابير الشرعية والنظرية في الحفاظ على البيئة يكشف عن حقيقتين أساسيتين تتجلى الأولى في غياب البعد التطبيقي لتعاليم الشريعة الإسلامية ضمن سلسة الممارسات اللامنهجية في التعاطي مع البيئة (**المطلب الأول**)، بينما تتجلى الثانية في هشاشة التدابير التشريعية في ملامسة المشكلات البيئية المعاصرة (**المطلب الثاني**).

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
غياب البعد التطبيقي لتعاليم الشريعة الإسلامية ضمن سلسلة الممارسات اللامنهجية في التعاطي مع البيئة

بات مسلماً بعد سرد الإطار المفهومي للعلاقة بين الإنسان والبيئة

كمكنونة عضوية تحتوي على سلسلة من التفاعلات البينية المؤدية إلى اعتبار كل واحدة منها ضرورة كونية تشكل معجزة من معجزات الخالق تبارك وتعالى في تسخيرها لخدمة الإنسان، وبالتالي ضرورة تصور هذه العلاقة على نسق من الوعي الكامل من الإنسان بهذه الأدوات والعمل على استيعاب الحقائق القادرة على الحفاظ على هذه المكتسبات بشكل يضمن مصالح الفرد والجماعة واستمرارية الحياة في آن معاً.

غير أن ثمة حقيقة ماثلة للعيان مؤداها أن ثمة تفاعلاً سلبياً قوامه القفز على التشريعات والقيم والسطو على قوانين وأنظمة الطبيعة بغية الاستحواذ الفردي الهادف إلى إشباع المصالح الذاتية دونما أية عناية بمستلزمات تلك القوانين أو متطلباتها.

فعلى سبيل المثال يشير الواقع إلى غياب مفهوم التربية البيئية عن مناهج التعليم في مراحله المختلفة وفي شتى بلدان العالم الإسلامي فضلاً عن وجود منهج واضح يؤصل لدى الأجيال قيم احترام البيئة بأبعادها المادية والمعنوية[1].

وإذا كان اهتمام الإسلام بالعلم لا ينكر، فهو ـ على الأقل ـ يكشف بعض أسرار الكون ويدعم الإيمان، ومع ذلك لا نلمس في مجتمعاتنا اهتماماً كافياً بالتطور العلمي والتقني مما ينعكس سلباً على قدرات الإنسان وإمكاناته في استغلال موارد بيئته وتنميتها وصيانتها والمحافظة عليها من خطر التدهور. وتدل الدراسات أن معظم مشكلاتنا من جوع وتصحر واستنزاف للموارد الطبيعية وغيرها إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى حالة التخلف العلمي والتقني لسكان منطقتنا.

كما يدعونا الإسلام إلى إتقان العمل والتفاني فيه والإخلاص له، وهي كلها أسس سليمة وضرورية لأي تطور علمي وتقني، يؤدي في

---

(١) د. زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان رؤية إسلامية، دار البحوث العلمية، الدار العربية للنشر، ٢٠٠١، ص١٣.

النهاية إلى الاستخدام الأمثل والأنسب والمتوازن لموارد البيئة[١].

وإذا كان من الصعب تتبع كافة السلوكيات السلبية، والتي لا تتفق مع الأهمية التي أولاها الإسلام للبيئة، فإن ما يواجه العالم اليوم من مصاعب بيئية متشابكة هي الأكثر تعقيداً في تاريخ البشرية، يجعل الحاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى إلى وجود تربية بيئية بصورة تطبيقية وليست نظرية، لتجنب مخاطر سوء استخدام البيئة في العالم.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أن حدوث أي خلل أو تدهور في النظام الإيكولوجي[٢] يفضي ـ بلا شك ـ إلى أخطار تضر بكل مظاهر الحياة على سطح الأرض، سيما وأن الرؤية البيئية واسعة، واحتمالات التدهور لا تقتصر على المرحلة الآنية وإنما تطال المستقبل المنظور وغير المنظور[٣].

والواقع أن القراءة العلمية للمعطيات الراهنة تكشف عن واقع هذا التهديد الذي طال خطره الحياة على سطح هذا الكوكب.

فمن جهة أولى كان لسوء التعامل مع مفردات التطور الصناعي أثره المباشر على ظاهرة التلوث بصفة عامة بشتى أنماطها، فسواء تعلق الأمر بتلوث الهواء أو الماء أو الغذاء، فالنتيجة واحدة قوامها أن ثمة أثراً سلبياً أحاط بهذا الجانب من جوانب السلوك المتمثل ـ في أبعاده الدنيا ـ بإنتاج الطاقة والصناعات المعدنية والبتروكيماويات والنقل ومنها؛ الكبريت وأكسيدات النيتروجين وأول أكسيد الكربون[٤]... بحيث

---

(١) نفس المرجع، ص١٣.

(٢) النظام الإيكولوجي، يطلق على العلاقة الوظيفية بين مكونات أو عناصر البيئة الطبيعية، فهي وإن استقلت عن بعضها في مسمياتها، إلا أنها ليست كذلك في واقعها الوظيفي، فهي في حركة ذاتية دائبة من ناحية، وحركة توافقية انسجامية فيما بينها من ناحية أخرى في ظل نظام معين غاية في الدقة تحكمه النواميس الكونية الإلهية.

(٣) د. زين الدين: البيئة والإسلام، رؤية إسلامية، دار البحوث العلمية، الكويت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٦، ص٣٨.

(٤) محمود أحمد حميد: أهم المشكلات البيئية في العالم المعاصر، دار المعرفة ـ دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص ٦٦.

ألحقت هذه النشاطات أضراراً مباشرة على الصحة البشرية عانى منها على الأقل ملايين البشر ممن ليس لهم علاقة بهذه النشاطات سوى حصاد همومها.

فقد أودت ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ملايين الأطنان من غاز أول أكسيد الكربون مضافاً إليها ملايين أخرى من الغازات السامة بحياة ملايين البشر، إذ كل ما هناك هو اتحاد هذا الغاز بخضاب الدم الذي يتولى طرد الأكسجين الناقل له، إذ أن اتحاد هذا الغاز مع خضاب الدم أقوى من اتحاده بالأكسجين، مما يسبب نقصاً في مد الخلايا بالأكسجين، فيقل ـ بالتالي ـ معدل خفقان القلب، ويزداد تعب الجهاز التنفسي... إلخ[1].

ولعل ثمة من يسأل كيف بالإنسان أن يكون الجلاد وهو الضحية في الوقت نفسه؟ فنرد على ذلك بالقول أنه باستثناء بعض الظواهر التي من الممكن أن تحدثها الطبيعة من تلقاء نفسها كما هو الشأن بالنسبة إلى البراكين أو الزلازل مثلاً، فإن كافة القضايا التي تدور حول البيئة هي من صنع الإنسان.

من جهة ثانية، كان لمشكلات استنزاف الموارد وانقراض الأنواع بسبب استنزاف التربة والرعي الجائر والإسراف في قطع الأشجار والاستهلاك المتزايد للماء والصيد الجائر واستنزاف المعادن واستنزاف الوقود الحفري وتجريف التربة الزراعية والزحف العمراني العشوائي ...أثرها المباشر في المشكلات البيئية التي تداخلت عواملها فيما بينها فآلت إلى ما آلت إليه في الواقع المعاش، فعلى سبيل المثال أدى استخدام الأسمدة بشكل كبير في القضاء على الحشرات الاقتصادية النافعة التي كانت تتغذى على حشرات ضارة، فتحولت تلك إلى آفات زراعية فتاكة[2].

---

(١) نفس المرجع، ص٦٦.

(٢) مختار محمد كامل: البيئة وعوامل التلوث البيئي وطرق إنقاذ البشرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٧، ص٢٧ ـ ٢٨.

صفوة القول؛ وضعت الشريعة الإسلامية القواعد الأصولية الواجب اتباعها في التفاعل مع البيئة كوحدة موضوعية أوجدها الخالق تبارك وتعالى لخدمة الإنسان والحياة على سطح هذا الكوكب، بيد أن الممارسات العشوائية التي حادت عن خط الشريعة السمحة أفضت إلى النتائج سالفة الذكر وهي نماذج مصغرة لجسامة المشكلة التي غدت تتهدد الحياة برمتها على سطح الأرض.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
هشاشة التدابير التشريعية
في ملامسة المشكلات البيئية المعاصرة

بعد أن تكشف لنا البعد العلائقي بين رؤيا الإنسان للبيئة بمكوناتها المختلفة والمشكلات العملية التي غدت تتهدد الحياة على سطح الكوكب، بات مهماً بالنسبة إلينا إلقاء نظرة على الممارسات القانونية في محاولات التصدي لهمجية التفاعل مع البيئة كموضوعة لا تعنى بها جماعة معينة أو مجتمع معين فحسب، وإنما هي ـ بمفرداتها المختلفة ـ النظام الكوني لاستمرارية الحياة وفق قوانين الطبيعة. لذا يعد العمل من جانب الأفراد والجماعات لإيجاد تشريعات تضمن سلامة الحياة مطلباً ملحاً لا يغدو ـ وهذا هو الأصل ـ وليد الساعة، فإلى أي حد استجابت الدول ورواد الفكر القانوني إلى هذه المطالب على المستوى الدولي والوطني؟ سيما في ضوء التقصير في تطبيق معايير وتعاليم الشريعة الإسلامية صاحبة الفضل والسبق في الكشف عن طبيعة تلك العلاقة باعتبار ما يجب أن يكون، وعن قوانين الطبيعة وملابساتها وآلية الحفاظ عليها من منظور إسلامي؟

كشفت الدراسات المعاصرة لواقع التقارير التي تعدها الجهات المعنية بالمشكلات البيئية على المستوى العالمي أن جهوداً حقيقية أخذت تبذلها المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية بدءاً من منظمة الأمم

المتحدة والوكالات المتخصصة التابعة لها وذلك بهدف التصدي للمشكلات البيئية المتفاقمة ومحاولة إيجاد الحلول القادرة على استيعاب المشكلة بأبعادها المختلفة، وقد شكلت قمة الأرض في ريو دي جانيرو ـ بالبرازيل ـ في تسعينيات القرن المنصرم أولى هذه الإرهاصات المنبثقة عن جهود المجتمع الدولي في هذا المجال، تعاقبته الكثير من الجهود التنظيمية والهيكلية وذلك لأجل كبح جماح الممارسات العشوائية، سيما تلك المرتبطة بالدول الصناعية والتكنولوجية ـ والعمل على توحيد المعايير الدولية لخلق فضاء آمن يكفل الحفاظ على البيئة كتراث مشترك وحق من حقوق الإنسان على المستوى الدولي.

لقد كان الاجتماع الذي عقد في فرنسا سنة ١٩٨٩ بين قادة الدول السبع الصناعية الشرارة التي أطلقتها تلك البلدان كمحاولة منها إلى ملامسة الخطر الداهم الذي غدا يتهدد البشرية، سيما فيما يتعلق بانبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون وغيره من الغازات الدفيئة، حيث اقترح عدد من علماء البيئة إجراءات قاسية وضرائب جديدة وضخمة كوسيلة يمكن من خلالها الحد من شدة هذه المخاطر واتخاذ الإجراءات البديلة التي علها تخفف من تلك الانبعاثات، والتي تشكل سبباً مباشراً في احتباس الحرارة المرتجعة إلى الفضاء الأمر الذي من شأنه زيادة درجة حرارة الأرض ـ كما توقعها بعض العلماء ـ إلى خمس درجات مئوية[١].

ومع كل هذه الإجراءات، بيد أن كافة الجهود المبذولة دولياً لم تفض إلى حل يذكر، فقد كان للاجتماع الذي عقدته الدول الصناعية مؤخراً خير شاهد على تفاقم حدة المشكلات البيئية، كما أن الجهود الرامية إلى محاولة الضغط على المصانع لم تؤت ثمارها، ولم تنته تلك الجهود إلى حلول تطبيقية تنأى بالضغط الذي تمارسه المصانع والشركات العملاقة في مجال التكنولوجيا على صناع القرار بهدف التغاضي عن تلك الممارسات، باعتبار أن هذه القطاعات أضحت تشكل لوبي (قوة)

(١) محمود أحمد حميد: أهم المشكلات البيئية في العالم المعاصر، دار المعرفة، دمشق ١٩٩٥، ص٢٣٧.

يسعى إلى التقليل من قيمة التقارير والدراسات التي تعدها اللجان المختصة حول المخاطر المحدقة بالحياة على سطح الكوكب بفعل مخلفات تلك الصناعات بدءاً من انبعاث الغازات السامة إلى مخلفات التكنولوجيا.

كما أن إلقاء اللوم على مجتمعات الدول النامية لا يرقى إلى جادة الصواب سيما وأن المشكلة ليست مرتبطة بكينونة أو وحدة سياسية بأم عينها وإنما هو مشكل كوني يتطلب تضافر كافة الجهود وإلا انتهينا إلى الخطر المحتوم.

إزاء هذه الجهود على المستوى الدولي ارتأينا إلقاء الضوء على بساطة الواقع القانوني في التشريعات الداخلية لدى بعض الأنظمة القانونية.

ففي الأردن على سبيل المثال ثمة فرق بين التنظيم القانوني وبين الواقع التطبيقي لتلك التشريعات، فقد سنت مجموعة من التشريعات التي تجرم وتعاقب الأفعال التي تشكل تعدياً على النظم البيئية وتمس بمكوناته، كما تضمنت العديد من التشريعات مجموعة من النصوص التي تعاقب على الأفعال التي تشكل مخالفات بحسب أحكامها.

فعلى سبيل المثال تضمنت المادة (٣٢/ج) من قانون الزراعة المؤقت رقم (٤٤) لسنة (٢٠٠٢) اعتبار الفعل المتمثل بإلقاء الأنقاض والنفايات والمخلّفات الصلبة أو السائلة أو المشتعلة أو أي مواد ملوثة للبيئة على الأراضي الحرجية مخالفة يعاقب عليها هذا القانون.

كما اعتبرت المادة (٣٣/أ) إشعال النار في مناطق الحراج الحكومي وفي المناطق المجاورة حتى (٣٠٠م) مخالفة، هي الأخرى يعاقب عليها القانون وتقتضي تسليم الفاعل إلى المركز الأمني.

والواقع أن هذا القانون تضمن المخالفة على العديد من الأفعال التي تمس بالبيئة ومنها حرق الأشجار والشجيرات الحرجية والنباتات البرية دون ترخيص (م٣٤/أ/٢ من قانون الزراعة المؤقت) قطع تلك الأشجار دون ترخيص (م٣٤/أ/١) وإلقاء النفايات أو المخلفات الصلبة أو

السائلة أو المشعة أو أي مواد ملوثة للبيئة على أراضي المراعي (م٣٩/أ/٦... إلخ).

ومن جهته تضمن قانون العقوبات رقم (١٦) لسنة (١٩٦٠) نصوصاً تجرم الأفعال التي تشكل تعدياً على نظام البيئة وتلحق أضراراً بها، فعلى سبيل المثال عدت الأفعال المتمثلة بإلقاء جيف الحيوانات النافقة على الطرق أو الغابات أو أراضي المراعي مخالفة بحكم المادة (٤٩/أ) من هذا القانون، وعُد إضرام النار قصداً في حراج أو غابات للاحتطاب أو بساتين أو مزروعات قبل حصادها إذا كانت ملكاً له وسرى الحريق إلى ملك غيره فأضر به مخالفة يعاقب عليها القانون.

إلى جانب هذه التشريعات تصدت تشريعات عديدة أخرى لأنماط مختلفة من المشكلات التي نذكر من بينها قانون السير رقم (٤٧) لسنة (٢٠٠١)، ونظام المحمية الطبيعية والمتنزهات الوطنية رقم (٢٩) لسنة (٢٠٠٥) من قانون البيئة المؤقت لسنة (٢٠٠٣) وقانون سلطة المياه رقم (١٨) لسنة (١٩٨٨) وقانون تنظيم شؤون المصادر الطبيعية وتعديلاته رقم (١٢) لسنة (١٩٦٨)، وأخيراً قانون الصحة العامة رقم (٥٤) لسنة (٢٠٠٢)، الذي عاقب بدوره على العديد من المخالفات التي بدت من بينها تلك المرتبطة بالإضرار وبالصحة العامة نتيجة سوء تداول المواد الكيميائية.

يلحظ على هذه التدابير القانونية الأهمية التي حظيت بها البيئة والنظام البيئي برمته داخل الأردن، ويعكس ذلك بالضرورة الأهمية التي تحظى بها البيئة والمشكلات البيئية برمتها بين سائر المشكلات الأخرى على بساط الواقع.

بيد أن هذه الجهود لم تجد كبير نفع ويتبدى ذلك حين نطالع الواقع التطبيقي لتلك التشريعات، فكثيرة هي المشكلات الناجمة عن عدم الوعي والابتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي، ومع أن التشريعات الوضعية لا ترقى إلى مرتبة الشريعة الإلهية لتشكل عامل ردع قادر على درء مفاسد إغفالها وما ينتج عن ذلك من أخطار، إذ يبدأ انعدام الوعي

من إلقاء النفايات في الطرقات، ويمر باقتلاع الأشجار من الأماكن العامة والغابات انتهاء إلى عدم الاكتراث بمخالفات المصانع وعوادم السيارات... لتشكل هذه المعضلات وما شابهها وحدة واحدة لا تتجزأ عن الثقافة البيئية لدى العموم.

لا يختلف هذا المشهد عما لديه الحال في مصر وسوريا ولبنان ومعظم البلدان العربية وغير العربية، مع العلم أن انتماءنا إلى الدين الإسلامي يلزم علينا الظهور بمشهد مناهض تماماً للصورة التي عليها تلك المجتمعات[1].

تشير هذه الحقائق إلى أن ثمة إشكالاً في الرؤيا الحقيقية لواقع التطبيق التشريعي يكمن بالدرجة الأولى في عدم زجرية المخالفات القائمة وضعف مواكبة تطبيقها ومن جهة أخرى ضعف التنسيق بين جل التشريعات التي تتصدى للمشكلات البيئية في البلدان العربية، وآية ذلك تعدد التشريعات التي تعاقب على المخالفات البيئية دون أن يكون ثمة تشريع موحد يجمع في ثناياه سائر هذه المشكلات ويحد منها بينما يوكل التطبيق إلى جهة متخصصة تعمل ضمن أفق واضحة على الرعاية الشمولية والتوعية اللازمة بالآلية التي يجب الركون إليها بالتعامل مع النظام البيئي والعوامل المؤثرة فيه.

❋ ❋ ❋

(١) د. أحمد عبد الكريم سلامة، قانون حماية البيئة الإسلامي مقارنة بالقوانين الوضعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، ص٢٨.

الخاتمة

أما وقد وصلنا إلى نهاية هذه الدراسة فإنه يمكن تسجيل أهم النتائج التي توصلت إليها، وهي:

أولاً: كشفت الدراسة أن السلوك الإنساني في تعامله مع البيئة أدى إلى تفاقم المشكلات البيئية يوماً بعد يوم.

ثانياً: بينت الدراسة أن الشريعة الإسلامية من خلال نصوص الكتاب والسنة والقواعد الأصولية المستمدة منهما قد عالجت الجوانب المختلفة المتعلقة بالبيئة بما يضمن حمايتها والمحافظة عليها وذلك من خلال:

- الدعوة إلى رعاية ثروات الأرض المائية والنباتية والحيوانية والحفاظ عليها.
- الدعوة إلى المحافظة على الصحة والنظافة في البدن والملبس والبيوت والطرقات.
- الدعوة إلى الاعتدال والتوازن والابتعاد عن الإسراف والتبذير.
- الدعوة إلى النظر في الكون والمخلوقات وعظيم صنعتها وروعتها وجمالها.
- وينتج عن ذلك واجب الإنسان تجاه الكون من عمارة الأرض بإحياء مواتها واستصلاحها، وألا يفسد الكون من حوله.

ثالثاً: كشفت الدراسة عن غياب البعد التطبيقي لتعاليم الشريعة في التعامل مع البيئة.

رابعاً: كشفت الدراسة عن هشاشة التشريعات المتعلقة بالبيئة من حيث الشمول والإلزامية.

وعليه فإني أوصي بضرورة التركيز على التربية البيئية في المراحل المختلفة وربطها بأحكام الشريعة.

كما أوصي بسن القوانين والتشريعات التي تحافظ على البيئة وتفعيل التشريعات القائمة بحيث تأخذ طابع الشمول والإلزام.

❋ ❋ ❋

الإسلام والبيئة

إعداد
أ. د/محمد فتح الله الزيادي
عميد كلية الدعوة الإسلامية
طرابلس/ليبيا

تمهيد

أصبح موضوع البيئة منذ مطلع الستينات من القرن الماضي يشغل بال العالم أجمع بمختلف اتجاهاته الفكرية والقومية والدينية وذلك لما برز من مخاطر متعددة أصبحت تهدد الحياة البشرية جراء التعامل غير الطبيعي مع مكونات البيئة المختلفة، وقد تشكلت إثر ذلك جمعيات علمية وحركات سياسية، ومنظمات اجتماعية، للاهتمام بالبيئة والمحافظة عليها من الفساد والتلوث، ونظمت العديد من المؤتمرات الدولية والإقليمية التي نبهت إلى خطورة التعامل المعاصر مع البيئة وضرورة الإسراع في معالجة التصدعات الكبرى للمكونات البيئية ونتج عن ذلك ظهور مواثيق دولية وتشريعات إقليمية تحد من مخاطر الإهمال العالمي للمحافظة على البيئة، ولا نكاد نجد بلداً في العالم إلا وأصبح يشارك في هذه الحملة العالمية للمحافظة على البيئة التي استدعى لها المفكرون والعلماء ورجال الأديان وأصحاب القرار السياسي وكافة الشرائح الفاعلة في المجتمعات المتحضرة وكل ذلك إنما كان بسبب الشعور العالمي بخطورة مستقبل الحياة على هذه الأرض وما يمكن أن ينتج من تداعيات تسبب سرعة فناء هذا الكوكب بفعل ما يقوم به الإنسان من تصرفات لا يقدر عواقبها.

ولعل أقوى الأسباب في هذه المخاطر هو طمع الإنسان وأنانيته وعدم قدرته على ضبط غرائزه ومحاولته الدائمة للسيطرة على الموارد البشرية واستغلالها لصالحه فرداً كان أو مجتمعاً دون مراعاة لحقوق الآخرين ودون وعي لمحدودية الموارد أحياناً، ومن هنا ندرك أن النظام الأخلاقي في المجتمع البشري يعتبر الضامن الأول للمحافظة على مكونات الحياة البشرية، فمتى ما سما هذا النظام واستمد مقوماته من مصادر إيمانية عليا كان ذلك عاملاً في رقي الحياة الإنسانية وسموها، ومتى ما انفلت الإنسان من سيطرة العوامل الروحية كان ذلك سبباً في

دخوله في أزمات متعددة من شأنها أن تساهم في إنهاء دوره على هذه الأرض.

إن الإسلام وهو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله دستوراً نهائياً للبشرية عامة قد اهتم بموضوع البيئة وأكد على المحافظة على كل مكوناتها ذلك أن نهائية هذه الرسالة وعموميتها صفتان ضمنتا للإسلام شموليته لكل مناحي الحياة مادية ومعنوية، وشموليته لكل ما يؤدي به إلى السعادة الأخروية، ولا شك أن البيئة بكل جوانبها تقع ضمن هذه الشمولية إن لم نقل إنها المرتكز فيها، وذلك لأن البيئة هي مسرح تحقيق الخلافة التي خلق الله الإنسان من أجلها، فما لم تتحقق شروط السلامة الكاملة للبيئة لا تتحقق الخلافة التي دعي الإنسان لتحقيقها.

إن المتمعن في آيات القرآن الكريم يجد أن موضوع البيئة يتردد صداه فيما يقترب من مائتي آية في سور كثيرة تتناول عناصر البيئة المختلفة من أرض وما تضمه من مكونات حية وغير حية وما يحيط بها من غلاف غازي وغيره، وبحار وما تحتويه من عوالم يصعب إدراك عظمتها، وكلها تدل على قدرة الله وعظيم صنعه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1]، وعلى اهتمام هذه الرسالة الخاتمة بتبيان كل ما له صلة بتحقيق السعادة للإنسان وتسهيل مهمته التي أوكلها الله إليه وهي إعمار الأرض وتسخير كل ما فيها لخدمته.

إن اهتمام الإسلام بالبيئة من حيث ذكر مكوناتها ودقة صنعها وتنوعها وبيان سحرها وروعتها يرتقي إلى أعلى الدرجات حتى يصل إلى أن يستخدمها القرآن كأحد الوسائل الموصلة إلى متانة البناء العقدي للإنسان المسلم وذلك حين طالب الإنسان بالنظر فيها والتفكر في صنعها والوصول من خلال ذلك إلى إدراك عظمة الخالق سبحانه وتعالى ومن ثم الإيمان به والتسليم بقدرته وتفرده في صنع هذا الكون ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2].

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨.

(٢) سورة يونس الآية ١٠١.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾[1] ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾[2].

❋ ❋ ❋

(١) سورة ق الآيات ٦ ـ ١١.

(٢) سورة عبس الآيات ٢٤ ـ ٣٢.

مفهوم البيئة (INVIORONMENT)

بعيداً عن الغوص في جدلية المصطلحات وما ينتج عنها من تفريعات متنوعة تتعدد بتنوع الإضافات واختلاف المفاهيم، ودون حاجة إلى إيراد الاجتهادات الكثيرة في تعريف مصطلح البيئة أقول إنها عرفت بتعريفات كثيرة تأخذ مناحي متنوعة غير أن ما يربطها جميعاً هو أنها تدور حول محور واحد هو الكائن الحي وما يحيط به، ولذلك عرفها البعض بأنها المجال الذي تحدث فيه الإثارة والتفاعل لكل وحدة حية، أو هي كل ما يحيط بالإنسان من موارد طبيعية ومجتمعات بشرية ونظم اجتماعية[1]، وقد عرف مؤتمر البيئة الذي عقد تحت رعاية الأمم المتحدة في استكهولم بالسويد سنة ١٩٧٢، البيئة بأنها: «رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته»[2]، وقد حاول بعض الباحثين أن يحدد مفهوماً إسلامياً للبيئة غير أنه في تصوري لا يخرج عن التعاريف الأخرى التي ذكرت لمفهوم البيئة.

إن دراسة مفهوم البيئة وتصوراتها المختلفة قد يقود حتماً إلى ذكر نقطتين أساسيتين:

الأولى: إن مفهوم البيئة قد يضيق ليحدد نشاطاً خاصاً يتعلق بمجال واحد دون غيره وذلك حين نقول مثلاً: البيئة الصحية، البيئة الزراعية، البيئة الثقافية، البيئة السياسية... إلخ، ونعني بذلك النشاط البشري والصناعي الذي يتعلق بمجال محدد لا يتعداه لغيره.

الثانية: أن البيئة تقسم في معظم المصادر إلى قسمين رئيسيين:

البيئة الطبيعية: ويقصد بها المكونات البيئية التي لا دخل للإنسان

---

(١) مصطفى العلواني/ التلوث جريمة الجشعين/ مجلة.

(٢) محمد الفقي/ البيئة/ مكتبة ابن سينا/ مصر ١٩٩٣/ص١٨.

في إيجادها كالبحار والأنهار والصحاري والجبال والمناخ... إلخ.

البيئة الصناعية: ويقصد بها المظاهر الحياتية التي شيدها الإنسان وأنتجها لصالحه وتشمل مظاهر البناء والتشييد واستغلال الموارد المائية والنباتية والنظم الاجتماعية والحضارية... إلخ.

❋ ❋ ❋

الأصول الإسلامية للبيئة

يمكن حوصلة موضوع البيئة في الإسلام في ثلاثة أصول رئيسة هي:

الإنسان ـ الماء ـ الهواء

الأصل الأول: الإنسان:

فالإنسان الذي هو محور الرسالة الإسلامية قد وضح القرآن أموراً كثيرة تتعلق به يمكن أن تصاغ كلها في أمرين رئيسيين هما:

- أنه مستخلف في الأرض.
- أن الكون كله مسخر له.

وناتج الربط بين هاتين الحقيقتين هو إعمار الكون وصلاحيته للحياة واستمراريتها فوق هذا الكوكب، ولتوضيح هذه القضية المحورية في موضوع البيئة نذكر نظرة القرآن إلى هذين العنصرين وهما:

خلافة الإنسان في الأرض:

استخلف الله الإنسان في الكون ليدير موارده ويعمره ويظهر أسرار الله وقدرته في خلقه، وهي مهمة عظيمة أرادت الملائكة أن تختص بها وأرادها الله للإنسان تكريماً له ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2]، وقد ذكر صاحب التحرير والتنوير أن: «المراد من الخليفة

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٥.

المعنى المجازى وهو الذي يتولى عملا يريده المستخلف مثل الوكيل والوصي أي جاعل في الأرض مدبراً يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة لأن الله تعالى لم يكن حالاً في الأرض ولا عاملاً فيها العمل الذي أودعه في الإنسان وهو السلطة على موجودات الأرض، ولأن الله تعالى لم يترك عملاً كان يعمله فوكله إلى الإنسان بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقه أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان»[1] ومن هنا فإن الخلافة هي تكليف بمهمة الانتفاع بموجودات الكون يكون الإنسان فيها سيداً في الكون لا سيداً للكون فسيد الكون وحاكمه ومالك أمره هو الله سبحانه وتعالى، ولأن الإنسان هو أحد مخلوقاته قد تميز بالعقل فقد كرمه الله وأنعم عليه بنعمة الاستخلاف تمييزاً له عن غيره من المخلوقات: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[2] فالاستخلاف معناه أن الإنسان وصي على هذه الأرض بكل ما فيها وليس مالكاً لها فهو مدبر لمواردها ومستغل لخيراتها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[3].

وقد أثارت مسألة الخلافة قضية مهمة تتعلق بملكية الإنسان للموارد الطبيعية هل هي ملكية رقبة أم ملكية انتفاع ودارت مناقشات كثيرة مال فيها الكثير من الباحثين إلى أنها ملكية انتفاع وذلك للأسباب التالية:

١ ـ أن كثيراً من نصوص القرآن الكريم تضيف الملكية إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور/ التحرير والتنوير/ ج١/ص ٣٩٨/ الدار التونسية للنشر/١٩٨٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠.

(٣) سورة هود الآية ٦١.

فِيهِ﴾[1] ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2] ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾[3] ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾[4].

يقول الشيخ شلتوت: «إذا كان المال مال الله، وكان الناس جميعاً عباد الله، وكانت الحياة التي يعملون فيها ويعمرونها بمال الله وهي لله، كان من الضروري أن يكون المال ـ وإن ربط باسم شخص معين ـ لجميع عباد الله، يحافظ عليه الجميع وينتفع به المجتمع»[5].

٢ ـ أن وجود الإنسان في هذه الحياة مؤقت واستخلافه فيها مؤقت أيضاً ولذلك كان انتفاعه بمواردها مؤقت ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[6] وهذا التحديد الزمني للبقاء يترتب عليه تحديد للاستخلاف والانتفاع ومن هنا تبرز أحقية الأجيال المتعددة في الانتفاع بالموارد الطبيعية وضرورة أن يعي الإنسان هذه الحقيقة لكي يحفظ للأجيال التي بعده حقها في الانتفاع بما خلق الله في هذا الكون.

٣ ـ أن شعور الإنسان بملكيته الدائمة للموارد يثير فيه نوازع الأنانية ويدفعه إلى الفساد المؤدي إلى نضوب الموارد البيئية أو تدميرها وهو ما تشهده بيئتنا المعاصرة، ولذلك كانت تعاليم القرآن واضحة في النهي عن الفساد في الأرض ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[7] ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[8] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا

---

(١) سورة الحديد الآية ٧.
(٢) سورة النور الآية ٣٣.
(٣) سورة طه الآية ٦.
(٤) سورة المائدة الآية ١٢٠.
(٥) محمود شلتوت/الإسلام عقيدة وشريعة/ ص٢٥٧.
(٦) سورة البقرة الآية ٣٦.
(٧) سورة القصص الآية ٧٧.
(٨) سورة الأعراف الآية ٥٦.

قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾»[1].

من أجل ذلك عبر أحد الباحثين بقوله: «ولا نتجاوز روح التشريع الإسلامي إذا قلنا: إن القواعد والمبادئ الإسلامية المنظمة لاستخلاف الإنسان في الأرض ومضمونها، تنزل «حق الإنسان» على موارد الطبيعة من «حق الملكية» إلى مرتبة «حق الانتفاع» فقط، والذي تقل فيه سلطات صاحبه عن سلطات المالك، ولا يبدو هذا القول غريباً إذا عرفنا أن بعض فقهاء المذهب المالكي يرون أن الملكية بوجه عام لا ترد إلا على المنافع فقط، أما الأعيان، أي موارد وثروات البيئة والكون الذي خلقه الله فملكيتها لله سبحانه وتعالى ولا ملك للإنسان فيها في الحقيقة والواقع فهم يقولون أن سلطان الإنسان لا يكون على المادة، وإنما محله منافعها فقط وفكرة حق الانتفاع تبدو أكثر ملاءمة إذا روعيت القواعد الشرعية في إعماله، حيث تؤكد من ناحية أن موارد البيئة وثرواتها هي عطاء من الله للبشر وفضل، وبالتالي لن يكون الانتفاع قاصراً على شخص دون آخر ومن ناحية أن المنتفع لا يجوز له إهدار أو تدمير أصل أو عين المال الذي ينتفع به، لأن سلطة التصرف الشرعي في المادة لا تكون للمنتفع بل لمالك العين أو الرقبة»[2].

تسخير الكون للإنسان:

تشير آيات كثيرة في القرآن الكريم إلى أن الكون قد سخره الله سبحانه للإنسان أي طوعه وذلله ليستطيع الانتفاع به والتصرف فيه والسيطرة على موارده ليحقق من خلاله الخلافة التي خلقه الله من أجلها، يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤.

(٢) أحمد سلامة/حماية البيئة في الفقه الإسلامي/ مجلة الاحمدية/ مايو ١٩٩٨/دبي/ ص ٢٩٥.

كُلِ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾[1]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[2] ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[3] وهكذا تتوالى آيات القرآن الكريم في ذكر ما سخره الله للإنسان في الكون حتى تكاد تذكر كل شيء فيه عدا ما اختص الله به مخلوقات أخرى ليس للإنسان سيطرة عليها، وهذا التسخير نعمة من نعم الله على الإنسان إذ لولاه لما استطاع أن يستفيد من كثير مما خلقه الله على هذه الأرض، يقول صاحب الظلال: «إن الأرض كلها لا تبلغ أن تكون ذرة صغيرة في بناء الكون والإنسان في هذه الأرض خليقة صغيرة هزيلة ضعيفة بالقياس إلى حجم هذه الأرض وبالقياس إلى ما فيها من قوى ومن خلائق حية وغير حية لا يعد الإنسان من ناحية حجمه ووزنه وقدرته المادية شيئاً إلى جوارها ولكن فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه وتكريمه له على كثير من خلقه هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن في نظام الكون وحساب، وأن يهيئ الله له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ومن ذخائره وخيراته وهذا هو التسخير المشار إليه في الآية»[4].

---

(١) سورة النحل الآيات ١٠ ـ ١٤.

(٢) سورة الحج الآية ٦٥.

(٣) سورة البقرة الآية ١٦٤.

(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن/ط ٦/مج ٥/ص ٢٢٣.

ولبيان كيفية التسخير التي هيأها الله للإنسان يذكر الإمام الرازي أنه لكي يستطيع الإنسان استعمال البحر واستغلاله لابد له من ثلاثة أشياء لم تكن لتحصل لولا تسخير الله سبحانه وتعالى لها: الأولى الرياح التي تجري على وفق المراد، والثانية: خلق وجه الماء على الملامسة التي تجري عليها الفلك والثالثة: خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه، وهذه الأحوال الثلاثة ليس لها من موجد إلا الله سبحانه وتعالى[1].

إن نظرة في آيات التسخير الواردة في القرآن الكريم عامة كانت أو مفصلة تنبؤنا بأمور عدة منها:

١ ـ أن هذا التسخير المذكور في الآيات محدود بإرادة الله ولا يستطيع الإنسان مهما أوتي من قوة مادية أو علمية وتقنية أن يصل إلى الاستفادة منها إلا إذا أراد الله له ذلك: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾[2] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾[3]. وإدراك هذا المعنى يحد من أنانية الإنسان واستكباره في الأرض وادعائه التأله فيها، وكثير من أمور الحياة يقف الإنسان عاجزاً عن حل معضلاتها ومن ذلك الماء مثلاً الذي أصبح مشكلة العالم المستقبلية نظراً لنضوب موارده وعدم قدرة الإنسان على صنعه، ولذلك يستخدمه الله سبحانه وتعالى في تحدى الإنسان إذا أمعن في كفره وعناده: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠﴾[4]، وذلك بعد أن جعل الله الماء نعمة مسخرة للإنسان ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ

---

(١) تفسير الفخر الرازي: محمد بن عمر الرازي/ دار إحياء التراث العربي/ ج ١/ص ٤٠٢٣.

(٢) سورة الرحمٰن الآية ٣٣.

(٣) سورة الجاثية الآية ١٢.

(٤) سورة الواقعة الآيات ٦٨ ـ ٧٠.

بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

٢ ـ أنه على الرغم من التسخير الذي حفلت به آيات القرآن الكريم إلا أن الإنسان يجب أن يدرك أن هناك عوالم في هذا الكون ليس له سبيل إلى معرفتها وتظل مخفية عنه وخارجة عن سيطرته كالجن وغيرها من المخلوقات التي لا يستطيع الإنسان إدراكها وكذلك بعض الفيروسات والظواهر الطبيعية التي لم يسخر الله للإنسان طريقاً للتعامل معها، وهنا نشير إلى أن مسألة التسخير فضل من الله سبحانه وتعالى على الإنسان فما سخره له استطاع أن يستفيد منه وأن يعمر الكون من خلاله وما لم يسخر له كان عليه أن يقف أمامه مؤمناً بقدرة الله وعظيم صنعه.

٣ ـ إذا كان التسخير الإلهي لمظاهر الكون للإنسان نعمة فهي إذاً حق من حقوقه التي منحه الله إياها يستطيع من خلاله الانتفاع بكل ما فيها لصالح بناء مجتمعه ويعمر من خلالها الكون الذي يعيش فيه ويفيد الإنسان والمخلوقات التي تعيش معه على هذا الكون، كما أن هذا الحق يمتد ليشمل البحث العلمي عن خواصها وأسرارها وكل ما يستطيعه لتطوير مواردها لخدمة الإنسان ولعل النظر في آيات التسخير التفصيلية توضح هذه الحقوق بجلاء إذ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[2] ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾[3] ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4] ﴿أَلَمْ

---

(١) سورة ق الآية ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة عبس الآيات ٢٤ ـ ٣٠.
(٣) سورة ق الآيات ٧ ـ ٨.
(٤) سورة البقرة الآية ١٦٤.

تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾[1].

الأصل الثاني: الماء:

وهو معجزة إلهية عجز البشر حتى هذه اللحظة عن الوصول إلى صنعها على الرغم من أنها أساس الحياة في كل شيء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[2] ولأهميته في الحياة ودوره في كافة مكونات البيئة فقد استخدمه القرآن أداة في المحاورة العقدية فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3] كما استخدمه القرآن في تحدي البشر وردعهم عن تجاوز قدرة الله وعدم الاعتراف بنعمته فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[4] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[5] ولأنه أساس الحياة فقد منع الإسلام احتكاره وجعله مشاعاً بين الناس ففي السنة: «الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار»[6] كما نهى الإسلام عن تلويثه والإضرار بموارده، روى ابن ماجه أن النبي ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال له: «لا تسرف»، فقال: أوَفي الماء إسراف؟! قال: نعم وإن كنت على نهر جار»[7] ونهى رسول الله ﷺ: «أن يبال في الماء الجاري»[8].

وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من القضايا التي تتعلق بالماء

---

(١) سورة الزمر الآية ٢١.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٢.
(٤) سورة الملك الآية ٣٠.
(٥) سورة الواقعة الآية ٦٨ ـ ٧٠.
(٦) رواه أبو داود/ ج٢/ص٥٣.
(٧) رواه ابن ماجه.
(٨) رواه الطبراني بإسناد حسن.

والتي لها ارتباط بحياة الإنسان وخلافته في الأرض نذكر منها ما يلي:

١ ـ أنه أساس في حياة كل كائن حي: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[١] تقول الدراسات «أن نسبته في أجسام الأحياء النشطة تصل إلى ٩٠٪ فهو الذي يحمل الغذاء والهواء إلى هذه الأجسام وهو في ذات الوقت المخلص لها من النفايات الضارة»[٢].

٢ ـ أن نزوله إنما يكون بقدر بحيث يحدث التوازن الذي لا يضر الكائنات الحية فلو زاد نزوله لغرقت الأرض وأتلفت النباتات وصار مشهد الحياة مضطرباً كما هو الحال في الفيضانات والأعاصير المدمرة التي يشهدها العالم الآن، ولو قل نزوله لشحب وجه الأرض وتشقق وماتت النباتات والحيوانات كما يحدث في المناطق التي تصاب بالجفاف والتصحر ولذلك فحكمة الله وإرادته اقتضت أن يكون نزوله بقدر حيث قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[٣] ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[٤]، ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[٥].

٣ ـ يشير القرآن إلى أن الماء قد يكون عقوبة لمن كفر بآيات الله وأعرض عن إيمانه وتحدى قدرته: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[٦] وقد يكون مكافأة للإنسان إذا التزم بأوامر الله واتبع تعاليمه. ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾[٧].

٤ ـ يذكر القرآن الماء كأحد المعجزات الكبرى التي خلقها الله سبحانه

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٠.
(٢) د. محمد منير حجاب/ قضايا البيئة من منظور اسلامي/ دار الفجر/ القاهرة/ص٥٧.
(٣) سورة المؤمنون الآية ١٨.
(٤) سورة الرعد الآية ١٧.
(٥) سورة الزخرف الآية ١١.
(٦) سورة القمر الآية ١١ ـ ١٢.
(٧) سورة الجن الآية ١٦.

وتعالى ويقرنها مع دلائل أخرى تشير إلى عظيم صنعه فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾[1].

الأصل الثالث: الهواء:

لا نريد التعرض للتركيبة العلمية للهواء وما يتضح فيها من دقة في الخلق وتوازن في العناصر تدل على عظمة الخالق وعظيم صنعه، ولا نريد التحدث عن الغازات والعناصر والمركبات الكيميائية وكيفية تناغمها حتى تنتج هواءً نقياً لا تستقيم الحياة ولا توجد بدونه في كل مكونات البيئة ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2] ولكن الذي تجب الإشارة إليه هو أن المخلوط الغازي المسمى بالهواء عنصر أساس في حياة الكائن الحي كالماء لا يمكن أن يحيا الإنسان أو الحيوان أو النبات بدونه، وهو عرضة للتلوث بفعل التعامل البشري الخاطئ بما يستعمله الإنسان أو ينتجه من غازات وأبخرة تجعله غير صالح للحياة ومؤثر فيها سلباً وهو ما يهدد الحياة على وجه الأرض، ويشهد العالم المعاصر مشكلات كبرى ناتجة عن تلوث الهواء بسبب عدم قدرة الإنسان على ضبط تعامله مع محيطه وهو ما أشار إليه القرآن حين قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[3] ولذلك وحماية من الإسلام للبيئة فقد أمر بالاعتدال في السلوك حين التعامل مع الطبيعة خاصة ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4].

والناظر للتركيبة العلمية للغلاف الجوي المحيط بالأرض يدرك معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا

(١) سورة لقمان الآية ١٠.
(٢) سورة النمل الآية ٨٨.
(٣) سورة الروم الآية ٤١.
(٤) سورة البقرة الآية ٦٠.

مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1] فالله سبحانه وتعالى خلق لهذا الكوكب ما يحفظه من المؤثرات التي لو أصابته لانتهت الحياة فوقه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾[2] ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[3] وما يشهده عالمنا من أخطار طبقة الأوزون دليل على ذلك، والتي يلعب الإنسان دوراً رئيساً فيها بما يحدثه من تدمير للبيئة وتلويث لمكوناتها مما يتسبب عن تصاعد أبخرة ودخان يدمر توازنات العناصر الهوائية، ولذلك جعل القرآن الدخان من العذاب الأليم حين قال: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[4].

وهكذا نجد أن البيئة بأصولها ومكوناتها المختلفة حاضرة في القرآن الكريم للدلالة على قدرة الخالق وبديع صنعه ولإثبات ضعف المخلوق وعدم قدرته حتى على المحافظة عليها، وحاضرة في صون القرآن لها بالأوامر والنواهي التي تحفظها من أنانية الإنسان واستغلاله السيئ لها، ومن هنا يتبين أن الإسلام قد اهتم بالبيئة من خلال منظومة فكرية متكاملة تجمع مختلف الجوانب العقدية والاقتصادية والاجتماعية.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٢.
(٢) سورة الفرقان الآية ٢.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٩١.
(٤) سورة الدخان الآيتان ١٠ ـ ١١.

الديانات والبيئة

إذا كان ما قدمته سابقاً يؤكد على اهتمام الإسلام بالبيئة ونظرته إلى سلامتها والمحافظة عليها نظرته للحياة ذاتها، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو هل كل أصحاب الديانات الأخرى كانت لديهم هذه النظرة وهل كان لهم دور في المحافظة على البيئة انطلاقاً من عقائدهم وقيمهم كما هو الحال في الإسلام؟ العالم المعاصر كله يمثل إجابة لهذا السؤال فمعظم ملوثات البيئة في عالمنا مصدرها العالم الغربي وهو الذي يمثل افتراضاً العالم المسيحي فهل انفصل المسيحيون عن ثقافتهم الدينية فلم يعد لديهم وازع ديني يحكم سلوكياتهم؟ أم أن المسيحية ذاتها لم تتضمن ما يحد من تطلعات الإنسان النفعية والتي وصل مداها إلى دمار البشرية وأصبحت الكرة الأرضية كلها مهددة بأخطار التلوث الناتج عن الآلة الغربية التي أطلق العلم الحديث مداها حتى طالت قضايا لم نكن نتصور أنها ستخرج من عالم الخيال إلى عالم الواقع.

يدور جدل كبير حول هذه القضية في الأوساط الثقافية العالمية، فهناك من علماء البيئة العلمانيون من يقول: «إن مؤرخين وفلاسفة وعلماء بيئة يتجادلون في قضية أن المسيحية هي التي تتزعم جناية العالم المعاصر على البيئة بتسويغها خراب الأرض»[1] وهناك من يقول: «إن العلماء الغربيين تتبعوا جذور أزمتنا البيئية وأرجعوها إلى الموقف اليهودي المسيحي من الطبيعة فإن هذا الموقف وما يصاحبه من ميراث تقليدي وثقافي هو المسؤول عن الأخطار الموضوعية التي تهدد المستقبل الإنساني ألا وهي:

١) انطلاق التكنولوجيا الموجهة إنتاجياً والذي أدى بدوره إلى نضوب موارد الأرض الطبيعية.

---

(١) Mennonite Central Committee Worldly Spirituality (Harper and Row. 1984).

٢) الضغط الكلي والفردي على الأرض والبيئة.

٣) الزيادة المستمرة في المخلفات.

٤) المخزون من الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية الذي يكفي لتدمير الأرض بضع مرات.

إن كل اتجاه من تلك الاتجاهات يمثل خطراً رئيسياً يهدد رخاءنا الجماعي بل وبقاءنا، ويحاول علماء أمثال فرايزر دارلنج وثيودور روزال وجوفرى نيكرز ولين وايت الصغير أن يبرهنوا أن هذه المخاطر ما هي إلا نتاج النظام الأخلاقي الغربي، وجذور أزمتنا الأيكلوجية بديهية فهي تكمن في معتقداتنا وكياناتنا القيمية التي تشكل بدورها علاقاتنا بالطبيعة وعلاقة كل منا بالآخر وكذلك تشكل الأنماط الحياتية التي نعيشها»[١].

وفي المقابل فإن هناك من رجال الدين اليهود والمسيحيين من يرى أن الأديان جميعاً قد احتوت ما يوجه الإنسان إلى المحافظة على البيئة وأن دور الأديان في حماية البيئة المعاصرة مهم جداً كما جاء في ورقة الحاخام دانيال برنير المقدمة إلى مؤتمر الدوحة الرابع لحوار الأديان والتي طالب فيها بالتصدي الفوري للمخاطر البيئية التي تحيط بالأرض وضرورة استخدام التكنولوجيا من أجل خير البشر مشيراً أن الله قد دعا المؤمنين إلى الاهتمام بالأرض، وأن الزعماء الدينيين مطالبون بالضغط على الحكومات لدرء الحروب التي تدمر البيئة وفي نفس السياق وفي ذات المؤتمر أشار الدكتور/مرون عازار أمين سر كلية اللاهوت الحبرية في جامعة روح القدس بلبنان إلى أهمية بناء الإنسان لحماية البيئة مذكراً بما قاله البابا بولس السادس سنة ١٩٧٢ مسيحي، من ضرورة احترام الطبيعية والتشديد على المسؤولية الجماعية في حماية البيئة»[٢].

وإذا كانت الإشارات السابقة قد انطلقت من الواقع رابطة بينه وبين

---

(١) ضياء الدين سردار/ نحو نظرية إسلامية عن البيئة/ ترجمة سمية البطراوي/ مجلة المسلم المعاصر/ س١٥/ ع٥٩/١٩٩١/ص٧٧ ـ ٧٨.

(٢) مؤتمر الدوحة الرابع لحوار الأديان/٢٥ ـ ٢٧/ إبريل//٢٠٠٦ قطر.

القيم الدينية للإنسان الغربي، فإن هناك تحليلاً أعمق يحاول فيه العلامة (محمد باقر الصدر) أن يقارن بين الإنسان الشرقي والأوروبي من حيث تغلغل القيم الدينية في كل منهما وأثر ذلك في تعاملهما مع المكونات الحياتية المختلفة فيقول: «يختلف الإنسان الأوروبي عن الإنسان الشرقي اختلافاً كبيراً فالإنسان الأوروبي بطبيعته ينظر إلى الأرض دائماً لا إلى السماء وحتى المسيحية ـ بوصفها الدين الذي آمن به هذا الإنسان مئات السنين ـ لم تستطع أن تتغلب على النزعة الأرضية في الإنسان الأوروبي بل بدلاً عن أن ترفع نظره إلى السماء استطاع هو أن يستنزل إله المسيحية من السماء إلى الأرض ويجسده في كائن أرضي» «ولقد استطاعت النظرة إلى الأرض لدى الإنسان الأوروبي أن تفجر طاقاته في البناء وأدت أيضاً إلى ألوان التنافس المحموم على الأرض وخيراتها ونشأت أشكال من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان لأن تعلق هذا الكائن بالأرض وثرواتها جعله يضحي بأخيه ويحوله من شريك إلى أداة، وأما الشرقيون فأخلاقياتهم تختلف عن أخلاقيات الإنسان الأوروبي نتيجة لتاريخهم الديني فإن الإنسان الشرقي الذي ربته رسالات السماء وعاشت في بلاده ومر بتربية دينية على يد الإسلام ينظر بطبيعته إلى السماء قبل أن ينظر إلى الأرض ويأخذ بعالم الغيب قبل أن يأخذ بالمادة والمحسوس وهذه الغيبية العميقة في مزاج الإنسان الشرقي المسلم حدت من قوة إغراء المادة وقابليتها لإثارته»[1].

إن ما قدمته سابقاً لا يعنى على الإطلاق خلو الأديان الأخرى غير الإسلام من قيم ونصوص تحترم البيئة وتدعو إلى المحافظة عليها، فالعهدين الجديد والقديم يحتويان الكثير مما يشير إلى ضرورة المحافظة على مكونات البيئة ودور الإنسان في حمايتها، والأدعية الزرادشتية مشحونة بالثناء على الجبال والأنهار والمحيطات وجميع الأرض ومخلوقاتها، ومن بين تعاليم الزرادشتيين المعاصرين أن كل بذرة وردة تختص بملاك، كما أن الطبيعة في الديانتين الهندوسية والزرادشتية تأخذ

(١) محمد باقر الصر/ منابع القدرة في الدولة الإسلامية/ دار التعارف.

شكل الاحترام الكامل الذي يتحول في النهاية إلى تطرف ليصل إلى العبادة[1].

إن الإشكالية البيئية المعاصرة ليست في النصوص الدينية عند مختلف الأديان وإنما الإشكالية مرتبطة بانفصال الإنسان الغربي ـ المتهم الأول بتدمير البيئة ـ عن ثقافته الدينية وعدم التزامه بعقائد وأخلاق المسيحية واليهودية، وهذا ما تناوله المؤتمر الكبير الذي نظمه الصندوق العالمي لحماية البيئة في مدينة (بأكتابور) القديمة في نيبال والذي حضره ممثلون لإحدى عشرة ديانة كبيرة في العالم، وقد أكد الأمين العام لمنظمة تحالف الدين والحفاظ على البيئة أن جميع الديانات بها تعاليم بيئية أبرزها المؤتمر وقد تعهد ممثلو الديانات المشاركة باتخاذ إجراءات مناسبة من أجل حماية الكرة الأرضية[2].

إننا ونحن نعرض هذه الصورة عن نظرة الديانات إلى البيئة نشعر بأن الإسلام من خلال عقائده وقيمه ومثله وثقافته المأخوذة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أكثر احتراماً للبيئة وأكثر محافظة عليها وذلك لأن الإسلام دين إنساني يحترم الإنسان ويقدسه ويسهل له كل ما يؤدي إلى استغلال الموارد البيئية دون تفريط أو إهدار لهذه الموارد، وهذا يرتب علينا مهمة كبيرة في التبشير به وبدوره في حل مشكلات البشرية المعاصرة.

❊ ❊ ❊

(١) د. مصطفى المحقق/ مسؤلية الحاكم المسلم إزاء المحافظة على البيئة.
(٢) رجال الدين يتعهدون بالحفاظ على البيئة/بي بي سي أونلاين

صدى البيئة في الحضارة الإسلامية

أولاً: البيئة في منظور السنة النبوية:

اهتمت السنة النبوية كثيراً بموضوع البيئة، وتردد صداها في كثير من الأحاديث التي حثت المسلمين على احترام الكائن الحي وما يحيط به من نبات وأشجار ومصادر مياه متنوعة، ويمكن تقسيم موضوعات البيئة في السنة النبوية إلى القضايا التالية:

١ ـ المسؤولية الجماعية والمشتركة في المحافظة على التوازن البيئي وعدم العبث بالموارد الطبيعية وحفظ حق الأجيال في استغلالها واعتبار أن الحياة مسؤولية عامة إذا أخل بها نفر سار ضرره على الباقين، فعن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»[1].

وهذا الحديث يوضح مبدأً مهماً في الشريعة الإسلامية وهو أن حرية الفرد مرهونة بما يلحق الآخرين من ممارستها فمتى ما لحق بالآخرين ضرر منع الفرد من مزاولة ما يريده وانعكاسات ذلك في مجال البيئة كثيرة فالمزارع ممنوع من أن يستعمل الأدوية والمبيدات الضارة بصحة الإنسان والحيوان حتى ولو كانت هذه تمكنه من زيادة إنتاجيته ودخله، وكذلك الصانع وغيره من الحرف التي تستغل الموارد الطبيعية، وهذا التوجيه النبوي يشرع أخلاقيات سامية في التعامل مع الطبيعية ومواردها وفي الحفاظ عليها ومنع أنانية الأفراد من تملكها والعبث بها.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشركة تحت رقم ٢٤٩٣.

٢ ـ الحث على الغرس واستغلال الأرض:

أمر الرسول ﷺ المؤمنين في أحاديث كثيرة بالاهتمام بغرس الأشجار واستغلال الأرض وجعل ذلك من القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، فعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة»[١].

وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال: «من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل»[٢].

وتعتبر السنة النبوية أن مهمة الغرس والزرع واستغلال الأرض من المهام المستديمة للإنسان حتى ولو أشرفت هذه الدنيا على النهاية، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»[٣] وهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي وردت في ذات الموضوع توضح أن غراسة الأرض وزراعتها واستغلال الموارد الطبيعية مبدأ من مبادئ التشريع الإسلامي المؤدية إلى المحافظة على البيئة إذ كما نعلم أن اخضرار الأرض بأشجارها وزروعها مصدر من مصادر المحافظة على بيئة صحية ونظيفة.

٣ ـ الاهتمام بموارد المياه:

من الموضوعات البارزة في السنة النبوية المحافظة على مصادر المياه خاصة من التلوث، وعدم الإسراف في استعمال المياه، فقد نهى الرسول ﷺ عن تلويث المياه في الحديث الذي رواه أبو هريرة أنه سمع رسول ﷺ يقول: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه»[٤]، وأمر الرسول ﷺ بالمحافظة على مياه الشرب في أوانيها

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب ح ٥٦٦٦.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه ابن حميد في مسنده ج١/ص٣٦٦/ح ٦٢١٦.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء.

حتى لا يصيبها ما يلوثها، فعن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء»[1].

٤ ـ المحافظة على الحيوان:

للحيوان حرمة في التشريع الإسلامي باعتباره كائناً حياً خلقه الله وسخره لخدمة الإنسان فلا يجوز أن يعبث به أو أن يسيء معاملته إلا في أحوال نادرة كما إذا مثل الحيوان ضرراً على حياة الإنسان، وقد تناولت السنة النبوية موضوع حماية الحيوان في أحاديث كثيرة نذكر منها الحديث الذي رواه المغيرة أن النبي ﷺ مر على نفر من الأنصار يرمون حمامة فقال: «لا تتخذوا الروح غرضاً»[2]. وروي أن النبي ﷺ قال: «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة»[3]، وترسم السنة النبوية صورتين للتعامل البشري مع الحيوان في جانبين أحدهما سلبي والآخر إيجابي وتوضح جزاء كلا الصورتين عند الله سبحانه وتعالى حثاً على اتباع الصورة الإيجابية ونهياً عن الوقوع في الصورة السلبية، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له». قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[4]، وفي الصورة المعاكسة يروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار». قال:

---

(١) رواه مسلم في باب الاشربة ح٥٣٧٤٢.
(٢) رواه الطبراني في معجمه الكبير ج٢٠ ص٣٨٦ح٩٠٥.
(٣) رواه النسائي وابن حبان.
(٤) رواه البخاري في باب المساقاة.

فقال والله أعلم: «لا هي أطعمتها ولا سقتها حين حبستها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض»[1]، وهكذا تبين السنة النبوية أن التعامل مع الحيوان يمكن أن يفتح طريقاً إلى الجنة ويمكن أن يوقع صاحبه في النار.

٥ ـ العناية بالنظافة العامة:

حثت السنة النبوية المؤمن على أن يكون نظيفاً طاهراً وأن يهتم بنظافة محيطه مسكناً كان أو شارعاً وربطت ذلك كله بالأجر العظيم عند الله سبحانه وتعالى: ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وستون ـ أو سبعون ـ شعبة، أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله»[2]، ويقول ﷺ: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر الله وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامي فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»[3] ويقول ﷺ: «البصاق على المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»[4] ويقول ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[5].

٦ ـ الوقاية من الأمراض:

على الرغم من أن الأمراض والأوبئة هي قضاء وقدر يصيب المجتمعات والأفراد إلا أن الرسول ﷺ نبه المؤمنين إلى ضرورة المحافظة على وقاية أنفسهم من خطورة الأمراض وخاصة المعدية منها،

---

(١) رواه البخاري في باب المساقاة/ ح٢٢٣٦.

(٢) متفق عليه.

(٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري/دار إحياء التراث العربي ـ بيروت/ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي/ج ٢/ص ٦٩٨/ح ١٠٠٧.

(٤) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي/تحقيق: شعيب الأرناؤوط/ مؤسسة الرسالة ـ بيروت/ الطبعة الثانية /١٤١٤ ـ ١٩٩٣/ج ٤/ص ٥١٦/ح ١٦٣٧.

(٥) رواه أحمد في مسنده.

وأن سياسة العزل واجبة الاتباع في المجتمعات الإسلامية إذا تعرضت لأخطار الأوبئة وفي ذلك يقول ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح»[1]، ويقول أيضاً: «إذا سمعتم بالوباء بأرض فلا تقدموا إليه فإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه»[2].

هذه نماذج فقط من التوجيهات النبوية الكثيرة التي تمتلئ بتفصيلاتها كتب الحديث والتي تناولت أموراً غاية في الدقة مما له علاقة بتوجيه المسلم إلى العناية بنفسه ومحيطه وإرشاده إلى أن المحافظة على نعم الله التي أنعم بها على خلقه هي جزء من مرضاة الله سبحانه وتعالى ولذلك فإن الماء والهواء والأشجار والحيوان هي مصادر مهمة للحياة يستخدمها الإنسان في حياته وينفذ من خلالها إلى مرضاة ربه إن هو حافظ عليها وحافظ على حقوق الآخرين فيها، وينال سخط الله وغضبه إن عبث بها ومنع الآخرين من الاستفادة منها.

❋ ❋ ❋

(١) صحيح البخاري ح ٥٤٣٧.
(٢) صحيح البخاري ح ٥٣٩٧.

الاجتهاد الفقهي في مجال البيئة

أولى فقهاؤنا القدامى البيئة اهتماماً كبيراً ترجم ما أمر به القرآن الكريم في نصوص تشريعية تناولت قضايا متعددة ذات صلة بالأرض واستغلالها والحيوانات وحمايتها وغير ذلك من الأمور التي تحقق كل نفع للإنسان وتمنع عنه كل ضرر، وإذا جاز لنا أن نذكر أمثلة لذلك فإننا نذكر ما صاغه الإمام مالك والإمام أبو حنيفة من مبادئ حول عدم شرعية ممارسة الحق المؤدي إلى ضرر وخاصة فيما يتعلق بملاك الأراضي واستعمالاتهم لها المؤدية إلى الإضرار بالآخرين، وكذلك ما وضعه أبو يوسف من قيود على حقوق الأفراد والسلطات في زراعة الأرض البكر حين تسفر عن ضرر بالغ، ومثل ذلك ما وضعه ابن قدامة من قيود على استخراج المياه الجوفية إذ ليس للإنسان الحق في أن يؤثر على بئر جاره تأثيراً سيئاً عن طريق خفض النطاق المائي أو تلويث الطبقة الصخرية المائية[1]، وتحدث الفقهاء بتفصيلات دقيقة عن المياه والطهارة بجميع أنواعها شخصية كانت أو بيئية، كما تحدثوا عن النباتات والزروع وما يتعلق بها من أحكام تحميها من القطع والإفساد، وتحدثوا عن إحياء الأرض الموات وما يؤدي إلى ذلك من حماية للنظام البيئي وتوازنه، وتناولوا أيضاً الكثير من القضايا التي تعالج مسألة التلوث وآثارها الضارة بالإنسان والمجتمع ومن ذلك مثلاً التلوث السمعي الذي عالجه الفقهاء كأحد الأضرار التي يجب أن تدفع عن الإنسان حيث يقول أحد الباحثين في ذلك: «وقد قسم الفقهاء الضرر الناتج عن الأصوات إلى قسمين: ضرر يجب درؤه، وضرر يمكن احتماله.

ومثال القسم الأول: الأصوات والذبذبات الناتجة عن حركة البوابات إذ إنها تؤثر على سلامة المباني المجاورة لها. يروى ابن الرومي

---

(١) ضياء الدين سيدار/ نحو نظرية إسلامية عن البيئة/ تزكية البطراوي/ مج المسلم المعاصر/ س ١٥/ ع٥٩ ١٩٩٤/ص ٨٧ وما بعدها.

(توفي عام ١٧٩هـ) في كتابه (الإعلان بأحكام البنيان) أن مجموعة من الناس أقاموا بوابة لحارتهم، يفتح بابها على حائط جار لهم، فقاضاهم هذا الرجل بدعوى أن فتح الباب وغلقه المستمرين قد أضرا به وأقلقا راحته، فتحري ابن الرومي الأمر ووجد الحائط يتذبذب من جراء فتح الباب وغلقه فأمر القاضي بهدم البوابة وإزالة بابها.

أما القسم الثاني: من الضرر فينتج عن الأصوات التي تسبب الضيق دون الضرر. وقد اختلف الفقهاء في حكمهم عليه. فلم يعتبره الفقهاء الأوائل ضرراً يجب درؤه. فالمطرف وابن الماجشون والأصبغ رأوا عدم إيقاف الغسال والضراب لمجرد أن ضوضاء عملهما تقلق الجيران، بل ذهب ابن القطان إلى عدم جواز منع أحد من ضرب الحديد في منزله وإن كان يفعله ليل نهار بشرط أن يعتمد معاشه على ذلك، أما من لحقهم من الفقهاء فقد كان لهم رأي مغاير، فاعتبروا الصوت والصدى ضوضاء ومصدراً للضرر يجب درؤه. فقد وضع قضاة طليطلة ـ حسب رواية ابن الرومي ـ قواعد صارمة لمنع وجود الكمادين لما يسببون من ضرر وضيق للجيران بما يصدر عنهم من أصوات. كما أعرب القاضي ابن عبد الرافع في تونس عن تفضيله منع بناء حظائر الحيوانات متاخمة للمباني لما تسببه حركة الحيوانات الدائمة أثناء الليل والنهار من إزعاج قد يمنع الجيران من النوم»[1].

لقد تأسس الاجتهاد الفقهي في مجمله وفي موضوع البيئة بصورة خاصة على جملة من القواعد التي احتواها علم أصول الفقه والذي بين فيه الأصوليون أن أحكام الشريعة إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد في الحياة وبعد الممات وذلك انطلاقاً مما قررته آيات القرآن الكريم وبينته سنة الرسول الأمين ﷺ، ويمكن أن نشير هنا إلى قضيتين أساسيتين لهما صلة بموضوع البيئة:

الأول: بين الأصوليون أن الشريعة الإسلامية جاءت لتحقيق

(١) م. محمد عبد القادر الفقهي مكتبة ابن سينا القاهرة/البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث (رؤية إسلامية)/ص ٨٦.

الضروريات الخمس: حفظ النفس، حفظ النسل، حفظ المال، حفظ العقل، حفظ الدين، وتحقيق هذه الضروريات يحدث أثرا مهما في خلق بيئة سليمة تحقق الخلافة التي خلق الله الإنسان لأجلها، فمن اختلت عقيدته لا يستطيع كبح جماح شهواته في الاستئثار بالموارد الطبيعية واستغلالها لصالحه ومنع الآخرين من استغلالها، وكذلك سيكون أداة إفساد في الأرض لعدم وجود الوازع الديني الذي يوقف سيطرته وأنانيته كما هو حاصل في عالمنا المعاصر الذي يمتلئ بالشواهد الحية على ذلك، ومثل ذلك المحافظة على النفس التي حرم الله قتلها وجعله قتلاً للبشرية كلها فالشريعة الإسلامية تأمر باحترام النفس الإنسانية وتكرمها وتجعل المحافظة عليها قاعدة أساسية في التشريع الإسلامي، على عكس ما نرى في عالمنا المعاصر من استهانة بالنفس حيث تقذف المصانع كل يوم آلاف الأطنان من المواد التي تجلب الكوارث على النفس البشرية في مجالات الزراعة والصناعة وغيرها من المجالات الخدمية المختلفة، ومثل ما قيل في المحافظة على النفس يقال في المحافظة على النسل الذي بينت نصوص كثيرة أن المحافظة على الأجيال القادمة هو محافظة على النوع الإنساني، وأن حق هذه الأجيال في الموارد الطبيعية ثابت لا يحق لأحد العبث به، ولكننا نرى في عالم اليوم أن الآخرين الذين افتقدوا الوازع الديني قد اعتدوا على الأجيال القادمة إما بصب أطنان من القنابل مختلفة الأنواع والأحجام على عدد من بلدان العالم في حروب مدمرة سيكون أحد نتائجها وجود أجيال مشوهة ومصابة بالعديد من الأمراض الفتاكة، وإما بتدمير الموارد الطبيعية واستنزافها بما يحرم الأجيال القادمة منها ويجعلها في أزمات لا مخرج منها.

ويصدق كل ذلك على حفظ العقل الذي أمرت الشريعة الإسلامية بالمحافظة عليه ليحقق للإنسان السعادة بما ينتجه من منافع لصالح البشرية حين يحلق في أجواء العلم والمعرفة بأخلاقيات تبعده عن أن يكون أداة فساد وعبث بمقدرات البشرية ولسنا نعدم شواهد لما تنتجه عقول معاصرة من مخترعات أضرت بالجنس البشري لأنها افتقدت التوجيه الديني السليم، وتتكامل منظومة الضروريات الخمس هذه

بالمحافظة على المال الذي جعله الله وسيلة للحياة ينتقل بين الأفراد تنقل انتفاع بما يجعله مشاعاً بين مختلف الأجيال، ويشمل المال كل ما خلق الله من موارد سخرها الله للإنسان للانتفاع بها وقد حددت الشريعة الإسلامية كافة الضوابط التي تمكن الإنسان من المحافظة على المال وتسخيره لمصلحة الإنسان.

الثاني: أن كثيراً من الأحكام الفقهية في مجال البيئة خاصة وفي معظم القضايا الحياتية بصورة عامة قد أسست على قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» وهي مأخوذة من نص حديث مشهور عن النبي ﷺ قال عنه أبو داود إنه أحد خمسة أحاديث يدور عليها الفقه، ومعنى الحديث: أن تستعمل حقك بحيث لا تضر بالآخرين، وهو ما يمكن أن ينعكس في أحكام كثيرة تتعلق بالبيئة، وقد تفرعت عن هذه القاعدة قواعد أخرى ذكرها العلماء ومنها:

- الضرر يزال بقدر الإمكان.
- الضرر لا يزال بضرر مثله.
- يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى.
- درء المفاسد أولى من جلب المنافع.
- إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما[1].

وهذه القواعد كلها قد أسست عليها أحكام كثيرة في مجالات الحياة المختلفة منعت المسلم من الإساءة إلى الآخرين وقيدت أنانيته في استغلال الموارد وفي التمتع بالخيرات، والمتتبع لهذه القضايا في الفقه الإسلامي يمكن أن يكون منها موسوعة فقهية بيئية تشمل الكثير من المعالجات للقضايا البيئية المعاصرة.

إن الباحث في الموسوعة الفقهية الإسلامية على مختلف مدارسها

---

(١) د. يوسف القرضاوي/ رعاية البيئة في شريعة الإسلام/ دار الشروق/ط ٢/٢٠٠٦/ص ٤٠.

سوف يجد إسهاماً كبيراً لفقهائنا ينظم العلائق بين الإنسان ومحيطه البيئي بما يتناسب وبساطة البيئة التي عاشها هؤلاء الفقهاء ولذلك فإن بيئة التدوين الفقهي التي لم تشهد معاناة بيئة اليوم من التلوث والفساد البيئي المتنوع الذي خلفته أنانية الإنسان قد شهدت اجتهاداً فقهياً يلبي حاجة تلك البيئة مما يجعلنا نؤكد أن الاجتهاد في مجال البيئة كان سمة بارزة من سمات الثقافة الإسلامية، وأن فقهائنا قد أولوا البيئة اهتمامهم مما انعكس في صورة أحكام تأخذ في اعتبارها حتى الافتراضي الذي يتوقع أن يمارسه الإنسان جراء أنانيته وسيطرة الحياة المادية عليه.

أما إذا نظرنا إلى عالم اليوم وما فيه من تعقيدات الحياة وأثر ذلك في الإضرار بالبيئة فإننا لا نجد ما يلبي حاجتنا من اجتهادات فقهية تحرم أو تحلل الكثير من الممارسات الإنسانية الضارة بالبيئة حتى تلك التي يعتقد أنها لصالح الإنسان ذاته، أي بمعنى أن الاجتهاد المعاصر لم يرق إلى مستوى تطور الحياة وتنوعها وتعقيداتها في معظم المجالات والبيئة واحدة منها، ولذلك صارت الكثير من القضايا المعاصرة تمثل تحدياً لفقهائنا الذين لم يستطيعوا تقديم الحلول الناجحة لها لأسباب متعددة نذكر منها:

١ ـ الموقف من الاجتهاد ذاته بفتحه أو غلقه كما يعبر الكثيرون مما أثر سلباً على كثير من العلماء الذين ألجموا عن الولوج في ميدان الاجتهاد بمبررات متعددة الأمر الذي ضيق التفكير الفقهي وجعله لا ينفك عن المسائل التي تناولها أئمة المدارس الفقهية مما عطل الكثير من القضايا التي ينتظر الشارع المسلم رأياً شرعياً فيها.

٢ ـ عدم تجدد منهجية الاجتهاد عند أولئك الذين شعروا بأهمية الاجتهاد ولم يهتموا بمن يمارس الوصاية عليه ويقول بغلقه، فالمنهجية التي اتبعوها لا تخرج عن قياس المسائل المعاصرة على أقرب صورها المذكورة في كتب الفقه مما يعني أن النوازل المعاصرة التي لا يتوافر لها مقاربات تقاس عليها ستظل مشكلات فقهية معاصرة تنبئ عن مشكلات اجتماعية وتنبئ عن قصور فقهي لا نرتضيه لشريعتنا التي نفاخر بأنها تملك أعظم موسوعة فقهية

شهدها التاريخ البشري، ولسنا نعدم أمثلة لهذه المشكلات فمجتمع الأقليات المسلمة يعاني الكثير، والظواهر العلمية الجديدة تغرقنا في بحر من الجدليات التي تظهر بوضوح مدى الحاجة إلى تحديد منهجية الاجتهاد المعاصر بما يلائم تحديات العصر.

٣ ـ الاجتهاد في مجال البيئة ـ وخاصة المعاصرة ـ يحتاج إلى ثقافة علمية تشمل علوماً تقنية متعددة وذلك حتى يستطيع المجتهد أن يدرك حقيقة الواقعات أو النوازل التي يريد أن يفتي فيها، ولا أعتقد أن كليات الشريعة في عالمنا الإسلامي قد أدرجت في مناهجها ما يؤهل المتخرج منها لأن يؤدي دوره في مجال الاجتهاد المعاصر، وحتى المؤلفات التي بينت شروط المجتهد لم تجعل من بينها (معرفة الواقع) وقد تنبه إلى ذلك عدد من فقهائنا القدامى والمعاصرين الذين أشاروا إلى خطورة جهل المجتهد بالواقع ومعرفة أحوال الناس، ومن هنا نقول إننا لا نتوقع لمجتهد معاصر أن يدرك أخطار التلوث الذي ينشأ في الهواء الخارجي نتيجة غازات تصدر من مصنع لمسلم يظن أنه يرتزق حلالاً من خلال هذا المصنع، ولا يمكن لمجتهد معاصر أن يدرك أخطاراً تترتب على أسمدة يضعها فلاح مسلم يظن أنه يصل بها إلى مستوى من الإنتاج يخدم به مجتمعه، وذلك لأن هذا المجتهد لم يدرس هذه القضايا وتقييمه لها لا يزيد على تقييم مثقف عادي.

٤ ـ عدم شيوع مؤسسات للاجتهاد الفقهي الجماعي ـ كمجمع الفقه الإسلامي مثلاً ـ والتي تغطي العجز الناتج في إعداد الكوادر الفقهية وذلك بما تنتجه من انضمام مختصين في مجالات العلوم المختلفة، يوضحون حقائق القضايا المعروضة للاجتهاد وبصورة علمية دقيقة، وتتحقق من خلالهم ومن الفقهاء معهم شورى الاجتهاد الفقهي التي نحن في أمس الحاجة إليها في عالمنا المعاصر.

٥ ـ نخلص من ذلك كله إلى أن الاجتهاد الفقهي المعاصر في مجال البيئة لا يتناسب مع حجم التحديات الكبرى التي تحتويها البيئة المعاصرة وأننا بحاجة إلى التأكيد على أننا قادرون على هذا الاجتهاد بما نملكه من قاعدة نصية واسعة يحتويها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتراثنا الحضاري، والحاجة فقط إلى تطوير مناهجنا بما يمكننا من النظر في المشكلات المعاصرة بعلمية وسعة أفق.

ولعله من المناسب أن أشير هنا إلى أمرين مهمين يكملان جهود الفقهاء في معالجة قضايا البيئة وهما:

الأمر الأول: أن هناك جهوداً كبيرة قام بها عدد من الأطباء والعلماء المسلمين لإيضاح كثير من المشكلات البيئية خاصة من حيث التلوث البيئي وأسبابه ونتائجه، والأوبئة وما تحتاجه من معالجات وقائية وعلاجية، ونذكر على سبيل المثال الكندي ورسالته في الأدوية المشفية من الروائح المؤذية، وابن سينا وحديثه عن تلوث المياه بشكل عام، والرازي وحديثه عن عدد من الأوبئة، وابن مروان الأندلسي وبيانه لموضوع فساد الهواء، والمطران الدمشقي وتأكيده على ضرورة مراعاة تأثير البيئة في المرض، ومحمد بن أحمد التميمي وكتابه الكامل عن التلوث، ونذكر أيضاً الزهراوي وبيانه للعلاقة بين المستنقعات وانتشار الأوبئة، وابن خلدون واعتباره إفساد الهواء من أسباب كثرة الوفاة، وأختم هذه الأمثلة بابن القيم والفصل الذي عقده عن الطاعون وكيفية التعامل معه وفق الهدي النبوي ودور تلوث الهواء في وجوده حيث يقول: «إن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون وأن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء، وفساده يكون لاستمالة جوهره إلى الرداءة، لغلبة إحدى الكيفيات عليه، كالعفونة، والنتن، والسمية في أي وقت كان من أوقات السنة وإن كان أكثر حدوثه في أواخر فصل الصيف وفي الخريف غالباً، لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف وعدم تحللها في آخره، وفي الخريف لبرد الجو وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلل في زمن

الصيف فتنحصر، فتسخن، وتعفن، فتحدث الأمراض العفنة، ولا سيما إذا صادفت البدن مستعداً، قابلاً، رهِلاً، قليل الحركة، كثيرَ المواد، فهذا لا يكاد يُفلِت مِن العطب»[1].

وهكذا نجد أن التراث الإسلامي احتوى مساهمات كبيرة لعلماء المسلمين فقهاء وأطباء ومفكرين قدموا من خلالها الكثير من المعالجات الفقهية في كتب ورسائل وأبواب نذكر منها على سبيل المثال: الأدوية للكندي، والتيسير في المداواة والتدبير لأبي مروان الأندلسي، والذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني، والأبخرة المصلحة للجو من الأوبئة للكندي، والأشباه والنظائر للسيوطي، والحيوان للجاحظ، والمقدمة لاين خلدون، والقانون في الطب لابن سينا، والحيلة في دفع مضار الأبدان لابن رضوان... إلخ، تلك القائمة الطويلة من المؤلفات المتخصصة في هذا الموضوع أو تلك التي احتوت إشارات عارضة في مسائل ذات علاقة بموضوعات عامة.

الأمر الثاني: نظام الحسبة في الإسلام ودوره في معالجة القضايا البيئية.

الحسبة نظام إسلامي رقابي يعتمد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإسداء النصح لمختلف شرائح المجتمع في كل القضايا التي لها علاقة بسلامة المجتمع وأمنه، والمحتسب هو الرقيب الذي يتابع سير التعامل بين الناس في أسواقهم ومصانعهم ودور عبادتهم ومساكنهم وطرقاتهم، وهو عارف بأحكام الشريعة قاصد في حسبته وجه الله تعالى، ملتزم بما يأمر به، متواضع متودد ومتقرب من الناس، لين القول، طلق الوجه، حسن الخلق، وقد عرفت للمحتسب تدخلات كثيرة في شؤون المجتمع منها الكثير مما يتعلق بالبيئة، نذكر منه التالي:

ففي الطرقات يتدخل المحتسب لمنع السكان من إضرار السالكين

(١) ابن القيم/ الطب النبوي تحقيق/د. عبد المعطي قلعجي/ دار الوعي حلب/ط١٤/محرم/١٤١.

بمياه الأمطار الساقطة من الحيطان، ومنع مجاري الأوساخ الخارجة من الدور في زمن الصيف، ويتدخل المحتسب في مراقبة صانعي الدقيق بأمرهم بغربلة الغلة من التراب وتنظيفها من الغبار قبل طحنها، ويأمر الخبازين بفتح منافذ في سقوف الأفران لئلا يضر الناس ببقائه في الخبز، وأن يهتم الخباز بتنظيف الفرن قبل استعماله، ويدقق على الخبازين في نظافة الأوعية وتغطية الخبز، ويهتم بنظافة الخباز ويمنعه من ممارسة مهنته إذا لم يقم بتغطية شعره وتنظيف جسمه، ويمارس المحتسب دوره في منع محلات الأطعمة والصيادلة والعطارين وغيرهم من ممارسة الغش في صنائعهم وما يترتب على ذلك من ضرر بأجسام الناس، كما أنه يتدخل في توجيه أصحاب الحمامات إلى تنظيف المياه والأحواض والأواني كل مساء لمنع ما يلحقها من تلوث قد يؤدى إلى انتقال العدوى بين الناس.

وهكذا عمل نظام الحسبة في الإسلام على وقاية المجتمع من كثير من مظاهر الفساد التي تنتج عن أنانية الأفراد أو جهلهم وتسبب في تلويث البيئة أو نشر الأمراض، وقد أدى هذا النظام دوراً مهماً في توجيه المجتمع وضبط سلوكياته بمنطق الشرع والأخلاق أولاً ثم بمنطق القانون ثانياً حيث كان هذا النظام مدعوما من السلطة الحاكمة في المجتمع[1].

❋ ❋ ❋

(١) الشيرزي/ نهاية الرتبة في طلب الحسبة/ دار الثقافة/بيروت/تحقيق د. السيد العريني/ط٢/١٩٨١.

الإسلام في مواجهة مشكلة العصر
التلوث

لعلني قد أشرت في ثنايا هذا البحث إلى نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بتكريمه له وجعله خليفته في الأرض وتسخير الله كل ما في هذا الكون ليستغله ويستفيد منه في تحقيق خلافته وفي العمل على ضمان حياة أخروية سعيدة، وقد تناولت آيات القرآن الكريم شرحاً مفصلاً لمخلوقات الله الكثيرة والعظيمة التي سخرها لخدمة الإنسان وتكفلت سنة الرسول ﷺ شرح وتفصيل الكثير من هذه النعم، ونبه القرآن الكريم والرسول ﷺ على أن هذا الاستغلال الإنساني لمصادر الطبيعة ومكوناتها قد يتحول إلى تدمير لهذه المصادر وإفساد لها إن لم يراع الإنسان فيها أوامر الله ونواهيه وذلك حين تتحكم فيه الغرائز والشهوات ويضعف الإيمان في قلبه وتهتز المعايير الأخلاقية والإنسانية التي أمر الإنسان بمراعاتها: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[1] ولقد تنبأت الملائكة بإمكانية إفساد الإنسان حين قالت ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[2] ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى اقتضت ذلك لحكمة يعلمها حيث قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

لقد بدأ الإنسان في استغلال المصادر الطبيعية منذ بدء الخليقة وحاول أن يسخرها لمعيشته بدرجات تتناسب وطبيعة الظروف التي عاش فيها، وتوسعت طموحاته في اكتشاف هذا الكون براً وبحراً وجواً بمرور الزمن وبتقدم العلم لديه حتى وصلنا إلى عالم اليوم الذي استطاع فيه

---

(١) سورة الروم الآية ٤١.
(٢) سورة البقرة الآية ٣٠.
(٣) سورة البقرة الآية ٣٠.

الإنسان استغلال كل شيء في أعماق البحار أو في مجاهل الفضاء أو في باطن الأرض، ووصلنا إلى هذه الحالة والإنسان قد تحرر كثيراً من سيطرة النزعة الإنسانية واستسلم لنوازعه الفردية، وتحرر من قيود الضوابط الأخلاقية وتحول إلى عبد للشهوات والمصالح الإنسانية، وتحرر من كثير من الالتزام بالتوجيهات الإلهية في تمرد واضح على الرسالات وتوجيهاتها وأصبح عبداً للمذاهب المادية والإلحادية، وظهر أثر ذلك واضحاً في مظاهر البيئة ومكوناتها مما جعل العالم المعاصر يواجه مشكلات التلوث التي تهدد مستقبل الحياة البشرية بأسرها.

لقد عرف التلوث بتعريفات كثيرة تشير معظمها إلى أن التغير الذي يحدثه الإنسان في المكونات البيئية فيحولها من مكونات مفيدة إلى أخرى ضارة مما يفقدها خاصيتها الطبيعية ويحرم الإنسان من الاستمتاع بها ويجعلها تهدد وجوده، ويحدث ذلك في الماء والهواء والتربة والنبات وفي أعماق البحار وفي طبقات الجو العليا... إلخ، ولقد تكفلت كتب وأبحاث كثيرة تناولت أنواع التلوث ونتائجه وأقيمت مؤتمرات محلية ودولية لمعالجة آثاره بل وتكونت جمعيات ومنظمات دولية لمحاربته وتحذير البشرية من خطورته.

ولعل سعة البحث في هذه المشكلة وشدة تعقيداتها وضخامة ما كتب حولها، وكثرة المهتمين بها وتوزعهم في كل مكان من العالم، يجعلني أقفز فوق كل ذلك لأبين أن التلوث نتج عن سببين رئيسيين كما أتصور:

الأول: الأنانية الفردية للإنسان وجهله بما ينتج عن تصرفاته، وهذه ربما تكون مضارها أقل خطورة من السبب الثاني، فالإنسان في سبيل تحقيق معاشه اليومي اضطر أحياناً إلى قطع الأشجار وحرقها، وإلى صيد الحيوانات والاستمتاع بها، والى استغلال مصادر المياه سقاية ونظافة له ولحيواناته إلى غير ذلك من الأعمال التي كانت سبباً في إهدار الكثير من الموارد الطبيعية ولكنه كان جزئياً وبسيطاً لم يصل إلى مستوى التلوث الحقيقي الذي أحدثته مجتمعات بكاملها في عصور متأخرة.

الثاني: ظهور النزعات التسلطية لدى بعض المجتمعات البشرية مما أدى بها إلى غزو مجتمعات أخرى بحروب مدمرة نتج عنها الكثير من الملوثات البيئية سواء كان بتدمير موارد بيئية أو استغلالها استغلالاً سيئاً ولعلي هنا سأركز على ظاهرة الحروب في تاريخ البشرية وما نتج عنها من مضار بيئية كان الإنسان فيها متحرراً من إنسانيته ومنفلتاً من كل القيود الدينية والأخلاقية فأضر بالبيئة والكون وما عليه من إنسان وحيوان ونبات ومن ذلك الأمثلة التالية:

١ ـ في مواجهة الإنجليز مع روسيا استخدموا طريقة إلقاء الجثث في الآبار لتتلوث وتتحول إلى مصادر فناء للجيش المضاد.

٢ ـ استخدم الفرنسيون في احتلالهم لأمريكا الشمالية وكندا وسيلة توزيع الأغطية الملوثة بداء الجدري لإفناء الهنود الحمر.

٣ ـ استخدم الألمان نشر حمى الكربون في الحرب العالمية الأولى في قطعان الماشية في الأرجنتين لتحويلها إلى مصادر لنشر داء الجمرة الخبيثة في الأعداء.

٤ ـ ألقت القاذفات البريطانية سنة ١٩٤٣مسيحي ٢٤١٧ طناً من القنابل المحرقة على مدينة هامبرغ بألمانيا مما سبب في حرائق غطت مساحات شاسعة وأدت إلى ارتفاع الحرارة إلى ١٤٥٠ درجة فهرنهايت.

٥ ـ ألقت القاذفات الأمريكية قنابلها النووية على هيروشيما وناجازاكي فخلفت دماراً بشرياً وبيئياً لا زالت آثاره حتى الآن.

٦ ـ العدوان الإسرائيلي المستمر على الشعب الفلسطيني أدى إلى دمار بيئي لا مثيل له حيث يعمل الصهاينة ليل نهار على تلويث مصادر المياه وحقنها بأمراض فيروسية ذات أثر كبير في نمو الأجيال القادمة.

٧ ـ ما شهدته الساحتين العراقية والأفغانية من تدمير بشري وبيئي كبير في الحروب التي مارستها ولا تزال الولايات المتحدة الأمريكية

وحلفاؤها والتي أدت إلى قطع ملايين الأشجار مما أدى إلى تدمير ثروة النخيل العراقية وتلويث مياه الأنهار وقذف البشر باليورانيوم المخصب والذي سيصيب الأجيال القادمة بتشوهات يصعب تصورها.

إن هذه الأمثلة وغيرها من الأمثلة الكثيرة التي تعمدت عدم الخوض في تفصيلاتها خشية الإطالة إنما تدل على وجود انحراف في مسيرة البشرية أدى إلى طغيان وفساد كبير مارسته كثير من المجتمعات البشرية بحجج مختلفة أدت بها إلى التخلي عن إنسانيتها وأخلاقياتها في مقابل إرضاء النزعات السلطوية وتحقيق المصالح الاقتصادية من أجل سلب خيرات الشعوب والاعتداء على ثرواتها.

وهنا يجب أن نذكر أن عظمة مبادئ الإسلام، التي استطاعت أن تضبط سلوك المسلمين حتى في حالة الحرب التي مارسها المسلمون لأسباب تتعلق بالمحافظة على الإنسان والدفاع عن دينه وقيمه وحضارته، فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوجه جنده إلى أخلاقيات الحرب وهو يجهزهم الى مواجهة عدوهم في إحدى المعارك فيقول: «يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[1] هذه هي أخلاق الإسلام في الحرب نهى عن الإفساد في الأرض تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[2].

أما في حالة السلم فلا ضرر ولا ضرار، والضرر يزال، والنهي عن الإيذاء للغير واتباع الهوى، والنهي عن الغلو والإسراف في استعمال

---

(١) محمد بن جرير/ تاريخ الطبري/ تحقيق: محمد أبو الفضل/ط٢ ج٢/ دار المعارف/ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) سورة القصص الآية ٧٧.

الماء والنهي عن تلويثه، والنهي عن إيذاء الحيوان إلا لمنفعة أحلها الله، والنظافة مظهر يتجلى في كل يوم خمس مرات جسداً وثوباً ومسكناً وشارعاً، وقد قدمت الدلائل الكثيرة من النصوص قرآناً وسنة ما يؤكد ذلك، ومن هذا المنطلق فإني أقول باعتزاز إن الإسلام هو الرسالة التي تصلح أن تكون دواء لأمراض العصر المختلفة وفي مقدمتها المشكلات البيئية، فمتى ما عرف العالم هذه المعالجات القرآنية استطاع أن يتعرف على حقيقة الإسلام وصلاحيته للحياة البشرية ديناً يخلصها من جميع أمراضها ومشكلاتها.

إن العالم المعاصر وهو يواجه خطر التلوث البيئي والتدمير المتعمد المعاصر للمصادر الطبيعية قد اتجه إلى سن القوانين والمعاهدات الإقليمية والدولية التي تجرم وتحرم الإضرار بالبيئة في شتى مكوناتها وتدعو الدول إلى التكاتف من أجل حماية البيئة والموارد الطبيعية، ولكن ذلك غير مفيد في كثير من الأحيان نظراً لاصطدامه بمصالح الدول والأفراد التي لا تقيم وزناً لهذه المعاهدات إما بتجاهلها أو الانسحاب منها كما فعلت أمريكا بمعاهدة كيوتو، وهذا الأمر أدى إلى تفاقم أخطار التلوث وتدمير المصادر الطبيعية، فالإشعاع النووي وما يخلفه من آثار مدمرة لا زال يهدد البشرية بفعل إصرار الدول الكبرى على امتلاك التقنية النووية واستعمالها بالصورة التي تتناسب مع مصالحها حتى ولو أدى ذلك إلى الإضرار بالشعوب كما هو الحال في موضوع التخلص من النفايات الذرية، وكذلك إحراق الغابات وتحويل الأراضي والمساحات الخضراء إلى مستوطنات متعددة الأغراض لا زال خطراً يهدد الحياة على هذه الأرض لم تفلح القوانين في كبح جماحه، أما الخطر الأكبر الذي يتمثل في تدمير طبقة الأوزون بفعل التلوث الجوي الناتج من تصاعد النفايات المختلفة وهذه المشكلة الأعقد التي بدأت البشرية تواجه أخطارها والذي يعتقد العلماء أنه يمثل نهاية الحياة على هذه الأرض، وهذا الموضوع على الرغم من خطورته إلا أن القوانين الدولية لم تفلح في معالجة أسبابه نظراً لأن ذلك يتطلب تضحيات كبيرة من الدول مجتمعة والكبرى منها بشكل خاص، ولذلك فإني أقول: إن الضوابط

الدينية والأخلاقية هي الكفيل بتوجيه الشعوب إلى المحافظة على بيئتها، ولذلك سارعت بعض المنظمات إلى دعوة القادة الدينيين للالتقاء والتباحث حول دور الديانات في معالجة أخطار التلوث والفساد البيئي، وهذا يدل على خطورة العامل الديني في معالجة هذه المشكلة، ولكن الدول الصناعية لا يروق لها ذلك فهي تهتم بمصالحها الاقتصادية فقط، ولذلك يضعف دور القيادات الدينية لعدم القدرة على مواجهة أصحاب القرار السياسي وهو الأمر الذي يعقد المشكلة ويزيدها تفاقماً.

إننا ندعو رجال الأديان جميعاً وفي مقدمتهم علماء المسلمين أن يهتموا بالتوعية الدينية في هذا المجال في خطبهم ومواعظهم ومحاضراتهم، وندعو المسؤولين عن التعليم في بلادنا وفي العالم أجمع أن يدخلوا الثقافة البيئية في مناهج التعليم من المراحل الدراسية الأولى، وذلك حتى نضمن تكوين جيل يتشرب ثقافة المحافظة على البيئة منذ الصغر، ويتفهم أخطار عدم المحافظة عليها، فالتعويل على الأجيال القادمة هو صمام الأمان، والوعي بالمشكلات البيئية منذ الصغر كفيل بتقويم السلوك البشري نحو البيئة.

وختاماً لهذه الورقة فإني أقترح التوصيات التالية:

١ ـ تقديم الرؤية الإسلامية لمشكلات البيئة إلى العالم الآخر وذلك عن طريق ترجمة الأعمال الرائدة في هذا المجال إلى اللغات العالمية ليتعرف العالم على هذه الرؤية التي هي تعالج أساس المشكلات البيئية وتقدم حلولاً ناجحة لها.

٢ ـ نشر ثقافة المحافظة على البيئة لدى الناشئة وذلك عن طريق تضمين المناهج الدراسية في المدارس والجامعات موضوعات تعرف بالمشكلات البيئية وطرق الوقاية منها.

٣ ـ التأكيد على دور المنظمات والهيئات المدنية في رفع درجة الوعي البيئي ودفع الناس للمساهمة في المحافظة على البيئة.

٤ ـ تدريس مواد علمية في كليات الشريعة تساعد المتخرج منها في فهم الوقائع البيئية والحكم على قضاياها بصورة علمية.

٥ ـ المساهمة في تفعيل دور الاتفاقيات الدولية وحشد الجهود على كافة المستويات لتنفيذ بنودها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أ. د محمد فتح الله الزيادي
عميد كلية الدعوة الإسلامية

❋ ❋ ❋

البيئة والحفاظ عليها
من منظور إسلامي

إعداد
أ. د/محمد بن يحيى بن حسن النجيمي
الأستاذ بكلية الملك فهد الأمنية
والمعهد العالي للقضاء وعضو مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا
والخبير بمجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم. . . **وبعد:**

فقد خلق الله ـ عز وجل ـ الإنسان، وهيأ له أسباب الحياة في الدنيا ومهد له أسباب العيش فيها، وجعل له من كل شيء سببًا، وقدّر له في الأرض ما يقيم حياته ويصونه، ولم يترك الإسلام شاردة ولا واردة إلا كان له فيها تشريع وتقنين، أمر ونهي، تحذير وتوجيه.

وإذا تأملنا في البيئة بمدلولها الشامل لوجدناها قد حظيت بقدر عظيم من الاهتمام، ولقد وضع الإسلام الإطار العام لقانون حماية البيئة في قوله جل جلاله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3].

والواقع أن قضية البيئة وما تضمنته من أبعاد متشعبة ومشكلات متعددة، نجدها قد طرحت نفسها في العقدين الأخيرين كواحدة من أخطر القضايا في العصر الحديث إن لم تكن أخطرها على الإطلاق.

ويأتي هذا البحث المتواضع إسهاماً من الباحث بالحديث والكتابة عن موضوع حماية وصيانة البيئة وتنميتها من منظور إسلامي.

وقد جعلت عنوان البحث: «**البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي**».

---

(١) سورة الأعراف، آية (٨٥).

(٢) سورة البقرة، آية (٦٠).

(٣) سورة القصص، آية (٧٧).

ويقع البحث في:

مقدمة وسبعة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: تعريف البيئة لغةً واصطلاحاً.

المبحث الثاني: المحافظة على البيئة من خلال نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان.

المبحث الثالث: نظرة الشريعة الإسلامية للبيئة وأهمية المحافظة عليها من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وما بينه الفقهاء من أحكام.

المبحث الرابع: محاربة الإسلام للتلوث البيئي مع بيان أهم ما وضع من أحكام لتحقيق ذلك.

المبحث الخامس: الحسبة والوقاية من التلوث مع ذكر نماذج تطبيقية وتوضيحية.

المبحث السادس: أهم صور التلوث البيئي المعاصرة.

المبحث السابع: أهم الاتفاقيات الدولية الضابطة لقضايا البيئة والموقف الإسلامي منها.

ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: أهم الاتفاقيات الدولية الضابطة لقضايا البيئة.

المطلب الثاني: الموقف الإسلامي من الاتفاقيات الدولية.

الخاتمة : وتتضمن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث مع صياغة مشروع قرار مقترح.

والله ولي التوفيق.

❋ ❋ ❋

المبحث الأول
تعريف البيئة لغة واصطلاحاً

البيئة في اللغة:

البيئة المكان والمنزل، يقال: أباءه منزلاً أي هيأه له، وأنزله، ومكن له فيه، والاسم البيئة والباءة والمباءة، وتطلق على منزل القوم حيث يتبوأون من قبل واد أو سند جبل، ومنه المباءة معطن الإبل حيث تنام في الموارد أو المراح الذي تبيت فيه[١].

ويتضح من هذه المعاني أن البيئة هي منزل الإنسان والحيوان[٢].

وفي الاصطلاح: هو الوسط الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من مظاهر طبيعية خلقها الله ـ عز وجل ـ، يتأثر بها ويؤثر فيها. وقد أوجز مؤتمر البيئة البشرية في استكهلم ١٩٧٢ ومؤتمر تبلسي ١٩٧٨ التعريف التالي: «إن البيئة هي مجموعة من النظم الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الأخرى والتي يستمدون منها زادهم، ويؤدون فيها نشاطهم»[٣].

وهذا التعريف كما هو واضح يشمل: الموارد والمنتجات الطبيعية والاصطناعية التي تؤمن إشباع حاجات الإنسان.

التعريف الإجرائي: يمكن تعريف البيئة بأنها المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان بما يشمل من ماء وهواء وفضاء وتربة وكائنات حية،

---

(١) لسان العرب لابن منظور ح١ ص (٣٨٢) ط٣ القاهرة.

(٢) انظر: الإسلام والبيئة لمحمد مرسي محمد مرسي ص (١٨) الرياض، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية ١٤٢٠/١٩٩٩، والبيئة في الإسلام للدكتور الشحات إبراهيم محمد منصور القاهرة، دار النهضة العربية، د. ت.

(٣) انظر: الإسلام والبيئة ص (١٩).

ومنشآت أقامها لإشباع حاجاته[1].

كما يمكن إطلاق البيئة في مفهومها الواسع على مجموعة من المؤثرات الثقافية والحضارية والنفسية إلى جانب البيئة من مفهوم النطاق المادي، بيد أن البيئة بهذا المعنى ليست مرادفة للطبيعة[2]. ولعل التعريف الإجرائي هو التعريف المناسب للبيئة والله أعلم وأعلى.

❋ ❋ ❋

(١) المصدر السابق ص (١٩).

(٢) البيئة في الإسلام ص (٩).

المبحث الثاني
المحافظة على البيئة من خلال نظرة الإسلام
إلى الكون والحياة والإنسان

إن التصور الإسلامي للكون تصور شامل؛ فهو يرد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقه فيه، وكل تحور وتغير وتطور والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة.

فكل ما في هذا الكون من سماوات وأرضين وشموس وكواكب ونجوم وجبال وبحار وأنهار، ومعادن ونباتات وحيوانات وإنسان، قد خلقه الله عز وجل.

ولم ينشأ هذا الكون صدفة، ولم يوجد هذا الكون نفسه، ولم يكن نتيجة تطورات أو تغيرات طبيعية فيه، وإنما خلقه الله عز وجل، وقصد إيجاده على هذا النحو الذي نراه.

وقد تم هذا الخلق ويتم في كل لحظة بالأمر الإلهي «كن» قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[1].

وهذا الكون لم يخلق عبثاً دون غاية أو هدف، وإنما خلقه الله، ليدل عليه وليكون ميداناً للنشاط الإنساني، يستغل فيه الإنسان طاقاته وإمكاناته ويسخره لمصلحته، ويذلله لمنفعته الأمر الذي يؤدي إلى تحقيق عبادة الله وحده، وقيام شريعته في المجتمع الإنساني، وما أكثر الآيات الكريمات التي تتحدث عن هذا التسخير في القرآن الكريم:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) سورة النحل، الآية (٤٠).

(٢) سورة الجاثية، الآية (١٣).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾[2]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[3].

تفيد آيات القرآن الكريم السالفة الذكر وغيرها: إن هذا الكون خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقدرته ويسر تكامله وتعاونه ليكون داراً واسعة للإنسان، واستخلف الله الإنسان في عمارة الأرض، والمحافظة عليها، وإثراء الحياة وتحسنها ومساعدة الآخرين ومعاونتهم قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ۖ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[4].

وتفيد آيات أخرى أن الأرض خلقت غير مدحوة أي غير صالحة للإقامة عليها ثم خلقت السماء بعد الأرض ثم دحيت الأرض وصارت مكورة تكويراً غير كامل، لأنها منبعجة عند خط الاستواء مفرطحة عند القطبين، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[5].

أخبر الله الملائكة أنه سيجعل في الأرض خليفة، لعمارة الأرض، وإثرائها بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم والاختراع والابتكار، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[6].

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان (٣٢، ٣٣).
(٢) سورة الجاثية، الآية (١٢).
(٣) سورة الأنعام، آية (٩٧).
(٤) سورة فصلت، الآيات (٩ ـ ١٢).
(٥) سورة الرعد، الآية (٤١).
(٦) سورة البقرة، الآية (٣١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

كانت الملائكة ترى أنها أصلح من الإنسان في عمارة الأرض فهم في طاعة مستمرة، ولكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بما يصلح الأرض، فالأرض لو ملئت بالملائكة وانصرفت للعبادة، لتركوا وجه الأرض خراباً. والإنسان هو أحد المخلوقات وهو يملك الإرادة والاختيار، وقد منح العقل الكسب، والتميز والقدرة على الخير والشر والتنافس في عمارة الأرض بالزراعة والصناعة والعلم والاختراع والابتكار، مع ذلك فهو ظلوم جهول، في بعض أفراده، فنجد اللصوص وقطاع الطرق، والظلمة والزناة والكفار بالله، ونجد لذلك الشرطة والقضاة، والمحاكم والسجون والقوانين وإقامة الأحكام وتنفيذ الحدود، أي أنه حتى وجود الظلمة ومحاكمتهم في الدنيا، مقصود لله تعالى، حتى تعمر الأرض قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾[2] إذاً الإنسان مستخلف عن الله في عمارة الأرض قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[3].

فالإنسان مستخلف على إدارة الأرض وفقاً لمقاصد خلقها لاستثمارها لمنفعته، ولنفع غيره من الخلق ولتحقيق مصالحه ومصالحهم جميعاً وهو لذلك أمين عليها فيجب أن يتصرف الأمين في حدود أمانته والإنسان جزء متميز في الكون وصلته بالكون هي:

١ ـ صلة التأمل والتفكير والاعتبار في الكون وما فيه.

٢ ـ صلة الاستثمار المتوازن الحافظ والانتفاع والتعمير والتسخير لمنافعه ومصالحه.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٣٠).

(٢) سورة هود، الآيتان (١١٨ ـ ١١٩).

(٣) سورة هود، الآية (٦١).

٣ ـ صلة العناية والرعاية لأن أعمال الإنسان الصالحة، غير محدودة بمصلحة الإنسان وحده، بل تمتد إلى مصالح خلق الله أجمعين فخير الناس أنفعهم للناس.

روى البيهقي في شعب الإيمان أن رسول الله ﷺ قال: «الخلق كلهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»[(١)].

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون»[(٢)(٣)].

وفي ختام علاقة الإنسان بالبيئة يهمنا أن نذكر الآية الجامعة لكل مكونات العلاقة والتي بينت أن هذه العلاقة تثمر في قلوب العلماء، خشية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما يتبين لهم من خلال تلك العلاقة بعض أوجه الحكمة من خلقها، والفائدة من وجودها والذي قد يقودهم إلى حسن التصرف حيالها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[(٤)(٥)].

❋ ❋ ❋

(١) المعجم الكبير للطبراني (٨٦/١٠) رقم (١٠٣٣).
(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (٢٠٩٨/٤) برقم (٢٧٤٢).
(٣) انظر: الإسلام والبيئة ص (٧٣).
(٤) سورة فاطر، الآية (٢٧، ٢٨).
(٥) الإسلام والبيئة ص (٩٦).

المبحث الثالث

نظرة الشريعة الإسلامية للبيئة وأهمية المحافظة عليها من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وما بينه الفقهاء من أحكام

أولاً: في القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم قد وضع مبدأً عاماً بمقتضاه يجب على الإنسان أن يجنب نفسه المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها، هذا المبدأ يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] وهذا ينطبق تماماً على ما نحن فيه، فإذا ما أردنا أن نقي أنفسنا المخاطر التي تفترس الإنسان إن هو لوث المياه الذي هو أساس حياته يجب عليه اتباع تعاليم الدين الإسلامي وإرشاداته سواء كان أمراً أو نهياً خاصة وأن سلامة البيئة وعدم سلامتها أمر يرجع إلى فعل الإنسان إذ إن ما يؤدي إلى التلوث ليس وليد الصدفة أو وليد الطبيعة إنما هو نتاج فعل الإنسان ولذلك يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «إن الله نهى عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكنا والاستسلام للهلكة - وهي العذاب - بترك ما لزمنا من فرائضه، فغير جائز لأحد منا الدخول في شيء يكرهه الله منا مما يستوجب بدخولنا فيه عذابه»[2][3].

إن بيئتنا التي أنعم الله علينا بها ومنحنا إياها، يتعين علينا أن نسعى لحمايتها والمحافظة عليها لتؤدي دورها كما أراد الله تعالى، وقد حذر

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٩٥).

(٢) تفسير الطبري (٢٩٤/٢) دار الغد العربي، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٩٩/١) المكتبة التوفيقية ومكتبة الدعوة الإسلامية.

(٣) البيئة في الإسلام ص (٩٩ - ١٠٠).

جل شأنه كل من يسيء إليها أو يفسد فيها أو يبدلها... بالعقاب الشديد. قال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[2]، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[3].

فالإسلام خاتم الرسالات الربانية إلى البشر تضمن قواعد وضوابط لسلوكيات البشر وبيئته لتستمر الحياة كما قدر الله وحتى يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[4].

فالإنسان مستخلف وليس مالكاً للبيئة ومواردها حتى يتصرف فيها على هواه دون ضوابط، فالإنسان وصي على هذه الموارد البيئية لا مالك لها مثلما هو مستخلف على نفسه وليس مالكاً فالإنسان ملك لخالقه.

وكون الإنسان مستخلفاً على إدارة واستثمار محيطه الذي يعيش فيه فعليه صيانته والحفاظ عليه من أي تدمير أو تخريب، فأي شكل من أشكال الضرر سواء للبشر أو لغيرهم من المخلوقات قد نهى عنه الإسلام.

فالبيئة بمواردها الطبيعية لا تعتبر ملكاً خالصاً لجيل من الأجيال يتصرف بها كيفما يريد، إنما هي ملك وميراث دائماً للبشرية لا يستطيع أي جيل أن يدعي لنفسه ملك هذا الحق. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[5][6].

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢١١)

(٢) سورة الأعراف، الآية (٥٦).

(٣) سورة الروم، الآية (٤١).

(٤) سورة البقرة، الآية (٣٦).

(٥) سورة البقرة، الآية (٣٦).

(٦) الإسلام والبيئة ص (٥٩ ـ ٦٠).

ثانياً: السنة النبوية المطهرة:

لقد اهتمت السنة النبوية المطهرة بالبيئة وعناصرها وقد وردت في هذا الصدد أحاديث كثيرة.

قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة»[1] وقال رسول الله ﷺ: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله ـ عز وجل ـ عنها يوم القيامة» قيل يا رسول الله وما حقها؟ قال: «حقها أن يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها فيرمي به»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وفي يد أحد منكم فسيلة فليغرسها فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها»[4].

وقال رسول الله ﷺ: «الناس شركاء في ثلاثة: الماء والكلأ والنار»[5] لقد وضعت السنة النبوية أيضاً الأساس لحماية المياه من التلوث حفاظاً على الإنسان الذي استخلفه الله في هذا الكون.

يقول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه من الجنابة» وفي لفظ مسلم «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب»[6].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٤٧٢/١٠) باب فضل الغرس والزرع.
(٢) الحاكم في المستدرك (٢٦١/٤) رقم (٧٥٧٤).
(٣) مسند الإمام أحمد (٣٨٩/٤) رقم (١٩٤٨).
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد ص (١٦٨) رقم (٤٨٩).
(٥) سنن ابن ماجه (٨٢٦/٢) رقم (٢٤٧٢).
(٦) صحيح البخاري (٨١/١) دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٢هـ، وسنن أبي داود (١٨/١).

أيضاً روى أن أبا سعيد الحميري حدث عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل»[1].

وعن أشعث بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في مستحمه ثم يغتسل فيه» قال أحمد: «ثم يتوضأ فيه فإنه عامة الوسواس منه»[2].

فهذه الأحاديث وغيرها بمثابة وثيقة من الرسول ﷺ وبرنامج وقائي لأمته في كيفية المحافظة على الماء باعتباره عنصراً من العناصر المهمة في البيئة، فجاءت أنواره ﷺ ناهية أن يبال في الماء الراكد ولا الماء الجاري ولا في أماكن الظل باعتبارها أماكن يركن إليها المارة للراحة من وعثاء السفر وعناء السير، وربما لأن الشمس لا تدخلها فلا تتطهر فتصبح محط الأوبئة وموضع الأمراض. والذين يرون أن الرسول ﷺ قد نهى عن التبول أو التبرز في الماء باعتبار أن ذلك يكون مسبباً لنجاسة الماء وعدم طهارته، كان عصرهم يقتضي الوقوف عند هذا التفسير. أما في زماننا فإنه يتخطى ذلك إلى الأسباب التي يكتشفها العلم الحديث وما يستجد من أمور بعد ذلك وصدق الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[3]، فالرسول بجانب نظرته إلى الماء على أنه أساس الحياة يوقن ما لخطورة التبول أو التبرز في الماء على البيئة وعلى صحة

---

(١) الحديث رواه أحمد وفيه أبي لهيعة ورجل لم يسم. مجمع الزوائد (٢٠٤/١)، بيروت، دار الكتاب العربي، نيل الأوطار (١٠٤/١)، السنن الكبرى للبيهقي (٩٧/١)، بيروت، دار الفكر، سنن أبي داود (٧/١)، معالم السنن للخطابي (٢١/١، ٢٢)، ١٤٠١هـ.

(٢) حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وله شاهد على شرطهما. المستدرك للحاكم (١٨٥/١)، التلخيص (١٨٥/١)، سنن النسائي (٣٤/١)، القاهرة، دار الحديث، ١٤٠٧هـ، سنن أبي داود السنن الكبرى (٩٨/١)، بيروت، دار الفكر.

(٣) الحديث رواه الطبراني في الأوسط وفيه فرات بن السائب وهو متروك الحديث، راجع مجمع الزوائد (٢٠٤/١)، الآيتان (٣ ـ ٤) سورة النجم.

الإنسان ولذلك كان بداية النهي في صورة أمر نهي للناس بالاتقاء، ثم يوصف المنهي عنه بأنه ملعون، أو سبب في اللعن، ومعلوم أن الرسول أوتي جوامع الكلم، ولا يمكن أن يكون هذا السياق للحديث في صورة أمر بالبعد عن هذا الفعل ووصف الفعل بأنه سبب اللعن إلا إذا كان المقصود من ذلك النظرة الثاقبة لرسول الله ﷺ للأمور مستقبلاً ـ كما هو الشأن فيه ـ والتي تهدف إلى المحافظة على البيئة سليمة نقية وعلى صحة الناس وسلامتهم.

ولذلك اكتشف المتخصصون في هذه الأيام خطورة التبول والتبرز في المياه وتحت الظل، فوجدوا أن التبول والتبرز في الماء يؤدي إلى الإصابة بطفيل الدودة الكبدية التي تؤدي في النهاية إلى موت الإنسان[1].

كما أمر الرسول ﷺ بضرورة نظافة الشراب، فأمر ألا يترك وعاء الماء مفتوحاً ولا يترك مكشوفاً للذباب والميكروبات والأتربة حيث قال ﷺ: «أوكئوا قربكم واذكروا اسم الله ـ غطوا آنيتكم واذكروا اسم الله»[2]، وقوله ﷺ «غطوا الإناء وأوكئوا السقاء فإنه في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء»[3].

ولقد ثبت علمياً أن هناك عديداً من الميكروبات والطفيليات تنتقل عن طريق مياه الشرب مثل (الكوليرا ـ التيفود ـ الإنكلستوما ـ البلهاريسيا

---

(١) راجع الطب الوقائي د/ابتسام عبد الحليم، مقال نشر بمجلة منبر الإسلام سنة ١٣٩٦هـ ومكافحة الأمراض السارية في الإنسان ص (٣٠٥)، صادر عن جمعية الصحة الأمريكية، وانظر أيضاً البيئة في الإسلام ص (١٠١ حتى ١٠٣).

(٢) وقد جاء بلفظ: «إذا نمتم فأطفئوا السراج... وأوكئوا الأسقية وخمروا الشراب وأغلقوا الأبواب بالليل» رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١١١/٨)، إرواء الغليل (٨٠/١ ـ ٨١).

(٣) جاء بلفظ «إن لله ـ عز وجل ـ خلقاً يبعثهم تحت الليل كيف شاء فأوكئوا السقاء وأغلقوا الأبواب وغطوا الإناء فإنه لا يفتح باباً ولا يكشف غطاءً ولا يحل وكاءً» رواه أبو يعلى وفيه عبد الله بن سعيد المقبري وهو ضعيف. مجمع الزوائد (١١١/٨)، إرواء الغليل المرجع السابق.

ـ التهاب الكبد الوبائي ـ شلل الأطفال) وغيرها من الطفيليات والميكروبات[1]. وما ذلك إلا نتيجة إهمال المصدر الأساس لحياة الناس وتلويثه وإفساده سواء بإلقاء الملوثات أو تركه معرضاً للأوبئة بعدم اتباع إرشادات النبي ﷺ إن جميع موارد المياه قد خلقها الله للإنسان وجعله مستخلفاً فيها وبالتالي أعطاه حق الانتفاع بها. لذلك يجب أن يراعي التصرف فيها لمصلحته ومصلحة الناس لأنهم شركاء. يقول تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾[2].

هذا وقد وضع الرسول ﷺ تصوراً عظيماً لحماية البيئة من العبث والإفساد وذلك في تشبيه رائع في حديثه الذي رواه مجاهد عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا... فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[3].

وإذا أمعنا النظر في هذا الحديث الشريف بأسلوبه الشائق لوجدنا أن الرسول ﷺ حدد مسؤولية حماية البيئة من الأخطار التي تهددها ـ بما أوتيته من جوامع الكلم ـ وألقى بتبعتها على عاتق المجتمع بأسره لا تخص فرداً بذاته ولا جماعة بعينها؛ لأن ما تقترفه جماعة من أعضائها سيعود بنتائجه الوخيمة بالضرورة على المجتمع بأسره ومن ثم دعوته ﷺ للأمة أن تأخذ على أيدي المفسدين وإصلاحهم، بهذه النظرة الشاملة العامة يحس المجتمع بأسره بأنه كتلة واحدة متماسكة ما يؤثر في إحداها يؤثر بالضرورة في الأخريات، وقد حافظ الإسلام على البيئة ومظاهرها

---

(١) المنهج الإسلامي لعلاج تلوث البيئة ص (٨٧).

(٢) سورة القمر، الآية (٢٨).

(٣) أخرجه من رواية النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ البخاري في الصحيح، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات برقم (٢٦٨٦).

ومقوماتها في منهجية متكاملة الجوانب متناسقة الأركان[1].

ثالثاً: أقوال فقهاء الإسلام:

لقد اهتم فقهاء المسلمين بالبيئة وسلامتها؛ لأن العبادة ليست مقصورة على أداء الشعائر الدينية فقط بل تضم الأخلاق والصدق والأمانة وعدم الأنانية وحب الخير لكافة عباد الله إنها تضم العمل بكافة مبادئ الإسلام وتعليماته وتشريعاته في شتى شؤون الحياة. فإماطة الأذى عن الطريق صدقة وعبادة، وحب الخير لأخيك كما تحبه لنفسك عبادة، وعدم تلويث الهواء والتربة عبادة.

إن استغلال موارد البيئة بهدف مصلحة ذاتية بحتة وإحداث ضرر بهذه الموارد وتغيرها وتشويهها وإيقافها عن العطاء واختفائها يعتبر أمراً منهياً عنه في الإسلام[2].

ومن القواعد الفقهية المقررة أن الضرر يزال لقوله ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري: «لا ضرر ولا ضرار من ضار ضاره الله ومن شاق شاق الله عليه»[3][4].

وقد تفرع عنها أن الضرر لا يزال بالضرر[5] ومن القواعد المتفرعة

---

(١) انظر: البيئة في الإسلام ص (١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) الإسلام والبيئة ص (٦٢).

(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص (٨٥) بيروت، دار الكتب العربية، ١٤٠٥/١٩٨٥م.

(٤) هكذا بلفظ الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي على ذلك.
انظر: المستدرك مع تلخيص الذهبي (٧٥/٢) بيروت، والشطر الثاني من الحديث أخرجه أبو داود في سننه عن طريق أبي حزمة عن رسول الله ﷺ أنه قال... الحديث.
انظر: سنن أبي داود مع عون المعبود (٦٤/١٠) ط٢١ المدينة المنورة المكتبة السلفية، ١٣٨٨/١٩٦٩م.

(٥) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص (٨٧).

عنها أيضاً أن درء المفاسد[1] أولى من جلب المصالح. فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة قوم دفع المفسدة غالباً لأن اعتناء الشرع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات.

ومن التراث الفقهي أنه قد احتكم أحد الأفراد إلى القاضي ابن القاسم المتوفى ١٩١هـ أراد أن يبني مصهراً مجاوراً لحائط جيرانه، فحكم ـ رحمه الله ـ بأن حق جيرانه منعه لما قد يسبب لهم من أذى وضرر بفعل الضجيج والدخان وخطر حدوث الحريق.

وقد وردت في العديد من كتب الفقه والقضاء حالات تقاض كان موضوعها التلوث البيئي فمثلاً في حالة الأضرار التي تنتج عن مصادر سبق إنشاؤها أو يراد إقامتها ولم يتم الاعتراض عليها آنذاك فقد قضى القاضي ابن عبد الرافع المتوفى في سنة ٧٣٣هـ بضرورة إيقافها درء خطرها عن الأفراد سواء كانت قديمة أو جديدة. لأنه لا يمكن تبرير استمرار الضرر لقدمه.

وقد تفاوتت أحكام القضاة على مصادر التلوث بالإزالة أو عدم استحداث أية زيادة عليها، حسب تقييم وتقرير القضاء للوضع الراهن من حيث المواقع وحجم الضرر القائم.

وقديماً أوكلت إلى المحتسب مهمة مراقبة تلوث بيئة المدينة والأسواق إضافة إلى مهامه التقليدية من مراقبة للوزن والكيل والقياس ونوعية البضائع ومنع الغش فالمحتسب قديماً يشبه اليوم موظف البلدية والصحة المكلف بمراقبة ومراعاة الشروط الصحية في الأسواق وما تضمه من مطاعم ومتاجر.

❋ ❋ ❋

(١) المرجع السابق ص (٩٠).

المبحث الرابع
محاربة الإسلام للتلوث البيئي
مع بيان أهم ما وضع من أحكام لتحقيق ذلك

تمهيد:

اتفقت جميع الشرائع على تحريم الإفساد في الأرض، ولفظ الإفساد عام، يشمل كل ما يصدق عليه هذا المعنى العظيم من الأمور الاعتقادية مثل الشرك والحسية مثل قطع شجرة غير مضرة أو قتل عصفور عبثاً وما إلى ذلك من أنواع الإفساد، فقد نهى النبي ﷺ قومه عن الإفساد في الأرض بعدما ذكرهم بما أنعم الله عليهم من عناصر الطبيعة قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[1] ومنهم شعيب عليه السلام الذي نهى قومه عن الإفساد في الأرض بعد أن أصبحت مهيأة لمصالحهم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[2] وقال جل شأنه إخباراً عن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٧٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٨٥).

(٣) سورة الأعراف، الآية (٨٥).

تحريم الشريعة الإسلامية للإفساد في الأرض:

يحرم الإسلام كل أسباب الفساد الحسي، ومنه تلويث البيئة، حماية لها وصيانة لحق الإنسان من الضرر الذي يلحق عناصر البيئة الذي تقوم حياته عليه، وقد عانى الإنسان في العصر الحاضر من مشكلة التلوث المتمثلة في كثرة العوادم الملوثة لنقاء الهواء التي تفرزها الآلات، وكثرة المخلفات الصناعية التي ترمي بها الدول الصناعية إلى الصحاري والفيافي في بعض دول العالم الفقير، ومياه المجاري التي تصرف في بعض الدول في الأنهار والبحيرات... إلخ من الملوثات الكثيرة وخاصة السامة منها.

إن هذه الأضرار يحرمها الإسلام بما فيها من إلحاق الضرر بحياة الإنسان والكائنات الأخرى التي قصد الشارع حمايتها؛ لأن هذا النوع من الإفساد إبادة جماعية لجنس الإنسان أو لبعض الكائنات الحية قال الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1] وصدق القاضي أبو يوسف إذ قال: «وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقل مع الصلاح شيء»[2].

كما أن الإسلام قد حرم الإسراف بكل أنواعه ومنه الإسراف في كيفية التعامل مع البيئة حتى فيما يتصل بالعبادة، فنهى عن الإسراف في الوضوء، ففي الحديث أن النبي ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف؟» فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نعم، وإن كنت على نهرٍ جار»[3].

ويشمل معنى الإسراف الاحتطاب والصيد الجائرين، فقد حرم الرسول ﷺ الاحتطاب من أشجار المدينة وما حولها استبقاءً للحياة النباتية التي يعتمد عليها الرعي، قال أبو يوسف: «قال بعض العلماء: إن تفسير هذا إنما هو لاستبقاء العضاة لأنها رعي المواشي من الإبل

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣٢).

(٢) الخراج لأبي يوسف ص (١٠٥)، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٣م.

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن في كتاب الطهارة برقم (٤٢٥).

والبقر والغنم، وإنما كان قوت القوم اللبن، وكانت حاجتهم إلى القوت أفضل من حاجتهم إلى الحطب»[1]، قلت: ما أجمل هذا التعليل وما أحكم رسول الله ﷺ كيف لا وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى!!

حماية البيئة في الإسلام:

يدعو الإسلام إلى استصلاح البيئة والمحافظة عليها من ذلك عنايته بما يمكن استصلاحه منه والانتفاع به مثل الزراعة والثروة الحيوانية التي حث الرسول ﷺ عليها إلى آخر لحظة من الحياة قال ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[2].

ورهب الرسول ﷺ من إتلاف الحيوانات عبثاً قال ﷺ: «من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة يقول يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة»[3].

ومن روائع حضارتنا الإسلامية ما دعا إليه القرآن وأكدته السنة المطهرة من تدريب المسلم إذا أحرم بالنسك على احترام حيوانات البيئة ونباتاتها، فلا يحل له قتل صيد البر والحرم أما صيد البحر فيحرم إذا كان محرماً وأما صيد الحرم فدائماً وكذلك قطع نبات الحرم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾[4]، وقال ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها... ولا يختلي خلاها»، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: «إلا الإذخر»[5].

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص (١٠٤).
(٢) سبق تخريجه ص (١٠).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٨٩/٤).
(٤) سورة المائدة، الآية (٩٥).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٣٥٣).

فقد استثنى الإذخر لحاجة الناس إليه واستثنى في حديث آخر بعض الحيوانات التي تضر الناس لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «أمرنا رسول الله ﷺ بقتل خمس فواسق في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور»[1]، فما أحوج البشرية إلى مثل هذه البيئة التي تعيش فيها الكائنات الحية بما فيها الإنسان آمنة على نفسها ومواردها وأرزاقها، ولم يكتف الإسلام بالدعوة إلى حماية البيئة بل فرض جزاءً للمحافظين عليها وجزاءً للمضرين بها.

شرع الإسلام الجزاء الذي يحافظ ويحمي البيئة من الفساد ويصونها من التدمير والعبث ويتمثل هذا في الجزاء الأخروي والدنيوي.

الجزاء الأخروي:

وهو ما أعده الله تعالى لعباده من الثواب للمطيعين ومن العقاب للعاصين، وقد تعلق هذا الجزاء على العناية بعناصر البيئة ترغيباً وترهيباً وثواباً وعقاباً، وهذا يؤكد أن الإسلام دين حياة فمن أفلت من العقوبة الدنيوية فإنه لا يفلت من العقوبة الأخروية فمن الترغيب غرس الأشجار وإنها صدقة جارية قال ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فله صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يزرؤه أحد إلا كان له صدقة»[2].

وكذلك الترغيب بالرحمة بالحيوانات والشفقة عليها ففي الحديث عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة (وهي ضرب من الطير) معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»[3].

وفي حديث آخر: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٩٨).
(٢) أخرجه مسلم في الصحيح في كتاب المساقاة، برقم (١٥٥٢).
(٣) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الجهاد برقم (٢٦٧٥).

فشرب منه، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[1].

وكذلك رهب الإسلام من تعذيب الحيوانات وتجويعها ففي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[2].

كما رهب من قطع الأشجار البرية النافعة عبثاً وتوعد الفاعلين بالنار قال ﷺ: «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار»[3] قال أبو داود: يعني من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها، صوب الله رأسه في النار[4].

أما الجزاء الدنيوي ـ وهو ما يناله المكلف المطيع في الدنيا من ثواب والعاصي من عقاب ـ فمنه نفع يتم في مقابل الإحياء وهو تمليك الأرض، قال ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[5] والإحياء إعمار الأرض الميتة التي لا يملكها أحد بالسقي أو الزرع أو الغرس سواء أكانت قرية من العمران أم بعيدة، ولا يشمل الإحياء ما تعلق بمصالح القرية أو المدينة كفنائها ومرعى ماشيتها ومحتطبها وطرقها ومسيل مائها[6].

كما أن هناك عقوبة دنيوية شرعت لدفع الفساد، وفي الإسلام جزاءان جزاء دنيوي وجزاء أخروي يكونان رادعاً قوياً في حماية الأحكام

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، حديث رقم (٢٤٦٦)، ومسلم، كتاب السلام، حديث رقم (٥٨٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٧٧/٣).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن برقم (٥٢٣٩).

(٤) سنن أبي داود (٧٨٣/٢) تحقيق كمال الحوت بيروت، دار الجنان، ١٩٨٩/١٤٠٩.

(٥) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ص (٧٤٣).

(٦) انظر: المغني لابن قدامة (٤٩/٨) القاهرة، هجر.

والحدود، وحمل الناس على تنفيذها[1]، فإذا فلت الإنسان من العقوبة الدنيوية فإنه لا يفلت من العقوبة الأخروية لهذا قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا بشر وإنكم لتختصمون إلي، وعسى أن يكون بعضكم ألحن بحجته من الآخر فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فإنما أقطع له بقطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها»[2] فكان أن تعرضت الواجبات الشرعية الخاضعة لصفتي الصحة والبطلان لكل من الحكمين القضائي والدياني في وقت واحد.

من أجل هذا فقد شرع الإسلام عقوبة صارمة للمفسدين في الأرض وهي عقوبة الحرابة قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾[3] قال الشوكاني: «اختلف في هذا الفساد المذكور في هذه الآية ماذا هو؟ فقيل الشرك، وقيل: قطع الطريق. وظاهر النظم القرآني أنه ما يصدق عليه أنه فساد في الأرض فالشرك فساد في الأرض والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغوير الأنهار فساد في الأرض، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد في الأرض»[4].

ولا ريب أن إهلاك الحرث والنسل والإسراف في الصيد والرعي إلى حد الجور وتغوير الأنهار وتلويث مجاري المياه والبحار لهو من أعظم الفساد وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾[5].

---

(١) الإسلام والبيئة (١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٣٥/٣) ومسلم في الصحيح برقم (١٧١٣) كتاب الأقضية.

(٣) سورة المائدة، الآية (٣٣).

(٤) فتح القدير للشوكاني ص (٣٣) القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، د. ت.

(٥) سورة البقرة، الآية (٢٠٥).

ومن العقوبات التي يمكن أن يفرضها ولي الأمر على المخلين بالبيئة التعزير والتعزير يتدرج من التوبيخ والوعظ والسجن والعقوبة المالية والجلد إلى القتل تعزيراً في بعض الأحيان وهو ما درجت عليه كثير من الدول، أما الجرائم الجسيمة فيمكن أن يطبق عليها حد الحرابة.

❋ ❋ ❋

المبحث الخامس

الحسبة والوقاية من التلوث مع ذكر نماذج تطبيقية وتوضيحية

لأهمية البيئة في الإسلام جعلت من الأمور التي تجب فيها الحسبة باعتبار أن القيام بعمل من أعمال التلوث يعد منكراً، وعلى المحتسب أن يزيل هذا المنكر. ولا شك أن الأخذ بالحسبة لمنع تلوث البيئة أمر يدل على عظمة التشريع الإسلامي وسموه. وقد نادى رجال القانون الوضعي ـ كما يقول الدكتور الشحات إبراهيم محمد منصور ـ حديثاً بالأخذ بنظام الحسبة كوسيلة لمنع تلوث البيئة، وقد نصت عدد من الدول في دساتيرها على حق الإنسان في بيئة سليمة ومنها المملكة العربية السعودية في المادة ٣٢ من النظام الأساسي للحكم، حيث نصت هذه المادة «على أن تعمل الدولة على المحافظة على البيئة وحمايتها وتطويرها ومنع التلوث عنها وينبني على ذلك أن هذا الحق الدستوري يعطي لكل إنسان أو جمعية إمكانية اللجوء إلى القضاء لطلب توقيف كل ما من شأنه أن يعرض البيئة للخطر. وقد بدأ بالفعل في بعض ولايات أمريكا إعطاء الحق للأفراد والجمعيات باللجوء إلى المحاكم المطالبة بتطبيق القواعد القانونية المتعلقة بالمحافظة على البيئة»[(١)].

وقد سبقت الشريعة الإسلامية هذه القوانين بتقرير هذا الحق عن طريق نظام الحسبة، والحسبة يتحدث عنها فقهاء الإسلام في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الحسبة هي: أمر بالمعروف إذا ظهر تركه. ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله[(٢)].

---

(١) انظر: البيئة في الإسلام ص (١٧٣، ١٧٤)

(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص (٢٨٤) ط١٤٠٣، بيروت، دار الكتب العلمية، وانظر الأحكام للماوردي ص (٢٠٧) سنة ١٤٠٤.

قال الإمام الغزالي: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي بعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون. فإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

فقد وردت آيات كثيرة وأحاديث نبوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال جل شأنه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾[3] فقد نعت المؤمنون بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4]، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بين به أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس.

أما الأحاديث فكثيرة جداً منها قوله ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[5].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣٣٣/٢) للإمام الغزالي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٠٤).

(٣) سورة التوبة، الآية (٧١).

(٤) سورة آل عمران، آية (١١٠).

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر... برقم (٤٩).

وعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: «يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[1] فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه»[2].

في الآيات والأحاديث السابقة دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمعروف والمنكر لفظان عامان فالمعروف يتناول كل ما هو متعارف على أنه صالح وخير ونافع من أخلاق وعادات وأعمال تعود بالفائدة والبركة على الفرد والمجتمع معاً دون أن يكون في ذلك بغي ولا إفراط ولا تفريط ويدخل في ذلك جميع المأمورات والممدوحات القرآنية والنبوية.

والمنكر يتناول كل ما هو ضار وسيئ من أخلاق وعادات وأفعال تعود على الفرد والمجتمع بالخسارة والإيذاء في المال أو البدن أو في البدن أو في العقل أو النسل ويدخل في ذلك جميع ما نهت عنه الشريعة الإسلامية[3].

ووظيفة المحتسب هي منع الناس من مواقف الريب ونطاق التهم، ويقدم الإنكار ولا يعجل بالتأديب قبل الإنذار أو زوال كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد[4].

وإليك نماذج تطبيقية من تراثنا الفقهي: قال أبو يعلى في الأحكام السلطانية وللمحتسب أن يمنع أرباب السفن من حمل ما لا تسعه ويخاف منه غرقها، وكذلك يمنع من المسير عند اشتداد الريح، وإذا

---

(١) سورة المائدة، الآية (١٠٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/١) واللفظ له، وابن ماجه في السنن كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف برقم (٤٠٠٥).

(٣) انظر: البيئة في الإسلام ص (١٧٩).

(٤) انظر: الأحكام السلطانية للماوردي ص (٢٠٧)، ومنهاج المسلم لأبي بكر الجزائري ص (٦٤، ٦٥) القاهرة، دار الكتب السلفية.

حمل فيها الرجال والنساء يحجز بينهم بحائل وإذا اتسعت السفن نصب للنساء مخارج للبراز لئلا يتبرجن عند الحاجة.

وإذا كان في أهل الأسواق من يختص بمعاملة النساء راعى المحتسب سيرته وأمانته، فإذا تحققها منه أقره على معاملتهم وإن ظهرت منه الريبة وبان عليه الفجور منعه من معاملتهن وأدبه على التعرض لهن... وإذا وضع الناس الأمتعة وآلت الأبنية في مسالك الشوارع والأسواق ارتفاقاً لينقلوا حالاً بعد حال، مكنوا منه وإن لم يستضر به المارة ومنعوا منه إن استضروا به، ويمنعهم من إخراج الأجنحة والساباطات، ومجاري المياه، وآبار الحشوش سواء أضر أو لم يضر كما يمنع البناء في الطريق[1].

ويقول القرشي في معالم القربة في أحكام الحسبة: «اعلم أن هذا الباب من أهم الأشياء التي ينبغي للمحتسب الاعتناء بها والكشف عنها ويجب على المحتسب أن لا يمكن أحداً من بيع العقاقير وأصناف العطر إلا من له معرفة وخبرة وتجربة ومع ذلك يكون ثقة أميناً في دينه، عنده خوف من الله تعالى. فإن العقاقير إنما تشترى من العطارين مفردة ثم تركب غالباً، وقد يشتري الجاهل عقاراً من العقاقير معتمداً على أنه هو المطلوب ثم يبتاعه منه جاهل آخر فيستعمله في الدواء متيقناً منفعته فيحصل له باستعماله عكس مطلوبه ويتضرر[2].

والمحتسب يفرض رقابة صارمة لمنع مصدر الضرر فيلزم أهل الصناعات التي تستعمل مواقد النار لصهر المعادن أو غيرها أن تكون مصانعهم بعيدة عن الأماكن التي يخشى فيها من اشتعال الحرائق كالمناطق السكنية أو أسواق تجارة الأقمشة[3].

ويشرف المحتسب أو أعوانه إشرافاً شاملاً على ما يمكن أن يضر

---

(١) الأحكام السلطانية ص (٢٢٠).

(٢) ص (١٢٠) نقل وتصحيح روبين لوي، مطبعة دار الفنون بكامبردج ١٩٣٧م.

(٣) خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين لعبد الرحمٰن الفاس ص (٣٠) الدار البيضاء، دار الثقافية ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤م.

بالصحة العامة في الشوارع كربط الدواب على الطريق ورمي أزبال الدور والمطاعم أو إرسال الماء المستعمل من الميازيب أو تجمع الأوحال ويشمل نظره في ذلك ما ترجع تبعته الشرعية إلى السلطة أو إلى الأفراد[1]. وكان المحتسب يأمر الفرانين والخبازين برفع سقائف أفرانهم وأن يجعلوا في سقوفها منافس واسعة للدخان ويأمر بكنس بيت النار في كل تعميرة وغسل المعاجن وتنظيفها ولا يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه لأن في ذلك مهانة للطعام، وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه أو بدنه. وكون العجان ملثماً حتى إذا عطش أو تكلم لا يقطر شيء من مخاطه أو بصاقه في العجين، كما يجب طرد الذباب عن العجين[2].

وفي الحسبة على القصابين يمنعهم المحتسب من الذبح على أبواب محلاتهم حتى لا يلوثوا الطريق بالدماء والروث. لأن مثل هذا العمل منكر ينبغي المنع منه حتى لا يضيقوا الطريق. وإيذاء المارة بسبب (ترشيش النجاسة)[3].

❊ ❊ ❊

(١) خطة الحسبة ص (٣٤).
(٢) معالم القربة ص (٩١).
(٣) معالم القربة ص (٩٩).

المبحث السادس
أهم صور التلوث البيئي المعاصرة

تعريف تلوث البيئة:

بعد أن بينت في المبحث الأول تعريف التلوث لغةً واصطلاحاً يسرني أن أعرف هنا تلوث البيئة، ورد في النظام العام للبيئة في المملكة العربية السعودية الصادر برقم م/٣٤ في ١٤٢٢/٧/٢٨ بأنه «وجود مادة أو أكثر من المواد أو العوامل بكميات أو وصفات أو لمدة زمنية تؤدي بطريق مباشر أو غير مباشر إلى الإضرار بالصحة العامة أو بالأحياء أو الموارد الطبيعية أو الممتلكات أو تؤثر سلباً على نوعية الحياة ورفاهية الإنسان».

إن هناك ملوثات طبيعية مثل التي تنتج عن البراكين أو الأتربة والغبار الذي تثيره الرياح وغيرها وتقدر كمية الرماد البركاني الذي ينطلق من بعض البراكين مثل بركان «كراكتو» بأندونيسيا أو بركان الشيسون في المكسيك والذي انطلق عام ١٩٨٢ بآلاف الأطنان[١].

أما المؤثرات غير الطبيعية «البشرية» فهي مثل هذه الغازات التي تلوث الهواء التي تصدر من المصانع وإحراق الوقود في وسائط النقل من طائرات وقطارات وسيارات وغيرها والتي ذكر في موضع الجزيرة نت[٢] «أن باحثين ذكروا أن تلوث الهواء يسبب تصلب الشرايين في أحدث دراسة طبية في هذا المجال.

وكذلك النفايات الصلبة أو السائلة التي تنتجها الصناعات والاستخدامات البشرية ولعل من أهم الملوثات المروعة والتي تؤثر على

---

(١) التلوث الجوي لعلي حسن موسى ص (٢٢) دار الفكر ١٩٩٠م.

(٢) موقع الجزيرة يوم السبت ١٤٢٦/١/١٣ W.W.W.alja3eera-ner .

الأرض كلها هي ما يعرف بالاحتباس الحراري والمطر الحمضي وتآكل طبقة الأوزون والتصحر واستنزاف الموارد الطبيعية وتلوث المياه[1].

وسوف أتحدث عن هذه الملوثات المدمرة بإيجاز:

أولاً: الاحتباس الحراري:

هي ظاهرة أطلق عليها أيضاً جملة الاحترار (الدفء العالمي) وسبب هذه الظاهرة احتباس غاز ثاني أكسيد الكربون والغازات الأخرى في المناطق المحيطة بسطح الأرض وعدم تشتته في عموم الغلاف الجوي وهذا يزيد من الحرارة فوق سطح الأرض وعملية ارتفاع درجة الحرارة فوق سطح الأرض سيؤدي إلى ذوبان الجليد في المناطق القطبية الشمالية والجنوبية وسيعمل على ذوبان الجليد في قمم الجبال الشاهقة المغطاة بالثلوج وهذا الذوبان للثلوج سوف يتحول إلى مياه تصب في البحار والمحيطات ومن ثم سيرتفع منسوبها مما سيؤدي إلى غرق جزر وسواحل في مدن كثيرة.

ثانياً: الأمطار الحمضية:

تتكون الأمطار الحمضية بسبب تفاعل غاز ثاني أكسيد الكبريت SO2 الذي ينتج من عمليات احتراق محطات توليد الطاقة والبراكين والينابيع الكبريتية ومصانع الفحم والأسمدة ومعامل تكرير النفط والصناعات البتروكيميائية وغيرها، حيث يتفاعل هذا الغاز مع الأكسجين بوجود الأشعة فوق البنفسجية التي تصدر من الشمس وينتج من هذا التفاعل ثالث أكسيد الكبريت SO3 الذي يتحد مع جزيئات بخار الماء ليكون حمض الكبريت H2SO4 والذي يسقط مع ماء المطر مكوناً أمطاراً حمضية.

---

(١) رعاية البيئة من التلوث رؤية اقتصادية إسلامية للدكتور يوسف بن عبد الله العريني ص (١٤٠) الرياض، دار طويق، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

ثالثاً: طبقة الأوزون:

يتواجد غاز الأوزون O3 بصورة طبيعية في المستويات المنخفضة من طبقات الجو وهو يشكل نسبة قدرها ٠.٠٢ جزء من المليون.

وكلما زادت نسبة هذا الغاز زادت المشاكل التي يسببها مثل التهاب العيون والرئتين ويؤثر على القدرة العقلية ومرض الربو.

كما أن تفكيك الأوزون في الجو وانخفاض نسبته الطبيعية يسبب مشاكل خطيرة يأتي على رأسها سرطان الجلد الناتج من الأشعة فوق البنفسجية التي تصل إلى الأرض وتؤثر على الجلد مباشرة مسببة هذا المرض حيث إنه يقوم بامتصاص معظمها في الأحوال الطبيعية وإن أكثر الملوثات التي تعمل على تدمير الأوزون في الجو ونقصانه هي الأكاسيد النتروجينية والتي تنتج من التفجيرات النووية والطيران الخارق للصوت أو فوق الصوتي واستخدام الكيماويات والأسمدة النتروجينية للمزروعات وكذلك مركبات الكلورو فلورو كربونات وهي تنتج من المكيفات والثلاجات وأجهزة التبريد عموماً التي تستخدم الفريون في تبريدها وكذلك البوليسترين والدهانات والروائح العطرية والمبيدات الحشرية وما إلى ذلك[1].

رابعاً: تلوث المياه:

لعل تلوث المياه من المشاكل التي يلاحظها الجميع حتى أولئك الذين لا يدركون شيئاً عن الملوثات البيئية لأنه يلاحظها على النهر الذي يمر به يومياً وربما لاحظ التلوث على السواحل البحرية في المدن التي يسكن فيها.

ومن أكثر الأسباب التي تؤدي إلى تلوث المياه هو تصريف

---

(١) انظر: رعاية البيئة من التلوث ص (١٤١ حتى ١٤٤)، وحماية البيئة الخليجية (التلوث الصناعي وأثره على البيئة العربية والعالمية لخالد بن محمد القاسمي ووجيه جميل البعيني ص (٧٨ حتى ٨٣) الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٥م.

النفايات قبل معالجتها وكذلك رمي المخلفات الصلبة والسائلة في مياه الأنهار وربما البحيرات كما أن المحيطات والبحار لم تسلم من التلوث إذ أن السفن والناقلات النفطية تنظف بقاياها في عرض البحار وتقدر كمية النفط المتسرب في البحار والمحيطات سنوياً بنحو ٥ ملايين طن والطن الواحد من النفط يغطي مساحة من الماء قدرها ١٢كم وهذا لا شك من ملوثات المياه وما يجرى بها من تفجيرات نووية وكذلك نتيجة الإشعاعات الذرية التي تنتج من حفظ النفايات النووية في أعماق المحيطات[١].

خامساً: استنزاف الموارد:

إن استنزاف الموارد الطبيعية هو الأنانية الحقة لأن هذا يعني أن البشر الذين يعيشون على الأرض الآن سيستنفذون جميع الموارد الطبيعية المفيدة التي يجدونها على الأرض وليس بالضرورة أن تكون هناك حاجة ماسة لذلك بل ربما في سبيل الترف والإسراف.

سادساً: التصحر:

يعرف التصحر بأنه التدهور الكلي أو الجزئي لعناصر الأنظمة البيئية ينجم عنه تدني القدرة الإنتاجية لأراضيها وتحويلها إلى مناطق شبيهة بالمناطق الصحراوية بسبب الاستغلال المكثف لمواردها من قبل الإنسان وسوء أساليب الإدارة التي يطبقها. ولعل من أهم مظاهر التصحر انجراف التربة وزحف الرمال وتدهور الغطاء النباتي وكذلك التملح الذي يحدث للتربة[٢].

❋ ❋ ❋

(١) انظر: رعاية البيئة من التلوث ص (١٤٥).

(٢) المرجع السابق (١٤٤، ١٤٥).

المبحث السابع
أهم الاتفاقيات الدولية الضابطة لقضايا البيئة والموقف الإسلامي منها

ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: أهم الاتفاقيات الدولية الضابطة لقضايا البيئة.

المطلب الثاني: الموقف الإسلامي.

❋ ❋ ❋

المطلب الأول
أهم الاتفاقيات الدولية الضابطة لقضايا البيئة

ذكرنا في المبحث السابق أهم صور التلوث المعاصر وفي هذا المبحث أذكر أهم المؤتمرات واللقاءات على المستوى العالمي والقاري والإقليمي لصون البيئة من هذه المظاهر البيئية الخطيرة ثم الموقف الإسلامي منها.

المؤتمرات واللقاءات الدولية التي تعقد من أجل صيانة البيئة من التلوث كثيرة ولكن يمكن الإشارة إلى أهمها وهي كما يلي:

١ ـ انعقاد مؤتمر استوكهولم في السويد في ١٥ حزيران من عام ١٩٧٢م حيث حضر المؤتمر ما يزيد على ١١٥ دولة وكانت وقتها القوى الدولية العظمى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي على طرفي نقيض ويعيشان حرباً باردة في سباق مذهل للتسلح كل على حده، لذا فإن المؤتمر لم يخرج بالنتائج المتوقعة منه لأن خوف كل طرف من الآخر كان سائداً وقتها ولكن مع ذلك أثمر المؤتمر عن نتائج في الحفاظ على البيئة من التلوث وصدرت وثائق المؤتمر بكتاب يضم

١٢٠٠ صفحة وهي تشدد على حماية البيئة والاهتمام بها كما دعى المؤتمر، جميع الدول إلى التعاضد لإيجاد سياسة موحدة تجاه البيئة[١].

ومنها عدد كبير من الدول الإسلامية وقد صدرت عن المؤتمر عدة توصيات كلها تحث على حماية البيئة واتخاذ إجراءات عملية في هذا الجانب، بيد أن هذه المقترحات والتوصيات لم تدخل حيز التنفيذ، وأخذت مشكلة التلوث تتفاقم مع ازدياد التنمية من أجل ذلك انعقد مؤتمر:

٢ ـ ريو دي جانيرو في العاصمة البرازيلية في الفترة ما بين ٣ ـ ١٤ حزيران لعام ١٩٩٢م والذي أطلق عليه قمة الأرض وحضرته ١٨٥ دولة وقامت على تنظيمه هيئة الأمم المتحدة وكانت أكبر تجمع دولي على الإطلاق لمواجهة وصون البيئة من التلوث ولعل الشعور العالمي بالمشكلة الحقيقية للتلوث البيئي هو الذي حدى بهم للاهتمام والحضور والمشاركة.

وقد صدر عن القمة توصيات ونتائج جميلة ورائعة كما أنه وضع عدد ٢٧ مبدأ لخطة عمل تتمشى معها الدول للحد من التلوث البيئي وقد سبق عرضها سابقاً.

كما صدر عن القمة وثيقة مكونة من ٨٠٠ صفحة أطلق عليها جدول أعمال القرن الحادي والعشرين وهي تدور حول التنمية الاقتصادية البيئية كي تستمر في اتجاهها السليم وهي تعم جميع ميادين الأنشطة الاقتصادية ومطابقتها مع البيئة[٢]. وقد حضر أغلب الدول الإسلامية هذا المؤتمر العظيم، وقد تم الاتفاق فيه على مقترحات عديدة وكانت أهم المنجزات هي:

١ ـ التوقيع على اتفاقية حماية التنوع البيئي.

٢ ـ التوقيع على اتفاقية حماية الأرض من التقلبات المحكمة

---

(١) رعاية البيئة من التلوث ص (١٨٠).

(٢) انظر: رعاية البيئة من التلوث (١٨١ ـ ١٨٢).

والحفاظ على طبقة الأوزون والحؤول دون ظاهرة الاحتباس الحراري.

٣ ـ التوقيع على جدول أعمال القرن ٢١ من قبل كل الدول تقريباً (١٣٩ دولة).

٤ ـ تقديم المساعدات المالية من قبل الدول الغنية إلى الدول النامية والفقيرة للمساهمة في حماية البيئة[١].

٣ ـ المؤتمر البيئي الذي عقد في مدينة كيوتو اليابانية أواخر ١٩٩٧م والذي عرف فيما بعد بمعاهدة كيوتو حيث وقع اتفاق ينص على تقليص انبعاث الغازات مثل ثاني أكسيد الكربون والتي يتوقع أنها السبب في ظاهرة الاحتباس الحراري والتي تسبب تغير المناخ الذي يشهده العالم وتدخل الاتفاقية حيز التنفيذ إذا صادق عليها ٥٥ دولة مسؤولة عن انبعاث ٥٥٪ من الغازات الملوثة، علماً بأن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت المصادقة على هذه المعاهدة على الرغم من أنها أكثر الدول انبعاثاً للغازات حسب مصادر عدة[٢].

٤ ـ كما عقد مؤتمر بون في عام ٢٠٠١م بألمانيا في محاولة لإنقاذ معاهدة كيوتو الخاصة بظاهرة الاحتباس الحراري.

٥ ـ مؤتمر الأمم المتحدة للمناخ في مدينة مراكش المغربية وقد حضر مندوبو ١٨٠ دولة هذا المؤتمر والذي قبله وكان هدفه كسابقه تعزيز معاهدة كيوتو.

٦ ـ ومن المؤتمرات المهمة أيضاً قمة الأرض أو مؤتمر القمة العالمية للتنمية المستدامة والذي عقد في جنوب إفريقيا في مدينة جوهانسبرج عام ٢٠٠٢م وقد حضره أكثر من ١٦٥ دولة.

٧ ـ مؤتمر البيئة عام ٢٠٠٥ في أبوظبي بالإمارات العربية المتحدة وقد ركز المؤتمر على تنمية مصادر النقل الصديقة للبيئة[٣].

---

(١) حماية البيئة الخليجية ص (١٤١).

(٢) رعاية البيئة من التلوث (١٨٢ ـ ١٨٣).

(٣) انظر: رعاية البيئة من التلوث ص (١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦).

كما عقدت عدة اتفاقيات بيئية وقد شاركت فيها جميع الدول الإسلامية بلا استثناء، وكانت الدول الإسلامية ترفض أن تدفع ثمن تلوث البيئة لأن مؤتمر ريو دي جانيرو كان يهدف إلى تكليف دول الخليج وغيرها من الدول المنتجة للنفط دفع ضريبة الكربون ومنع الدول الغابية من قطع الأشجار، وقد تناست الدول الصناعية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ـ التي رفضت التوقيع على الاتفاقيات ـ أنها مصدر التلوث الإشعاعي ومصدر تدمير طبقة الأوزون بفعل منتجاتها الكيميائية المدمرة.

أما على الصعيد العربي فلم تبرز أية محاولات فعالة إزاء قضايا البيئة. ومرد ذلك في رأينا إلى العوامل التالية:

١ ـ تردي الأوضاع الاقتصادية التي تحول دون تمويل مشاريع التنمية البيئية.

٢ ـ الخلافات العربية التي تمنع من اتخاذ موقف عربي موحد إزاء قضايا البيئة وغيرها من القضايا المصيرية.

٣ ـ وجود إسرائيل في قلب الوطن العربي بحيث توجهت كافة الجهود العربية نحو معركة المصير العربي الإسرائيلي، وحالياً نحو الحل السلمي الشرق أوسطي، مما يقف حائلاً في وجه المشاريع التنموية العربية.

٤ ـ الانعدام شبه الكامل للتربية والإعلام البيئيين، وجهل العامة لمشكلة التلوث البيئي.

٥ ـ ضعف التخطيط والبرمجة في استيراد واستخدام وسائل النقل والآلات على أنواعها إضافة إلى استخدام الأدوية والمبيدات الحشرية دون تفحصها والتأكد من آثارها.

٦ ـ قيام المنشآت الصناعية في وسط التجمعات السكنية مما يخلق صعوبة في التخطيط لمنع التلوث المدني[١].

---

(١) حماية البيئة الخليجية ص (١٤١ ـ ١٤٢).

من جهة أخرى، ولأن دول الخليج عرفت نقلة تطويرية وتنموية مميزة في العقود الأخيرة من القرن العشرين، كان لا بد من أن تدفع ضريبة ذلك تلوثاً في بيئتها النظيفة نتيجة الصناعات البترولية المكثفة، إزاء هذه التطورات، كان لمجلس التعاون الخليجي دوره في التعرض لمشاكل التلوث البيئي ففي ١٩٨٥/٤/١٦ عقدت لجنة التعاون البيئي بدول مجلس التعاون في الدوحة اجتماعها الأول لمواجهة الاتحادات البيئية المستجدة في المنطقة. وقد توصلت اللجنة إلى قرارات من أهمها:

١ ـ وضع نظام أساس لحماية البيئة يتضمن القواعد الأساسية للمحافظة على البيئة وحمايتها وتلتزم به كافة الدول الأعضاء.

٢ ـ وضع سياسة واضحة المعالم لمعالجة المشاكل البيئية تستهدف حماية البيئة من التلوث والمحافظة على الموارد الطبيعية والبشرية.

٣ ـ إنشاء واستكمال الأجهزة التشريعية والتنسيقية ودعم الأجهزة التنفيذية المناط بها تنفيذ أنظمة ومقاييس وقواعد حماية البيئة.

٤ ـ مراعاة اعتبارات البيئة وإعطاؤها أولويات متقدمة.

٥ ـ اعتماد مبدأ التقييم البيئي للمشاريع[١].

بيد أن التنفيذ العملي يبقى دون مستوى الطروحات النظرية.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
الموقف الإسلامي من الاتفاقيات الدولية

إن من واجب الحكام المسلمين ودولهم أن يحافظوا على البيئة وأن يلتزموا بجميع الاتفاقيات الدولية التي أشرت إليها سابقاً إذا لم يكن فيها ما يتعارض مع النصوص الشرعية والقواعد الكلية في شريعتنا الإسلامية ولم يكن فيها ضرر على موارد أمتنا كدفع ضريبة الكربون من

(١) انظر: حماية البيئة الخليجية ص (١٤٢حتى ١٤٤).

مدخرات الدول المصدرة للنفط ومنع الدول الغابية من قطع الأشجار، وهذا من العمل بالسياسة الشرعية ولا يخلو من القول به إمام كما ذكر ابن القيم في الطرق الحكمية فالسياسة هي: «ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي»[1].

فإن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ـ وهو العدل ـ الذي قامت به الأرض والسماوات، فإن ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه[2].

وقال ابن القيم أيضاً: «فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين، ليست مخالفة له»[3].

وعرف أستاذنا الدكتور محمد بن عبد الله القاضي ـ رحمه الله ـ علم السياسة الشرعية بأنه: «العلم الذي يبحث فيه عما تدبر فيه شؤون الدولة الإسلامية من القوانين والنظم التي تتفق وأصول الإسلام وإن لم يقم على كل تدبير دليل خاص أو فعل شيء من صاحب الولاية العامة لمصلحة يراها فيما لم يرد فيه نص خاص وفي الأمور التي من شأنها ألا تبقى على وجه واحد. بل تتغير وتتبدل وتختلف باختلاف المصالح والعصور والأحوال»[4].

وخلاصة القول أن مجال عمل السياسة الشرعية هو تلك الأحكام التي من شأنها:

أ ـ ألا تبقى على وجه واحد، بل تختلف باختلاف العصور والأحوال وعلى حسب ما يترتب عليها من النتائج والآثار.

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص (٢٢) بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) الطرق الحكمية ص (٢٣).

(٣) الطرق الحكمية ص (٢٣).

(٤) السياسة الشرعية مصدر للتقنين بين النظرية والتطبيق ص (٣٥ ـ ٣٦) طنطا، مطبعة دار الكتب الجامعية الحديثة، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

ب ـ وكذلك الأحكام التي لا نجد لها دليلاً خاصاً من الكتاب أو السنة أو الإجماع، ولا لمحلها نظير نقيسه عليه مما سبق فيه حكم يعتبر من الفقه العام وبالتالي الأحكام التي ترجع إلى قواعد رفع الحرج ودفع الضرر.

والحكم بالعدل والعمل بمبادئ سد الذرائع والاستصحاب والاستحسان ومراعاة العرف والمصالح المرسلة[١].

وهنا لا بد من مناقشة قضية مهمة وهي مدى صلاحية الإمام (الحاكم) في حماية البيئة، ومن ذلك الالتزام بالقرارات الأممية التي لا تتعارض مع ديننا ولا تضر بنا، وسن القوانين التي تحمي البيئة:

إن العالم المعاصر لا يزال يبحث عن التشريعات والتنظيمات التي تكفل حماية البيئة من التلوث وإيقاف استفحال المشكلة وحتى عام ١٩٧٧م أي منذ أقل من عشرين عاماً فقد كان هناك مشروع قانون في الولايات المتحدة لإعطاء الحق لأي فرد برفع دعوى قضائية ضد من يتسبب في إحداث تلوث بيئي أو من يقوم بأي عمل من شأنه أن يهدد بحدوث التلوث[٢].

ومن القواعد الفقهية المهمة قاعدة «تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة»[٣]. هذه القاعدة نص عليها الشافعي وقال: «منزلة الإمام من الرعية منزلة الولي من اليتيم»[٤] هذه القاعدة مهمة جداً وأساسية، لأنها ذات مساس بالسياسة الشرعية وتنظيم الدولة الإسلامية إذ تضع حداً للحاكم في كافة تصرفاته، وأيضاً لكل من يتولى أمراً من أمور المسلمين[٥].

---

(١) السياسة الشرعية مصدر للتقنين ص (٩٦١).

(٢) الإسلام وحماية البيئة من التلوث ص (٢٢٨) حسين مصطفى غانم ـ جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص (١٢١).

(٤) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص (١٢١).

(٥) الإسلام وحماية البيئة من التلوث ص (٢٢٨).

ولهذه القاعدة سند في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[1]، وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته: الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته)»[2].

وعن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة»[3]، وعنه في رواية أخرى «ما من وال على رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة»[4].

ولهذه القاعدة تطبيقات عديدة في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية، ولها فائدة كبيرة في مجال التعامل مع البيئة الطبيعية لحماية مواردها من التلوث إذ يكون للإمام عند الترخيص بإقامة مشروع ما ـ خاصاً كان أو عاماً، زراعياً أو صناعياً أو علمياً ـ أن يضع الاشتراطات والضمانات التي يرى أنها كفيلة بحماية البيئة من التلوث واستنزاف مواردها.

إن من واجب الإمام أن يقيد الموافقة على استغلال الموارد النباتية والحيوانية بما يراه من الشروط الضرورية للمحافظة عليها. ومن هذه الشروط على سبيل المثال: منع ممارسة الصيد بالنسبة لبعض الحيوانات أو الطيور أو قطع الأشجار أو منع الصيد في أماكن معينة أو عدم قطع

---

(١) سورة النساء، الآية (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن برقم (٨٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح باب من استرعى رعية ظلم ينصح. انظر: صحيح البخاري مع فتح الباري، ترقيم فؤاد عبد الباقي (١٢٦/١٣، ١٢٧).

(٤) المرجع نفسه (١٢٦/١٣، ١٢٧).

الأشجار في مناطق معينة وفرض قيود زمنية كي يتيح للحيوانات أو الطيور أو النباتات الفرصة الكافية للنمو والتكاثر[1].

ومن المسائل المهمة التي تنبني على القاعدة الفقهية السالفة الذكر هو تقديم من يخالف الأنظمة واللوائح الخاصة بالبيئة إلى القضاء وأن يختار قضاة أكثر تفطناً وأكثر يقظة لوجود الحجاج وسياسة الخصوم وأضبط للفقه والقانون.

وفي المملكة العربية السعودية بذلت جهود مضنية في تحقيق التوازن بين البيئة والتنمية فأنشئت الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها وأنشئت المديرية العامة للأرصاد وحماية البيئة وصدر مرسوم ملكي كريم يحمل رقم م/٣٤ وتاريخ ١٤٢٢/٧/٢٨هـ وينص على الموافقة على النظام العام للبيئة ونشر في الجريدة الرسمية وأصبح نظاماً يعمل به بعد سنة من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية للدولة ويتكون من ٢٤ مادة وذكر في المادة ١٨ مراعاة المادة ٢٣٠ من اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار الموافق عليها بالمرسوم الملكي الكريم ذي الرقم م/١٧ وتاريخ ١٤١٦/٩/١١هـ مع عدم الإخلال بأي عقوبة أشد تقررها أحكام الشريعة الإسلامية أو ينص عليها نظام آخر...

فهنا نجد المملكة تلتزم بالقوانين الدولية شريطة ألا تخالف أحكام الشريعة أو أي نظام من أنظمة المملكة المرعية.

❋ ❋ ❋

(١) الإسلام وحماية البيئة من التلوث (٢٢٩ ـ ٢٣٠).

مشروع القرار بشأن البيئة
والحفاظ عليها من منظور إسلامي

إن مجلس مجمع الفقه الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في دورته التاسعة عشرة بالشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) من ٢٦ إبريل إلى الأول من مايو ٢٠٠٩م.

بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حوله. قرر ما يلي:

١ ـ أن بيئتنا التي أنعم الله علينا بها ومنحنا إياها، يتعين علينا أن نسعى لحمايتها والمحافظة عليها لتؤدي دورها كما أراد الله.

٢ ـ يحرم الإسلام كل أسباب الفساد الحسي، ومنه تلويث البيئة، حماية لها وصيانة لحق الإنسان من الضرر الذي يلحق عناصر البيئة التي تقوم حياته عليها.

٣ ـ يجب على ولي الأمر أن يعاقب المخلين بالبيئة تعزيراً بما يردعهم ويكف شرهم.

٤ ـ يجب على الدول الإسلامية أن تلتزم بجميع الاتفاقيات الدولية إذا لم يكن فيها ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية ولم يكن فيها ضرر على موارد الأمة، وهذا من العمل بالسياسة الشرعية.

❋ ❋ ❋

الخاتمة

وبعد هذا التجوال السريع في البيئة وقضاياها من منظور إسلامي، أود ذكر أبرز نتائجها على النحو الآتي:

١ ـ إن التعريف الإجرائي للبيئة أنها المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان بما يشمل من ماء وهواء وفضاء وتربة وكائنات حية، ومنشآت أقامها لإشباع حاجاته.

٢ ـ علاقة الإنسان بالبيئة علاقة مضبوطة بضوابط الإسلام فالإنسان المسلم يحافظ على البيئة لا لسلامه وسلامته فقط وإنما يحافظ على البيئة أيضاً لسلامة الكون، والقرآن يدعو إلى إسلامية العلاقة بين الإنسان والبيئة.

٣ ـ إن القرآن قد وضع مبدأً عاماً بمقتضاه يجب على الإنسان أن يجنب نفسه المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها، وهذا المبدأ يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، كما اهتمت السنة النبوية المطهرة بالبيئة وعناصرها في أحاديث كثيرة، كما اهتم فقهاء المسلمين بالبيئة وسلامتها؛ لأن العبادة ليست مقصورة على أداء الشعائر الدينية فقط بل تشمل الأخلاق والصدق والأمانة . . . وعدم تلوث الهواء والتربة عبادة.

٤ ـ لقد حارب الإسلام التلوث البيئي لأنه من الفساد الحسي، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[2].

٥ ـ من العقوبات التي يمكن أن يفرضها ولي الأمر على المخربين بالبيئة التعزير، والتعزير يتدرج من التوبيخ والوعظ والسجن والعقوبة

---

(١) سورة البقرة، الآية (٩٥).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٨٥).

المالية والجلد إلى القتل تعزيراً في بعض الأحيان وهو ما درجت عليه كثير من الدول، أما الجرائم الجسيمة فيمكن أن يطبق عليها حد الحرابة.

٦ ـ لأهمية البيئة في الإسلام جعلت من الأمور التي تجب فيها الحسبة باعتبار أن القيام بعمل من أعمال التلوث يعد منكراً، وعلى المحتسب أن يزيل هذا المنكر، وقد سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية بتقرير هذا الحق عن طريق نظام الحسبة.

٧ ـ من أهم صور التلوث البيئي المعاصر الاحتباس الحراري الدفء العالمي والأمطار الحمضية، وتفكيك الأوزون في الجو وتلوث المياه والتصحر.

٨ ـ من أهم الاتفاقيات الدولية الضابطة لقضايا البيئة اتفاقية ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢م، ومعاهدة كيوتو التي عقدت في طوكيو عام ١٩٩٧م وقمة الأرض التي عقدت في جنوب إفريقيا عام ٢٠٠٢م، فما موقف الفقه الإسلامي من هذه الاتفاقيات؟ إن واجب الحكام المسلمين أن يحافظوا على البيئة وأن يلتزموا بجميع الاتفاقيات الدولية إذا لم يكن فيها ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية وقواعدها الكلية، وهذا من باب العمل بالسياسة الشرعية وهي ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي.

❋ ❋ ❋

أهم المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الأحكام، للماوردي، سنة ١٤٠٤هـ.
٣ ـ الأحكام السلطانية، لأبي يعلى، بيروت، دار الكتب العربية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٤ ـ إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٥ ـ الإسلام والبيئة، لمحمد مرسي محمد مرسي، الرياض، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٦ ـ الإسلام وحماية البيئة من التلوث، حسين مصطفى غانم، مكة، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٧ ـ الأشباه والنظائر، لابن نجيم، بيروت، دار الكتب العربية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٨ ـ البيئة في الإسلام، الشحات إبراهيم محمد منصور، القاهرة، دار النهضة العربية، د. ت.
٩ ـ تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الغد العربي.
١٠ ـ تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، المكتبة التوفيقية، ومكتبة الدعوة الإسلامية.
١١ ـ التلوث البيني، لعلي حسن موسى، دار الفكر، ١٩٩٠م.
١٢ ـ حماية البيئة الخليجية (التلوث الصناعي وأثره على البيئة العربية والعالمية)، خالد محمد القاسمي ووجيه جميل البيعني، إسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٥م.
١٣ ـ الخراج، لأبي يوسف، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٣م.
١٤ ـ خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدبين، لعبد الرحمٰن الفاسي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٥ ـ رعاية البيئة من التلوث رؤية اقتصادية إسلامية، يوسف عبد الله العريني، الرياض، دار طويق، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

١٦ ـ سنن أبي داود، تحقيق كمال الحوت، بيروت، دار الجنان، ١٤٠٩هـ/٢٩٨٩م.
١٧ ـ سنن أبي داود مع عون المعبود، ط٢١، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
١٨ ـ السنن الكبرى لأبي داود، بيروت، دار الفكر، د. ت.
١٩ ـ السنن الكبرى، البيهقي، بيروت، دار الفكر، د. ت.
٢٠ ـ سنن النسائي، القاهرة، دار الحديث، ١٤٠٧هـ.
٢١ ـ السياسة الشرعية مصدر للتقنين بين النظرية والتطبيق، طنطا، مطبعة الكتب الجامعية الحديثة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
٢٢ ـ صحيح البخاري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ.
٢٣ ـ الطب الوقائي، د. ابتسام عبد الحليم، مقال نشر بمجلة منبر الإسلام، ١٣٩١هـ.
٢٤ ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٢٥ ـ فتح القدير، الشوكاني، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، د. ت.
٢٦ ـ لسان العرب، لابن منظور، ط٣، القاهرة.
٢٧ ـ مجمع الزوائد، الهيثمي، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت.
٢٨ ـ معالم القربة، للقرشي، نقل وتصحيح روبين لوى، مطبعة دار الفنون بكمبردج، ١٩٣٧م.
٢٩ ـ المغني، لابن قدامة، القاهرة، هجر.
٣٠ ـ مكافحة الأمراض السارية في الإنسان، صادر عن جمعية الصحة المدرسية.
٣١ ـ منهاج المسلم، لأبي بكر جابر الجزائري، القاهرة، دار الكتب السلفية.

❋ ❋ ❋

العرض والمناقشة والقرار

أولاً: العرض

معالي الأستاذ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد (الرئيس):

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

موضوع هذه الجلسة العاشرة هو: البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي. وفيه عارضان هما: الدكتور جعفر عبدالسلام، والدكتور شوقي دنيا، والمقرر هو الدكتور محمد علي الزغول. أدعو هؤلاء مشكورين بأن يأخذوا أماكنهم من أجل أن نشرع في هذا الموضوع.

سعادة الدكتور جعفر عبدالسلام (العارض الأول):

بسم الله الرحمٰن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الشكر لمجمع الفقه الإسلامي الدولي، ولرئيسه، ولأمينه على تكليفي بهذا الموضوع، وعلى الثقة التي يولوني إياها دائماً في هذه الأمور.

الموضوع الخاص بالبيئة هو موضوع مهم طبعاً، وهو يشغل حيزاً كبيراً من الدراسات الدولية والدراسات الاجتماعية المعاصرة، وكان حسناً أن اختار المجمع هذا الموضوع لكي يُبحث وبالذات لكي يتم التركيز على النواحي الفقهية والشرعية والقانونية المتصلة به. ونحن اثنان، وسنحاول بقدر الإمكان الإسراع والتنبيه للمسائل الرئيسية فيه.

بداية الدراسات التي قدّمت لي هي الآتي:

١ ـ دراسة للأستاذ الدكتور محمد جبر الألفي، بعنوان: التدابير

الشرعية في المحافظة على البيئة بين النظرية والتطبيق.

٢ ـ التدابير الشرعية في المحافظة على البيئة، للأستاذ الدكتور محمد علي الزغول.

٣ ـ البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، للأستاذ الدكتور علي جمعة.

٤ ـ البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، للشيخ أحمد المبلغي.

٥ ـ البيئة في الفقه الإسلامي، وقاية وتنمية، للشيخ خليل الميس.

٦ ـ البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، للأستاذ الدكتور عبدالقادر محمد أبو العلا.

٧ ـ حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة، للدكتور جعفر عبدالسلام.

٨ ـ البيئة من منظور إسلامي، للأستاذ الدكتور عبدالسلام العبادي.

لعل عناوين الموضوعات ستجعلنا نختصر كثيراً ونُسهِّل عرض الموضوع.

البحوث تبدأ بتعريف البيئة وهو طبيعي أن نُعرِّف بالظاهرة والموضوع الذي نلجأ إليه. وكما هي العادة عندنا فالتعريف اللغوي أولاً هو في البيئة يرجع إلى الفعل: بوّأ، باء إلى الشيء يبوء بوءاً، أي رجع. وهو يدل على الاستقرار والتمكن أخذاً مما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

الأخ الشيخ خليل الميس يُقرِّب بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، وما هو سائد في العرف السائد الآن، حيث تدل البيئة على المكان أو الحيز المحيط بالإنسان. ويدخل فيها أيضاً الجوانب المؤثرة في الإنسان من محسوسات وغيرها، وحالة الإنسان معها.

كما يُعرّفها في المعنى الاصطلاحي بأنها المناخ العام للحياة بمختلف أشكالها الحيوانية والنباتية.

لدينا بحث شامل وموسّع، كبير الحجم والمعنى أيضاً، للدكتور عبدالقادر أبو العلا رجع إلى العديد من الدراسات الحديثة التي عرَّفت البيئة، وعَرَضَ كذلك لمعالم الكتاب. أنا في الحقيقة أهتم بالمراجع الإسلامية في هذا الشأن، فالعقد الفريد لابن عبد ربه استخدم مصطلحاً آخراً هو: الجمانة، للإشارة إلى الوسط الطبيعي الجغرافي والمكاني والإحيائي الذي يعيش فيه الكائن الحي بما في ذلك الإنسان، وللإشارة إلى المناخ الاجتماعي الذي يعيش فيه.

وهذا الربط بين الإنسان والبيئة اهتمت به كافة الدراسات التي قُدِّمت، والتي لم تُقدَّم للمجمع.

إذن نهتم بهذا وليتنا نُعمم هذا الاصطلاح الخاص إذا رأيتموه مناسباً وهو: الجُمانة. لأنه يرتبط بالوسط الطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان أي البيئة بالمفهوم المعاصر.

يعني شيء طيب أن الباحثين تطرّقوا إلى الكتب القديمة وتوصلوا إلى عناصر فيها.

المسألة الثانية تتصل بعناصر البيئة، وهي في كل الأوراق تنقسم إلى قسمين:

١ ـ البيئة الطبيعية وهي كل ما يحيط بالإنسان من ظاهرات أو مكونات طبيعية حية وغير حية، ومكونات سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان وصخور وتربة، وعناصر المناخ المختلفة.

٢ ـ البيئة الصناعية وهي التي يشاهدها الإنسان من خلال تفاعله مع البيئة الطبيعية كالمصانع والسيارات وما شيِّد من منشآت.

طبعاً بعض التعريفات تجعل الإنسان جزءاً من البيئة مثل الدكتور علي جمعة، ومعظم التعريفات لم تجعل الإنسان جزءاً من البيئة وإنما اعتبرته سيد البيئة والخليفة في الأرض الذي خُلقت البيئة من أجله،

والذي عليه واجب الحفاظ على البيئة، إلى جانب استثمارها واستخدامها في صالح الإنسان. وهذا هو ثالثاً الذي أوردته: الإنسان والبيئة. يعني العلاقة وثيقة بين الإنسان وبين البيئة التي يعيش فيها.

وما يهمني في هذه العجالة هو أن الإنسان ـ يعني من أوجه العبادة ـ أن يُحسن الإنسان إلى البيئة التي يعيش فيها بعمارتها، وعمارة الأرض تتم بالبناء والغرس والزرع ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

القضية الرابعة هي المنظومة البيئية. فالمنظومة البيئية على جانب كبير من الأهمية لأن الله خلق البيئة متوازنة، وخلق الدنيا متوازنة، يعني نرجع إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾. عشرات الآيات وردت في البحوث، لكنني لم أجد آية تدل على التوازن البيئي كما توضحه هذه الآية الكريمة.

التوافق والانسجام والاعتدال هي الأُسس التي تقوم عليها المنظومة البيئية، لذلك وجدت اهتماماً كبيراً أيضاً في البحوث بما يُعرف بـ (الإخلال بالتوازن البيئي) أي تفويت الانتفاع بها، أو تفويت العلاقة السوية بين استغلال الإنسان للبيئة وبين سلامة البيئة. والحقيقة القرآن الكريم تنبأ بهذا الإخلال حيث ذكر سبحانه وتعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

كثير من البحوث ركّزت على هذه المعاني بالذات بحث الشيخ المبلغي، حيث قسم الإخلال بالتوازن البيئي إلى ثلاث أقسام:

١ ـ مجال فردي.

٢ ـ مجال اجتماعي.

٣ ـ مجال حيوي.

ورأى تحريم كل التصرفات التي تؤدي إلى الإخلال بالتوازن البيئي.

هناك أيضاً دراسات في هذه القضية وردت في مؤتمر البيئة الإسلامي الأول، الذي عُقد في جدة عام ٢٠٠٢م، وأنا أُعجبت بكثير من القرارات التي أوردها، خاصة أن عملية البيئة ينبغي أن تكون نابعة من داخل الدول الإسلامية وليس من خارجها، وأن المشروع الغربي للتنمية للدول الإسلامية ليس مشروعاً سوياً وليس لصالحها، فهو يجعلها تلهث وراء أشياء لا تستطيع الوصول إليها؛ لأن الفارق شاسع بالذات فيما يتصل بالاستخدامات الصناعية والاختراعات بيننا وبين الدول الكبرى.

الموضوع الخامس والمهم هو موضوع تلوث البيئة، وهذا طبعاً ربما يكون هو المقصود أساساً من عرض هذا الموضوع. تلوث البيئة مسألة في غاية الخطورة وأصبحنا نعاني منها، كل المجتمعات الآن تعاني من تلوث البيئة، ولدينا الكثير من التعريفات الخاصة بالتلوث. التلوث يعني التطلخ، فيقال: لوّث ثيابه بالطين، ولوَّث الماء أي كدَّرهُ.

تعريف آخر أيضاً وهو: عبارة عن الحالة القائمة في البيئة الناتجة عن التغيرات المستحدثة فيها والتي تُسبب للإنسان الإزعاج أو الأضرار أو الوفاة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

توجد هناك ثلاث عناصر للتلوث، وهي:

١ ـ حدوث تغيُّر في البيئة، أو في أي من عناصرها.

٢ ـ انتساب ذلك التغيُّر للإنسان.

٣ ـ إلحاق الأذى والضرر بأي من عناصر البيئة.

في الحقيقة البعض أيضاً فضَّل أن يستخدم مصطلحاً يختلف عن مصطلح التلوث، وهو المصطلح الذي ورد في القرآن الكريم وهو الفساد، والدكتور عبدالقادر أبو العلا هو الذي استخدم هذا، وفضّل أن نستخدمه في الأدبيات وفي فقهنا الإسلامي، وفي حديثنا عن البيئة، هذا المصطلح وهو أفضل من التلوث، والمجمع له الحق في أن يقيِّم مثل هذه الأمور.

بالنسبة لأنواع التلوث نجد أيضاً اجتهادات كثيرة في هذا الشأن في مختلف الأوراق لكن عموماً أهمها التلوث المادي، ويشمل تلوث كل من الماء والهواء والتربة الصالحة للزراعة. والتلوث غير المادي ويشمل الضوضاء التي تنتج من حركات السيارات والآلات.. إلى آخره. والأصعب في الواقع هو هذا التلوث الذي ينتج من جراء الاستخدامات والمخترعات الحديثة، والتي تنبعث منها غازات مثيرة لأشياء كثيرة في حياتنا وبيئتنا وتؤدي إلى اتساع ثقب الأوزون الذي يحمي الأرض.

المسألة التي انفردت بها حيث إنني حاولت أن أؤصل ما يُعرف بحق الإنسان في بيئة صحية مناسبة. هذا التأصيل بدأته بالتأصيل القانوني من منظور القانون الدولي وأوردت النصوص سواء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أو العهدان الدوليان للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والمدنية، والتي قررت بما لا يدع مجالاً للشك حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة خالية من التلوث، وخالية من كل ما يضر به. وأوردت تفصيلات كثيرة موجودة في البحث بهذا الشأن.

والمهم طبعاً هو تأصيل مثل هذا الحق من الناحية الشرعية ومن الناحية الفقهية. والواقع أنني وجدت الكثير من الأدوات التي تُستخدم في هذا الشأن:

أولاً: القواعد الفقهية، مثل: قاعدة: «لا ضرر ولا ضرار»، و«الضرر يُزال» إلى آخر هذه القواعد.

ثانياً: أيضاً وجدت الكثير من المسائل التي تساند هذا الحق مثل استناده إلى مصلحة مؤكدة، وهي ضرورة أن يعيش الإنسان في بيئة صحية، هذه الضرورة تُساندها العديد من النصوص التي وردت في القرآن والسنّة.

ثالثاً: الشريعة الإسلامية مليئة بقواعد وأحكام تحمي البيئة من التلوث وتُترجم إلى حق للإنسان الذي يعيش فيها في أن يستمتع ببيئة صحية.

رابعاً: الشريعة تُقرّ ضرورة التعاون والتضامن بين كل مَن يعيش

في هذا الكون لتحقيق سلامته وأمنه وحمايته وحماية بني الإنسان بشكل عام.

البحث الذي قدّمه فضيلة الدكتور عبدالسلام العبادي هو بحث وصلني في الواقع منذ فترة قصيرة. ويتميز هذا البحث بمجموعة من المزايا:

أولها: الاهتمام الشديد بموضوع الاتفاقات والتشريعات الدولية والداخلية التي اهتمت بحماية البيئة.

ثانيها: تركيزه على المؤتمرات المختلفة التي عرضت للموضوع مع التركيز على ما صدر من منظمة المؤتمر الإسلامي والمنظمات المتفرعة عنها من قرارات وتوصيات.

الدكتور العبادي استعرض كل الاتفاقيات الخاصة بحماية البيئة، وأيضاً استعرض الإعلان العالمي الإسلامي للتنمية المستدامة الصادر عن المؤتمر الإسلامي الأول لوزراء البيئة للدول الإسلامية. اهتم كذلك بعرض الإعلان العربي عن البيئة والتنمية، واهتم كذلك بعرض الإعلان الصادر من مجلس التعاون لدول الخليج، إلى جانب ذلك اهتم بعرض أحكام التشريعات الخاصة بالبيئة في كل من الأردن والمملكة العربية السعودية، وطبعاً جميع هذه التشريعات تتصل بأسلوب وقاية البيئة وحمايتها من التلوث، ثم العقاب على مَن يقترف إثماً ضد البيئة.

الدكتور محمد الزغول، والشيخ خليل الميس أيضاً اهتمّا بالتشريعات المتصلة بحماية البيئة في الأردن ولبنان.

قبل أن أنهي عرضي لا بد أن أشير إلى المؤلفات الإسلامية في مجال البيئة، وأنا أشكر فعلاً الدكتور عبدالقادر أبو العلا، والدكتور محمد الزغول، والدكتور الألفي لأنهم أوردوا لنا أسماء الكتب الكثيرة التي اهتمت بالبيئة سواء في مجال الحيوان، في مجال الطهارة، في كل ما يتصل بحماية الظواهر الجوية، وما يصلح الجو من الأبخرة وما يفسده، وأحضروا أسماء الكتب والمراجع في فصول كاملة في البحوث التي أمامي عرضت لهذه القضايا.

مسألة مقاصد الشريعة، كلنا نعرف ارتباط مقاصد الشريعة بحماية البيئة، أنا شخصياً اتخذت مقاصد الشريعة في حماية الدين والنفس والعقل والعرض أساساً في كتاب كامل عن حقوق الإنسان وحمايته في الشريعة. فإذا ما فصّلت مثلاً مقاصد حفظ النفس فستجد آلاف المشكلات التي عُرِضت حديثاً وتُعْرَضُ، تتصل بهذا الموضوع، وكذلك العقل والدين، كل ما يتصل بالمقاصد التي رآها الشارع مهمة.

المسألة التي وردت بعد ذلك تتصل بعرض مجموعة من قواعد الفقه الكلية. أنا تكلمت يمكن في منع الضرر، ويتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام، والضرر الأشد يُزال بالضرر الأخف، وقاعدة: درء المفاسد أولى من جلب المصالح، وقاعدة: الضرورات تُبيح المحظورات. الذي يريد أن يعمل رسالة دكتوراه أو يكتب بالتفصيل عن البيئة من منظور إسلامي سيجد أيضاً في القواعد الفقهية الكلية معيناً مهماً وواسعاً لهذه المسائل.

أريد أن أقول: إن كل هذه البحوث وجدتها ترتبط بالآتي:

● ارتباط البيئة والحفاظ عليها بالعقيدة الإسلامية التي تفرض على المسلم الإيمان بالله واحترام مخلوقاته، ومراعاة أنه مستخلف في الحياة، وليس مالكاً لها، ويجب عليه أن يتقيد بقواعد الاستخلاف الواردة في القرآن والسنّة.

● استعانة الفقهاء بالكثير من الأحكام الواردة في القرآن والسنّة التي تهتم بالبيئة وتحض على حمايتها مثل الأحكام الخاصة بالتوازن البيئي وعدم الإخلال به، وقاعدة الإحسان وإحياء الموات، والملكية الشاملة أو التقيد بوظائف الملكية. حدود الملكية مهمة جداً، وخاصة في بحث الشيخ المبلغي، حيث اهتمّ بهذا جداً، كذلك القواعد الخاصة بإحياء الموات، والملكية الشاملة، وسد الذرائع، إلى آخره.

كذلك تحدثت عن استخدام مقاصد الشريعة في الموضوع، واستخدام بعض قواعد الفقه الكلية.

تطرقت العديد من الأوراق لأحكام التنظيمات الدولية التي وردت

في اتفاقيات البيئة والتشريعات التي أصدرتها بعض الدول بهذا الخصوص، وهي بلا شك لها أهميتها في الحفاظ على البيئة من التلوث. طبعاً تعرض مشكلات حديثة مثل الاحتباس الحراري، وثقب الأوزون، واستنزاف الموارد، والتلوث، إلى آخره.

حقيقة أنا اهتممت في التوصيات أولاً بقواعد يهتم بها المجمع، وهي تحريم كافة الأفعال والتصرفات التي تحمل أية أضرار بالبيئة. وهذا يرتبط بوظيفة المجمع.

تحريم التجارب النووية وأسلحة الدمار الشامل، وكافة المُكتشفات التي تؤدي إلى تسرُّب غازات تساعد على ثقب الأوزون.

التعاون الدولي بمختلف الصور في سبيل حماية البيئة ومنع تلويثها.

هذه أهم التوصيات، وهناك توصيات أخرى موجودة نتركها للعرض على لجنة الصياغة.

وأخيراً أشكر حضراتكم، وأشكر مرة ثانية رئيس المجمع وأمينه على رعايته لهذه المسائل الهامة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سعادة الدكتور شوقي أحمد دنيا (العارض الثاني):

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد.

بداية يطيب لي أن أقدّم خالص شكري وعظيم امتناني لأمانة المجمع، ممثلة في الأمين العام الأستاذ الكبير الدكتور عبدالسلام العبادي وإخوانه الكرام، على حسن ظنهم بي ودعوتي لعرض أبحاث موضوع البيئة أمام حضراتكم. كما أحب أن أنوِّه بالإخوة الكرام الباحثين وبالأبحاث المقدّمة وما بُذل فيها من جهد، وما احتوته من معلومات مفيدة ومهمة. وإن كانت لي عليها ملاحظة عامة سوف أبديها في نهاية العرض.

وأحب أن يكون معلوماً أنني في هذه المهمة أعرض فقط، دونما التدخل بتقويم من أي نوع، محتفظاً بحقي في ذلك مع المتداخلين.

ولا أخفيكم سراً أن الجهد الذي بذلته في هذا العرض قد فاق الجهد الذي بذلته في إعداد ورقتي البحثية، وبخاصة في ضوء الالتزام بالمنهجية الرصينة التي أشارت بها أمانة المجمع. ومعذرة للإخوة الباحثين إن فاتني شيء هنا أو شيء هناك، فمرجعه العجز والسهو اللذان لا يخلو منهما إنسان.

ومعذرة للسيد الرئيس ولكل الحاضرين أن استغرق العرض أكثر من المدة المقررة، وهي عشرون دقيقة لأنه من غير الممكن ولا من غير المقبول علمياً أن يتم عرض علمي جاد لبحوث ثمانية في عشرين دقيقة بحيث يأخذ كل بحث دقيقتين ونصفاً. والبحوث المعروضة للأساتذة عبدالعزيز الخياط، ومحمد حسين، ويعقوب منصور، ومحمد الزيادي، وعبدالستار أبو غدة، ومحمد النجيمي، وعبداللطيف آل محمود، وشوقي دنيا.

طلبت أمانة المجمع ألاّ يجري عرض الأبحاث من منهج عرض كل بحث على حدة، وإنما وضع محاور للموضوع ثم الإشارة إلى موقع الأبحاث من تلك المحاور، وهذا منهج علمي جيد، فله العديد من الإيجابيات، بجوار أنه يتفادى الكثير من المثالب والمشكلات التي تنجم عن استخدام منهج عرض كل بحث على حدة.

واسمحوا لي أيها السادة أن أضع أمام حضراتكم ما توصلت إليه من محاور لهذا الموضوع:

المحور الأول: مفاهيم بيئية أساسية.

المحور الثاني: الاعتداء على البيئة، صوره وعوامله وآثاره.

المحور الثالث: حفاظ الإسلام على البيئة.

المحور الأول: مفاهيم بيئية أساسية:

مما هو معروف أن أية دراسة في البيئة مهما كان مستوى عمقها أو اتساعها فإنها تبتدئ بذكر بعض المفاهيم البيئية الأساسية بهدف التعريف بها، حتى يكون القارئ للدراسة ملمًا بالمعاني والمضامين عند ورود بعض هذه المصطلحات.

وعموماً فإن أهم المفاهيم هنا هي: مفهوم البيئة، أنواع البيئة، العناصر البيئية، النظام البيئي، الاعتداء على البيئة، التلوث، الاستنزاف، التعطيل.

ولن ننشغل كثيراً بتناول هذه المفاهيم في هذا العرض السريع المتواضع لتواضع أهميتها النسبية من جهة، وحفاظاً على الزمن المحدد القصير جداً من جهة أخرى.

إن البيئة لفظ أو مصطلح يطلق ويراد به كل ما يحيط بالإنسان من أشياء وكائنات، مادية وغير مادية، حية وغير حية.

وعلماء البيئة يصنفون البيئة إلى العديد من التصنيفات، وربما كان أشهر تلك التصنيفات هي: البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية، والمقصود بالأولى الماديات المحيطة، حية كانت أم غير حية، والمقصود بالثانية الأشياء المعنوية بالمحيطة بالإنسان.

كذلك نراهم يشيرون إلى العناصر البيئية من خلال ضرب الأمثلة أو ذكر تصنيفات لها، مثل: العناصر المنتجة والعناصر المستهلكة والعناصر المحللة والعناصر غير الحية. وبوجه عام هناك الحيوان وهناك الحشرات وهناك الطيور وهناك الهواء وهناك الماء وهناك التربة وهناك المعادن وهناك الحرارة والضوء... إلخ.

ويؤكدون على أن هذه العناصر البيئية ليست مجرد كم متجمع مرصوص بجوار بعضه، وإنما هي كل متماسك متكامل، يشكل منظومة ذات علاقات ونسب معينة، ويطلقون على ذلك مصطلح النظام البيئي. ويجمعون على أن هذا النظام يتميز بخصائص عدة، هي التوازن،

والاعتماد المتبادل، والقدرة الكبيرة على امتصاص الاعتداءات.

ويعتبر الإنسان في نظر علماء البيئة هو المسؤول عن أي خلل أو اضطراب يحدث في النظام البيئي يمكن أن يؤدي إلى «تدهور البيئة»، «إجهاد البيئة»، «مرض البيئة».

وكل سلوك إنساني حيال البيئة يؤدي إلى هذه الأوضاع البيئية يطلقون عليه العدوان أو الاعتداء على البيئة. وصور وأشكال هذا العدوان متعددة يمكن جمعها تحت بعض المصطلحات، وعلى رأسها التلوث والاستنزاف والتعطيل.

وتلوث البيئة مصطلح يقصد به تراكم عناصر ضارّة غير مرغوب فيها في البيئة، ينجم عنه فقدان أو انعدام أو تدني صلاحية البيئة للقيام بوظائفها في خدمة الإنسان. وللتلوث العديد والعديد من المفردات. وهناك دراسات علمية متخصصة في التلوث البيئي.

واستنزاف البيئة مصطلح قصد به نهب وسلب ما لدى البيئة من عناصر ومكونات، وهو الآخر له العديد من المفردات وله دراساته المتنوعة.

وتعطيل البيئة مصطلح يقصد به ترك استخدام البيئة وإبقاؤها على وضعها الفطري. ونؤكد هنا على أن كل هذه الصور السلوكية تعد عدوانية على البيئة تجلب لها المرض والتدهور والفساد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كل الأبحاث المقدَّمة قد تناولت بشكل أو بآخر هذه المفاهيم البيئية وإن تنوعت في التناول ما بين موسع نسبياً ومختصر، وما بين محيط بتلك المفاهيم ومكتفٍ ببعضها. وأياً كان الحال فالأمر هنا هين، ويتسع لكل التناولات، فما هو إلا تمهيد من جهة، وتذكير بجوانب علمية فنية من جهة أخرى. وبالطبع فإن ذلك ليس هو المقصود من تلك الأبحاث.

والتساؤل المنطقي بعد استعراض تلك المفاهيم هو: ما مدى أهمية البيئة بالنسبة للإنسان، ومن ثم أهمية وضرورة المحافظة عليها من أي اعتداء؟

من المعروف أن للإنسان العديد من الحاجات المادية والمعنوية، وبقدر ما يُشبع الإنسان هذه الاحتياجات بقدر ما يسعد وتستقر حياته. والبيئة بمختلف أنواعها وعناصرها تعد المصدر الرئيسي لإشباع تلك الاحتياجات للإنسان. فهي التي تمده بالغذاء والماء والهواء والسكن والحرارة والضوء وغير ذلك، وهي المكان الذي يدفن فيه مخلفاته ونفاياته. واختصاراً إن الإنسان في حاجة إلى مدخلات ومخرجات. والبيئة توفر له هذين المطلبين. إنها المحيط بالإنسان من كل اتجاه، ويوم يختل هذا المحيط أو يفسد تصاب حياة الإنسان بالخلل والدمار، كما هو حادث الآن.

وإذا كانت قصة البيئة مع الإنسان تبدأ فصولها ببداية حياة الإنسان على الأرض وتنتهي بنهايتها، في الفكر الوضعي، فإنها في الإسلام أعمق من هذا وأكثر امتداداً، فهي تبدأ مع الإنسان في الدنيا وتمتد معه في الآخرة. وإذا كانت البيئة مهمة للإنسان كي يعيش، فإنها مهمة للمسلم كي يعيش، وكي يعبد الله تعالى ويطيعه.

وإذا كانت البيئة على هذه الدرجة من الأهمية للإنسان فإن العقلانية والرشادة تحتّمان على الإنسان أن يحافظ عليها ويحميها من أي عدوان. وللعلم فإن حماية البيئة والحفاظ عليها لا تتطلب من الإنسان سوى أن يكون سلوكه رشيداً فيما يأخذه منها، وفيما يطرحه فيها. هذا هو مطلب البيئة من الإنسان، وهو مطلب جد يسير عند العاقل الرشيد. وللأسف فإن هذا المطلب على يسره وبساطته لم يتحقق في دنيا الواقع. فلقد نالت البيئة من بطش الإنسان ونزواته الكثير والكثير من الاعتداءات، مدفوعاً في ذلك بالعديد من العوامل، جالباً بذلك المزيد من الأضرار بالبيئة أولاً، وبنفسه ثانياً. وهذا ما يعرض له المحور الثاني.

المحور الثاني: اعتداء الإنسان على البيئة ـ صوره وعوامله وآثاره:

أشرنا سلفاً إلى الصور الكبرى لاعتداء الإنسان على البيئة ممثلة في التلوث والاستنزاف والتعطيل.

وذكرنا أن وراء كل صورة العديد والعديد من المفردات. وهنا نشير إلى بعض تلك المفردات العدوانية، مثل: تلوث الماء، وتلوث الهواء، وتلوث التربة، وتلوث الحيوانات، وتلوث السمع، وتلوث الفكر، وتلوث الأخلاق، وتلوث الضوضاء والنفايات والغازات... إلخ، ومثل: استنزاف المياه، واستنزاف المعادن، واستنزاف التربة، واستنزاف الغابات، وعدم استغلال الأراضي الزراعية الشاسعة، وكذلك المياه المنهمرة، وأيضاً المناجم المليئة بالمعادن... إلخ.

وقد نجم عن هذا العدوان المتعمد من قبل الإنسان على البيئة مضار جسيمة لحقت بالبيئة أولاً، فجلبت لها المرض والتدهور ثم لحقت بالإنسان ثانياً، فجلبت له المزيد من المضار والمخاطر.

فوجدنا التصحُّر، ووجدنا نقص المياه، ووجدنا نقصان الموارد، ووجدنا الاحتباس الحراري وما يجلبه من مخاطر مدمرة للإنسان، ووجدنا تآكل طبقة الأوزون، وما يفعله ذلك بالإنسان، ووجدنا تناقص التنوع البيولوجي وانعكاساته الخطيرة على الإنسان.

إن آثار الاعتداء البشري على البيئة من الجسامة والخطورة والتنوع والاتساع بمكان. فهناك تهديد جدي لنوع الإنسان وبقائه، وتهديد جدي لصحته، وتهديد جدي لاقتصادياته، وتهديد جدي لاجتماعياته، وتهديد جدي لأمته واستقراره.

ولو أخذنا في استعراض تلك الآثار السلبية المدمِّرة الناجمة عن اعتداء الإنسان على البيئة لضاق المقام.

وننقل هنا فقرة من تقرير قديم نسبياً قدّمته اللجنة العالمية للبيئة والتنمية تحت عنوان «مستقبلنا المشترك».

وفيه تقول: «.. وهناك أيضاً اتجاهات بيئية تهدد بتغيير كوكبنا تغييراً جذرياً، وتهدد بالخطر حياة العديد من أنواع الكائنات الحية التي تقطنه، ومنها الجنس البشري. ففي كل سنة تتحول ستة ملايين هكتار من الأراضي الجافة المنتجة إلى صحاري لا قيمة لها، وهناك أكثر من أحد عشر مليون هكتار من الغابات تدمَّر سنوياً.

وفي أوروبا تقتل الأمطار الحامضية الغابات والبحيرات، وتدمر التراث الفني والمعماري للشعوب، وربما أدت حتى الآن إلى تمحض أجزاء هائلة من التربة بشكل غير قابل للإصلاح.

ويؤدي حرق الوقود الأحفوري إلى نشر ثاني أكسيد الكربون في الجو، مما يتسبب في الزيادة التدريجية في درجة الحرارة في العالم الذي يمكن أن يؤدي في وقت مبكر لتحول مناطق الإنتاج الزراعي، ورفع مستوى البحار، وغرق المدن الساحلية. وتهدد غازات صناعية أخرى باستنزاف الأوزون الذي يحمي الكرة الأرضية من أشعة شمسية تجلب العديد من الأمراض، وتخل بدورة الغذاء في المحيطات».

وأضيف إلى ذلك أن الإجهاد البيئي هو سبب ونتيجة في نفس الوقت للصراعات والنزاعات السياسية. وسوف تتزايد هذه الصراعات كلما ازداد شح الموارد وتدهور البيئة.

والحال كذلك على الجبهة الاقتصادية، حيث ترتفع تكلفة الإنتاج، وتتدنى جودة الصناعات، ويختل هيكل التجارة الدولية وتعوق عمليات التنمية.

وإذا كانت البيئة بهذه الأهمية للإنسان، وإذا كان الاعتداء عليها يجلب لا محالة تلك المخاطر والمضار للإنسان، فما الذي دعا ويدعو الإنسان لهذا السلوك العدواني على البيئة؟ إن وراء ذلك العديد من العوامل والأسباب، نشير هنا إلى العناوين الكبرى لها.

بداية ما من تدهور بيئي إلا ووراءه الإنسان، وإن بطريق غير مباشر. ونحب دائماً أن نذكر بهذه الآية الكريمة المعجزة الفذة ﴿ظَهَرَ

﴿ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

والإنسان إذ يمارس هذا العدوان على البيئة فإنه يمارسه مدفوعاً في ذلك بعوامل عقائدية وفكرية واجتماعية وثقافية واقتصادية.

ليس هنا مجال الخوض وراء كل عامل منها، لكنها الإشارات الخاطفة يعترف علماء البيئة بأن العامل العقدي لعب دوراً خطيراً في التدهور البيئي، وقد أثبت المؤرخ الأمريكي «رايلي» أن الثقافة اليهودية المسيحية والتي هي أساس الثقافة الغربية الحديثة تقف موقف العداء تجاه البيئة الطبيعية. ونحن نضيف أن هذا الموقف العدائي يمتد للبيئة الاجتماعية.

إن عدم توفر عقيدة الإيمان الحقيقي بالله الذي خلق كلاً من الإنسان والبيئة بنظام معين ولحكمة معينة لتحقيق وظائف محددة أصاب علاقة الإنسان بالبيئة بخلل واختلال جسيم. ففي حالات كثيرة يستعبدها ويقهرها ويتصارع معها ويشعر بلذة وسعادة عندما ينتصر عليها ويغتصبها. ويعد العامل العقد الجذر الغائر لبقية العوامل، فهو الذي يحدد الغايات والمسارات والضوابط للعوامل الفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

ويجيء العامل الاقتصادي وأوله الإنسان بالتقدم والتنمية والامتلاك اللامحدود مدعوماً بعامل اجتماعي وثقافي يحدد مركز الإنسان وسعادته بمقدار ممتلكاته. يجيء هذا العامل الذي أفرز نمواً اقتصادياً غير منضبط بأي ضابط سوى المصلحة الخاصة، وأفرز في نفس الوقت تخلفاً وفقراً مذهلاً، ليفتك بالبيئة، إن من خلال الملوثات الهائلة أو الاستنزافات الماحقة. وشاع مصطلح تلوث النمو ومصطلح تلوث الفقر.

وفيما يتعلق بصور اعتداء الإنسان على البيئة وآثاره تفاوتت الأبحاث المقدَّمة في تناولها لهذه المسألة، وأكثر البحوث تناولاً لها بحث الدكتور عبداللطيف والدكتور الزيادي وبحث الدكتور شوقي، أما بقية الأبحاث فقد ركّزت على الجوانب الإسلامية.

والآن ننتقل إلى عرض لموقف الإسلام من البيئة، وهو يمثل المحور الثالث.

المحور الثالث: أهمية البيئة في نظر الإسلام:

حتى ندرك مدى أهمية البيئة في نظر الإسلام واهتمامه الفائق بها علينا أن نستحضر ليس لفظ البيئة، وإنما مفهومها ومعناها، لأن لفظ البيئة لم يرد في الإسلام وروداً له بال، على عكس المفهوم والمعنى والمضمون، حيث نجد الحضور الطاغي له في كل من القرآن الكريم والسنّة الشريفة وأقوال العلماء، إن المضمون هو الكائنات المحيطة بالإنسان على اختلاف أنواعها، إنها الأرض والجبال والبحار والأنهار، إنها الماء والهواء والضوء والحرارة والمعادن والحيوانات والطيور والحشرات، إنها المؤسسات والأنظمة والتقاليد والقيم والأنماط السلوكية، إنها مختلف عناصر البيئة، التي تمثل أوسع رقعة في كتاب الله وسنّة رسوله من خلال مئات الآيات ومئات الأحاديث.

وقد أحاطت هذه النصوص الإسلامية، وكذلك أقوال العلماء بكل جوانب قضية البيئة، سواء من حيث أهميتها للإنسان، أو من حيث علاقة الإنسان بها، أو من حيث ضرورة المحافظة عليها، وعدم إلحاق الأذى بها.

وقد أسهبت البحوث المقدَّمة كلها في تناول هذا المحور، جامعة بين تماثل العرض وتنوعه.

وقد رأيت أنه من المفيد تقسيم الحفاظ الإسلامي للبيئة إلى قسمين، وثيقي الارتباط لمجرد تسهيل العرض:

١ ـ الحفاظ المؤسسي للإسلام على البيئة.

٢ ـ الحفاظ التشريعي للإسلام على البيئة.

فيما يتعلق بالحفاظ المؤسسي فالمقصود أن الإسلام قدّم من الأسس والأنظمة في كل المجالات ما يحافظ على البيئة.

فهناك العقيدة الإسلامية، وهناك النظام الاقتصادي الإسلامي، وهناك النظام التربوي والثقافي والاجتماعي. وكلها تقف في صف واحد مع البيئة، لا في مقابلتها، كما هو الحال في المؤسسات الغربية.

فالعقيدة الإسلامية تجعل من البيئة ليس مجرد موارد تمد الإنسان باحتياجاته الإنتاجية والاستهلاكية، وإنما هي فوق ذلك نعم الله تعالى، وخلقه. وتجعل في نفس الوقت الإنسان مخلوقاً لله تعالى، فالخالق واحد، وكلاهما مخلوق له. وقد حدّد الخالق العلاقة بين المخلوقين بما يحقق الود والانسجام والاحترام والتقدير من قِبَل الإنسان للبيئة. وترتكز هذه العلاقة على ثلاثة مبادئ: الخلافة والتسخير والعبادة. فالإنسان عبد لله وحده، وهو خليفته في الأرض على البيئة، والبيئة مسخَّرة له. فالإنسان سيد في الأرض من قِبَل سيد الأرض. هو في مواجهة الله تعالى عبد، وفي مواجهة البيئة سيد. وفي ذلك يقول الإمام الرازي رحمه الله تعالى: «سخّر لك الكل لئلا يسخرك منها شيء وتكون مسخَّراً لمَن سخر لك الكل وهو الله تعالى». البيئة عند المسلم مكان وموطن عبادته لله تعالى. ورشادة التعامل مع البيئة يمثل المظهر الكوني للعبادة في الإسلام. ثم إن خلافة الإنسان وتسخير البيئة يحتِّمان على الإنسان أن يكون فعّالاً معها، يثيرها ويستخدمها ويوظفها. ولا يعطلها ولا يلوثها ولا يستنزفها، إذ كل ذلك منافٍ لمبدأ الخلافة والعبادة والتسخير.

عقيدة المسلم تجعل من البيئة خير معين للإنسان لدخول الجنة إن أحسن إليها، كما أنها وراء دخوله النار إذا أساء إليها.

وبهذا كله تتلاشى تماماً عمليات وأفكار ورؤى القهر والاغتصاب والصراع الموجودة في العقائد الأخرى.

أما عن مؤسسة الاقتصاد في الإسلام فهي الأخرى تقوم على حماية البيئة والحفاظ عليها. والإسلام يرى في الاقتصاد جانباً ضرورياً للإنسان، به يحيا ويتطور ويرتقي. وإذا كانت البيئة ضرورة للإنسان فكذلك النشاط الاقتصادي، تماماً بتمام.

وقد عبّرت عن ذلك الآية الكريمة ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ

ذَلُولًا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

وعلى الإنسان أن يمارس نشاطه الاقتصادي في كل أرجائها ومناكبها حتى يوفر لنفسه العيش.

وإشكالية الفكر الاقتصادي الوضعي أنه لم يتعرف إلا مؤخراً جداً على حقيقة علاقة البيئة بالتنمية، وأنها علاقة تناغم وتكامل وليست علاقة تعارض وتبادل، ولو فطن إلى ذلك مبكراً لأدرك أن الاقتصاد خير معين ومحافظ على البيئة، وأن البيئة خير معين ومحفِّز للاقتصاد. وتدهور أي منهما جالب لا محالة تدهور الآخر.

وهذا التكييف الصحيح هو ما أكّد عليه الإسلام، من خلال تحديده لمفهوم التنمية ومقاصدها وأساليبها ومؤسساتها، وكذلك من خلال موقفه من مشكلة التخلف والفقر.

وعلى هذا النحو جاءت المؤسسات التربوية والثقافية والفكرية والاجتماعية في الإسلام، كلها تنطلق من مسلمة الحفاظ على البيئة، فالعلم مطلوب، ولكنه العلم النافع، والإسراف والتظاهر والسفه كل ذلك محذور إسلامياً.

والزنا والشذوذ الجنسي، والاستبداد السياسي، والتكبُّر والتمايز الصارخ في الأوضاع الاقتصادية. كل ذلك مرفوض في الإسلام. وكم كان لهذه السلوكيات المنحرفة من أيادٍ سوداء حيال البيئة وتدهورها.

أما المقصود بحفاظ الإسلام التشريعي على البيئة فهو ما قدّمه الإسلام من أحكام وتشريعات وأوامر ونواهي، تحمي البيئة وتحافظ عليها من كل صور الاعتداء، من تلوث واستنزاف وتعطيل. لقد بيَّن لنا الإسلام بجلاء أن البيئة خُلقت من أجلنا، وأنه بدونها لا حياة لنا في الدنيا ولا نعيم لنا في الآخرة، وحذّرنا بأبلغ التحذيرات من إلحاق أي ضرر بها، حيث سيرتد مباشرة علينا، فمرض البيئة مرض لنا، وفناء البيئة فناء لنا.

وقدّم الإسلام في ذلك مصطلحاً جامعاً شاملاً لكل صور الاعتداء،

وهو «الإفساد في الأرض». وقد تكرر هذا المصطلح في القرآن الكريم عشرات المرات في سياقات متعددة ومتنوعة.

وحذّرت السنّة في العديد من الأحاديث من أي ضرر أو أذى بأي عنصر من عناصر البيئة.

وصاغ الفقه الإسلامي، انطلاقاً من تلك النصوص أحكاماً تشريعية تقوم على مبدأَيْ الحقوق والأضرار.

فهناك حقوق على الإنسان لكل ما يحيط به من أشياء وكائنات، وعلى الإنسان واجبات حيال كل عنصر فيها.

وللعلم فإن صياغة القضية في شكل حقوق للبيئة على الإنسان هي أرقى ما يصبو إليه الفكر الوضعي. وحتى هذه اللحظة لم يحقق نجاحاً يذكر في هذا الصدد.

فالحيوانات والطيور والحشرات، بل والجماد لها حقوق على الإنسان. وهناك العديد من التشريعات المتعلقة بملكية واستخدام الغابات والمياه والهواء والضوء والمعادن والطاقة.

وفكرة الحق تستلزم الواجب، وإلا كان الاعتداء، وما يجلبه من أضرار. وقضية الضرر والأضرار كانت محط العناية القصوى للشريعة، ومعظم الأضرار الكائنة تقع من الإنسان على عنصر أو أكثر من عناصر البيئة.

والأضرار البيئية هي على رأس ما يعرف فقهياً بالأضرار العامة، فهي لا يحدها مكان ولا زمان. والأضرار العامة هي اعتداء على حقوق الله تعالى، ومن ثم فإن الجميع مطالَب بعدم إحداثها. وهناك تحليلات فقهية معمّقة للأضرار من كل نواحيها.

وإذا كانت هناك حقوق للبيئة، وإذا كانت هناك اعتداءات من قِبَل الإنسان على هذه الحقوق، فلا بد من وجود آلية تحول دون ذلك، وهنا نجدنا وجهاً لوجه أمام مسؤولية الحفاظ على البيئة، فمَن هو المسؤول عن ذلك في الإسلام؟

المسؤول عن ذلك هو الدولة بكل مؤسساتها وأجهزتها، وكذلك المجتمع بكل أفراده ومؤسساته وهيئاته. فالحفاظ عليها وإلحاق الضرر بها على رأس قائمة المعروف والمنكر. والإسلام حمّل الجميع مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والآيات والأحاديث في ذلك أكثر من أن تُحصى. إن من المهام الكبرى للدولة في الإسلام الحفاظ على البيئة من خلال وزاراتها وأجهزتها. وقديماً قام بتلك المهمة جهاز الحسبة. واليوم كل الوزارات والهيئات مسؤولة عن ذلك. والحال كذلك حيال المجتمع بكل أفراده وفئاته وهيئاته.

فالكل ممنوع من الاعتداء على البيئة، والكل من حقه، بل ومن مسؤوليته منع الغير من الاعتداء على البيئة. وما ذلك إلا لأن هذا الاعتداء هو اعتداء على حق من حقوق الله تعالى.

خلاصة ما أريد قوله وما أكدت عليه الأبحاث أن الحفاظ على البيئة في نظر الإسلام يقوم على منظومة متكاملة من الأنظمة والمؤسسات والتشريعات وليس مجرد بضعة أوامر أو نواهي.

يبقى لنا في عرضنا هذا أن نشير إلى أن الأبحاث المقدَّمة، وإن كانت كلها تتعامل مع موضوع واحد لكن هذا لا ينفي وجود بعض الانفرادات التي انفرد بها هذا البحث أو ذاك. فمنها ما أشار إلى الاتفاقات الدولية وموقف الإسلام منها مثل الدكتور عبداللطيف والدكتور النجيمي، ومنها ما أشار إلى ما أسهم به علماء مسلمون قديماً من مؤلَّفات في موضوع البيئة مثل بحثَيْ الدكتور الزيادي والدكتور عبدالستار، ومنها ما أشار إلى علاقة البيئة بتنظيم النسل مثل بحث الشيخ محمد حسين، ومنها ما أشار إلى علاقة البيئة بالاقتصاد مثل بحث الدكتور شوقي، ومنها ما أشار إلى قضية المحميات الطبيعية مثل بحث الدكتور يعقوب، ومنها ما ركّز على البيئة الاجتماعية وضرورة المحافظة عليها، مثل بحث أستاذنا الدكتور الخياط.

كما نحب أن نشير إلى أن هذه الأبحاث، مع ما بُذل فيها من

جهد طيب مشكور كانت في حاجة إلى مزيد من التهذيب والتنقيح، سواء من الناحية العلمية، أو الناحية المنهجية، أو حتى من الناحية الطباعية، وأعتقد أن الموضوع كان يستحق من الجميع أكثر مما قدم. ومشكلة هذا الموضوع أن مَن كتب فيه ليس من المتخصصين علمياً في موضوع البيئة والذي أصبح علماً مستقلاً له علماؤه وباحثوه.

وإذا جاز لنا التسامح للضرورة، فيما هناك من قصور فلا أجدني أسامح نفسي أولاً، وأسامح إخواني الذين كتبوا في الموضوع ثانياً، في إغفالنا أو غفلتنا لبُعد بيئي على أكبر درجة من الخطورة بالنسبة لعالمنا الإسلامي بوجه عام وعالمنا العربي بوجه خاص، وهو موضوع النقص الحاد في المياه العذبة الذي تعاني منه بلادنا الإسلامية والعربية في صميم وجودها وأمنها واستقرارها، ناهيك عن تقدمها وازدهارها.

وإنني لأتعجب كيف غفلت كل الأبحاث المقدَّمة عن تناول مفصل لهذا الموضوع من زواياه المختلفة، كاشفة عن الوضع المأساوي، مقدِّمة التوجهات والنصائح محذِّرة من المخاطر الماحقة من ورائه، ما هي جهود الحكومات الإسلامية في هذا الصدد؟ وما هي جهود الشعوب والمجتمعات المدنية في تلك البلاد حيال تلك الإشكالية وهي إشكالية حياة أو موت، إن لم يكن للأمة كلها فللكثير والكثير من أبنائها.

إن هذا النقص المائي ناجم في معظمه عن سوء التعامل مع المياه التي أنزلها الله سبحانه بقدر. وسوء التعامل عنوان عريض ينضوي تحته التلوث الهائل الذي نُلحقه بمياهنا العذبة، وكذلك الاستنزاف والإسراف المدمّر، ثم الإهمال الجسيم للمياه، سواء في الاعتمادات والمشروعات أو في البحوث والدراسات أو في التشريعات والأحكام الرادعة.

والمفارقة العجيبة هنا أنه بينما نحن على هذ الوضع السيئ المزري نجد شريعتنا ونجد فقهنا يقدمان أروع التوجيهات والأحكام والدراسات والتنظيمات التي تحافظ على هذا العنصر البيئي، إكسير الحياة. وأعتقد أننا كأمة سنقف مدانين جميعاً أمام هذه الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ نرددها بلساننا ليل نهار، ونغلق أمامها عقولنا وأفئدتنا

واهتماماتنا ونشح عليها بالرخيص من الأموال، وهي أغلى وأنفس من كل مال.

وجزى الله الجميع خيراً، وشكراً لحضراتكم، ومعذرة على الإطالة.

ثانياً: المناقشات

معالي الأستاذ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد (الرئيس):

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه أجمعين والتابعين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

على بركة الله وبعونه وتوفيقه نستأنف الجلسة الصباحية لهذا اليوم في موضوعها العاشر ليوم الخميس، وهو «البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي»، وكان العارضان فضيلة الدكتور جعفر عبدالسلام وفضيلة الدكتور شوقي دنيا قد قاما مشكورين بعرض عن البحوث المقدّمة في هذا الموضوع وهي ستة عشر بحثاً واستقبلنا طلبات من بعض الإخوة الباحثين يريدون أن يضيفوا إلى ما قدّمه العارضان، كما استقبلنا بعض المداخلات.

فضيلة الأستاذ الدكتور عبدالقادر أبو العلا:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدي رسول الله، وبعد:

فإني أشكر معالي الأستاذ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد رئيس المجمع على قيادته الرشيدة لجلسات هذا المجلس، كما أشكر معالي الأستاذ الدكتور عبدالسلام العبادي على إعداده الجيد لنجاح هذه الدورة، وأشكر أيضاً الدكتور جعفر عبدالسلام على عرضه الموجز المفيد لبحثي، والشكر موصول لإمارة الشارقة حكومة وشعباً على حُسن ضيافتهم لنا.

أما عن بحثي فإني سوف أركّز على بعض الموضوعات التي تتعلق بمحافظة الإسلام على البيئة ولم يتعرض لها الأستاذ الدكتور العارض، منها أن مفهوم الإسلام للبيئة أشمل من جميع المفاهيم المعاصرة، إذ البيئة في الإسلام تضم جميع مخلوقات الله تعالى من إنس وجن وبحار وأنهار وجبال ونبات وحيوان وحشرات، وأن كل هذه المخلوقات سخّرها الله تعالى للإنسان أيضاً. اهتمام الإسلام بالبيئة ويظهر ذلك في الأمور الآتية:

الأول: أن شريعة الإسلام وضعت تصوراً شاملاً للبيئة، وجعلت الإنسان مكرَّماً على سائر المخلوقات، وأكدت على حقيقة الترابط القوي والفعّال بين مكوناتها. فالهواء يحمل الماء، والماء ينزل على الأرض فيخرج النبات الذي يتغذى عليه الإنسان والحيوان.

الثاني: لقد أرست الشريعة الإسلامية مبدأ سد الذرائع إلى الفساد، وهو مبدأ عظيم في تحقيق مفهوم المحافظة على البيئة.

الثالث: أن الفقه الإسلامي تناول بالتنظيم والتأصيل وإحياء الأرض الموات، مما يدل على اهتمام الإسلام بالموارد الطبيعية.

الرابع: أن حماية البيئة في الشريعة الإسلامية أمانة ومسؤولية يتطلبها الإيمان وتقتضيها عقيدة الاستخلاف.

الخامس: أن الالتزام بنظافة البيئة من الأمور الأساسية التي حرص عليها الرسول ﷺ ونصّ عليها في أحاديث كثيرة، كذلك اهتم الإسلام بالبيئة عن طريق الأفراد، فألّفوا المؤلّفات في بعض مجالات البيئة وعن طريق المؤسسات فكانت مؤسسة الخلافة والقضاء والوقف الخيري والزكاة والفتوى والإرشاد الديني والحسبة، كل هذه اهتمّت بالمحافظة على البيئة ومنعت التلوث فيها.

أيضاً هناك ركائز يقوم عليها منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة وهي «التقدير»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، و«التوازن»، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾، و«الحماية»، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، و«التسخير»، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾، كما أن البيئة ملكٌ لله تعالى والإنسان أمين عليها.

أيضاً بيَّنتُ أن النصوص من القرآن الكريم والسنّة النبوية قد حافظت على البيئة في آيات وأحاديث كثيرة. فالإسلام وضع التدابير اللازمة للمحافظة على البيئة منها التدابير الوقائية، ومنها التعزيرية. أيضاً بيَّنتُ حكم التلوث سواء أكان مادياً أم غير مادي، أنه حرام للأدلة الكثيرة منها: قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، والعقاب الشديد لا يكون إلا على الفعل المحرَّم، ومنها قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. فالتلوث قد ينتج عنه أيضاً قتل النفس وإزهاق الروح، ولا شك أن قتل النفس حرام بالإجماع. أيضاً التلوث يؤدي بالإضرار بالنفس والإضرار بالغير، والنبي ﷺ نهى عن الضرر والإضرار، والنهي للتحريم ما لم تكن هناك قرينة صارفة، ولا قرينة، كما قال علماء الأصول. وبيَّنتُ أيضاً أن التلوث ينقسم إلى مادي وغير مادي.

أيضاً بيَّنتُ أن الشريعة الإسلامية حثّت على حماية الماء والهواء من التلوث في آيات وأحاديث كثيرة، ثم ذكرتُ الاتفاقيات الدولية من قضايا البيئة ابتداءً من مؤسسة الاتحاد العالمي للوقاية الذي أُنشئ عام ١٩٨٤م، وانتهاءً بمؤتمركم هذا، ثم ختمت البحث بتوصيات منها: تنمية الوعي البيئي لدى الإنسان المسلم، أيضاً: إدخال مواد عن البيئة في مختلف مراحل التعليم والتركيز على الأفكار الأساسية، وحث جميع الدول على المشاركة والانضمام في أي تجمع يهدف إلى حماية البيئة وعدم التواني في ذلك، والتصديق على الاتفاقيات الدولية، منها أيضاً: مناشدة الدول لسن القوانين والتشريعات الداخلية المتسمة بالصرامة في ملاحقة ملوثي البيئة، وعدم التراخي في توقيع العقوبات عليهم، منها أيضاً: توجيه الإعلام ووسائله الفعّالة إلى نشر الوعي البيئي وتكثيف برامجه الداعية للمحافظة على البيئة، ومنها: اتباع آلية أفضل لتبادل المعلومات بين الدول والمنظمات الدولية الحكومية منها، وغير الحكومية بشأن المشاكل البيئية، ومنها أيضاً: أنه لا بد أن يكون هناك تدخل فعّال

بتطبيق العقوبات الشديدة على الذين يقومون بتلويث البيئة وغير ذلك من التوصيات. وأشكركم على إتاحة هذه الفرصة لي.

فضيلة الأستاذ الدكتور محمد بن يحيى بن حسن النجيمي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا وسيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحابته أجمعين، أما بعد:

فإن لم أشكر الدولة المضيفة باعتبار أنه لم يكن الحديث رئيسياً بالنسبة لي في الحلقات واللقاءات الماضية، فلا بد أن نشكر سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة عضو المجلس الأعلى للاتحاد بدولة الإمارات العربية المتحدة، ورئيس حكومة دولة الإمارات العربية المتحدة على استضافة دورة المجمع، ونشكر لكم سماحة رئيس المجمع وسماحة الأمين العام الأستاذ الدكتور عبدالسلام العبادي، وللأخوة جميعاً.

ما يهمنا في هذا الموضوع أيها الأخوة هو قضية الاتفاقيات الدولية، ومن أهمها اتفاقية «ريو دي جانيرو» التي عقدت في العاصمة البرازيلية عام **١٩٩٢**م التي حضرتها أغلب الدول الإسلامية، واتخذت قرارات ووافقت عليها الدول الإسلامية والعالم الثالث باستثناء موضوعين لا يزالان محل خلاف ونقاش، هما قضية أن تدفع الدول البترولية ما يسمى بضريبة الكربون، ومنع الدول التي فيها غابات من قطع الأشجار. هذان موضوعان مهمان وقد استمر النزاع حولهما في المؤتمر الذي عقد في كيوتو في اليابان عام **١٩٩٧**م، وكذلك في بون عام **٢٠٠١**م، وكذلك في جنوب أفريقيا **٢٠٠٢**م، وكذلك مؤتمر البيئة الذي عقد في أبو ظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة عام **٢٠٠٥**م.

نحن نؤكد أن الدول الإسلامية ملتزمة بجميع هذه الاتفاقيات الدولية، ولكن لا تتحمل تبعة ما يجري من تلوث بيئي، الدول الكبرى

هي المسؤولة الرئيسة في هذا المقام، وقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية ترفض التوقيع على هذه الاتفاقيات، إلا أن الرئيس أوباما أبدى الآن رغبة الولايات المتحدة في التعاون في هذا الشأن. نحن شريعتنا تقرر أن أي شيء فيه مصلحة للمسلمين يتم الموافقة عليه، لأن هذا من باب السياسة الشرعية التي قال عنها العلماء: هي ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإلا لم ينزل به وحي ولا وضعه الرسول ﷺ. أؤكد أن هذا الموضوع مهم، وقد كتبنا تخصصاً والأخوة بأن موضوع البيئة ليس محل نزاع، النزاع في القوانين التي أراد أو تريد بعض الدول أن تفرضها على دولنا، أما قضية البيئة فهي متفق عليها فقهياً، إن قضايا البيئة قضايا خطيرة لهذا أتفق مع الأستاذ الدكتور شوقي دنيا مع شكري له ولأستاذنا الدكتور جعفر عبدالسلام على العرض الشائق الممتع، ولكن لا أتفق معه في أن هذا الموضوع ليس تخصصياً، بل هو تخصصي في جانب القانون وفي جانب الشريعة، لأن القضية الآن حول البيئة هي قضية قانونية سياسية بامتياز، ولا بد أن نأخذ اعتبارنا في هذا الجانب، وأي قرار يصدر عن المجمع لا بد أن يقيد بما لا يتعارض مع مصالح دولنا التي يراد لها بل ويسعون أن يفرضوا عليها ما يسمى بضريبة الكربون. قضية التعاون في البيئة قد تصل إلى الفساد، لهذا اقترحت في بحثي أن تفرض عقوبات التعزير، والتعزير قد يصل إلى القتل في بعض الأحيان لمَن يفسد البيئة، ويتعمد إفساد البيئة، ويتعرض للبيئة بهذا الشكل السافر.

تعلمون أيها الأخوة أيضاً أن موضوع البيئة هو السهل الممتنع، هو سهل من ناحية أن الجميع متفقون على خطورته، ولكنه صعب في أنه يراد لعالم واحد أن يدفع الفاتورة التي يصلحون بها هذا التلوث، ولا يريدون أن يكونوا شركاء في هذا الإصلاح، والله ولي التوفيق.

سعادة الدكتور محمد علي الزغول:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأتم الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اسمحوا لي بداية أن أشكر مجمع الفقه الإسلامي الدولي على اختيار هذا الموضوع الحيوي في هذه الدورة، كما أشكر عطوفة الأستاذ الدكتور جعفر عبدالسلام على حُسن عرضه لموضوعي، وبقيت بعض النقاط التي أريد أن أوضحها.

أيها الأخوة الكرام حاولت في بحثي ملامسة التدابير الشرعية في الحفاظ على البيئة، وذلك بالرجوع إلى كتاب الله تعالى، ولفت النظر إلى الآيات القرآنية الكريمة التي تُظهر النظام الذي جعل الله تعالى المخلوقات عليه، بحسب علمه وحكمته سبحانه، والذي يقوم على الاعتدال والتوازن بما يكفل مصلحة الإنسان وبالقدر الذي يحقق التوازن البيئي. وتشير الدراسات التي تناولت هذا الموضوع إلى أن أي خلل يعتري النظام البيئي سيحول بين الإنسان بل الحياة على سطح هذا الكوكب بما أنعم الله عليه. فمراعاة هذا النظام الذي وضعه الله تعالى للمخلوقات يكفل أن يؤدي كل مكون أو عنصر من عناصر البيئة ومكوناتها دوره المرسوم بدقة وانسجام، وأما تجاوز الإنسان وتماديه على هذا النظام فيؤدي بالضرورة إلى فساد لا يُحمد عقباه، ويمكن القول باطمئنان بأن البيئة قد احتلت مكاناً سامياً في كتاب الله العزيز، ويكفي الإشارة إلى أن كتاب الله تعالى قد ذُكرت فيه الأرض أكثر من ٢٨٠ مرة إجمالاً، وأن أزيد من نصف هذا العدد يتصل بموضوع العناية بالبيئة، وأما إشارات السنّة النبوية بهذا المجال فلا يمكن أن يستغنى عنها في عالم اليوم. وقد شملت هذه العناية الفرد والمجتمع على حد سواء، يكفي أن نذكر أن هذه العناية والحماية قد شملت الإنسان وكافة المخلوقات، فالحيوانات في السيرة النبوية موضع رعاية وعناية وعطف وإحسان. فالنبي ﷺ يميل الإناء للقطة حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها، كيف لا وهي مُسخَّرة للإنسان، وفي الوقت ذاته تؤدي وظيفتها في البيئة والحياة إلى جانب الإنسان، فلا غرابة أن ينهى النبي ﷺ عن قتلها، وأن يحض على رعايتها بطريقة غير مسبوقة في تاريخ البشرية. فهذه امرأة تدخل النار في هرة حبستها، وذاك رجل يدخل الجنة في كلب سقاه، وها هو فتى من الأنصار يلام أشد اللوم لقلة اهتمامه بجمله وعدم قيامه

بواجبه نحوه وتحميله بما لا يطيق، وكذا ما ورد في غرس الأشجار، والمحافظة على المياه، وحفظ الآنية، وغير ذلك مما يطول ذكره. وقد أضحى هذا منهجاً يلتفت إليه أولو الأمر بعد رسول الله ﷺ وقد شغل مساحة لا بأس بها في نظام الحسبة وبحسب تتابع الأزمات وتفاوتها وما اقتضته ضرورة تلك الأزمان، فصفوة القوم متفقون على أن الشريعة الإسلامية قد تضمنت الأصول والقواعد الواجب اتباعها في التعامل مع البيئة كوحدة موضوعية أوجدها الخالق تبارك وتعالى لخدمة الإنسان والحياة على سطح الأرض، لكن مع كل هذا نجد كثيراً من الممارسات على مستوى الفرد والجماعة لم تلتزم بما رسمته الشريعة، كما أن القوانين والتشريعات لم ترقَ إلى هذا المستوى الذي جاء به الإسلام، فكشفت هذه الدراسة عن غياب البُعد التطبيقي لتعاليم الشريعة في التعامل مع البيئة، كما كشفت عن هشاشة التشريعات المتعلقة بالبيئة من حيث الشمولية والإلزامية، وعليه فقد أوصت هذه الدراسة بضرورة التركيز على التربية البيئية في مختلف المراحل الدراسية بما في ذلك المرحلة الجامعية بطبيعة الحال، وسَن القوانين والتشريعات في هذا المجال، وتفعيل التشريعات القائمة، بحيث تأخذ طابع الشمول والإلزام.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أشكر دولة الإمارات العربية المتحدة بعامة وحكومة الشارقة بخاصة، والشيء بالشيء يذكر فطالما أن هذا المجمع الكريم في ضيافة الأمانة العامة للأوقاف فاسمحوا لي أن أقترح ضرورة الاهتمام بالوقف البيئي، وقد وجدت أنه أخذ مساحة لا بأس بها في هذا المجال منذ وقف رسول الله ﷺ أموال مخيريق وهي عبارة عن سبع حوائط - أي بساتين - جعلها ﷺ في مصالح المسلمين، ومثل ذلك ما فعله عمر رضي الله عنه حين وقف أرضاً له بخيبر، ومثل ذلك ما فعله أبو طلحة في بئر روحاء، وعثمان بن عفان رضي الله عنه في بئر رومة، وعرف بعد ذلك الوقف على الطيور والحيوانات وغيرها، فالذي يشير إليه كل ذلك أن الوقف كان حاضراً في ذاكرة المجتمعات، ولذلك أرى ضرورة إدراج مثل هذا الموضوع المهم في الدورات القادمة، بارك الله فيكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فضيلة الشيخ خليل محيي الدين الميس:

الحمد لله، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وبعد

فما من قضية مستجدّة في هذا العالم إلا والإسلام له السبق فيها، أرسى قواعدها، ورسم أطرها، وذكر أسبابها وعلاجها نصاً أو اقتضاء، وما إن تطرح هذه القضية أو تلك وعلى أي مستوى في العالم وإذا بنا نراها بالمنظور الإسلامي، وإن شئت قلت: في الوحي أو معقول الوحي في نطاق العقيدة أو الشريعة على حد سواء، وفي هذا النطاق يمكننا أن نقول: إن تعاليم الدين الإسلامي في مجملها تحافظ على البيئة من عبث الإنسان أولاً، فالإنسان من أديمها خلق، ولا يسيء مخلوق سواه إليها، وكأن الملائكة منذ اللحظة الأولى قرأوا في عالم الغيب ما يمكن أن يقوم به الإنسان من الإساءة إلى البيئة مع أن الله تعالى خلقه من أديمها. جاء في الذكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، هذا والمعصية كما تكون من الإنسان للخالق تعالى تكون أيضاً بالإساءة إلى ما منه خُلق وهو الأرض، إن شئت قلت: البيئة. وتمكين للثقافة البيئية من نفوس المسلمين ذكرها الرسول ﷺ ضمن منظومة الإيمان، حيث قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وبناءً عليه؛ فإن رعاية البيئة في الإسلام دخلت منظومتين: العقيدة والشريعة، وإن شئت قلت: ضمن نطاق التعبُّد لله تعالى، هذا وإن رسول الله ﷺ هو القائل: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة» وغني عن البيان أن الإسلام أناط الطهارة بعنصرين من البيئة هما: الماء الطاهر، والصعيد الطيب، فليتأمل في حكمة التعبير في استعمال هذين العنصرين، واللذين ينبغي أن يكونا طاهرين، وبالجملة فإن الإيمان وهو تطهير القلب من رجس الكفر يكمله تطهير البدن من الحدث والنجس، بل وإن شئت قلت حتى الصلاة تستوجب طهارة كل من البدن والثوب

والمكان وكل منها يدخل في مكونات البيئة.

وحول موقع العناية بالبيئة في المنظوم الإسلامي نعدد ما يلي:

أولاً: تُدخلُ الجنة، عن أبي برزة الأسلمي قال: قلت: يا رسول الله دلّني على عمل يُدخلني الجنة، قال: «أمِط الأذى عن طريق الناس»، وأنها تغفر الذنوب، قال رسول الله ﷺ: «مرّ رجل بشوك في الطريق فقال: لأميطن هذا الشوك لا يضر رجلاً مسلماً، فغفر له»، وهذا العابث فيها ينال اللعن، فقال ﷺ: «ومَن آذى المسلمين في طريقهم وجبت عليه لعنته»، والمفسد فيها لا يحبه الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، هذا والحفاظ والإصلاح يحقق الخير فيها، قال تعالى: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وعليه فالبيئة بأُسس نظامها متقنة بإرادة خالقها أوجدها الله عزّ وجل في غاية الإتقان ضمن كل مخلوقات الله كمنظومة متناسقة متكاملة، قال سبحانه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ والله ولي التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فضيلة الأستاذ الدكتور محمد جبر الألفي:

الحمد لله، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده محمد، وعلى آله وصحبه، وبعد.

شكراً معالي الرئيس، والشكر موصول للأمانة العامة وللأخوين العارضين. البحث الذي بين أيديكم محاولة لربط حماية البيئة والحفاظ عليها بالأصول والثوابت والقواعد الإسلامية. فالمسلم يعتقد أنه مجرد خليفة في الأرض، ليس سيداً لها، ولا خصومة بينه وبينها حتى يقهر الطبيعة ويستنزف خيراتها، وقد جاءت الأحكام الفقهية والتطبيقات العملية لتؤكد هذا المعنى وتراقب تنفيذه بدقة، لم يكن الغرض من هذه المعاني أن نخاطب أنفسنا أو نبين ذلك للعارفين، إنما كان الغرض أن تتولى إدارة التأليف والتحقيق والترجمة والنشر بالمجمع جمع المشترك في هذه

البحوث وتقديمها لمؤتمرات البيئة ومؤسساتها بلغة واضحة عصرية، كما فعلنا عندما قدّمنا الفقه الإسلامي للمؤتمرات القانونية الدولية.

نقطة أخرى: طلب مني بعض الفضلاء أن أقترح على أمانة المجمع توزيع استبانة على الحاضرين لاستطاع آرائهم حول البحوث والتنظيم والعرض والمداخلات، وقد بلّغت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

معالي الأستاذ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد (الرئيس):

المجمع يرحب بكل اقتراح وبكل خطوات أو اقتراحات تطويرية أو نقدية بنّاءة، فهذا متاح في كل الأوقات، وهو في هذا الوقت آكد، وأي نقد أو أمور تطويرية وأمور ترشيدية هي محل ترحيب.

معالي الأستاذ الدكتور عبدالسلام العبادي (أمين المجمع):

شكراً سيدي الرئيس، بسم الله، وأصلي وأسلّم على رسول الله.

فيما يتعلق بموضوع البيئة، ورد في بعض البحوث اقتراح أن نستخدم العبارات التراثية في موضوع البيئة، أنا أرى أنه لا ضرورة لذلك، بل إن ذلك حقيقة يُخرجنا عن عبارة من لفظة واردة في الكتاب الكريم إلى ألفاظ أخرى ليست واردة في الكتاب الكريمة، البيئة وبوّأنا وباء فيها نصوص بنفس المعنى المطلق في كتاب الله جلّ وعلا، والدليل على ذلك ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، والدليل على ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾، وعشرات النصوص الواردة في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، فلماذا نقترح بدائل وعندنا أصل مرتبط بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ؟ هذه نقطة.

النقطة الأخرى: فيما يتعلق بالحديث عن هذا الموضوع يجب أن

يربط بنظرة الإسلام للكون والحياة والإنسان، لبيان أن هذا الأمر أصيل في التصور الإسلامي، وأنه يرتبط بنظرته الكلية لكل الوجود الإنساني ولكل الحياة الإنسانية، وأنه ليس هناك صدى أو رد فعل لما يقال في الدراسات الوضعية، لأنه غالباً ما يحاول بعض الأعداء أن يتهمنا بذلك، لأنه ما إن يهتم المجتمع الإنساني بشيء نخرج نحن عليهم، فنقول لهم أن هذا موجود في الشريعة، لا، نريد أن نبيّن أن هذا الأمر أصيل في بنائنا التشريعي ومستقر وعليه عشرات الأدلة والنصوص.

وقضية أخرى حقيقة اهتممت فيها ببحثي تتعلق بالتطبيق العملي فبيّنت كيف عكس فقهاؤنا هذه المبادئ بأحكام تفصيلية وصلت إلى درجة النصوص إذا كانت هنالك أضرار، وجدت كثيراً من النصوص الواضحة على التعويض، وخاصة في التطبيق فيما سمي بالتقنين الشرعي، مثل: مجلة الأحكام العدلية وغيرها التي تعالج هذا الموضوع بنظر قائم على تفاصيل عملية دقيقة توضح كيف أن فقهاؤنا عكسوا هذه المبادئ في نصوص تضبط السلوك الإنساني ضبطاً دقيقاً ومتميزاً، وهنا يسجل لهذه الشريعة السبق والتمييز، وهذا أمر في غاية الأهمية في بيان عدالة هذه الشريعة ودقتها وحرصها على تحقيق خير المجتمع الإنساني.

أيضاً التطبيق التاريخي الذي جرى من مؤسسة الحكم الإسلامي، كتب الحسبة مليئة حقيقة بالأدلة والشواهد التفصيلية، كيف رُوعي في التطبيق التاريخي كل ما يتعلق بالمحافظة على البيئة وتحقيق التوازن البيئي، وهذا أمر في غاية الأهمية ليبين أننا لم نُنَظِّر فقط إنما طبّقنا خلال قرون طويلة هذه الأحكام، والذي ينظر إلى النماذج الموجودة في هذا المجال وبعضها موجود بالبحث حقيقة يذهل عن هذا المستوى المتميز المتقدم في التطبيق والممارسة في الحياة اليومية للمجتمعات الإسلامية، كما يظهر جلياً ذلك في القيود والتفصيلات الواردة في كُتب الحسبة.

هناك قضيتان في موضوع البيئة: حماية البيئة من التلوث والمحافظة على التوازن البيئي، وهما قضيتان مقترنتان في التصور المعاصر في هذا المجال، فالنصوص والتطبيقات قد غطّت الأمرين،

وهنا أحب أن أقول لأخي الدكتور جعفر عبدالسلام: إن هنالك العديد من النصوص الشرعية الواردة في موضوع التوازن البيئي، وقد أحصيت منها عدداً كبيراً، ويكفي أن نشير هنا إلى بعضها مثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا﴾، والنهي عن الطغيان هو دعوة إلى التوازن، أيضاً عن الإسراف والتبذير كلها تتحدث عن موضوع التوازن، بالإضافة إلى ما أشار إليه معالي الرئيس من الآيات التي تحدثت على أن خلق هذا الكون كله قام على التوازن وأن كل شيء فيه موزون.

بقيت نقطتان: فيما يتعلق بالتوازن لا بد أن نتنبه إلى حماية حقوق الأجيال القادمة التي راعتها الشريعة في منهجها وأنتم تذكرون استدلالات عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ في سورة الحشر في المحافظة على حقوق الأجيال القادمة، وهذا أمر يركز عليه الآن في موضوع البيئة تركيز واسع، وهنا يسجل هذا السبق لهذه الشريعة العظيمة.

أخيراً فيما يتعلق بقضية القوانين البيئية هذه لا بد أن يُتنبَّه إلى تشجيعها والحث عليها لأنها تضع تشريعات تفصيلية لتطبيق هذه المبادئ كما فعل فقهاؤنا وكما فهم علماؤنا في موضوع كُتب الحسبة.

أخيراً موضوع الاتفاقيات الدولية، حقيقة البحث قدّم دراسة لكيفية التعامل مع هذه الاتفاقيات الدولية ونصّ على أن ما ورد فيها موافق للشريعة وأن التعاون في تطبيقها أمر مطلوب شرعاً، وذكر في معرض الاستدلال كثيراً من النصوص الشرعية، وخاصة قول الرسول ﷺ بشأن حلف الفضول وأنه لو دُعي لمثله في الإسلام لأجاب تحقيقاً لمعاني الخير في المجتمع الإنساني وحرصاً على تحقيق مصلحة البشرية بشكل متميز، أشير إلى ما أصدرته منظمة المؤتمر الإسلامي من إعلانات بهذا الخصوص وخاصة الإعلان الإسلامي للبيئة المستدامة الذي نصّ على كثير من هذه التفاصيل، والذي يعتبر حقيقة خطوة متميزة في هذا المجال، وشكراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدكتورة ناهد علي حسن السيد:

السلام عليكم، تعريف البيئة في الأدبيات الحديثة أنها الرصيد الأساسي للموارد الطبيعية المتاحة لمجتمع ما خلال فترة زمنية معينة للوفاء بالاحتياجات الإنسانية الحاضرة والمستقبلية، وترتبط البيئة ارتباطاً وثيقاً بموضوع التنمية المستدامة، وهي التنمية التي تلبي متطلبات الأجيال الحالية دون أن يكون ذلك على حساب الأجيال القادمة، فهي ضمان استدامة العطاء، ومن هذا المنطلق يجب التعامل مع البيئة بما يضمن لنا وللأجيال المستقبلية أقصى استفادة ممكنة، ونظراً لزيادة الاستهلاك بصورة متعاظمة في الآونة الأخيرة، واستنزاف الموارد الطبيعية وبعض الأفراد عن الرشد في تقدير احتياجاتهم الأساسية، آمل من المجمع الموقر أن يدعو الدول العربية والإسلامية لتقديم مرئياتها حول كيفية المحافظة على نصيب الأجيال القادمة من الموارد الطبيعية في حال ما استمر الأمر على ما هو عليه، حيث يقول رسول الله ﷺ: «لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»، فمن باب الاطمئنان ولمعرفة هل سيتبقى من إرث الأجيال الحالية شيء للأجيال القادمة أم سنتركهم يتكففون الناس؟ وشكراً.

فضيلة الأستاذ الدكتور قطب مصطفى سانو:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً.

شكراً لرئاسة الجلسة، وشكراً للسادة الباحثين وللمعقبين والمعلقين. يبدو لي أننا اليوم في هذا الموضوع أحسبه من الموضوعات التي لا أقول أنه قتل بحثاً أو عقد حوله جملة كبيرة جداً من المؤتمرات والندوات الدولية والإقليمية والمحلية، وأحسب أن موضوع البيئة لم يعد موضوعاً من الموضوعات التي يختلف حول ضرورة الحفاظ عليها وحمايتها، بل كافة الأديان وكافة الدول تتفق على هذا المبدأ، ليس هناك دولة من الدول في العالم، أو ليست هنالك ديانة من الديانات لا تعترف ولا تدعو إلى المحافظة على البيئة، بل إن معظم الدول فيها

وزارات قائمة: وزارة البيئة، وهناك تخصصات في الجامعات والمعاهد.

فلذلك أعتقد أننا أمضينا وقتنا في الحديث في إبراز هذا الجانب الذي سبق الإسلام وجميع التشريعات وجميع القوانين وكثير من هذه القرارات التي تتخذ اليوم لم نقدم جديداً في مجال موضوع البيئة، أحسب أن الجديد أو الشيء المطلوب منا اليوم في هذه المرحلة كيفية المحافظة على البيئة، لأننا نحن نعيش في عالم ونعيش في شريعة تأمرنا أن نقرن العلم بالعمل أي إذا عرفنا أن البيئة يجب المحافظة عليها، ما هي الأسباب الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تدفعنا إلى المحافظة على البيئة؟ عندها سنصل إلى تفعيل وتطبيق لتلك التعليمات التي اتفق الباحثون على ضرورة ما فيها، وأتفق مع ما قاله الدكتور شوقي دنيا أن مسألة البيئة هي ليست مسألة فقهية بالمعنى الفقهي، هي مسألة لها هذه الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، لذلك أعتقد والله أعلم أننا بحاجة إلى أن نتناول الجانب الذي ينقصنا وهو الجانب التطبيقي العملي والأسباب الكامنة وراء هذا النقص لأن عالمنا الإسلامي مع احترامنا للجميع يشهد أعلى درجة أو نسبة من التلوث البيئي، وما هي الأسباب لهذا التلوث البيئي؟ ربما تعود إلى أسباب تربوية، وربما ترجع إلى أسباب اجتماعية، وقد تحتاج إلى أسباب ثقافية، هذه قضية. القضية الأخرى أن القرآن الكريم والسنّة النبوية سُنّة رسول الله ﷺ لا نخال أنهما مصدرين جاءا لكي يصدقا على ما يتوصل البشر، أي لا ينتظر أن يقول الناس: البيئة يجب المحافظة عليها فنبحث في القرآن الكريم ما هي الآيات التي تدعو إلى المحافظة على البيئة؟ لا، القرآن يجب أن يكون هو المؤصل وهو الذي ينطلق منه التأصيل وليس التصديق، حينما نؤمل من القرآن الكريم النظرة المنهجية المثلى في تعاملنا مع البيئة، عندها نستطيع أن نستفيد، أما أن ننتظر أن يتوصل الباحثون والكاتبون والمؤلفون إلى قضية ما ثم نبدأ بعد ذلك برصد جملة من الآيات والنصوص لكي نقول: إن القرآن أو إن السنّة النبوية دلّتنا على هذه القضايا، إذن المشكلة مشكلة كيفية تعاملنا مع البيئة، وكيفية تعاملنا حتى مع تلك النصوص التي حثتنا على التعامل الأمثل مع البيئة.

والقضية الأخيرة هي قضية البيئة التي نتحدث عنها نفسها، هنالك البيئة الفكرية والبيئة الاجتماعية والبيئة السياسية، هذه البيئات كلها بحاجة إلى أن نفصّل فيها القول بحيث نضمن أن التلوث كما يكون في البيئة المادية الطبيعية قد يكون بالجوانب الأخرى من الجوانب التي يجب أن يكون الاهتمام الكبير عليه، لأن المجمع لا أخاله أنه يمكن أن يتحدث نيابة عن السياسيين، ونيابة عن الاقتصاديين، ونيابة عن القانونيين ونيابة عن كل هذه الفئات، ولكن نقطة أساسية كبيرة جداً كما قال الدكتور النجيمي أن بعض التشريعات التي تمّت والاتفاقيات التي تمّ الحديث عنها يمكن لنا أن نتناولها بشيء من التعليق أو التعقيب، والله أعلم.

سعادة الدكتور أحمد الإسلامبولي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، شكراً سيدي الرئيس. الحمد لله وأصلي وأسلّم على رسول الله محمداً ﷺ وكل مَن والاه، أما بعد

فقد قال الحق جلّ وعلا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، ربُّ العزة جلّ وعلا أعطانا أرضاً ممهدة مليئة بالخيرات وطلب منا أن نكون أمناء في الحفاظ عليها، ونحن نعلم جميعاً أن الإنسان خلق مستهلكاً وليس منتجاً وإذا أنتج فإنه ينتج ليستهلك وليحقق الأرباح، ويكفينا للتدليل على ذلك أن الله تعالى منحنا من الأرض طعاماً طيباً نأكله وتكون فضلاتنا في صورة أول مَن يتأفف منها صاحبها. والناس أمام البيئة أصناف، هناك مَن لا يحرص على نظافة بيته فيترك مخلفاته في بيته فتصيبه الأمراض، ومنهم مَن يحرص على نظافة بيته دون أن يعبأ بنظافة بيوت من حوله فيلقي بمخلفاته في الطرقات ويكون هو ممن يعاني منها، وهناك مَن يحرص على نظافة بيته وبيوت غيره وهي التي حضّ عليها الإسلام، نقول: إن العالم لا يعبأ اليوم إلا بما يسمى بالمصلحة، مصلحة كل دولة منفردة، نجد أن من البلاد مَن يحرص على القوة والإفراط فيها، فلا تعبأ بإنتاج الأسلحة النووية، وكما ينجم عنها من مخاطر، للتدليل عنها نقول: يكفي أن الخسائر البشرية التي نجمت عن قنبلتَيْ هيروشيما وناجازاكي بلغت أكثر من نصف مليون

قتيل، وطيلة أربعين سنة استمر التلوث نتيجة الإشعاع يصيب الأرض والأسماك والزراعات والبشر، وهذه من الأشياء التي أرجو أن تؤخذ بالحسبان، وهي التجارب النووية التي تتم لا من أجل الحفاظ على البيئة، كذلك أدعو إلى المزيد من الأبحاث والاختراعات التكنولوجية حول البيئة، فإننا لا ننتج إلا من أجل حاجة اختراع لتحقيق ربح، أما أن ننتج من أجل إنتاج أشياء تعيد الإصلاح، وأدلّل على ذلك بأن الفرد منا حينما يجد كوباً من الماء أخرجه الله له من عين أو غيره مبرداً جميلاً هو لا يعلم أن هذا الكوب تمّ معالجته من خالقه جلّ وعلا، أما نحن فحينما نعالج المياه التي تخرج من المصانع فإنها تخرج عليلة نأبى ولا نتمكن من أن نستخدمها.

آخر شيء أحب أن أتكلم فيه هو ما يقال: البيئة مسؤولية مشتركة، نجد نداءات في الولايات المتحدة وغيرها حينما عمّ البلاء يقولون عالم واحد، أهو عالم واحد؟ حينما نشرف على الهلاك ويكون عوالم مختلفة تنتجون مخلفاتكم النووية وتصدرونها إلى دول فقيرة تعاني منها دون أن يعلم شعوبها. وأشكركم على هذا الاستماع.

فضيلة الشيخ أحمد سعود السيابي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، شكراً سيدي الرئيس.

من خلال الملاحظة على محاور المؤتمر والبحوث المقدَّمة فيه فإنه يلاحظ أن محور الحفاظ على البيئة كان أكثرها بحوثاً، وذلك راجع إلى أهمية الموضوع، لأنه مرتبط بالحياة، وموضوع المحافظة على البيئة أصبح من مواضيع الساعة، كما أن الحفاظ على البيئة يتجلى فيه مقصد الشارع، وذلك بالحفاظ على الأنفس الذي هو حفاظ على الحياة كلها، ونظراً لأهمية هذا الموضوع فإن العالم بأسره أصبح به مشغولاً ومهتماً على المستويات المحلية والإقليمية والدولية، وعقدت من أجل ذلك المؤتمرات ووضعت الاتفاقيات بدءاً من اتفاقية استوبخن ١٩٧٢م مروراً بقمة الأرض في العاصمة البرازيلية ١٩٩٢م، إلى اتفاقية كيوتو اليابانية

١٩٧٧م، وغيرها من الاتفاقيات. كل ذلك كان لمكافحة تلوث البيئة الذي أصبح يتفاقم نتيجة الاستعمال الجائر لعناصر الطبيعة مما أدى إلى الاختلال بطبقة الغلاف الجوي الذي هو معروف بـ«الأوزون» نتيجة اختراقه بآلاف الأقمار الصناعية، إضافة إلى نقص ثاني أكسيد الكربون نتيجة الاستعمال، ولكن ما باليد حيلة والدولة الكبرى كأمريكا لم توقع على شيء من تلك الاتفاقيات الدولية حتى لا تلتزم بالحد من التلوث البيئي، والإسلام دقّ جرس الإنذار المبكر تنبيهاً وتحذيراً على ما يقوم به الإنسان من إفساد ينبئ من خلال المحاور الإلهية الملائكية حيث قال عـزّ وجـل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ ونتيجة مباشرة للاستعمال الجائر من قبل الإنسان فسدت البيئة، وحدث ما كان يتوقع حدوثه من ارتفاع في درجة الحرارة وذوبان الجليد وتبخر سطح المحيطات والبحار لتتكون من الأعاصير والفيضانات المدمرة، وكذلك ما يحدث من ذلك من زحف التصحُّر على الأراضي الزراعية، وصدق الله حيث يقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾، والفساد في الأرض هو إفساد لكل عناصر الأرض سواء كان الفساد خلقياً أو الفساد في عناصر الطبيعة، والمحافظة على التوازن البيئي من الضرورة بمكان رفيع، وأقترح أن يقوم المجمع بنداء إلى المجتمع الدولي عبر مؤسساته بأن يقوم على مكافحة التلوث وممارسة الضغط على الدول الكبرى للعمل من أجل التوازن البيئي.

وإنني أتفق مع الدكتور النجيمي على وضع العقوبات الرادعة للعبث بالبيئة، لأن الله تعالى ما شرع حد الحرابة إلا للذين يحاربون الله ويسعون في الأرض فساداً. فالسعي بالإفساد ليس بالمجال الخلقي فقط وإنما حتى في مجال إفساد الأرض وإفساد البيئة وإفساد عناصر البيئة والاستعمال الجائر لهذه الأرض. فولي الأمر أو المشرع من حقه أن يضع العقوبات التعزيرية وتنتقل هذه العقوبة من التعزير إلى الحدية تطبيقاً لحد الحرابة الذي نصّ الله تعالى عليه في كتابه العزيز. وشكراً لكم، والسلام عليكم.

فضيلة الشيخ بدر الحسن القاسمي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، أشكر سماحة الدكتور صالح بن حميد رئيس المجمع، ومعالي الأمين العام على مصابرتهم على هذا الكم أو القدر الهائل من البحوث والأيام المتواصلة للمؤتمر، وجزاهم الله خيراً ومَن معهم من الأعوان والأنصار، وكذلك الشكر لإمارة الشارقة على استضافتها لهذا المؤتمر.

البيئة أو المحيط الذي يعيش فيه الإنسان يؤثر فيه ويتأثر به سلباً أو إيجاباً أصبحت مهدّدة بسبب تصرفات الإنسان غير المسؤولة، وأن التلوث البيئي جعل حياة كل كائن حي عرضة للهلاك، وأن الأبحاث التي عرضت خلاصتها هي كثيرة وغنية، تناولت جوانب عديدة من مسائل البيئة ومخاطر تلوثها، واهتمام الإسلام بحماية البيئة الصالحة على كافة المستويات.

النقاط التي أريد أذكرها هنا أن الأبحاث تكاد تخلو من الإشارة إلى أن الإسلام اعتنى بأن يأكل الإنسان الحلال من الطيبات ويجتنب الخبائث، فنسمع بين فترة وأخرى عن جنون البقر وأنفلونزا الطيور، وفي هذه الأيام العالم كله مهتم بأنفلوانزا الخنازير، هذا الموضوع لم يصل إليه الإنسان إلا بسوء تصرفه وعدم تجنبه الخبائث، فمن واجبات المجمع أو واجبات المسلمين أن ينبِّهوا العالم بما يكمن في هذه الأشياء من الخطورة، كذلك نجد أن العالم الذي يعتبر متطوراً فيه ألف غريب أو تلبس بالكلاب في التربية أحياناً يظهر مناظر مقزِّزة بأن يضع الإنسان اللبن في فم الكلب ثم يشربه بفمه مع أنهم يعرفون جيداً أن الكلب هو الكلب وابنه الكلب والكلب جده ولا خير في كلب تناسل من كلب، والرسول ﷺ حينما نبّه إلى المخاطر فيجب الإيضاح بأن الرفق بالحيوان لا يعني أن يتلبس الإنسان بالحيوان، بل يكون هناك فاصل بين الأمرين، كذلك يجب التنبيه بأن بعض الأمم والشعوب تعودت على حرق جثمان البشر كما هو سائد بالهند، وبعض المناطق الأخرى، أو إلقاء الجثث في نهر مقدّس عندهم في «قنقا» و«جمنا»، ثم الشرب من تلك الأنهار، هذا يشكل أيضاً خطورة بيئية معروفة. فالتركيز فقط على ألاّ يقطع الإنسان

الأشجار، ويحافظ على نوع معين من الطيور، هذه الأشياء هي عالمياً تذكر، ولكن الأشياء التي هي حقيقة ملوثة لا يشير إليه الإنسان، الإسلام جعل الطهور شطر الإيمان وأن منظومة الوضوء وغسل الجنابة واستعمال السواك هذه الأشياء ليست حالات فردية، فالهدف منها حماية البيئة ليعيش الإنسان في جو آمن بعيد عن الأوبئة والأمراض، فهذا لا يمكن إذا كان الإنسان في وساخة: لا يعرف الطريقة للختان، ولا يعرف غسل الجنابة، ولا يعرف الوضوء، وهذه الأشياء من الأمور الفطرية كما نبّه الرسول ﷺ، وينبغي أن يكون لنا دور أو للمسلمين دور في أن يوضحوا هذه الأشياء، تعاليم الإسلام شملت الاستعاذة بالله للوقاية من شرور شياطين الجن والإنس، وهي أيضاً توفر الراحة النفسية والجسدية للإنسان وتساعد في تهيئة المناخ الآمن.

فيما يتعلق بقرارات المجمع حسب تصوري أرى أن قرار المجمع ينبغي أن يكون متميزاً ومتحلياً بالطابع الفقهي، لا تكراراً لما تردده جمعيات حماية البيئة، وما دام المجمع تبنّى هذا الموضوع وبهذه الأهمية، وكتبت فيها أبحاث كثيرة فليكن بالهيكل الإداري الجديد قسم للعناية بمسائل البيئة على غرار القسم الخاص بمعالجة العنف الأسري وحماية الأمن الفكري وما شابه ذلك، وصلّى الله على سيدنا محمد، وشكراً.

فضيلة الأستاذ الدكتور إبراهيم فاضل الدبو:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، شكراً لمعالي الرئيس، والشكر موصول لأمين المجمع معالي الدكتور عبدالسلام العبادي وللقائمين على هذه الدورة، وراعي هذا المؤتمر سمو الشيخ حاكم الشارقة وإدارة الأوقاف، جزا الله الجميع عن الإسلام خير الجزاء.

معالي الرئيس، جميل أن يبحث مجمعنا الموقر موقف الإسلام من البيئة والحفاظ عليها والتلوث كما جاء في أبحاث الأساتذة الأفاضل منه تلوث حسي ويتضمن الاعتداء على نعم الله في الأرض من ماء وهواء وطعام وغير ذلك، وإني أرى أن التلوث الفكري هو الأهم في محاربته

والاحتراز منه والوقوف بوجه الهجمة الشرسة على ديننا الإسلامي وروافده، ومن وجهة نظري المتواضعة أن هناك طريقين لعلاج هذا التلوث:

أحدهما: يتمثل في الطب الوقائي وذلك بأن نعمل على إيجاد أفضل السبل لحماية النشء الجديد من خطر هذا التلوث، ولا يخفى على حضرات الجميع أن قيام الأسرة بدورها الإيجابي في تربية أبنائها يساعدنا على مقاومة هذا التلوث، ومن الوسائل التي يمكن تسخيرها هو الاهتمام بالمناهج الدراسية لا سيما مواد اللغة العربية، والتربية الاجتماعية، والتاريخ وغير ذلك. وكل مَن يعمل، معالي الرئيس، في حقل التربية يشعر بخطورة الحملة الشعواء التي تشن من قبل أعداء الإسلام، ومَن حذا حذوهم من أبناء جلدتهم لمحاربة مناهجنا التربوية، ووصفها بالرجعية.

معالي الرئيس، قبل سنين عدة لا أريد أن أذكر البلد ولا وزير التربية المسؤول في ذلك البلد مراجعة بعض علماء أبناء ذلك البلد بغية الاهتمام بدروس التربية الإسلامية في جميع المراحل الدراسية، فما كان من هذا الوزير إلا أن يقول: ما الذي جعلنا نتخلف عن الغرب إلا الدين والإسلام!! فإذا كان هذا كلام القائم على التربية فكيف بمَن غيره؟

المسلك الثاني معالي الرئيس هو الطب العلاجي وتمثل في معالجة مَن وقع بالفخ من أبنائنا بإيجاد مصحّات تربوية مكثفة لانتشالهم من الأفكار المنحرفة، وأنتم على علم وعلى صلة بما تحمله الصحف في بعض بلادنا من حملة شعواء ضد دروس التربية الإسلامية ووصفها بالرجعية، وأنها تدرّس زكاة الإبل وتدرس تكفين الميت وأشباه ذلك والعالم إلى أين صار، هكذا يقولون عن دروسنا وعن مناهجنا التربوية، ولا ننسى معالي الرئيس دور الإعلام من خلال القنوات الفضائية والصحف وغيرها في إسعافنا لتحقيق هذا الغرض، والله من وراء القصد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سعادة الدكتور عبدالمجيد السوسة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، أشكركم على مناقشة هذا الموضوع الحساس. فموضوع البيئة وما تضمنه من أبعاد ومشكلات تعتبر كما تعرفون جميعاً من أخطر القضايا في هذا العصر وإن لم تكن أخطرها على الإطلاق، لأن تلوث البيئة وفسادها واستنزاف ثرواتها وسوء استغلالها، وعدم العدالة بالانتفاع بها صار يهدد الجميع.

ولذلك فقد شهد هذا العصر اهتماماً عالمياً كبيراً بقضايا البيئة، فبرزت الكثير من الدراسات والبحوث والمؤتمرات، كما برزت الكثير من الجمعيات الرسمية والشعبية والمنظمات الإقليمية والدولية التي تهتم بموضوع البيئة وحمايتها، وعملت الكثير من الدول على إصدار التشريعات والقوانين التي تعمل على حماية البيئة وتحد من استنزافها، وديننا الإسلامي الحنيف له السبق في موضوع البيئة ومعالجة قضاياها، وذلك بما شرعه من أحكام وآداب وتوجيهات تعمل على حماية البيئة وحسُن استغلالها، كما أنه عمل على تعميق القيم الرفيعة في نفس الإنسان ليكون تعامله مع البيئة تعامل حب وتكريم، لأن مشكلة البيئة في حقيقتها مشكلة سلوكية ناتجة عن ظلم الإنسان باحتكاره لموارد البيئة وإفسادها وسوء استخدامها واستنزاف مواردها، وإذا كانت موضوعات البيئة كثيرة ومتشعبة فإن من أهمها موضوع العدالة البيئية التي تعني حق الإنسان في العيش في بيئة صحية والانتفاع بمواردها، وبدون هذا الحق فإن الإنسان يتعرض للأضرار الكبيرة والأمراض الخطير الناتجة عن فساد البيئة، والإسلام قد أرسى الأُسس التي تضمن تحقيق العدالة البيئية وهي كثيرة، ولكني هنا أطالب أو أرى أن يتبنى المجمع التركيز على مفهوم العدالة البيئية، ولا يتوقف عند مجرد المناداة بالمحافظة على البيئة. والعدالة البيئية أقصد فيها أمرين:

أولاً: المحافظة على البيئة حتى يستفيد منها جميع الناس دون استثناء، وبالتالي لا يجوز للبعض أن يتصرف بالبيئة بما يفسدها فيحرم الآخرين منها.

والأمر الثاني: إتاحة موارد البيئة لجميع الناس على قدم المساواة، حتى ينال كل فرد حقه في البيئة بكل جوانبها، ويعيش بحقوقه كإنسان حياة كريمة مكتمل فيها حياته الآدمية، وبالتالي لا يجوز لبعض الناس أو بعض الدول أن تحتكر وتسيطر أو تستغل موارد البيئة بما يحرم بقية الناس من خيرات البيئة ويفسد حياتهم، وفي إسلامنا كثير من الأُسس والمبادئ التي ترسي هذا الحق ولا أريد أن أدخل في تناول تلك الأُسس، ففي البحوث الكثير من ذلك، وشكراً كثيراً.

سعادة الأستاذ الدكتور شوقي أحمد دنيا:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله. مداخلتي اليوم تتلخص بنقاط محددة وموجزة وعملية في الوقت ذاته.

أولاً: في القرآن الكريم آية واحدة لو طبّقناها كأفراد وحكومات وكمؤسسات لكفتنا كل شرور ومآسي التدهور البيئي، هذه الآية القرآنية الكريمة هي ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾، الإسراف باعتراف كل المتخصصين وكل المهتمين بموضوع البيئة أكبر عدو لحماية البيئة والحفاظ عليها وأكبر عامل تدمير وتدهور البيئة الإسراف له صور متعددة أكبر من أن تحصى على كل المستويات وأبشع من أن تتصور.

البيئة لا تطلب منا أكثر من شيئين: أن نحسن الاستفادة منها، وأن نحسن الطرح فيها، نحن نأخذ منها ونطرح فيها مدخلات ومخرجات بالتعبير الاقتصادي أو استخدامات ونفايات، إذا استخدمتها بشكل حسن فإنك توفر للبيئة مقومات صلاحها واستمراريتها للأجيال القادمة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، أما إذا أخذت منها بشكل سيئ فإنك تدمرها وتنهيها وتقف بها عند جيلك أو عند نفسك. وفيما يلي أعرض قضايا مهمة:

النفايات: إذ أكثر الاستخدام السيئ لها أو الاستخدام في كثرة النفايات؛ مدخلات ومخرجات، أخذتَ كثيراً فسوف تُخرج كثيراً، تأمّل

وتصوّر مدى ضخامة وسوء النفايات التي يلقيها الإنسان في البيئة في باطن الأرض وفي الهواء وفي المياه على اختلاف صورها وبشاعتها. إذن قضية الإسراف آية قرآنية واحدة لا نلتفت لها تكفينا كل هذا.

القضية الثانية: دولنا الإسلامية الآن دائماً ما تتكلم عن البيئة وأن كل دولة إسلامية وكل دولة في العالم وضعت وزارة للبيئة، كلام جميل وكل شيء، ولكن هذا لا يكفي، يؤتي الحذر من مأمنه، أخشى أن نؤتى من حيث لا نشعر في تدميرنا وتلويثنا وإزالتنا للبيئة الصالحة التي أوجدها الله لنا من خلال ما يأتي:

النمط السائد حالياً بالعالم النمط الرأسمالي في التنمية الاقتصادية بقيادة وهيمنة الشركات الدولية أو الشركات العابرة للقارات، هذه الشركات يقوم عليها حفنة من الرجال أو ما يسمون بالرجال وهم ليسوا رجالاً في الحقيقة مصاصي دماء العالم بأسره، كل ما يستهدفونه هو المزيد من الأرباح والمزيد من جني المال، ولكي يحققوا هذا أمامهم مشكلة خطيرة وهي مشكلة الاستهلاك.

الإنتاج متوفر وغزير وفائض يريدون له طلباً متجدداً أو مستمراً لكي تظل دائرة الإنتاج، وليس بهدف الحفاظ على العمالة كما يقولون، وإنما بهدف الحفاظ على الإيرادات والأرباح، كأنهم يقولون لنا أو للعالم أجمع: استهلك واستهلك بكثرة وكلما استهلكت بكثرة كلما ازدادت مكانتك وأصبحت شخصاً مرموقاً ينظر إليك، ويشار إليك بالبنان. هذه اللعبة أخشى أن ننجرف فيها، كل الدول الإسلامية تفعل التنمية الآن، التنمية بهذا المفهوم تنمية بهدف الاستهلاك المجرد العابث بهدف المزيد منه هذا مفهوم، فأهدافها وأساليبها وآلياتها معروفة، الإسلام يرفض كل هذا ويقدم البديل، أنت تشتري الثلاجة هذا العام لترمي بها في الطريق العام في العام القادم، ألست تشتري الفستان هذا العام أو هذا اليوم لترمي به في سلة المهملات الأسبوع القادم ولا تستخدمه مرة ثانية، هذه الأساليب وهذه الأنماط مدمرة ومخربة للبيئة لأنها تستنزف الموارد، ثم بعد ذلك نقول: أين مواردنا أو أين موارد الأرض وأين خلق الله؟ ونتهم الأرض بالشح وبالندرة إلى آخره.

أرجو أن نتريث، نحن لا ندعو إلى التخلف ولا ندعو إلى الفقر ولا ندعو إلى البدائية ولا ندعو إلى ترك التنمية، التنمية في الإسلام فرض شرعي، والقرآن نص على ذلك والسنّة نصت على ذلك، وللإمام علي في نهج البلاغة كلام جميل جداً في حياة المتقين في الدنيا طيب الحياة حتى لما قال جلّ وعلا: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وردت الآية التالية ﴿قُلْ﴾، لأجل أن يدفع الاتهام ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، لكن فرقاً شاسعاً بين تنمية تستهدف طيب الحياة بأساليب معينة تنظر للمستقبل، تنظر لكل المخلوقات على أن لها حقوقاً في الكون ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾، ووضعها لكل شيء فقال عزّ وجل: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾، ليست متاعاً لنا فقط، نحن ندمر الأنعام وندمر الحشرات وندمر الحيوانات وندمر وندمر بهذا النمط من التنمية. أرجو منا كأفراد وكحكومات أن يكون نمط تنميتنا الاقتصادية التي نسعى إليها إن كنا نسعى إليها حقيقة أن يكون نمطاً إسلامياً.

النقطة الأخيرة التي أود أن أطرحها، وأرجو من المجمع بحكم ما لهذا الموضوع من أهمية ومن خطورة ومن أبعاد أساسية ومن تداعيات ومن علاقات وارتباطات بكل جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية وغيرها، أن يصدر مؤلف موسوعي للبيئة من المنظور الإسلامي فيقوم مباشرة بترجمته إلى اللغات الحية في العالم لكي يرى العالم كيف تكون رؤية الإسلام الحقيقية للبيئة وللكون وللحفاظ عليه. وشكراً جزيلاً.

سعادة الدكتور عمر جاه:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمٰن الرحيم، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا وحبيبنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

معالي الرئيس والحضور، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أود أن أتقدم بكلمة الشكر لإمارة الشارقة المضيفة، ولإدارة الأوقاف ولأمانة مجمع الفقه الإسلامي الدولي على ما قدّموه لنا من الترتيبات الجيدة في

جميع المواضيع ومنها موضوع البيئة، وأعتقد أن البيئة هي الحياة. وحين استمعنا إلى الباحثين والمعلقين تعرّفنا على أن مكونات البيئة هي الإنسان والحيوان والتراب والنبات وكل ما في الكون المادي والكون غير المادي. فالمشكلة التي تواجهنا الآن هي أن البيئة تمّ إفسادها وتخريبها وتلويثها، مَن الذي قام بهذا؟ الذي قام بهذا هو الإنسان. فالإنسان مكلّف أن يحافظ على البيئة لكننا ينبغي منا أن نعود إلى أركان ديننا الإسلامي لنتعلم كيف نحافظ على البيئة. فالله سبحانه وتعالى أنزل إلى الإنسان كتابين ينبغي أن نقرأهما قراءة متأنية، الأول كتاب مقروء وهو القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وما جاء من تشريع الإسلام من كتب الفقه، والثاني الكتاب المنظور هو الطبيعة، فإذا قرأنا الطبيعة قراءة متأنية فماذا نرى في البيئة؟ نرى في البيئة أن الله سبحانه وتعالى تجلّى بأسمائه وصفاته في مخلوقاته، فما من مخلوق إلا ولطف الله مخزون فيه. لو نظرنا في تجلي الحق للبيئة لاحترمناها، لكننا ننظر إلى البيئة ولا نرى أن قدرة الله وصفاته هي التي تجلّت فيها، وقد كنا في الركن الثالث من ديننا الإسلام وهو ركن الإحسان أن نرى الله في عبادتنا أن ترى الله فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والمحافظة على البيئة عبادة، في عبادتنا للمحافظة على البيئة ينبغي أن نرى أن البيئة أثر من آثار أسماء الله وصفاته، ينبغي احترام البيئة لأن البيئة قوام حياتنا وإفساد البيئة معصية وذنب، وقرأنا في القرآن أن الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾. فإذا تمّ الاستمرار بالإساءة إلى البيئة، ففي النهاية هلاك كل ما في الكون.

إذاً ينبغي أن نهتم بما تعلمناه من ديننا الإسلامي برؤية الله في كل شيء، فلو رأينا الله فيما نفكر ما أخطأنا في التفكير، ولو رأينا الله فيما نعمل ما أخطأنا في العمل، ولو رأينا الله في مخلوقاته لاحترمنا هذه المخلوقات، والإساءة إلى المخلوقات هي إساءة إلى مَن خلقها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

معالي الأستاذ الدكتور عبدالسلام العبادي (أمين المجمع):

شكراً معالي الرئيس، بسم الله الرحمٰن الرحيم. أحببت أن أعيد على موضوع الاتفاقيات الدولية في موضوع البيئة.

هذه القضايا ليست قضايا عادية بل قضايا ساخنة، وهنالك دول توقع على هذه الاتفاقيات، وهنالك دول ترفض، وهنالك دول تُغير في رأيها، وهنالك قضايا ملحّة وعابرة للقارات في موضوع الأخطار البيئية: في موضوع خرق الأوزون والاحتباس الحراري، وفي موضوع التصحُّر، وفي موضوع التلوث للهواء والمياه، وفي موضوع الاستخدام الجائر للموارد، فلذلك لا بد في الواقع أن نقدّم معالجات للمجتمع الإنساني تغطي هذه الآفاق التي ما زالت ساخنة.

ليست القضية قضية بيان فقط باهتمام الإسلام بالبيئة وحديث عام، لا بد في الواقع من معالجات تتصدى لتلك القضايا، لذلك في موضوع الاتفاقيات لا حرج شرعي من التوقيع عليها والالتزام بها، لكن جرى التنبيه في العديد من البحوث على أن هذا يجب أن يتم في إطار عدم الظلم أو الإخلال بالتوازن بالنسبة لحقوق الشعوب، لأننا لا نريد أن يكون هنالك جور في المجتمع الإنساني حتى على مستوى الدول، بحيث نحمي مصالح الدول المتقدمة ونغفل مصالح الشعوب التي تستورد ما يسمى بالحضارة، فلذلك لا بد في الواقع أن يكون هنالك اهتمام من الوفود الإسلامية المشاركة في المؤتمرات الدولية بهذه القضية، ومن هنا لا بد أن ننبّه على قضية إجرائية ولكن مهمة، فلا بد أن يكون في هذه الوفود مَن هو مُلِم بالمواقف الإسلامية بهذا الخصوص ليستفيد المجتمع الإنساني من المعالجات الإسلامية المتميزة والسابقة في هذا الخصوص، وهذا ليس في موضوع البيئة فحسب ولكن حتى في موضوعات أخرى، كموضوعات حقوق الإنسان، وموضوعات العنف الأسري وغيرها، ولذلك من المهم في الواقع ونحن بفضل الله عزّ وجل أُسند إلينا هذه المهمة الكبيرة في أن نكون مرجعية فقهية للأمة لا بد أن نتصدى لكل

هذه القضايا بنظر متميز مدروس قائم على التحليل والمعرفة العميقة لنقدمه على كل المستويات ولكل الجهات المهتمة بهذه القضايا في عالمنا، وهكذا نكون قد أدينا الدور الأساسي والرئيس المنوط بنا، ولا ننظر حقيقة في بحوث كُتبت هنا وهناك بقدر ما يكون هنالك قرارات مدروسة متميزة من هذه المرجعية الفقهية، وبهذه المناسبة ووفاء لهذه المهمة التي تحملون، وهذه المسؤولية العظيمة التي تتولون ندعوكم في أمانة المجمع وفي المجمع لتقديم أي اقتراح يطور في العمل ويحسن في الأداء ويثري المسيرة، لأن المرء كثير بأخيه، فلذلك لا بد في الواقع أن نتناصح، وأن نقدم كل ما يثري هذه المسيرة، وبخاصة في مجال الموضوعات التي يجب أن تُبحث، ولذلك وزعت الأمانة استبياناً لاقتراح موضوعات حية وحيوية ومتميزة للبحث. وأنا أشكر حقيقة للإخوة الكرام على مواصلة متابعتهم لهذه المسيرة وإثرائهم لها بآرائهم السديدة وملاحظاتهم القيِّمة، وأرجو أن تواصلوا ذلك لأهميتها.

فضيلة الشيخ أحمد المبلغي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبو القاسم المصطفى محمد، وعلى آله الطيبين وصحبه الميامين.

في البداية أشكر معالي الشيخ الرئيس على حُسن إدارته لهذه الجلسات العلمية، وأشكر معالي الأمين العام للمجمع على جهوده البنّاءة في هذا السبيل، وأشكر الأمانة العامة للأوقاف بالشارقة على استضافتها لهذه الدورة.

المشكلة التي تعاني منها القضايا البيئية عند المسلمين أنها ما زالت قضايا بيئية يذكرها العلماء المتخصصون في مجال البيئة ولم تلبس لباس الإلزام الفقهي بعد، كما أن هناك مشكلة وهي إلباس هذه القضية باللباس الفقهي ليس أمراً سهلاً، بل توجد أمامنا صعوبات وإبهامات جدية في بناء هذا الصرح العظيم. من هذا المنطلق في مقالتي التي قدّمتها إلى المجمع حاولت فيها التقدم إلى الأمام وإيجاد رؤية أكثر

اتساعاً وتعمُّق في البنية الفقهية، وذلك عن طريق تقديم خطوات فقهية هي ما يلي:

الخطوة الأولى: تعيين الأسئلة الرئيسية الكبرى أمام الفقه في المجال البيئي وهي:

أولاً: حكم تخريب وتلويث البيئة.

ثانياً: حكم عمران الأرض. وهذا غير تخريب.

ثالثاً: حكم كشف المعلومات عن البيئة. طبعاً هذا أيضاً مهم في تعليم الناس بقوانين وأحكام أو ثقافة البيئة.

وذكرت في مقالتي أن حكم كسب المعلومات عن البيئة حكمه الوجوب الطريقي، قلت: هناك قاعدة أصولية وهي بأنه كلما كان إنجاز الوظائف الشرعية على المكلّف متوقف على العمل بها، فإن تحصيل هذا العلم واجب، وقد سمّى أحد الأصوليين مثل هذا الوجوب بالوجوب الطريقي، فعليه الوجوب الطريقي هو الذي لولاه لم ينجز التكليف الشرعي على المكلف لجهله به، والمجال الرابع هو حكم التعاون مع العالم في المجال البيئي، وهذا بحاجة إلى أن نبدي الموقف الفقهي إزاءه.

الخطوة الثانية: تقديم قواعد فقهية لها قابلية لتغطية القضايا البيئية، ولقد قرأت في مقال صنفين من القواعد، القواعد التي لم تذكر سابقاً كقواعد، غير أنها تشكل في جوهرها قواعد ذات طاقات مهمة للتطبيق على المجال البيئي، انطلاقاً من أن الأرضية لبروز هذه القواعد قد تكون هي مسائل مستجدة بمعنى لا يتشكل لها معنى لهذه القواعد ولا كياناً إلا بوقوع هذه المسائل المستجدة، وقد ذكرت قواعد من هذا الصنف.

الصنف الثاني: القواعد التي هي غير فعّالة ولكنها بالعرض على البيئة تأخذ نشاطاً قاعدياً، وأما القواعد المعروفة تركتها لمجال آخر. وأنا ذكرت هذه القواعد: قاعدة كون الأرض للأنام، قاعدة اختلال النظام، قاعدة حرمة الحيوان، قاعدة الإسراف، قاعدة عدم الإلقاء إلى التهلكة،

قاعدة التنظيف، قاعدة إخراج العاطل من حيز العطلة، قاعدة الإعمار، وأنا قلت في ذيل قاعدة الإعمار أن المنطق القرآني أشار إلى العمران المستدام وهذا يعكس ما في التنمية المستدامة، قاعدة صرف الأرض فيما خلقت له، قاعدة التحذير، قاعدة التعاون على البر، قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعض القواعد الأخرى، هذه هي القاعدة الثانية.

الخطوة الثالثة: إدراج القواعد البيئية تحت هذه القواعد، وقد خصصت مجالاً تحت كل قاعدة بعنوان التطبيقات البيئية، وذكرت الكثير من القضايا المهمة عند متخصصي المجال البيئي، ذكرتها كتطبيقات لهذه القواعد وطرحتها كالحفاظ على المحيطات الطبيعية، وإزالة الغابات، والتعدي على الأرض الرطبة، واحتراق الوقود، ونفايات الصناعات، وإنتاج المنظفات، وعمليات التكرير، وما إلى ذلك.

أما **الخطوة الرابعة**: التعرف على موضوع البيئة.

الخطوة الخامسة: محاولة بناء سطح البيئة على رؤية القرآن الوصفية للكون.

وشكراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مشارك:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، أما بعد.

أنا عندي كلمة وجيزة في موضوع إسراف الأطعمة، إسراف المأكولات والمشروبات لدى المسلمين. نرى أن المسلمين في الآونة الأخيرة يسرفون في الضيافة في أنواع المناسبات يعدون الطعام أكثر مما يحتاجون ويرمون ما يزيد عن الضيوف، ولذا يجب على علمائنا وأئمة مساجدنا أن يكثروا المواعظ، ويرشدوا إلى عدم الإسراف في الأطعمة.

الحسن البصري رحمه الله عن البدعة قال: أول بدعة نشأت في الإسلام هي الأكل فوق الشبع، وسئل علي رضي الله عنه عن الاستنجاء، فأجاب: «كان ندباً في عهد رسول الله وأما الآن واجباً» فلما

سألوا عن سببها قال: «إنهم كانوا يبعرون بعراً وأنتم تثلطون ثلطاً فأتبعوا الحجارة بالماء» في هذا نذكر قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فضيلة الدكتور أحمد محمد بخيت:

بسم الله الرحمٰن الرحيم. شكراً سعادة الرئيس. ائذن لي ـ والمؤتمر على مشارف النهاية ـ أن أتوجه بالشكر الجزيل لرئاسة المجمع وأمانته، إذ شرّفاني بالمشاركة في أعماله وأن أتوجه بالشكر إلى دولة الإمارات العربية حكومةً وشعباً، وأخص بالذكر سمو الشيخ الدكتور حاكم الشارقة وحكومتها وبخاصة الأمانة العامة للأوقاف على ما قدّموه لدورة المؤتمر من دعم.

واختصاراً للوقت أنبّه إلى ما لم أسمع أحداً من إخواني بالتفضل بالتنبيه إليه، إذا كنا نتحدث عن البيئة فأرجو أن يتضمن قرار المجمع وتوصياته التنبيه على تجريم أو تأثيم المسببات التي تؤدي إلى التلوث، ومنها كما يظهر لي هذه التصرفات التي تصيب الإنسان المسلم اليوم بكثير من الحيرة والتشتت، وتظهر في حرص الفضائيات على استضافة أناس يبدون آراء في الدين دون علم، وهم يعلمون مدى آثارها الضارة على الإنسان، مما يجعلهم يحيطون أو لا يعرفون أين الصواب، والمستضعفين يعلمون. أولاً إن هذا مما يُحدث بلبلة وتشتت، ونرجو أن يراعى ذلك، ثم إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾، وقد قال المفسرون: إن الرجس هو المستقذر، وبالتالي هذه الأشياء من الرجس وتسبب أو هي مسبب من مسببات التلوث البيئي أو الفساد البيئي، فينبغي أن ينبه عليها.

أخيراً أرجو أن ينبّه إلى هذا الاضطراب الذي يُحدثه التصرف غير السوي في إباحة أشياء تمّ تجريمها لمجرد الغرض في تغيير الإنتاج، من ذلك استعمال البلاستيك والورقيات وأغطية الأرضيات وأدوات المطعم،

هذه الأشياء يبرر اليوم بأنها هي الأشياء النظيفة التي ينبغي استعمالها، وبعد قليل نفاجأ بأن هناك خط إنتاج جديد، هناك محاولات أن هذه الأشياء ضارة بالبيئة وينبغي الامتناع عنها، أرجو أن يراعى ذلك في قرار المجمع، وشكراً لكم.

فضيلة الأستاذ الدكتور حامد أبو طالب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم.

الحقيقة الوضع الآن أن الحكومات تهتم بموضوع البيئة وتبذل كل جهد لحماية البيئة، ومن الملاحظة أنها عيّنت أعداداً كبيرة لحماية البيئة فهناك نواب، في كل جامعة نائب للبيئة، وفي كل كلية وكيل للبيئة، وفي كل مصنع، وفي كل شركة مسؤول عن حماية البيئة، بمعنى أن هناك جيش من الناس الآن لحماية البيئة، ومع هذا يلاحظ زيادة التلوث والتدهور البيئي مع كل هذه الاهتمامات والجهود التي تبذلها الحكومات.

الغريب في الأمر أن المثقفين يسيرون عكس المطلوب وينتقدون مَن يتحدث في حماية البيئة، وينتقدونه بدعوى أن هذا مطلب أمريكي، أو أن هذه مطالب الأمم المتحدة، ومطالب الدول الاستعمارية، وما إلى ذلك، ومن ثم يكرهون وبل ينتقدون مَن يتحدث في حماية البيئة لذلك أرجو أن يراعى في القرار أن يوجه أولاً إلى الشعوب الإسلامية، وإلى الدعاة وقادة الفكر والإعلاميين في العالم الإسلامي والتركيز على أن حماية البيئة والحفاظ عليها مطلب إسلامي أصيل، وليس وارداً، أو مفروضاً على الحكومات، كما يدّعي البعض، وشكراً جزيلاً.

فضيلة الأستاذ الدكتور محمد بن أحمد الصالح:

بسم الله الرحمٰن الرحيم.

مَن يتوجه إلى مبنى الأمم المتحدة يجد مكتوباً على مدخله رسم للمحراث وتكسير للسيوف والرماح، وذلك دعوة لزراعة الأرض

واستثمارها وجلب الخير فيها، غير أن الأمم المتحدة منذ ٦٤ سنة لم تفعل شيئاً مذكوراً للشعوب النامية في آسيا وأفريقيا، بل بقي لهم المرض والجهل والفقر، و٢٠٪ من عالم الشمال يستأثرون بـ٨٠٪ من خيرات الأرض، وترك ٨٠٪ من البشر بـ٢٠٪ من خيرات الأرض فقط، بل لم يكتفوا بهذا دائماً، أرسلوا سفنهم وبواخرهم لتدفن النفايات الذرية في شواطئ الدول الفقيرة، أقول: إذا عدنا إلى تراثنا ونحن لا بد أن نستفيد من تراث الماضي ونعيش الحاضر ونستشهد بالمستقبل، ولا أريد ولا أستطيع أن أستقصي أو أذكر الآيات والأحاديث الواردة في هذا، لكني أكتفي بآيتين وحديث فقط. في سورة فاطر في الآيتين ٢٧ و٢٨ قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾، وفي الحديث الشريف: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»، والحديث الآخر: «مَا مِن مُسلم يغرِسُ غَرْساً أو يزرَعُ زَرْعاً فيأكُلُ منه طَيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان لهُ بهِ صدقةٌ»، وفوق هذا فإن الإسلام أعفى الفلاح والمزارع من ثلث الزكاة في ثلث محصوله حتى يقدمه للناس وللمارّة والمحتاجين من الناس.

إذن أرجو من هذا المجمع المبارك المتألف أن يُصدر قانوناً يتعلق بتفاصيل البيئة ووسائل حمايتها وتحديد هذه البيئة لنكون في مأمن لأنني في الواقع أشعر بإجلال واحترام لهذا المجمع الذي هو مرجع للعالم الإسلامي في قضايا الفقه وفي القضايا المصيرية.

وأخيراً أتقدم بالشكر للشيخ الدكتور حاكم إمارة الشارقة، ولأهل البلد، ولهيئة الأوقاف، وأقول: لو تحولت أجسامنا كلها إلى شكر وتقدير وثناء وإطراء، لم نوفهم حقهم، فجزاهم الله خيراً، وبارك فيهم وفي جهودهم، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

سعادة الأستاذ الدكتور جعفر عبدالسلام:

بسم الله الرحمٰن الرحيم.

يعني هو اقتراح بسيط، البيئة تستحق أن تقام لها لجنة من المجمع الموقر وأقترح لها مهمتين أساسيتين الآن:

أولاً: تجميع كل ما كُتب عن البيئة خاصة من منظور إسلامي، وأيضاً الاتفاقيات والتشريعات والقرارات الدولية المتصلة بهذا الشأن.

المسألة الثانية: وهي الأهم، دائماً المشرع ـ يلاحظ ـ يشرع للماضي. هناك مشكلات مستحدثة في مجال البيئة وفي غيرها من المجالات، لكن المهمة الأساسية التي أقترحها لهذه اللجنة هي متابعة المشكلات الحديثة، وعرضها على المجمع لإنزال حكم الشارع عليها، ولتنبيه مجتمعاتنا على بعض المخاطر التي قد تحاط بنا وبمجتمعاتنا، وأيضاً مواصلة البحث ودراسة المشاكل البيئية، وشكراً.

معالي الأستاذ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد (الرئيس):

شكراً، والشكر للجميع.

ولجنة الصياغة لهذا الموضوع تتكون من: الدكتور جعفر عبدالسلام مقرراً، والدكتور شوقي أحمد دنيا عضواً، والدكتور محمد الزغول عضواً، والدكتور محمد مطر الكعبي عضواً، والدكتور محمد النجيمي عضواً، والشيخ أحمد المبلغي عضواً. وشكراً لكم، وتُرفع الجلسة.

ثالثاً: القرار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين

قرار رقم ١٨٥ (١٩/١١)
بشأن
البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في دورته التاسعة عشرة في إمارة الشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) من ١ إلى ٥ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٦ ـ ٣٠ نيسان (إبريل) ٢٠٠٩م،

بعد اطلاعه على البحوث الواردة إلى المجمع بخصوص موضوع **البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي**، وبعد استماعه إلى المناقشات التي دارت حوله،

قرر ما يأتي:

١ ـ تحريم إلقاء أية نفايات ضارّة على أي بقعة من بقاع العالم وإلزام الدول المنتجة لهذه النفايات بالتصرف بها في بلادها وعلى نحو لا يضر بالبيئة، مع التزام الدول الإسلامية بالامتناع عن جعل بلادها مكاناً لتلقي أو دفن هذه النفايات.

٢ ـ تحريم كافة الأفعال والتصرفات التي تحمل أية أضرار بالبيئة أو إساءة إليها مثل الأفعال والتصرفات التي تؤدي إلى اختلال التوازن البيئي، أو تستهدف الموارد أو تستخدمها استخداماً جائراً لا يراعي مصالح الأجيال المستقبلية، عملاً بالقواعد الشرعية الخاصة بضرورة إزالة الضرر.

٣ ـ وجوب نزع أسلحة الدمار الشامل على مستوى جميع الدول، وحظر كل ما يؤدي إلى تسرُّب غازات تساعد في توسيع ثقب طبقة الأوزون وتلويث البيئة، استناداً إلى القواعد اليقينية الخاصة بمنع الضرر.

ويوصي بما يلي:

١ ـ تشجيع الوقف على حماية البيئة بمختلف عناصرها الأرضية والمائية والفضائية.

٢ ـ إنشاء لجنة لدراسات البيئة من منظور إسلامي بمجمع الفقه الإسلامي الدولي تختص برصد كافة الدراسات والاتفاقيات والمشكلات المتصلة بالبيئة.

٣ ـ التعاون مع المجتمع الدولي بمختلف الصور في سبيل حماية البيئة ومنع تلويثها، والانضمام إلى الاتفاقيات والعهود الدولية التي تعقدها الدول لمنع التلوث والإضرار بالبيئة، شريطة ألاّ تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية أو تحمل أضراراً بالدول الإسلامية.

٤ ـ حث الدول الإسلامية على تفعيل المنظمات البيئية التي أوجدتها منظمة المؤتمر الإسلامي والهيئات التابعة لها، مع ضرورة التعاون الوثيق مع مجلس التعاون العربي الخاص بالبيئة، وكذلك مجلس التعاون الخليجي المهتم بها.

٥ ـ الإكثار من الصناعات «صديقة البيئة» ودعمها بكافة الطرق الممكنة.

٦ ـ حث الدول أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي على الاستمرار في إصدار التشريعات والقوانين المنظمة للبيئة والمانعة من تلويثها، مع الاستعانة بسلطة القانون الجنائي بتوقيع العقوبات على الإضرار بالبيئة، وتشديد أجهزة الرقابة على مختلف التصرفات والأفعال التي قد تحمل الإضرار بأي عنصر من عناصر البيئة: المياه أو الهواء أو التربة.

٧ ـ مطالبة المؤسسات المعنية بالشؤون الدينية في الدول الإسلامية

بتزويد الأئمة والدعاة بالمعلومات البيئية، ونشر الأبحاث والدراسات المتعلقة بالبيئة ووسائل الحفاظ عليها.

٨ ـ نشر الثقافة البيئية بمختلف الوسائل التي تؤدي إلى نظافة البيئة وحمايتها من كافة المخاطر عن طريق:

أ ـ البث المنظّم لمخاطر البيئة في وسائل الإعلام.

ب ـ التربية السوية، سواء داخل المنازل أو في مناهج الدراسة بمختلف مراحلها.

ج ـ الاهتمام بفقه البيئة من دراسات الفقه الإسلامي بكليات الشريعة والدراسات الإسلامية.

والله أعلم.

القسم الثالث

الجلسة الختامية والبيان الختامي

بيان المجمع حول الأوضاع في فلسطين، والعراق، والصومال، والسودان.

كلمة معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد رئيس مجلس المجمع، رئيس المجلس الأعلى للقضاء المملكة العربية السعودية.

كلمة معالي الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة الأمين العام السابق للمجمع.

كلمة معالي الأستاذ الدكتور عبدالسلام العبادي أمين المجمع.

بيان المجمع
حول الأوضاع
في
فلسطين، والعراق، والصومال، والسودان.

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان من مجمع الفقه الإسلامي الدولي
حول الأوضاع في فلسطين وبخاصة الاعتداءات على المسجد الأقصى المبارك، والأوضاع في العراق، والصومال، والسودان الصادر بمناسبة انعقاد الدورة التاسعة عشرة لمؤتمر مجلسه في الشارقة في الفترة من ٢٦ ــ ٣٠/٤٠/٢٠٠٩م

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في دورته التاسعة عشرة بإمارة الشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) في الفترة (١ ـ ٥) جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٦ ـ ٣٠ إبريل ٢٠٠٩م، باعتباره مرجعية فقهية للأمة الإسلامية، واستشعاراً منه لمسؤولياته، وانطلاقاً من واجبه نحو الأمة تجاه ما يواجهها من تحديات وأخطار، وبخاصة فيما يتعلق بفلسطين والعراق والصومال والسودان، يؤكد على ما يلي:

أولاً: فلسطين والمسجد الأقصى:

إن مجمع الفقه الإسلامي الدولي يرصد بإدانة وشجب كل ما يتعرض له الشعب الفلسطيني الأبي وهو يخوض الصراع المرير مع العدو الصهيوني الغاشم المتغطرس الذي لا يأبه باحترام أدنى حقوق الإنسان؛ وبخاصة ما جرى في العدوان الأخير على قطاع غزة وما تم فيه من تشريد وتجويع وفقدان أمن، وحصار وقتل، لا يفرق بين شيخ وطفل وامرأة ومعاق، مع قطع الإمدادات والمؤن الأساسية التي تلبي أدنى الاحتياجات الإنسانية من غذاء ودواء. والمجمع أمام هذه الجرائم البشعة

ليدعو دول العالم الإسلامي خاصة، والعالم أجمع أن يقوموا بواجبهم الشرعي الأخوي والإنساني في رفع ما يتعرض له الشعب الفلسطيني من معاناة وإمداده بالأساسيات التي يحتاجها.

كما أن مجمع الفقه الإسلامي الدولي يتوجه إلى كل فصائل الشعب الفلسطيني ومكونات مجتمعه المدني بدعوتهم إلى وحدة الصف وجمع الكلمة على أمر سواء لدرء الأخطار وصيانة الحقوق وإنهاء الاحتلال، بكل السبل الممكنة، كما يناشد المجتمع الدولي إلى ضرورة العمل بحزم وقوة لردع الاحتلال عن ممارساته الغاشمة ووقف الإرهاب الذي يقوم به.

كما يعبّر المجمع عن قلقه البالغ وحذره الشديد جراء ما تتعرض له مدينة (القدس الشريف) من عمليات تهويد لمحو هويتها العربية والإسلامية، ومحاولات تهديم المسجد الأقصى المبارك، ومضايقة سكان القدس الأصليين من مسلمين ومسيحيين، ويؤكد على أن مدينة القدس والمسجد الأقصى هما من المقدسات لدى المسلمين في أرجاء العالم، ولأن المسجد الأقصى هو القبلة الأولى للمسلمين، ومسرى الرسول ﷺ ومعراجه إلى السماوات العلى. وأن المسجد الأقصى المبارك هو للمسلمين وحدهم، ولا علاقة لليهود به. وإنه يجب الحذر من مخاطر المساس بحرمة هذا المسجد، وتحمل سلطات الاحتلال والدول الداعمة لها مسؤولية أي اعتداء على الأقصى ومدينة القدس الشريف، ولا يجوز أن يخضعا للمفاوضات ولا للتنازلات ولا يملك أحد الإقدام على ذلك فهو أسمى وأرفع من ذلك كله.

ويدعو المجمع جميع القادة والشعوب في العالمين العربي والإسلامي إلى مساندة الشعب الفلسطيني المضطهد، وتحمل مسؤوليتهم الدينية والوطنية والتاريخية للدفاع عن مدينة القدس المحتلة ومسجدها المبارك، والوقوف إلى جانب أهلها المرابطين وتثبيت وجودهم فيها؛ منعاً من تهويد المدينة أو تدويلها، إذ كلاهما أمر مرفوض لا يقبل بأي حال من الأحوال.

ثانياً: الجمهورية العراقية:

إن مجمع الفقه الإسلامي الدولي يدعو أهل العراق جميعاً إلى المشاركة في العمل الجاد والمخلص للمحافظة على وحدة العراق واستقلاله وسيادته على أراضيه، وعلى تحقيق التوازن الحقيقي بين جميع مكونات الشعب العراقي وأطيافه، وتحقيق المصالحة الوطنية على أساس التسامح والحقوق العادلة للجميع، ولإنهاء وجود القوات الأجنبية، وعودة العراق بشكل فاعل ومؤثر إلى أداء دوره في صفّ أمته العربية والإسلامية.

ثالثاً: الصومال:

أما بخصوص ما يجري في الصومال فإن المجمع يوجه نداء إلى الأخوة في الصومال رئيساً وحكومة وشعباً، داعياً إياهم إلى المصالحة الصادقة وإلى التخلي عن الاقتتال والفرقة، وإلى تغليب المصلحة العليا للشعب الصومالي على المصالح الشخصية، ويناشدهم بأن لا يفوّتوا هذه الفرصة السانحة للمصالحة في ظل حكومة شرعية وعدم الاستجابة للنداءات التي تمزق الصف وتشتت الجهود المخلصة التي تحتاجها الصومال في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخه، ويدعو الصوماليين إلى الاجتماع على كلمة سواء تبني ولا تهدم تجمع ولا تفرق تنهض ولا تقعد وصولاً إلى استعادة الأمن والاستقرار في البلاد، ولإعادة إعمار ما دمّرته الحروب.

وفي هذا الصدد يستنكر المجمع بشدة ما يقوم به القراصنة أمام الشواطئ الصومالية وغيرها من عمليات القرصنة البحرية وتهديد لسلامة الملاحة البحرية، ويعرّض أمن البحر الأحمر للخطر، ويؤكد المجمع بأن أعمال القرصنة هذه تعتبر نوعاً من أنواع الحرابة المجرّمة في الفقه الإسلامي.

رابعاً: جمهورية السودان:

إن المجمع ليستنكر جملة الاتهامات التي وجّهت لرئيس جمهورية

السودان الفريق عمر البشير، من محكمة الجنايات الدولية في الوقت الذي يبذل جهده لاستتباب الأمن ونشر الاستقرار في ربوع السودان في حين أن العالم يغض الطرف عن الجرائم ضد الإنسانية التي تُرتكب في غزة والضفة وبقاع أخرى من العالم، مما يعكس ازدواجية المعايير وانتقائيتها في المجتمع الدولي، كما يطالب بوضع حد لهذه الازدواجية.

ويؤكد المجمع على ضرورة معالجة مشكلة دارفور على أساس من التمسك بوحدة السودان وسيادته الكاملة على أراضيه.

ويعلن المجمع تأييده الجهود المباركة التي تبذلها منظمة المؤتمر الإسلامي بدعم من معالي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي البروفيسور الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلى، في كل هذه القضايا، وفي غيرها من المجالات الاقتصادية والسياسية والأمنية، وكذلك يؤيد المجمع الجهود التي تبذلها الدول الإسلامية جميعها في هذه المجالات ويحدونا الأمل إلى مضاعفتها وتوسيعها.

نسأل الله أن يحفظ أمتنا من كل سوء وأن يهيئ لها من أمرها رشداً. إنه ولي التوفيق.

❋ ❋ ❋

كلمة سماحة رئيس مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي
رئيس المجلس الأعلى للقضاء بالمملكة العربية السعودية
في الجلسة الختامية للدورة التاسعة عشرة
الشارقة ــ الإمارات العربية المتحدة

الحمد لله، منَّ علينا بخير الشرائع وأوفاها، أحمده تعالى وأشكره عزَّ ربًّا وجلَّ إلهاً، سبحانه وتعالى وتقدّس، أن يماثل في أسمائه وصفاته أو يضاهى، وأشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة مَن طهّر نفسهُ وزكّاها، وأشهد أن نبينا محمداً عبدُ الله ورسولُه، قرّر قواعدَ الملّة وأشاد بناها، صلّى الله عليه، وعلى آله وأصحابه خير الأمة وأتقاها، وأعلمها وأهداها، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلّم تسليماً كثيراً مزيداً لا يتناهى.. أما بعد:

أصحاب السمو والفضيلة والمعالي والسعادة، أيها الإخوة الحضور الكرام.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد.

إنَّ أعظمَ نعمةٍ أنعمَ اللَّهُ بها على عباده، وأكبر منَّةٍ يَمُنُّ الله بها على خلقه، بِعْثَةُ رسوله محمدٍ ﷺ، وما جاء به من الشرع الحنيف، والعلم والحكم والعمل الصالح ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾، ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾. كما أن من أعظم منن الله تعالى على عبده أن يهيئ له أسبابَ خدمةِ هذا الدين، وبذلَ الغالي والنفيس من أجل تحكيم شرع الله، ولتكون كلمةُ الله هي العليا، ولا شك أن العلماء العاملين، الداعين إلى الله تبارك وتعالى

عن علم وبصيرةٍ، هم صفوةُ الله وخيرتُه من خلْقِه وهم ورثة الأنبياء ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ وأمة رسول الله ﷺ هي خاتمة الأمم، ووارثة نبينا ﷺ في الدعوة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وكان السلف ـ رضي الله عنهم ـ من هذه الأمة، دعاةً إلى الله على بصيرة، حتى ملؤوا الأرض علماً ونوراً، وهدًى ورحمةً، وصلاحاً وسِلماً، وحقاً وعلماً، وفضلاً وعدلاً، فكان لهم من الثواب ما يجري إلى يوم القيامة، كما قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجورِ مَن تبعه إلى يوم القيامة، من غير أن يَنقُص من أجورهم شيء، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثلُ وِزرِ مَن تَبِعه، من غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيء»، وها أنتم أيها العلماء الفضلاء قد عقدتم دورتَكم التاسعةَ عشرةَ طمعاً ورجاءَ في هذا الفضل العظيم، فأسأل الله أن لا يَحْرمَكم الأجرَ والمثوبةَ، وأن يجعلَ العملَ خالصاً لوجهه سبحانه، نافعاً لعباده، موصلاً لمرضاته، وإنّ مجمعَ الفقه الإسلامي الدولي إذ يختتم هذه الدورةَ المباركةَ بما شهدَتْه من حضور كبير، ليشكر الله ـ جلّ وعلا ـ على ما مَنَّ به من دراسة متخصصة، وبحث فقهي أصيل في هذه الدورة وعلى مدى ربع قرنٍ من عمرِه المباركِ، ليواكب قضايا الأمةِ الإسلاميةِ، ملتزماً بأصولَ الشريعةِ وثوابتِها، مع الأخذِ بتقنيات العلم المعاصرةِ وتقدير مستجدات النوازل، وإعمالِ الشورى والاجتهادِ الجماعي بين علمائه، ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ولقد قطع المجمع في ذلك شأواً وأشواطاً.

نسأل الله أن تُكتب له ولعلمائه، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وقد جاء هذا الجهدُ المباركُ منكم ـ أيها الإخوةُ ـ في جهاد علمي

لتقوم الأمةُ برسالتها ودورها العالمي ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

وإن ما أنجزَتْه أعمالُ هذه الدورة في قضاياها العشر الكبرى والتي تفرّعت موضوعاتُها وبحوثُها إلى نحو عشرين ومئة بحث، تحوي عدداً من الرؤى المتخصصة في كل منها، هو تَفَقُّه في الدين، وبلاغ به إلى العالمين، فالحمد لله كثيراً على ما منَّ ويسَّر.

وإن المجمعَ ليشكر مرة أخرى ـ بعد شكر الله تعالى ـ دولةَ الإماراتِ العربيةِ المتحدةِ الشقيقة قيادةً وحكومةً وشعباً، كما يخص المجمعُ بالشكر والتقدير صاحبَ السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي ـ حفظه الله ـ حاكمَ إمارةِ الشارقةِ على رعايته الكريمة ومتابعته المستمرة وما حظيت به هذه الدورة من حسن استقبال وكرم ضيافة وما لقيته الوفود المشاركة وأجهزة المجمع من حفاوة ورعاية. كما يشكر المجمعُ سمو أمين عام الأمانة العامة للأوقاف ورئيس دائرة الشؤون الإسلامية بالشارقة وكافة العاملين مع سموه في تنظيم المؤتمر على جهودهم المخلصة المباركة والشكر موصول لأمانة المجمع ممثلة في معالي الأمين العام الأستاذ الدكتور عبدالسلام بن داود العبادي وكافة العاملين في الأمانة العامة على جهودهم المخلصة على مدار العام للإعداد لهذه الدورة حتى أتمّت أعمالها وحققت أهدافها بتوفيق الله وإعانته.

وختاماً: أسأل المولى ـ تبارك وتعالى ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يجعل اجتماعَنا هذا اجتماعاً مرحوماً وتفرقنا بعده تفرقاً معصوماً، وأن يبارك في نتائجه وتوصياته وأن يعم بنفعها أرجاء المعمورة، وأن يجزيكم على ما قدّمتم من علم نافع وجهد مبارك خيرَ الجزاء وأحسنه، إنه سبحانه أكرمُ مسؤول، وأقربُ مأمول. والله يحفظُكم ويرعاكم في حِلّكم وترحالِكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

رئيس المجلس الأعلى للقضاء

د. صالح بن عبدالله بن حميد

كلمة

معالي الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة

الأمين العام السابق لمجمع الفقه الإسلامي الدولي

بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

الحمد لله الذي هيّأ لنا أسباب القيام بهذا الواجب مدّة ربع قرن، وجعلنا مُتحابين فيه، متآخين في تلقّي معاني الشريعة الإسلامية والاشتغال بالفقه الإسلامي. ونحن إذ هيَّأ الله لنا أسباب الحضور في هذه الدورة لدعوةٍ كريمة من المجمع فإني لا أستطيع أن أُعبّر عن سروري وعن ابتهاجي بلقائي المتجدّد بأهل ودِّي أعضاء هذا المجمع والمسؤولين عنه. وإني حين أتحدّث عن المجمع لا بد أن أشير إلى الدور الذي قام به رئيسه من قبل ذهابي وهو العلامة سماحة الشيخ صالح بن حميد، رئيس المجلس الأعلى للقضاء بالمملكة العربية السعودية، وتولّى الأمر بجدّ وحزم وكفاءة نادرة معالي الأستاذ الدكتور عبدالسلام العبادي الذي تولّى الأمانة العامة للمجمع، وهؤلاء الأعلام كان لهم فضلٌ كبير في تيسير الدراسات، وفي نشر العلم حول هذه البحوث، وكان الذي يقوم بدور كبير من أجل هذه البحوث والدراسات هو الأستاذ الدكتور عبدالستار أبو غدّة، فأنا لا أنسى جهوده الكبيرة في كل دورة من الدورات التي عقدناها من قبل.

وأريد بالإضافة إلى ذلك أن أشكر الأعضاء ـ أعضاء المجمع ـ الذين لم يتوانوا عن تقديم بحوثهم وحرصهم على إثراء المعارف العلمية الشرعية والفقهية، وتقديمها للناس بشكل جديد يفتح عليهم أسباب المعرفة ويمكّنهم من دينهم.

وأريد أن أقول بأن المادة ليست وحدها التي تدفع هؤلاء العلماء للجدّ في أعمالهم وإلى البذل في عطائهم، إن الذي يبعثهم على ذلك هو شعورهم الرّوحي الديني بمهمّة هذا المجمع وبوظيفته ودوره في الحياة. فأنا أذكر أولاً في هذه المناسبة الدين الإسلامي الذي هو دعمٌ

من جهة ودافعٌ من جهة أخرى للوصول إلى القيام بالواجب المنوط بأعناقنا، فهُم في الرعيل الأول من القائمين بهذا الواجب. ثم ـ بجانب الدين ـ الإيمان الثابت القوي الذي جعلهم يسخرون من كلّ الصعوبات ويُذللون جميع العوائق للوصول إلى أغراضهم وتحقيق الأهداف التي يريدها المجمع.

وأشير أيضاً على السادة الموظفين الذين يعملون في المجمع فهُم بجدّهم وتفانيهم في العمل، وقيامهم بدورهم يوماً بعد يوم يُمثّلون الطاقة الحقيقة العملية لتنفيذ كل المشروعات والقيام بكلّ الأدوار المطلوبة من العاملين في المجمع.

وأريد بعد هذا أن أشير إلى أن عدد البحوث والدراسات بالنسبة للسنين الماضية قد عرفتموه وعرضه الإخوان وذكروا أنواع هذه الدراسات، واليوم ما زال سماحة الشيخ ابن حميد يقول إن عدد هذه البحوث في هذه الدورة بلغ عشرين ومائة، وهي كما سمعنا من الأستاذ ومن الدكتور عبدالستار أبو غدّة متنوّعة، مُختلفة، فيها كثير من الموضوعات ذات الأهمية البالغة التي نحتاجها اليوم.

ولا بدّ أن أُذكّر هنا بأن قائمة الموضوعات المستقبلية ـ إن شاء الله ـ ينبغي ألاّ ننسى في إعدادها أو اقتراحات تتعلق بموضوعاتها هذه المعركة الموهومة بين الشريعة الإسلامية وبين القضايا التي تتعلّق بالقانون الوضعي وما جرّ ذلك من خلاف وعداء لا بدّ أن نمحوه وأن نُظهر ونتحدّث بغاية الجلاء وبغاية الوضوح عن الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي، والدور الذي قام به كتاب الله وسنّة رسوله وإجماع المسلمين. ثم هذا العمل الدؤوب للعلماء الذين تولوا النظر في الفقه الإسلامي وأسّسوا موضوع الفتوى وقاموا مُجمعين بكثير من الأعمال التي نحتاجها اليوم. ولعلّنا نواصل هذا كلّه مواصلةً نحن معتدُّون بآثارها فإن غيرنا في البلاد الغربية يقومون الآن بالمقارنة بين القانون الوضعي والفقه الإسلامي ولكنّهم لجهلهم بالفقه الإسلامي يتقدّمون بأفكار كثيرة نحتاج إلى إصلاحها وبيان الحقيقة فيها، كما نحتاج إلى أن نتناول

القضايا المعاصرة المستجدّة حتّى نجمع بين تراثنا الفقهي الجليل والواقع المعاصر.

السادة الأماجد، أريد أن أعبّر عن الراحة النفسية عند لقائكم، وما أجد دائماً من المتعة العلمية من قراءة بحوثكم والاطلاع على الجهود التي تتقدّمون بها يوماً بعد يوم.

والله يشكر سعيكم ويمدُّنا ويمدّكم بعونه، ويوفِّقنا إلى العمل الصالح وإلى تحقيق مرضاة الله التي نطمع فيها جميعاً، والله من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.

❋ ❋ ❋

كلمة معالي أمين مجمع الفقه الإسلامي الدولي في الجلسة الختامية للدورة التاسعة عشرة بالشارقة

صاحب المعالي الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد، رئيس مجلس المجمع، الموقّر.

أصحاب المعالي والسماحة والفضيلة أعضاء مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي الموقرين.

سمو الشيخ صقر القاسمي الأمين العام للأمانة العامة للأوقاف، رئيس دائرة الشؤون الإسلامية بالشارقة.

أصحاب الفضيلة والسعادة الضيوف الكرام.

الإخوة والأخوات.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

الحمد لله على عظيم فضله وجزيل عطائه، فيما منَّ به من نجاح دورتنا المجمعية، والصلاة والسلام على الرسول الكريم المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله الغر الميامين وصحبه أجمعين.

وبعد اختتام الدورة المجمعية التاسعة عشرة التي عقدت في ربوع الشارقة المشرقة بالعطاء والإنجازات، والتي حفلت بالنشاط والإنجازات العلمية المتميزة، وكل الشكر والتقدير والعرفان والإشادة لدولة الإمارات العربية المتحدة رئيساً وحكومةً وشعباً، وإني لأقدم فائق الشكر ووافر التقدير وبالغ الامتنان لحضرة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد بن القاسمي، عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة، حاكم الشارقة، ولصاحب السمو الشيخ سلطان بن محمد ابن سلطان القاسمي، ولي العهد، ونائب حاكم إمارة الشارقة، حفظه الله تعالى ورعاه، وكذلك لحكومة الإمارات وشعبها على استضافة هذه

الدورة المجمعية، وما لقيه المجمع من كرم الضيافة، وحسن الوفادة، مثمّناً الجهود الكبيرة التي بُذلت في سبيل إنجاحها.

ويذكر المجمع هنا بالتقدير والإجلال والاعتراف بالفضل سمو الشيخ صقر بن محمد بن خالد القاسمي، الأمين العام للأمانة العامة للأوقاف، رئيس دائرة الشؤون الإسلامية بالشارقة، وسعادة مدير الأمانة العامة للأوقاف بالشارقة الأستاذ جمال الطريفي، وسعادة الأستاذ حسن صعب، مدير عام العلاقات العامة والإعلام في الأمانة العامة للأوقاف بالشارقة، وكل مساعديه وفريق العمل من موظفي الأمانة العامة للأوقاف والمتطوعين المرافقين لهم، لما بذلوه من رعاية متواصلة فائقة مكّنتنا من القيام بعملنا على الوجه المطلوب. فلهم مني كل شكر وامتنان اعترافاً بفضلهم وتقديراً لعطائهم، سائلاً الله أن يتقبّل منهم وأن يجزيهم كل خير لما بذلوه لإنجاح هذه الدورة.

وهنا نحن نحتفل بمرور خمسة وعشرين عاماً على انطلاقة مجمعنا العريق نستذكر الجهود التي بذلها معالي رئيس المجمع السابق العلامة الدكتور المرحوم بكر بن عبدالله أبو زيد مشيدين بعطائه المتميز وعلمه الغزير وأدائه الرفيع، كما أننا نتوجه بالشكر والتقدير لمعالي الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة حفظه الله تعالى، أمين عام المجمع السابق على جهوده المباركة وأعماله الكبيرة خدمة للمجمع ورسالته.

كما أتقدم بجزيل الشكر ووافر التقدير لصاحب المعالي البروفيسور أكمل الدين إحسان أوغلو، الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، لرعايته الدائمة المستمرة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي في مرحلته الجديدة، وإنجازه لمشروع تطوير المجمع بالصورة المتميزة التي وصل إليها، وتشريفه هذه الدورة بحضوره، ولا ننسى في هذا الصدد ما يبذله من جهود متميزة وموفقة في متابعة تنفيذ برنامج العمل العشري لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

وأتقدم بجزيل الشكر والثناء لمعالي الشيخ الدكتور صالح ابن

عبدالله بن حميد، رئيس المجمع على دوره البارز في إنجاح هذه الدورة برئاسته الحكيمة وتدخلاته الناجعة.

وأشكر جزيل الشكر وأخلصه أصحاب الفضيلة أعضاء لجان الصياغة والمقررين كافة على ما أعدُّوه لنا من صياغة دقيقة للقرارات والتوصيات، أسأل الله أن يجزل لهم الأجر والمثوبة فهذا عمل مؤسسي فاعل نعمل فيه جميعاً بروح الفريق وبطريقة متكاملة فاعلة بتوفيق الله تعالى وعونه.

وأشكر أيضاً هذه الصفوة الكريمة من العلماء والباحثين والمفكرين على ما بذلوه من جهد وقدّموه من مناقشات ومداخلات نافعة طيلة هذا الأسبوع، أسبغ الله عليهم وافر نعمه.

وأتقدم باسم مجلسكم الموقر بخالص العزاء لعلماء الأمة في وفاة العلامة محمد سالم ولد عدود، عضو المجلس، ممثل جمهورية موريتانيا الإسلامية، الذي وافته المنية في بلاده ونحن مجتمعون في أعمال هذه الدورة التاسعة عشرة، ومواسياً أسرته الكريمة، وتلامذته، سائلاً المولى أن يجزيه خيراً عما قدّم للمجمع خلال الدورات التي شارك فيها من علم نافع ورأي سديد، وأن يتغمده بواسع رحمته وأن يحشره مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولا يفوتني أن أتقدّم بالشكر لكل مَن أسهم في إنجاح أعمال هذه الدورة من الطاقم العلمي والإداري في أمانة المجمع.

كما أنوِّه بجهود أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة المحلية والعالمية في تغطية ومواكبة فعاليات هذه الدورة.

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل في آخر هذا البيان إلى المنظِّمين كافة من إداريين ومساعدين ومرافقين وإدارة الفندق والقائمين على خدمات وأجهزة الاتصال بمختلف عناصرها وكل صورها.

وختاماً، أسأل الله أن تكون هذه الدورة المجمعية المباركة إضافة

مميزة في إثراء مسيرة مجمعكم الرائد، قياماً بالواجب المنوط به من مؤتمرات القمة العتيدة باعتباره المرجعية الفقهية للأمة الإسلامية، وأن يحقق لأمتنا ما تصبو إليه من تضامن ووحدة في الصف والكلمة والموقف وأن يلهمها حسن التبصُّر بحاضرها ومستقبلها وأن يمن عليها بالالتزام الصادق بشرعه في كل مجالات الحياة، وأن يدرأ عنها ما يسوؤها من الفتن والمصائب والأخطار.

وإلى لقاء مبارك قريب حافل بالجهود والدراسات الشرعية الفقهية الأصيلة والقرارات والتوصيات المجمعية العلمية في الدورة المجمعية القادمة.

ربّنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

البيان الختامي
للدورة التاسعة عشرة
المنعقدة
بالشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة)
في الفترة
١ ــ ٥ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ
٢٦ ــ ٣٠ إبريل (نيسان) ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومَن اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وبعد:

ففي دولة الإمارات العربية المتحدة الشقيقة التي ما فتئت تحتضن المناشط الثقافية والفكرية للأمة العربية والإسلامية وبتوجيه كريم ورعاية سامية من لدن صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد بن القاسمي، عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة، حاكم الشارقة، حفظه الله تعالى ورعاه، قامت إمارة الشارقة ممثلة في الأمانة العامة للأوقاف فيها باستضافة الدورة التاسعة عشرة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي في الفترة (١ ـ ٥) جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٦ ـ ٣٠ أبريل ٢٠٠٩م، بمدينة الشارقة. وقد أولاها سموه اهتماماً كبيراً وعناية فائقة، وسخّر لها كل الإمكانات المادية والمعنوية والإعلامية لإنجاحها، ولتظهر بالمستوى الذي يليق بحملة الشريعة ورجالها.

وبحضور سمو الشيخ سلطان بن محمد بن سلطان القاسمي، ولي العهد، ونائب حاكم إمارة الشارقة، حفظه الله تعالى ورعاه، بدأت الجلسة الافتتاحية في الساعة الحادية عشرة صباحاً من يوم الأحد غرة جمادى الأولى، ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٦ أبريل ٢٠٠٩م، في قاعة الزهري بجامعة الشارقة، بقراءة آيات بيّنات من القرآن الكريم، ثم توالت كلمات حفل الافتتاح من كل من:

سمو الشيخ صقر بن محمد بن خالد القاسمي، الأمين العام للأمانة العامة للأوقاف، رئيس دائرة الشؤون الإسلامية بالشارقة.

معالي البروفيسور الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلى، أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي.

معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد، رئيس مجمع الفقه الإسلامي الدولي.

معالي الأستاذ الدكتور عبدالسلام داود العبادي، أمين مجمع الفقه الإسلامي الدولي.

وقد أشاد سمو الشيخ صقر القاسمي حفظه الله بالسادة علماء المجمع وفقهائه لما يبذلونه من جهود مخلصة في معالجة القضايا الفقهية المعاصرة واضطلاعهم بأمانة تواصل الفقه الإسلامي وتجدده في الحياة والمعاملات، كما أكد على أن استضافة الشارقة للمؤتمر في دورته التاسعة عشرة دليل على اهتمام القيادة الرشيدة في الدولة في إبراز الوجه الريادي والحضاري للإسلام، ومساندة المجمع الذي ساهم في وضع الأنظمة والقواعد التشريعية المناسبة للمؤسسات والمجتمعات الإسلامية.

كما أكد معالي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي أن رسالة مجمع الفقه الإسلامي الدولي الجديدة كما سطّرها قادة الأمة في القمة الاستثنائية الثالثة تتبلور في إثراء مسيرة الاجتهاد الجماعي في الفقه الإسلامي باعتبار أن هذا المجمع هو المرجعية الفقهية الرائدة للأمة، وركّز على أن هذه الدورة تعقد تحت مظلة النظام الأساسي الجديد للمجمع والذي اعتمد في المؤتمر الإسلامي الثالث والثلاثين لوزراء الخارجية، عام ٢٠٠٦، وأعرب عن تطلعه إلى أن يشكل الإطار القانوني الجديد الأساس المكين لإعطاء الأولوية المتواصلة في عمل المجمع لتصحيح الخلل الذي أحدثه الانحراف عن الدين ومقاصده، آملاً أن يعمل المجمع على تحقيق التلاقي الفكري بين المسلمين وعلمائهم. وأعرب عن سعادته بالمواضيع الهامة والحيوية والمدرجة على جدول أعمال هذه الدورة مستذكراً أن المجمع قد عوّد الأمة على إصدار فتاوى ونشر بحوث ودراسات تنسجم مع تطور الحياة دون المساس بأصول الدين.

وأكد معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد، رئيس المجلس أن لمجمع الفقه الإسلامي الدولي منذ إنشائه وعلى مدى ربع

قرن قصب السبق ببحوثه المتخصصة وقراراته المحكمة، وتوصياتها الوافية لتبين للناس كمال هذه الشريعة بما يدفع الحياة نحو المستقبل الأفضل.

وعبّر عن عظيم الشكر ووافر الامتنان لمعالي الأمين العام السابق الأستاذ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، على الأعمال العظيمة التي أنجزها خلال تولّيه أمانة المجمع، ووصفه بأنه تمتع بالحرص والتفاني والدقة البالغة طوال فترة عمله لمدة ربع قرن من الزمان.

كما رحّب بمعالي الأستاذ الدكتور عبدالسلام داود العبادي، لتسلمه مهام أمانة المجمع، مذكّراً بأن معاليه من أعضائه الفاعلين المتميزين منذ إنشائه، وتمنى معاليه لهذه الدورة المجمعية النجاح والتوفيق.

وقد اتفق الجميع في كلماتهم الضافية على أهمية الموضوعات المطروحة للبحث والنقاش في هذه الدورة، كما أزجي الشكر لحضرة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد بن القاسمي، عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة، حاكم الشارقة، على رعايته الكريمة واستضافته لهذه الدورة المجمعية، ودعم دولة الإمارات العربية المتحدة المتواصل للعديد من أنشطة المجمع ومؤتمراته.

كما عبّر المتحدثون في كلماتهم عن تهنئتهم الخالصة لمنظمة المؤتمر الإسلامي في احتفالها بمناسبة مرور أربعين سنة على انطلاقها وهي تقود التضامن الإسلامي بين الدول والشعوب الإسلامية، كما أزجى في الوقت عينه أبرك التهاني لمجمع الفقه الإسلامي الدولي بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على تولّيه لقضايا الفقه الإسلامي المعاصر.

ثم قام كل من معالي أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي، ومعالي رئيس المجمع، ومعالي أمين المجمع، بتقديم الدرع الذهبي المميز لصاحب السمو حاكم الشارقة، تسلمه نيابة عنه سمو ولي عهد الشارقة. ثم قدمت الدروع التكريمية الذهبية لكل من معالي أمين عام المنظمة، ومعالي رئيس المجمع، ومعالي الأمين العام السابق للمجمع الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، مقدّرين الجهود الكبيرة التي بذلها

طوال ربع قرن في المجمع وما يتمتع به حفظه الله من علم جم وإدارة متميزة وما قدّم من أعمال جليلة يذكرها الفقهاء له بالتجلّة والاحترام. كما رحّبوا بمعالي الأستاذ الدكتور عبدالسلام داود العبادي، أمين مجمع الفقه الإسلامي الدولي الحالي، وعبّروا عن امتنانهم لتولّيه هذه المهام الجديدة وهو الذي عرف بمكانته العلمية والفقهية وخبراته المجمعية والأكاديمية والإدارية.

وبإثر الكلمات الضافية والتمنيات الصادقة، عقدت الجلسة التنظيمية لمجلس المجمع، اتخذت فيها عدد من القرارات، واستقبل فيها أعضاء جدد من كل من الإمارات العربية المتحدة، والجمهورية التونسية والجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، ومجمع البحوث الإسلامية بجمهورية مصر العربية.

كما تمّ تقديم تقارير ضافية عن نشاطات المجمع وفعالياته منذ انعقاد دورة مجلسه الثامنة عشرة كما تمّ عرض خطة تطوير المجمع، وأوصى الأعضاء بدعمها لدى الجهات المعنية في دول منظمة المؤتمر الإسلامي، وأقرّت اللائحة الداخلية لعمل المجمع، كما تم اعتماد الأعضاء المرشحين من قبل هيئة المكتب وبعض الدول والهيئات.

ثم عقدت الجلسات العملية لمجلس المجمع على التوالي بدءاً من مساء الأحد، وتناول المجلس فيها الموضوعات المدرجة على جدول أعماله، برئاسة معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله حميد. وتمّ في بداية الجلسة العلمية الأولى اختيار الأستاذ الدكتور عبدالستار أبو غدة مقرراً عاماً للدورة التاسعة عشرة.

واستمرت الجلسات العلمية والتي بلغت إحدى عشرة جلسة، بين صباحية ومسائية، على مدار خمسة أيام، تناول فيها المجمع بالدراسة والبحث والمناقشة الجادة الموضوعات التالية:

١ ـ الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية. أبعادها، وضوابطها.

٢ ـ حرية التعبير عن الرأي. ضوابطها وأحكامها.

٣ ـ العنف في نطاق الأسرة.

٤ ـ البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي.

٥ ـ دور الرقابة الشرعية في ضبط أعمال البنوك الإسلامية. أهميتها، شروطها، طريقة عملها.

٦ ـ في مجال الأوقاف:

أ ـ وقف الأسهم، والصكوك، والحقوق المعنوية، والمنافع.

ب ـ تطبيق نظام البناء والتمليك (B.O.T) في تعمير الأوقاف، والمرافق العامة.

٧ ـ التورق. حقيقته، أنواعه (الفقهي المعروف والمصرفي المنظم).

٨ ـ الصكوك الإسلامية (التوريق)، وتطبيقاتها المعاصرة وتداولها.

٩ ـ مرض السكري والصوم. (استكمال لما تمّ بحثه).

١٠ ـ الإذن في العمليات الجراحية المستعجلة. (من الموضوعات المؤجلة) في كل من:

أ ـ الزائدة الملتهبة إذا رفض المريض إعطاء الإذن.

ب ـ الجنين الذي التفّ الحبل حول رقبته، ولم تتم موافقة ولي أمره على إجراء العملية القيصرية لإنقاذه.

ج ـ إذا احتاج الطفل المريض إلى إجراء طبي تدخلي قبل عمليات الزائدة أو غسيل الكلى ونقل الدم، ورفض الولي اتخاذ ذلك الإجراء.

وقد بلغ عدد البحوث المقدَّمة من أصحاب الفضيلة والسعادة الباحثين مائة وعشرين (١٢٠) بحثاً، تناولت بمجموعها كل الجوانب الأساسية في المواضيع المطروحة للبحث والمناقشة، وشارك في تقديمها والتعقيب عليها ومناقشتها أصحاب الفضيلة العلماء والباحثون والمفكرون من أعضاء المجمع وأهل الاختصاص فيها، وكونت لجان علمية متخصصة لكل موضوع لصياغة القرارات العلمية والتوصيات فيه.

وعقدت جلستان مغلقتان لمجلس المجمع، إحداهما تنظيمية تمّ فيها اتخاذ عدد من القرارات ومن أهمها ما يلي:

اختيار فضيلة الدكتور عبدالستار أبو غدة مقرراً عاماً للدورة، كما اتخذ المجلس قرارات عدة بقبول عدد من الأعضاء المعينين من قبل الدول الإسلامية، وهم كل من:

١ ـ الدكتور سيف بن راشد الجابري، ممثلاً عن دولة الإمارات العربية المتحدة.

٢ ـ الدكتور عثمان بطيخ، ممثلاً عن الجمهورية التونسية.

٣ ـ البروفيسور إبراهيم كافي دونماز، ممثلاً للجمهورية التركية.

٤ ـ الدكتور كمال البوزيدي ممثلاً عن الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

٥ ـ الدكتور عبدالله مبروك النجار، ممثلاً عن مجمع البحوث الإسلامية، جمهورية مصر العربية.

كما انتخب المجلس فضيلة الشيخ الدكتور عجيل جاسم النشمي، عضو المجمع، ممثل دولة الكويت، ممثلاً عن الدول العربية بهيئة مكتب المجمع.

كما استعرض المجلس مشروع تطوير مجمع الفقه الإسلامي الدولي مع مشروع الموازنة المقترحة لعام ٢٠١٠م المقدَّم إلى مجلس وزراء خارجية الدول الإسلامية ـ الموقر ـ في دورته السادسة والثلاثين، المزمع عقدها في دمشق ـ الفيحاء، في الفترة (٢٣ ـ ٢٥) مايو ٢٠٠٩م، من معالي أمين المجمع، واستمع المجلس إلى عرض موجز عن التقرير قدّمه معالي أمين المجمع، إضافة إلى عرض موجز عن ميزانية المجمع لعام ٢٠٠٨. واعتمد المجلس بعد ذلك عدداً من مذكرات التعاون التي وقّعتها أمانة المجمع مع عدد من المنظمات منها: الإيسسكو (المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم) والمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت، وغيرها من بعض جهات الإفتاء.

كما تمّ الترشيح لاختيار الأعضاء لشعبة الفتوى وغيرها من شعب المجمع.

واطلع المجتمعون على مشروع تطوير مجمع الفقه الإسلامي الدولي مع مشروع الموازنة المقترحة لعام ٢٠١٠م المقدّم إلى مجلس وزراء خارجية الدول الإسلامية ـ الموقر ـ في دورته السادسة والثلاثين، المزمع عقدها في دمشق ـ الفيحاء، في الفترة (٢٣ ـ ٢٥) مايو ٢٠٠٩م، من معالي أمين المجمع، كما استمعوا إلى عرض موجز عن التقرير قدّمه معالي أمين المجمع.

وقد تضمّن التقرير في محاوره نبذة تعريفية عن المجمع وعن مسيرته، والنظام الأساسي الجديد له وبرامجه وخططه المستقبلية، والمشروعات المقترحة والإجراءات اللازمة لتطويره وتفعيل العمل فيه، والهيكل التنظيمي الجديد له، بالإضافة إلى عدد من المشروعات الهامة التي سيعمل على تنفيذها، وانعكاس كل ذلك على مشروع موازنة المجمع للسنة المالية ٢٠١٠م.

كما أحيط المجتمعون علماً بموافقة اللجنة الإسلامية للشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في منظمة المؤتمر الإسلامي على عرض المشروع على مجلس وزراء خارجية الدول الإسلامية الموقر، المشار إليه أعلاه.

أما الجلسة الأخرى فقد خصصت لمناقشة القرارات والتوصيات، وقد اقتصر الحضور فيهما على أعضاء المجمع دون غيرهم.

وانتهت بحمد الله وفضله فعاليات الدورة التاسعة عشرة للمجمع بجلسة ختامية عقدت في الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم الخميس ١٤٣٠/٥/٦هـ، ٢٠٠٩/٤/٣٠م، والتي تلا فيها فضيلة المقرر العام الدكتور عبدالستار أبو غدة قرارات المجلس وتوصياته في هذه الدورة.

وبعد ذلك قرأ أمين المجمع بيان مجمع الفقه الإسلامي الدولي حول الأوضاع في فلسطين وبخاصة الاعتداءات على المسجد الأقصى المبارك، والأوضاع في العراق، والصومال، والسودان، الصادر بمناسبة

انعقاد الدورة التاسعة عشرة لمؤتمر مجلسه في الشارقة في الفترة من ٢٦ - ٣٠ أبريل ٢٠٠٩م.

ثم تفضّل معالي رئيس المجمع بتلاوة البرقيات التي رفعها مجلس المجمع إلى كل من:

١ - صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد بن سلطان آل نهيان، حفظه الله، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.

٢ - صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم إمارة دبي.

٣ - صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة، حاكم إمارة الشارقة.

٤ - صاحب السمو الشيخ سلطان بن محمد بن سلطان القاسمي، ولي العهد ونائب حاكم إمارة الشارقة.

٥ - سمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي، أمين عام الأمانة العامة للأوقاف، رئيس دائرة الشؤون الإسلامية بالشارقة.

ثم قام معالي أمين المجمع بتلاوة البيان الختامي للدورة التاسعة عشرة المنعقدة بالشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) في الفترة (١ - ٥) جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٦ - ٣٠ أبريل ٢٠٠٩م.

عقب ذلك ألقى معالي رئيس المجلس كلمته في الجلسة الختامية،

بعد ذلك أعطيت الكلمة لمعالي الأمين العام السابق الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، شكر فيها المجمع على ما قدّمه له من تكريم إضافة إلى شكر دولة الإمارات.

ثم ألقى أمين المجمع كلمته في ختام الجلسة، والتي تضمنت الشكر ووافر التقدير لحضرة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان ابن محمد بن القاسمي، عضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة، حاكم الشارقة، ولصاحب السمو الشيخ سلطان بن محمد ابن

سلطان القاسمي، ولي العهد، ونائب حاكم إمارة الشارقة، حفظه الله تعالى ورعاه، وكذلك لحكومة الإمارات وشعبها على استضافة هذه الدورة المجمعية، وما لقيه المجمع من كرم الضيافة، وحسن الوفادة، مثمِّناً الجهود الكبيرة التي بُذلت في سبيل إنجاحها من قِبَل الأمانة العامة للأوقاف بالشارقة وموظفيها، وأشاد فيها أيضاً بجهود الأمين العام ورئيس المجمع السابقين، كما أشاد بجهود معالي الدكتور إحسان أوغلو، ودور المنظمة في إثراء مسيرة مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ومتابعة تنفيذ البرنامج العشري. كما تقدم بالشكر الجزيل لرئيس المجمع، ولجميع أعضائه وخبرائه وجميع أعضاء لجان الصياغة وغيرهم من الباحثين والموظفين.

ثم قام كل من معالي رئيس المجمع وأمينه بتوزيع الهدايا التقديرية على عدد من كبار المسؤولين في الأمانة العامة للأوقاف بالشارقة. اهـ.

❋ ❋ ❋

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع العاشر
الإذن في العمليات الطبية المستعجلة

العمليات الجراحية المستعجلة بين إذن المريض وضرورة العلاج الطبي: الدكتور أبو الوفا محمد أبو الوفا الأستاذ بكلية الشريعة والقانون بطنطا جامعة الأزهر والمعار إلى كلية القانون بجامعة الإمارات العربية المتحدة ١٣

الإذن في العمليات الجراحية المستعجلة: إعداد الدكتور حسان شمسي باشا استشاري أمراض القلب في مستشفى الملك فهد للقوات المسلحة بجدة زميل الكليات الملكية للأطباء في لندن زميل الكليات الملكية للأطباء في غلاسجو زميل الكليات الملكية للأطباء في أيرلندا زميل الكلية الأمريكية لأطباء القلب ٨٧

الإذن في العمليات الجراحية المستعجلة: إعداد الدكتور/عصام محمد سليمان موسى أستاذ مساعد أمراض الباطنة العامة والسكري بكلية الطب ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية، استشاري الغدد الصماء بمستشفى جدة الوطني الجديد مدينة جدة ـ المملكة العربية السعودية ١٥٥

الإذن في العمليات الجراحية المستعجلة: الأستاذ الدكتور عبد الفتاح محمود إدريس أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن كلية الشريعة والقانون بالقاهرة والأستاذة الدكتورة ماجدة محمود أحمد هزاع أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن كلية الدراسات الإسلامية بنات بالقاهرة ١٨٧

الإذن في العمليات الطبية والجراحية المستعجلة: إعداد الأستاذ الدكتور/هاني سليمان الطعيمات عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات العربية المتحدة ٢٦٣

الموضوع الحادي عشر
البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي

البيئة والمحافظة عليها من منظور إسلامي: بحث الشيخ أحمد المبلغي، الجمهورية الإسلامية الإيرانية ٣٦٣
حق الإنسان في بيئة صحية مناسبة: بحث أ. د جعفر عبد السلام الأمين، العام لرابطة الجامعات الإسلامية ٤٠٥
البيئة في الفقه الإسلامي وقاية وتنمية: بحث الشيخ خليل الميس، مفتي زحلة والبقاع لبنان ٤٣٥
الإسلام وحماية البيئة: بحث الدكتور شوقي أحمد دنيا، أستاذ الاقتصاد الإسلامي جامعة الأزهر ٥٠٧
البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي: بحث د. عبد الستار أبو غدة، عضو المجمع رئيس الهيئة الشرعية الموحدة لمجموعة البركة المصرفية ٥٦٥
البيئة من منظور إسلامي: بحث الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي، الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي الدولي ٥٩٧
البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي: بحث الأستاذ الدكتور عبد العزيز عزت الخياط، وزير الأوقاف بالمملكة الأردنية الهاشمية سابقاً. بحث مقدّم إلى مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورته التاسعة عشرة المنعقدة في إمارة الشارقة ٦٦٥
البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي: بحث الأستاذ الدكتور عبد القادر محمد أبو العلا، أستاذ أصول الفقه وعميد كلية الشريعة والقانون بأسيوط جمهورية مصر العربية ٦٩١
البيئة والمحافظة عليها من منظور إسلامي: بحث د. عبد اللطيف محمود آل محمود، عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مملكة البحرين ٧٩٩
البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي: بحث الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد، مفتي جمهورية مصر العربية، وعضو المجمع ٨٤٥
البيئة والمحافظة عليها من منظور إسلامي: بحث د. فريد بن يعقوب المفتاح، وكيل وزارة العدل والشؤون الإسلامية عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مملكة البحرين ٩١٩

البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي: بحث الشيخ محمد أحمد حسين، المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية خطيب المسجد الأقصى المبارك ٩٦٥
البيئة والمحافظة عليها من منظور إسلامي: بحث الأستاذ الدكتور محمد جبر الألفي، المعهد العالي للقضاء ـ الرياض ٩٩٧
التدابير الشرعية في المحافظة على البيئة بين النظرية والتطبيق: بحث الأستاذ الدكتور محمد علي الزغول، عميد كلية الدراسات الفقهية والقانونية الجامعة الأردنية ١٠٢٩
الإسلام والبيئة: بحث أ. د/محمد فتح الله الزيادي، عميد كلية الدعوة الإسلامية طرابلس/ليبيا ١٠٦١
البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي: بحث أ. د/محمد بن يحيى بن حسن النجيمي، الأستاذ بكلية الملك فهد الأمنية والمعهد العالي للقضاء وعضو مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا والخبير بمجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة ١١٠٥
بيان المجمع حول الأوضاع في فلسطين، والعراق، والصومال، والسودان ١٢١٩
البيان الختامي للدورة التاسعة عشرة المنعقدة بالشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) في الفترة ١ ـ ٥ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ ٢٦ ـ ٣٠ إبريل (نيسان) ٢٠٠٩م ١٢٣٩